فيودور دوستويفسكي

قصص مختارة

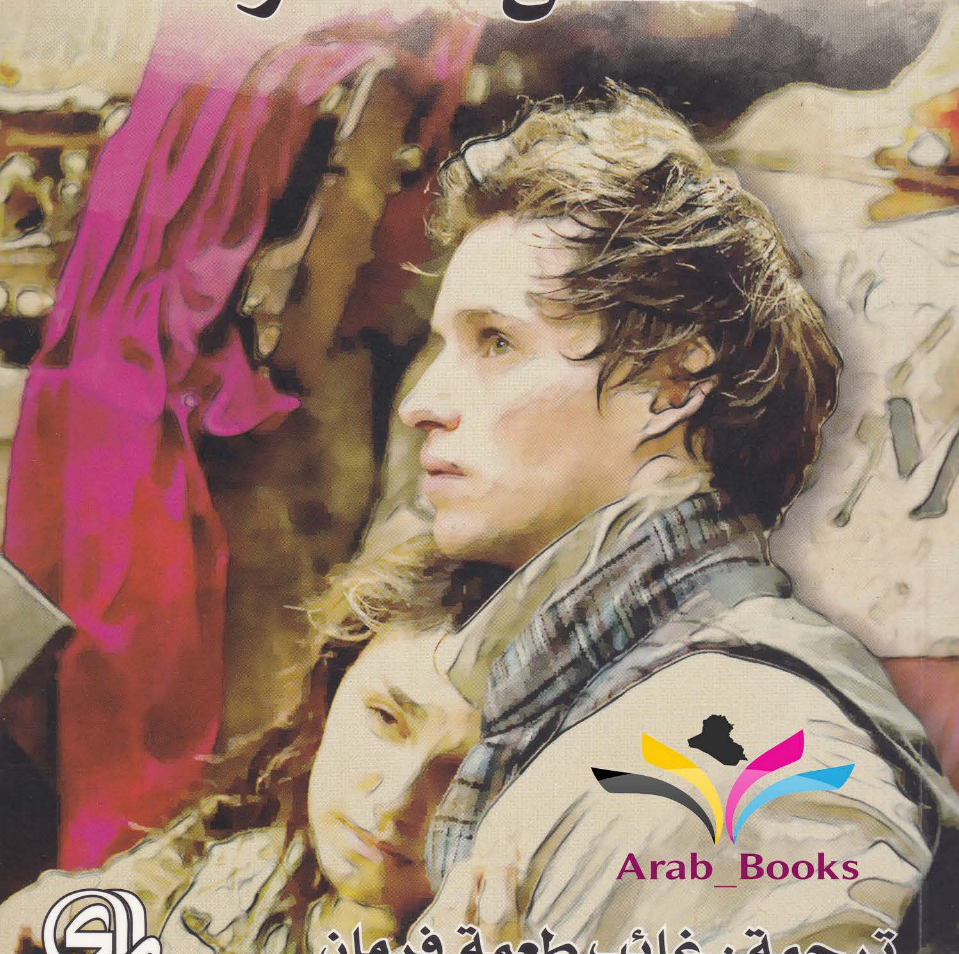

Arab_Books

ترجمة: غائب طعمة فرمان

دوستويفسكي

قصص مختارة

قصص

المؤلف: فيودور ميخايلوفيتش دوستويفسكي
عنوان الكتاب: دوستويفسكي– قصص مختارة
ترجمة: غائب طعمة فرمان
تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: 1982 دار التقدم موسكو
الطبعة الثانية: 2016
جميع الحقوق محفوظة

Author: **Фёдор Михáйлович Достоéвский**
Title: **Достоевский- ловести и рассказы**
Translator: **Gaeb Tohme Faraman**
cover designed by: **Majed Al Majedy**
P.C.: **Al-Mada**
First Edition: 1982
Second Edition: 2016

Copyright © Al-Mada

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 -بناية 141
Iraql Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 *Street* - *Building* 141
www.almada-group.com email: *info@almada-group.com*
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول
info@daralmada.com
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system. or transmitted in any form or by any means: electronic. mechanical. photocopying. recoding or otherwise. without the prior permission in writing of the publisher.

دوستويفسكي

قصص مختارة

ترجمة : غائب طعمة فرمان

Telegram: @Arab_Books

مقدمة

معاصر المستقبل

الكاتــب الروســي ... حين ننطــق بهاتين الكلمتــين ناعتين بهما بوشــكين وغوغول، دوستويفسكي وتولســتوي، نشعر بمعنى خاص يتعدى الإشــارة إلى مهنة الإبداع، والانتساب إلى أدب البلاد. فنشعر أن الكاتب الروســي يعني شــيئاً أكبر من مجرد كاتــب، وأكبر من مجرد روسي.

في القرن الماضي ظهرت ثقافتنا الوطنية إلى الساحة العالمية، تألقت بكلمتها، بــروح المسؤولية العميقة أمام الإنســان والإنسانية، ببحثها المقدام عن حلول للمشاكل الاجتماعية والاخلاقية.

ولهذا صار الكاتب الروسي شخصيــة اجتماعية، وفيلسوفاً،لهذا ولأنــه من صلب شعبه، صار جزءاً لا يتجــزأ من الثقافة العالمية، ولهذا وهو ابن عصره، صار معاصر المستقبل.

إن هــذه الرسالــة النبيلة الشريفــة تنطبق تمام الانطبــاق على فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكــي أيضاً الذي استجاب بكل قوى روحه ونبوغــه، وبكل جهد عقله وألم ضميره علــى القضايا المعقدة الموجعة لزمنه التراجيدي، حين حوّل المال والعنف والوقاحة الناس إلى أدوات هدف عديم الروح وعديم المعنى، وهو :

Telegram: @Arab_Books

الأرباح من أجل السلطة والسلطة من أجل الأرباح.

كان إنتـاج دوستويفسكـي الإبداعـي يقول آنـذاك، ويقول الآن أيضـاً: إن روح الإنسان تتمرد، إن روح الانسان تحلم في البحث عن مخرج، وإنها بالأحرى تختار الموت عن أن توافق على أن تكون سلعة.

إن إنتاج دوستويفسكي الإبداعي لا يتحدث فقط عن القلق المستديم لفنان مشبـوب العاطفة، ولا يتحدث فقط عن الاحتجاج، وتحدِ عالم غير مقبول، بل يتحدث أيضاً عن بلبلته، وعن شكوك الباحث المعذبة، عن التناقضات التي لا يقوى أحد على حلها على انفراد.

لقد حدس نيكراسوف، معاصر دوستويفسكي، في الثورة المقتربة القوة المحركة الوحيدة لروح العصر.

وحـاول دوستويفسكـي أن ينظـر مـن وراء روح العصـر، باحثاً عـن مثل خلفية نهائيـة خارج حـدود الزمان. وإن مثـل هذا الطرح الفضفاضـ الشامل للمسألة ما كان من الممكن، بالطبع، أن يقدم حله الفعلـي العملي. ولكـن العاطفة المشبوبة المعذبة التـي طرح بها فناننا العبقري هـذه المسألة تظل حيّة نابضة حتى اليوم، حيث ما يزال قائماً عالم العنف والمال الذي دنست فيه روح الإنسان، فهي تنزف.

كلا، لم يدعُ دوستويفسكي إلى الرضوخ، فقد قال بكل إبداعه: لا يجوز الاستمـرار في العيش بهذا الشكل! وقد وعت أجيال الثوريين الروس هـذا الشيء في ذاكرتهـا، وهذا ما يسمعـه الآن أيضاً تقدميو العالم، الذين لا يحنون رؤوسهم أمام تناقضات القرن العشرين الحادة.

Telegram: @Arab_Books

إن المأثرة الانسانية، مأثرة الكاتب التي قام بها فيدور ميخائيلوفيتش دوستويفسكي عزيزة علينا إلى الأبد. فهو سلفنا، وذاكرة ضميرنا.

كونستانتين فيدين

ملاحظة: من كلمة أُلقيت في الاجتماع الاحتفالي بالذكرى المائة والخمسين على مولد ف. م. دوستويفسكي ١١ تشرين الثاني ١٩٧١.

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

المساكين

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

أف مـن هؤلاء القصاصين ! [1] ليتهـم يكتبون شيئاً نافعـاً، مريحاً، ممتعاً، ولكنهم ينبشون كل ما في الأرض من أوضار ! بودي لو أمنعهم من الكتابة ! فأي شيء هذا : تقـرأ ... وتجد نفسك تفكـر دون أن تدري. ويتوارد على ذهنك كل ضروب التفاهات. حقاً، لو أمنعهم من الكتابة. أمنعهم قطعاً، وعلى الإطلاق.

الأمير ف . ف. أودويفسكي

٨ نيسان.

عزيزتي الغالية فارفارا الكسييفنا !

يوم أمس كنت سعيـداً، سعيداً سعادة مفرطة، سعادة تجاوزت كل حـد ! فأنت، على الأقل، أطعتني، لأوّل مرة في حياتك، أيتها العنود. استيقظت في نحـو الساعة الثامنة مساء (فأنت تعرفين، يا أُميمة، أنني أحـب القيلولة ساعـة وأخرى بعد انقضاء الـدوام)، وأخذت شمعة، وهيـأت الورق، وبريـت الريشة، وفجـأة، وعلى بغتة، أرفـع عَيْنَيَّ،

---

١ .هذا الاستشهاد مأخوذ من قصة . ف. اودويسفكي (١٨٠٤-١٨٦٩) «الميت الحي» (١٨٣٩) . الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وأقـول لك الحق أن قلبي قفز في مكانـه ! لقد أدركت، إذن، ما كنت أشتـاق إليه، ما كان قلبي يشتاق إليـه ! رأيت زاوية من ستارة نافذتك قـد انعكفت، وتعلقّت بمزهريـة البلسمية، تماماً كمـا كنت قد أشرت إليـك به من طرف خفي ذات مرة. حتى خيل إليّ أنني لمحت وجهك وأنـك قد نظرت إليّ من حجرتك، وكنـت تفكرين فيّ. وكم تألمت، يـا حبيبتي، لأننـي لم أستطع أن أتبين وجهك الجميـل جيداً ! وقد مرّ زمان كنا نرى فيـه الأشياء بوضوح، يا أُميمـة. إن الشيخوخة ليست هيّنة، يا شقيقة روحي ! كل شيء يترجرج أمام عيني الآن. ما أنْ اعمل قليلاً في المساء، أكتـب شيئاً ما، حتى أجد عيني محمرتين في الصباح، والدمـوع تنهمر منهما، حتى لأخجل من أن أظهر للغرباء من الناس. ومع ذلك فإن ابتسامتك يا ملاكي، ابتسامتك الدمثة المرحة قد تألقت في مخيلتي، وانختـم على قلبي نفس الإحساس الذي استشعرته، حين قبلتك ذات مرة. هل تذكرين ذلك، يافارنكا، يا ملاك ؟ بل وخيل إليّ أيضـاً أنك لوحت لي بأصبع الوعيد، أليس كذلك يا مشاكسة ؟ اكتبي لي عن كل ذلك في رسالتك بالتفصيل من كل بد.

مـا رأيك، يـا فارنكا، في فكرتي عـن الستـارة ؟ أليست روعة ؟ الآن، سـواء أكنت منكباً على عمـل، أو مستلقياً لأنـام، أو مستيقظاً مـن نوم، أعرف أنك أيضاً تفكريـن فيّ هناك، وتتذكرينني، وأنك في عافيـة وسرور. إذا ما أُنزلت الستارة، فمعنى ذلك : طاب مساؤك، يا مـاكار الكسييفتش، حـان وقت النـوم ! وإذا رفعتها، فمعنى ذلك : صباح الخـير، يا ماكار الكسييفتش، كيف نمت؟ أو كيف صحتك، يا مـاكار الكسييفتش؟ أما بخصوصي، فأنا، والحمدلله، في صحة جيدة وبخير! فانظري، يا روحي، كيف سوينا الأمر بطريقة حاذقة، حتى لا

Telegram: @Arab_Books

حاجـة بنا إلى الرسائل! أليس ذلك دهاء، حقاً؟ والفكرة فكرتي، أها! فكيف أنا في هذه الأمور، يا فرفارا الكسييفنا؟

أخـبرك، يا أُميمتـي، يا فرفـارا الكسيفنا، أنني نمـت ليلة البارحة بطولهـا نوماً هانئاً، بعكس توقعاتي، وأنا مرتاح لذلك كثيراً، رغم أن الناس حـين ينتقلون إلى البيوت الجديدة، يصعـب عليهم النوم هادة، دائمـاً هذا أو ذاك مـن الأشياء ليس كما يحلو لهـم ! استيقظت اليوم جـمَّ النشاط، مرح النفس ! فما أروع صبـاح اليوم، يا أُميمة ! فتحوا النافذة في منزلنا، وإذا بالشمس في ألق، والطيور تزغرد، والهواء عابق بروائح الربيـع، والطبيعة كلها منتعشة، وسائـر الأشياء الأخرى على هذا النسق، كلها تنعم بخير، وفيها روح الربيع. بل إنني حلمت اليوم أحلامـاً لطيفـة، وكل أحلامي كانت عنك، يا فارنـكا. شبهتك بطير سماوي خُلق سلوى للناس، وزينة للطبيعة.

كمـا فكرت، يـا فارنكا،في أننـا أيضاً، نحن الذيـن نحيا في الهمّ والقلـق، يجب أن نغبـط سعادة طيـور السماء، تلك السعـادة الخليَّة البريئـة، إلى غـير ذلك من التشابيـه المماثلة البعيدة. عنـدي كتاب، يا فارنـكا، مملوء بمثل هذه الأشياء، حيـث يوصفها مؤلفة بإطناب كبير. وأنا أكتب ذلك، لأن الأحلام، يا أُميمة، شتى. والآن ربيع، ولهذا فإن كل الأفكار أيضـاً لطيفة مثله، ومؤثرة بديعة، وكذلك الأحلام تخطر رقيقـة، بلون وردي كلها. وبسبب ذلك كتبـت كل هذا. وبالمناسبة، أخذت كل ذلك من الكتاب.

وفيه يورد منشوءه هذهَ الرغبة شعراً، ويقول :

Telegram: @Arab_Books

لماذا لست طيراً من الطيور الجوارح ! (٢)

وهكذا، وعلى هذا المنوال. وهناك أفكار مختلفة أخرى، ولكن

ما لنا ولها! إلى أين ذهبت صباح اليوم، يا فارفارا الكسييفنا؟ حتى قبل أن أتهيأ للخروج إلى الوظيفة رأيتك تخرجين من حجرتك كطائر الربيع، وتجتازين الفناء بادية المرح. وما أشد ابتهاجي، وأنا أنظر إليك! آه ، يـا فارنـكا ، فارنكا ! أرجو ألا تغتمي، فـإن الدموع لا تعين على المصيبة.

وأنـا أعرف ذلك، أعرفه من التجربة، يا أُميمتي. والآن أنت هادئة وصحتك تحسنت قليـلاً. كيف صاحبتك فيـدورا؟ آه، ما أطيبها من إمـرأة ! فاكتبي لي، يا فارنكا، كيف تعيشـين معها، وهل أنت راضية عن كل شيء؟ فيدورا لها طبع متذمر. ولكن لا تعيري التفاتاً إلى ذلك، يا فارنكا. سامحها الله ! فإنها طيبة جداً.

كنت قد كتبت لك عن تيريزا عندنا، وهي أيضاً امرأة طيبة، ووفية. وكـم قلقت على رسائلنا ! وكيـف سنتبادلها ؟ وها هو الرب قد بعث إلينـا تيريـزا لإسعافنا. إنها امـرأة طيبة، وديعة، كتـوم، ولكن صاحبة منزلنا خالية من أية رحمة. تعصرها في العمل كما تعصر أية خرقة.

فيا للكوخ الذي وقعت فيه، يا فرفارا الكسييفنا ! ويسمونها شقة ! ومِنْ قبل كنت أعيش كالطير الفريد، كما تعلمين، بأمان وهدوء، حتى إذا طـارت ذبابة سمعت صوتها. أما في شقتي هنا فضجيج، وصياح،

---

٢ . إقتباس غير دقيق من قصيدة ليرمنتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) بعنوان «رغبة» : لماذا لست طيراً، ليست غراب السهب الذي يطير حالياً فوقي. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وصخب ! وأنت لا تعرفين كيف بُنيَ كل شيء هنا. تصوري، مثلاً، دهليزاً طويلاً، معتماً تماماً، وقذراً. وإلى يمينه جدار أصم، على يساره باب بعد باب، وكأنها عرف في فندق، منظومة في صف واحد. والناس يستأجرون هذه الغرف، وفي كل غرفة يسكن إنسان أو اثنان أو ثلاثة. ولا تسألني عن النظام، فهذه سفينة نوح ! وبالمناسبة، يبدو أن الساكنين جميعاً أناس طيبون، مثقفون، متعلمون.

وبينهم موظف حكومي (يعمل في مجال أدبي) واسع القراءة، يتحدث عن هومر وعن برامبوس[٣] وعن مختلف المؤلفين، يتحدث عن كل شيء، فهو رجل ذكي ! ويوجد عندنا ضابطان يلعبان الورق طوال الوقت. وضابط بحرية، ومعلم إنجليزي. انتظري، يا أُميمة، وسأسليك.

سأصفهم في الرسالة القادمة وصفاً هجائياً، أي كما هم على طبيعتهم، بكل التفاصيل. صاحبة منزلنا عجوز ضئيلة الجسم جداً، قذرة اللباس، تقضي اليوم كله في خفين، وفي مريول بيتي، وتصرخ على تيريزا طوال اليوم. وأنا أسكن في المطبخ، أو إذا توخينا الدقة أكثر، يمكن القول بالشكل التالي : توجد عند المطبخ حجرة (ولكن يجب التنويه إلى أن مطبخنا نظيف، وضاء، ولطيف جداً) حجرة صغيرة، ركن متواضع ... أو بعبارة أدق إن المطبخ كبير له ثلاث نوافذ، وأنا مشترك معه في حاجز على حائطه العرضي، بحيث يتكون ما يشبه حجرة أخرى، نمرة إضافية، كل شيء رحب، مريح، وهناك نافذة أيضاً، وباختصار، كل شيء مريح. ذلك هو ركني الصغير. ولهذا

---

٣. بارون برامبوس هو الاسم المستعار للناقد والروائي و . ي . سينكوفسكي (١٨٠٠ - ١٨٥٨) صاحب مجلة «مكتبة المطالعة». الناشر.

Telegram: @Arab_Books

لا تظنـي، يا أُميمة، شيئـاً آخر هنا، ولا أية فكـرة خفية، كأن تقولي : إنـه يعيش في المطبـخ ! بينما أنا، في الحقيقـة، أعيش في تلك الحجرة وراء الحاجـز، وليـس في ذلك ضـرر. فأنا أعيشـ في مقصورة بمعزل عـن الجميع، أعيشـ في هدوء أعيش في اعتـكاف. نصبت لي سريراً، منضـدة، وخزانـة ذات أدراج، وزوجاً من المقاعـد، وعلّقت أيقونة. حقـاً، هناك مساكن أفضل، ولربما هنـاك مساكن أفضل بكثير، ولكن الراحـة أهم شيء، وقد هيـأت كل ذلك للراحـة، ولا تظني أي شيء آخر. وشبـاكك الصغير قبالتي، عبر الفناء، والفناء ضيق، ومن الممكن أن أراك، إذا مـررت خطفـاً. فيبعث ذلك البهجـة في نفسي، ناهيك عـن أن السكن هنا رخيص عليَّ أنـا البائس. إن أرخص حجرة عندنا تكلف مع الطعام خمسة وثلاثين روبلاً من الأوراق المالية [٤].

وهو شيء لا يناسـب جيبي! بينما حجرتي تكلفني سبعة روبلات مـن الأوراق الماليـة، ويكلفنـي الطعام خمسة روبـلات، والمجموع أربعـة وعشرين ونصف. ومـن قبل كنت أدفع ثلاثـين روبلاً بالتمام، بينما كنـت أحرم نفسي من أشياء كثيرة ولا أشـرب الشاي دائماً. أما الآن فأوفـر ما اشتري بـه الشاي والسكر. فأنـت تعرفين، يا روحي، إن عـدم شرب الشاي مخجل، إذ إن جميـع الساكنين هنا في كفاية من العيش، حتـى لأشعر بالخجل أمامهم. ولهذا فأنـا أشرب الشاي، من أجـل الغرباء، يـا فرنكا، وللمظهر، ولئلا أشذَّ عنهـم، إلا فإن وجوده أو عدمه سواء عندي، فلست من أصحاب الأهواء. إذا وضعت جانباً

٤.الأوراق المالية – نقود ورقية ادخلت في روسيا عام ١٧٦٩، ثم استبدلت عام ١٨٧٣ بالعملة الورقية المعتمدة. في عام ١٨٣٠ كان الروبل من الاوراق المالية يساوي في السعر الرسمي ٢٧ كوبيكاً فضياً. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

مبلغـاً لمصروف الجيب – يتطلب الأمـر مصروفاً – ومبلغاً آخر للحذاء وللباس، فهل سيتبقى الكثـير؟ هذه هي مصروفات مرتبـي. إلا أنني غير متذَمر، وقانع بما لـدي، وفيه الكفاية. أعيش منذ عدة سنوات في كفايـة. وتوجد علاوات أيضاً. والآن، وداعاً، يا ملاكي. لقد اشتريت مزهريتين من زهـور البلسمينة والجيرانيوم، بسعـر رخيص. أم لعلك تحبين زهور الخزامي؟ وهذه موجودة أيضاً، فاكتبي لي، اكتبي لي بأكثر مـا يمكن مـن التفصيل. وعلى أية حال، لا تأخـذك الظنون، يا أميمة، ولا يخامـرك الشـك فيَّ، لأن لي مثـل هذه الحجرة. فـإن الراحة هي التي جعلتني استأجرها، والراحة وحدها هي التي أغرتني بها. فأنا، يا أُميمة، أوفر النقود وأجمعها، ولا أخلو منها. ولا تنظري إلى تواضعي الشديـد، فتتصـوري أن جناح ذبابة يستطيـع أن يوقعني أرضاً. لا، يا أُميمتـي، فأنـا حاذق، ولي خلـق إنسان يملك قدراً معتـبراً من صلابة الـروح ورباطة الجأش. وداعاً، يا ملاكـي الصغير ! كتبت لك حوالي ورقتين. وموعـد الخروج إلى الوظيفة قد حلَّ منـذ وقت طويل. أُقبّل اصابعك الحلـوة، يا أُميمـة، وأظل خادمك المطيع جـداً، وصديقك الوفي جداً

ماكار ديفوشكين

ملاحظـة : لي رجـاء واحـد : ردي علـيَّ، يـا ملاكـي، بأكـثر ما تستطيعـين من تفصيل. أنـا مرسل لك، مع هذه الرسالـة، يا فارنكا، رطلاً من الحلويـات، فكليها بالصحة والشفا، كما أُحلفك بالرب ألا تقلقي عليَّ، ولا تتحرجي مني، فمع السلامة، يا أُميمتي.

Telegram: @Arab_Books

٨ نيسان.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش !

هـل تعرف أنني سأضطـر أخيراً إلى أن أتخاصـم معك ؟ أقسم لـك، يا مـاكار الكييفتش الطيب القلب، إنـه ليصعب عليَّ بالفعل أن أَقْبَـل هدايـاك. فأنا أعـرف كم تكلفك هـذه الهدايا، وتحرمك وتصـدك عما هو ضروري جـداً لك نفسك. وكـم مرة قلت لك أننـي لا أحتـاج إلى شيء علـى الإطلاق، وإنني غير قـادرة على أن أرد لـك تلـك الأفضال التي غمرتني بها من قبـل. فما حاجتي إلى هـذه الأصص ؟ حسناً، لا بأس بزهور البلسمينة لوحدها، ولكن لَمَ زهـور الجيرانيوم؟ ما إن أذكر لـك كلمة واحدة عن هذه الجيرانيوم عـن غير قصد، مثـلاً، حتى تهرع لشرائها، بينما هـي غالية الثمن، أليس كذلك؟

أي سحـر لهذه الزهور، قرمزيـة ذات صلبان ! مِنْ أين حصلت علـى زهور الجيرانيوم البديعة هـذه ؟ وضعتها في وسط النافذة، في مكان واضح ما يكون للعيان. سأضع مسطبة على الأرض، وأصف علـى المسطبة مزيداً من الزهور. أمهلني، لأغتني أنا نفسي ! فيدورا مفتونـة فرحـاً. الآن كأن الجنـة في حجرتنا، لنظافتهـا ووضاءتها ! ثم مـا الداعي إلى الحلويـات. أؤكد لك أننـي حدست في الحال مـن رسالتك أن هناك ما يريب : فردوس، وربيع، وأنفاس عطرة، وزغـردة طيـور. فأقول لنفسـي : ما هذا؟ أليـس في ذلك شعر؟ يا مـاكار الكييفتش ! إذ فيها الأحاسيس الرقيقة، والأحلام الوردية.

Telegram: @Arab_Books

وفيهـا كل شيء ! أما بخصوص الستـارة، فأنا لم أتقصدها، بل هي التـي تعلقت من تلقاء نفسهـا حقاً، حين أعـدت تنظيم الأصص. وهذا ما كان !

آه، يا مـاكار الكييفتش ! مهما تحدثت، ومهما حسبت مداخيلك لتخدعنـي، ولتظهر أنـك تنفقها عليك فقـط، فإنك لـن تستطيع أن تحجـب ولا تخفي عليَّ شيئاً. فالواضـح أنك في سبيلي، تحرم نفسك ممـا ضروري لك. ما هـذا الذي حملك، مثلاً، علـى أن تستأجر مثل هذا المسكن؟ والآخرون يضايقونك ويزعجونك، والمسكن ضيق غير مريح. أنت تحب الوحدة، أما هنا فحولك ما يخطر وما لا يخطر على البـال ! بينما كان في وسعك أن تسكـن مسكناً أروح بكثير، حسب مرتبك. فيدورا تقول إنك من قبل كنت تسكن في مسكن أحسن من مسكنك الحالي بما لا يقاس. هل من المعقول أنك قضيت حياتك كلها على هذا النحـو، في وحدة وحرمان، وبلا مسرة، وبلا كلمة ترحيب ودية، مستأجـراً الحجرات الصغيرة عند أناس غرباء؟ آه، أيها الصديق الطيب، ما أشد إشفاقي عليك ! ارأف بصحتك، على الأقل، يا ماكار الكييفتشـ ! أنـت تقـوب : إن بصرك ضعيف، فـلا تكتب، إذن، في ضوء الشموع. ولِمَ الكتابة؟ فـإن تعلقك بوظيفتك، في أغلب الظن، معروف لرؤوسائكَ، دون حاجة إلى ذلك.

أتوسل إليك مرة أخرى ألا تنفق عليَّ نقودك. أنا أعرف أنك تحبني، ولكنك لست غنيـاً ... اليوم أنا أيضاً استيقظـت مرحة، وأحسست بارتيـاح شديد. رأيت فيودرا قد سبقتنـي إلى العمل منذ وقت طويل، كما أنها وجـدت عملاً لي أيضاً. كنت في غاية الحبور. خرجت فقط لشراء حرير، ثم انصرفت إلى العمل. الصباح كلهِ كنت خفيفة النفس،

Telegram: @Arab_Books

يغمرني المرح ! والآن تعاودني الأفكار السوداء من جديد ويثقل الحزن على قلبي.

آه، مـاذا سيكون من أمـري، وأي مستقبل سيكـون لي؟! صعب أن أكـون في مثل القدر المجهـول، ولا يكون لي مستقبل منظور، وأن أعجـز عن تنبؤ ما سيحصل لي. وحتى الالتفـات إلى الماضي يرهبني. فإن فيه من الشقاء ما يمزق القلب حتى من مجرد تذكره. سأندب حظي طوال عمـري، لوقوعي بين أشرار دمروني! المسـاء يهبط، حان وقت العمـل. كنـت أود أن أكتب لك عن أشياء كثـيرة، ولكن لا وقت لي، فـإن لعملي وقتاً محدداً. ويجب أن أسرع، كتابة الرسائل عمل ممتع، مما يرفـه النفس. ولكن لماذا لا تزورنا ابداً؟ لَمَ ذاك، يا ماكار الكسييفتش ؟ فأنت الآن قريب منا، وتتسنى لك فسحة من الوقت أحياناً.

فتعـال، أرجـوك ! رأيت صاحبتك تيريزا. وهـي تبدو عليلة حتى أخذتنـي الشفقة عليهـا، فأعطيتهـا عشرين كوبيكا. أهـا ! كدت أن أنسـى. يجـب أن تكتـب لي، بالتأكيـد، وبأكـثر مـن التفصيل، عن معيشتك وأحوالك. ومَـنْ الناس الذين يحيطون بك، وهل تعيش في وفاق معهم؟ أود كثيراً أن أعرف كل ذلك. أوصيك بأن تكتب من كل بد ! اليـوك سأطوي زاوية الستارة عن عمـد. واليوم أذهب إلى النوم مبكرة، وبالأمس رأيت الضوء في نافذتك حتى منتصف الليل. والآن وداعاً. الجو اليوم موحش ومضجر وكئيب ! إنه يوم بائس ! وداعاً.

المخلصة لك

فارفارا دوبروسيلوفا

Telegram: @Arab_Books

٨ نيسان.

سيدتي الكريمة فارفارا الكسييفنا !

أجــل، يا أُميمتي، أجــل، يا شقيقة روحي، إنه يــوم بائس كحظي البائس! أجــل، لقد تندرت عليَّ، أنا العجوز، يــا فارفارا الكسييفنا ! وعلى أيــة حال، أنا الملوم، الملوم كلياً. مــا كان لي وأنا في شيخوختي وتفشــي الصلع في رأسي أن أنجذب مــع إله الحب، وأغرق في التعابير الفضفاضــة ... ثم أقول لــك شيئاً آخر، يا أُميمــة إن الانسان غريب الأطــوار أحيانــاً، غريب الأطوار جداً. إذ إنه، وحــق القديسين ! يبدأ في بعض الأحيان يتشدق عن أشياء غير معقولة ويأخذه الهذر! إلى ما يــؤدي ذلك، وماذا ينجم عنه ؟ لا يــؤدي إلى أي شيء على الإطلاق، ولا تنجــم عنه إلا سفاســف وقانا الله منها ! لست غاضبــاً، يا أُميمة، ولكننــي متألم جــداً حين أتذكر كل شيء، متــألم لأنني أكتب لك بمثل تلــك الجمل المنمقمة والحماقــات. اليوم ذهبــت إلى الوظيفة غندوراً منفوخاً كالديك الهراتي : فقد كان يشع في قلبي ألق. وكانت روحي، لدونمــا سبــب، تنعم في هناء. كنت مبتهجــاً ! وانكببت على الأوراق بهمــة. ولكن ذلك لم يؤد إلى شــيء فيما بعد ! حالما أمعنت النظر فيما حولي، حتى رأيت كل شيء كما كان في السابق، كامداً معتماً. نفس بقع الحبر، نفس المناضد والأوراق، وأنا أيضاً على حالي، ما زلت كما كنــت من قبل تماماً. فلماذا امتطيــت صهوة بيغاسو[٥] ؟ ولكن من أين

---

٥. حصان مجنح، في الأساطير الإغريقية، فجر بضربة من حافره ينبوع ايبوغرين ملهم الشعراء. وهو في المعنى المجازي رمز الشعر. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

جاء كل ذلك ؟ لأن الشمس أطلت، والسماء في حلتها الوردية! هل جـاء من هذا. ثـم أية روائح حلوة، إذا أنـت تجدين في فنائنا، وتحت نوافذنـا كل مـا يخطر وما لا يخطر على بالـك ! إن كل ذلك بدا لي سخافـة، حسب ظني. وقـد يتيه الإنسان أحيانـاً في مشاعره ذاتها، ويأخذه الهذر.

ومـا ذلك إلا من حرارة القلب الزائدة الرعناء. وصلت إلى البيت أكاد أجـر نفسي جراً. فقد أوجعني رأسي بـدون ما سبب ولا علة، مصيبـة وراء مصيبة، علـى ما أظن (لعل البرد أصـاب ظهري). فقد فرحـت بالربيع، أنا الأحمـق، فخرجت في معطـف خفيف. أنتِ أخطـأتِ في مشاعري، يا شقيقة روحـي ! و لم تأخذي فيضانها من الجانـب الصحيح أبداً. حفزني الود الأبـوي، والود الأبوي الصافي وحده، يا فارفارا الكسييفنا. لأنني أحتل عندك مكان الوالد الحقيقي في تيتّمك المرير.

وأنـا أقـول ذلك من أعماقي، مـن قلبي الصـافي، ولصلة القربى معـك. فأنـا، علـى أية حـال، قريبك، ولـو قرابة بعيدة، عـن سابع ظهـر، كما يقول المثل، ومع ذلك فأنا قريب، وقريبك الأقرب الآن، وراعيك، لأنك لم تجدي غير الغدر والإساءة، من الجهة التي كان لك الحق في أن تبحثي عندها عن الرعاية والحماية. أما عن الشعر، فأقول لـك، يا أُميمة، ليس من اللائق بي أن أتمـرن على نظم الشعر في سن الشيخوخـة. الشعر هراء ! ومن جـراء الشعر يسوطون الآن الأولاد في المدارس ... تلك هي الحقيقة، يا شقيقة روحي.

ما هـذا الـذي تكتبينه لي، يـا فارفـارا الكسييفنا، عـن الراحة،

Telegram: @Arab_Books

والسكينــة، وعــن أشيــاء شتى ؟ لست، يــا أُميمتــي، صاحب أهواء ومطالــب، و لم أعش مــن قبل أحسن من هذه العيشــة، فلماذا أعكر صفــو حياتي بالنزوات في شيخوختي ؟ أنا شبعان ومكتس ومتحذ، فــلا حاجة لتكليف النفس فوق طاقتهــا ! لست من النبلاء! ولا كان والــدي من الأشراف. كان مع عائلته كلهــا أفقر مني دَخْلاً. ولست ابــن دلال ! وعلــى أية حال، فاذا جاريت الحقيقــة، فإن كل شيء في سكني القــديم كان أفضل بكثــير، أكثر رحابة، يــا أُميمة. ومسكني الحــالي، بالطبع، جيد، بل وأكثر بهجــة في بعض النواحي، ولِعلمك اكــثر تنوعــاً، وليس لي مأخــذ عليه، ولكنني مع ذلــك متأسف على سكني القديم.

ونحــن العجائز، أقصد المتقدمين في السن، نألف الأشياء القديمة، فتصبح عزيزة علينا. كان سكني صغيراً، وكانت الجدران ... أوه، لا حاجــة إلى الكلام ! الجدران كانت مثــل كل الجدران، وهي لا تعني شيئاً، ولكن كل شــيء أتذكره من ماضيٍّ يبعث الحنين في نفسي ... الغريــب أن الأمــر كان صعبــاً، ولكن تذكره مريــح. وحتى ما كان خبيثــاً، وكان يضايقني في حينه، يبدو وكأنه في الذكريات يتطهر من الخبــث، ويلوح لخيالي في مظهر جذاب. لقــد عشنا عيشة هادئة، يا فارنكا، ليس في البيت غيري وغير العجوز المرحومة صاحبة البيت. وأنا اليــوم أتذكر تلك العجوز أيضاً بعاطفــة من الحزن! كانت امرأة طيبة، لم تأخذ مني أجراً غالياً عن السكن. وكانت تحيك الألحفة من بقايا الصوف من مختلف الأنواع على مخيطين، طول كل واحد منهما ذراع، ولم تكن تزاول غير هذا العمل.

وكنــت أشــترك معهــا في ضوء واحــد، فكنا نعمل علــى طاولة

Telegram: @Arab_Books

واحدة. وكانت لها حفيدة تدعى ماشا – أتذكرها طفلة – وهي الآن لابد أن تكون فتاة في نحو الثالثة عشرة. كانت مشاكسة، فيّاضة المرح، كانت تضحكنا طوال الوقت. وهكذا عشنا نحن الثلاثة. وكنا نجلس في أمسية الشتاء الطويلة إلى الطاولة المستديرة ونشرب الشاي، ثم نأخذ في العمل. وكانت العجوز تبدأ بقص الحكايات لماشا، حتى لا يصيب السأم هذه المشاكسة ولا تعود إلى مشاكستها. وأية حكايات كانت ! لا يصغي إليها الطفل وحده، بل والرجل الرشيد الذكي. بالتأكيد ! كنت أنا نفسي أحياناً، أشعل غليوني، وأصغي إليها بكل سمعي حتى أنسى عملي.

أما طفلتنا، المشاكسة، فكانت تستغرق التفكير، وقد وضعت خدها المورّد على يدها الصغيرة، وفتحت فمها الصغير الحلو، وإذا كانت الحكاية مخيفة قليلاً رأينا الطفلة تنضغط على العجوز وتلتصق بها. وكان يطيب لنا أن ننشغل في النظر إلى الطفلة فلا نحس بتفحم ذبالة الشمعة، ولا بعويل الريح الهادرة، ولا بالزوبعة الثلجية تزوبع في الفناء. لقد كانت عيشتنا راضية، يا فارنكا، ومضينا فيها قرابة عشرين عاماً.

ولكن ما هذه الثرثرة مني! ربما لا تعجبك مثل هذه الأشياء، كما أن الانسياق مع الذكريات ليس هيناً عليَّ أيضاً، لا سيما في هذا الوقت، وقت هبوط المساء.

تيريزا مشغولة بشيء ما، وأنا أعاني من الصداع، كما أن ظهري يوجعني قليلاً، والأفكار تطوف غريبة، وكأنها هي الأخرى قد

Telegram: @Arab_Books

أصابها التوعك. أنا حزين اليوم، يا فارنكا ! ما هذا الذي تكتبينه، يا شقيقة روحي؟ كيف بي أن أزورك؟ ماذا سيقول الناس، يا حمامتي؟ لابـد أن معارفنـا سيلحظون، إذا مـا قطعت الفنـاء وسيتساءلون. وستجري أحاديث، وتدور أقاويـل، ويتخذ الأمر مغزى آخر. لا، يـا ملاكي، الأفضل أن أراك غداً عنـد صلاة المساء. فسيكون ذلك أكثر تعقـلاً، وأقل ضرراً لكلينا. ولكن لا تتكـدري مني، يا أُميمة، علـى كتابتي لك مثل هذه الرسالـة. أدركت، حالما أعدت قراءتها، أنها متفككة ولا رابط يجمعها. أنا، يا فارنكا، عجوز وغير مثقف، لم أتثقـف في شبابي، والآن لا يدخل عقلي شيء إذا بدأت بتثقيف نفسي ثانية. أعترف لـك، يا أُميمة، أنني لست ماهراً في الوصف، وأعـرف بدون أية اشارة من أحد، ولا غمـز ولمز ما أنني إذا أردت ان أكتب شيئاً أكثر حذقاً خرج من بين يدي هراء. رأيتك اليوم عند النافـذة، رأيتك تنزلين الستارة. وداعـاً، وداعاً وليحفظك الرب ! وداعاً، يافارفارا الكسييفنا.

صديقك النزيه

ماكار ديفوشكين

ملاحظـة : الآن لا أكتب هجاء ضد أي إنسان، يا شقيقة روحي. لقد صـرت عجـوزاً، يا أُميمـة، يا فارفـارا الكسييفنـا، بحيث لا استطيـع أن أسخـر بدون سبب! الآخرون سيسخـرون مني أيضاً، حسب المثل الروسي القائل : من حفر حفرة لآخر .. وقع هو فيها.

Telegram: @Arab_Books

٩ نيسان.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش !

أوه، عيب عليك، ياصديقي والمحسن إليّ، يا ماكار الكسييفتش، أن تبتئس وتتنرفز. غير معقول أنك تكدرت! آه، أنا غالباً ما يفوتني التزام جانب الحذر، ولكنني لم أكن أظن أنك ستعتبر كلامي تندراً لاذعاً. كن على ثقة بأنني لن أجرؤ أبداً على أن اتندر من عمرك، ولا من خلقك. وقد حصل كل ذلك بسبب خفتي، والأكثر من ذلك، بسبب الضجر الفظيع، وأي شيء لا يسلمك إليه الضجر؟ ظننت أنك نفسك أردت أن تمزح في رسالتك. وقد حزنت حزناً شديداً، حين عرفت أنك متكدر مني. لا ياصديقي وراعيّ الطيب أنت على خطأ، إذا كنت في شك من تعاطفي معك وامتناني لك. أنا قادرة على أن اقيّم في قلبي كل ما فعلته لي بحمايتي من الأشرار، ومن ملاحقتهم وبغضائهم. وسأدعو لك الرب إلى الأبد، وإذا بلغ السماء دعائي، وتقبله الرب، فسيهبك السعادة.

اليوم أحس بتوعك شديد. تتناوبني الحرارة والبرودة. وفيدورا قلقة عليّ جداً. لا يحق لك أن تخجل من زيارتنا، يا ماكار الكسييفتش. فما لنا وللناس ! أحدنا يعرف الآخر، وهذا كل ما في الأمر ! ... وداعاً، يا ماكار الكسييفتش. ليس لدي ما أكتبه غير هذا. كما أنني لا أقوى على كتابة شيء آخر. فأنا متوعكة توعكاً فظيعاً. أرجوك مرة اخرى ألا تغضب عليّ، وكن على ثقة من الاحترام والتعلق الدائمين اللذين يشرفانني في أن أكون خادمتك المطيعة والغاية في الوفاء لك.

فارفارا دوبروسيولوفا

Telegram: @Arab_Books

١٢ نيسان.

سيدتي الكريمة فارفارا الكسييفنا !

أوه، يا أُميمتي، عجيب أمرك ! فأنت في كل مرة تفزعيني فزعاً شديداً. أكتب لك في كل رسالة: احرصي على نفسك وتدثري، ولا تخرجي في الطقس السيء، واحترسي في كل شيء. ولكنك، يا ملاكي، لم تسمعي كلامي. آه، يا حمامتي، كأنك طفلة ! ذلك لأنك ضعيفة البنية، مثل قشة. وأنا أعرف ذلك. تمرضين من أقل نسمة تهب عليك. ولهذا فإن الاحتراس ضروري، والحرص على نفسك واجب، فلا تتعرضي للأخطار، وجنبي أصدقاءك الأسى والجزع.

أنت تبدين رغبتك، يا أُميمة، في أن تعرفي بالتفصيل معيشتي وأحوالي، وكل ما يحيط بي. وها أنا أسرع في تلبية رغبتك بسرور، يا شقيقة روحي. ولأبدأ من البداية، يا أُميمة : فإن ذلك أكثر نظاماً. أولاً، في بيتنا، عند المدخل الأمامي، سلالم ممتازة، لا سيما الرئيسي منها، فهو نظيف منير، وواسع، من الحديد الصلب والخشب الأحمر. أما عن السلم الخلفي فلا تسألي، فهو لولبي، رطب، وسخ مهشم الدرجات، وجدرانه أيضاً ملطخة ببقع القذارة بحيث تلتصق يدك بها، إذا استندت إليها. وفي كل فسحة تراكمت صناديق وكراسي ودواليب محطمة، وعلقت خرق، والنوافذ مهشمة. وهناك طسوت تحتوي على كل القاذورات والوساخة والزبالة من قشور البيض إلى أحشاء السمك. والرائحة عفنة... وباختصار، ليس لطيفاً.

Telegram: @Arab_Books

كنت قد كتبت لك عن موقع الغرف، وهو موقع مريح ولا غبار عليه، وهذه الحقيقة، ولكن جوها خانق إلى حد ما، وهذا لا يعني أنها كريهة الرائحة، بل يمكن القول إن رائحتها عفنة بعض الشيء لاذعة الحلاوة، مما يولد في الوهلة الأولى، انطباعاً غير سار، ولكن ذلك لا يهم. فما أن تلبثي عندنا دقيقتين أو نحوهما حتى يزول كل شيء، دون أن تشعري كيف زال، لأن الرائحة الخبيثة ستنتقل إليك فتفوح من ثيابك، وتفوح من يديك، وتفوح من كل شيء، فتتعودين عليها.

عصافير الغابة «السميلي» تموت عندنا بين ليلة وضحاها. وها هو ضابط البحرية يشتري العصفور الخامس منها، ولكنها لا تعيش في هوائنا فتموت، هذا كل ما في الأمر. مطبخنا كبير، عريض، منير، إلا أنه خانق الرائحة في الصباح، حين يقلون فيه السمك أو لحم البقر، وفي كل بقعة منه طرطشة ماء وبلل، غير أنه في المساء جنة.

وفي مطبخنا تجدين دائماً بياضات قديمة منشورة على حبال. وبما أن حجرتي غير بعيدة عنه، أقصد تلاصق المطبخ تقريباً، فإن رائحة الغسيل تضايقني قليلاً، ولكن لا بأس، فإذا عشت في مكان قليلاً، تعودت عليه.

منذ الصباح الباكر، يا فارنكا، تبدأ الضجة عندنا. النهوض، والمشي، والطَرقْ، اقصد ينهض كل مَنْ يتوجب عليه النهوض، أما إلى الوظيفة، أو لمجرد الرواح والمجيء في حجرته. ويبدأ الجميع باحتساء الشاي. وسماوراتنا في معظمها تعود إلى صاحبة المنزل، وهي قليلة، ولما كنا جميعاً نراعي الدور، فإن مَنْ يأتي بإبريقه قبل دوره ليطلب الماء المغلي، وجد ما لا يسره. وقد وقعت في هذا المطب

Telegram: @Arab_Books

في المرة الأولى ... ولكن لا حاجة إلى الكتابة عن ذلك! لقد تعرفت على الجميع هناك. تعرف على ضابط البحرية أولاً، وهو صريح حدثني عن كل شيء: عن أبيه وأمه وأخته المتزوجة من مستشار فضائي في تولا، وعن مدينة كرونشتاد. ووعدني بأن يرعاني في كل شيء، ودعاني إلى تناول الشاي معه على الفور.

وجدته في الحجرة التي يلعبون فيها الورق عادة. قدموا الشاي إليّ هناك، ورغبوا في أن ألعب معهم لعبة الحظ. ولا أعرف هل كانوا يضحكون مني أم لا، إلا أنهم ظلوا يلعبون الليل بطوله دون انقطاع، ولما دخلت وجدتهم لا يزالون يلعبون. رأيت الطباشير والورق، وقد جرح عيني الدخان الذي كان يطوف في الحجرة كلها. قلت لا ألعب، فلاحظوا على الفور أنني أتكلم فلسفة. وبعد ذلك لم يتكلم معي أي واحد منهم قط. كما أنني، في الحقيقة، كنت مسروراً بذلك. وأنا لا أخالطهم الآن، فإن ذلك هوس من جانبهم، وهوس صريح ! كما أن الاجتماعات تعقد في المساء في حجرة الموظف في القسم الأدبي أيضاً. ولكنها اجتماعات لطيفة، متواضعة، بريئة، محتشمة، كل شيء فيها يجري برهافة.

والآن، يا فارنكا، أنوه لك على الماشي أيضاً بأن صاحبة منزلنا مشعوذة صرف، بالإضافة إلى كونها امرأة دنيئة جداً. أنت رأيت تيريزا. فاحكمي أي مخلوق هي في الواقع؟ نحيفة كفرخة مسموطة عليلة. في مسكننا هناك اثنان من الخدم: تيريزا وفالدوني[٦] خادم

٦. اسما بطلين بائسين من رواية عاطفية كانت شعبية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. هذه الرواية هي للكاتب الفرنسي ن . ج . ليونار (١٧٤٤- ١٧٩٣) وقد ترجمها إلى الروسية كاجنلوفسكي. موسكو ١٨٠٤، ١٨١٦. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

صاحبة المنزل. ولا أعرف فلربما له اسم آخر ولكنه، يرد إذا نودي بهذا الاسم، فيناديه الناس جميعاً بذلك الاسم.

إنه أبله، أحمر الشعر، يبصر عن عين واحدة، معكوف الأنف، غليظ اللسان، يتشاتم مع تيريزا طوال الوقت، ويكادان يتعاركان. ومجمل القول ليست معيشتي هنا جيدة من كل النواحي... ولم يصادف قط أن يهجع الجميع في الليل دفعة واحدة ويسود الهدوء. دائماً هناك مَنْ يقعد يلعب الورق، وأحياناً يحصل ما يخجل المرء من ذكره. إلا أنني تعودت قليلاً الآن، ولكنني مندهش من أن يعيش أصحاب العوائل في سدوم كهذه. تستأجر عائلة كاملة من مثل هؤلاء المساكين حجرة عند صاحبة منزلنا، سوى أن هذه الحجرة ليست قرب سائر الغرف، بل في ركن منعزل في الجانب الآخر من الدهليز. إنهم أناس وادعون! لا يسمع عنهم أحد شيئاً. يسكنون في حجرة صغيرة واحدة مفصولة بحاجز. ورب العائلة موظف بلا عمل، فُصِل من وظيفته قبل سبعة أعوام لسبب ما، يدعى غورشكوف، رجل ضئيل الجسم، أشيب، يرتدي ملابس متسخة مهلهلة يؤذيك أن تنظري إليها، أسوأ من ثيابي إلى حد كبير! إنه شخص بائس نحيل (أحياناً ألتقي معه في الممر) ركبتاه ترتجفان، ويداه ترتجفان، ورأسه يرتجف من مرض، والله أعلم. إنه متهيب، ويخاف الجميع، ويسير لطق الجدران، وأنا خجول أحياناً، ولكنه أسوأ مني في ذلك. وعائلته تتألف من زوجة وثلاث أطفال. كبيرهم صبي يشبه أباه تماماً، سقيم الهيئة أيضاً. الزوجة كانت في وقت ما غير عاطلة عن الجمال وما يزال ذلك ملحوظاً عليها حتى الآن. وهذه المسكينة ترتدي ثياباً رثة. وقد سمعت أنهم مدينون لصاحبة المنزل، ولهذا فإن صاحبة المنزل تعاملهم معاملة غير ودودة. وسمعت أيضاً أن لغورشكوف (الزوج) متاعب، فُصِل من العمل بسببها... ولا أستطيع أن أحدد لك الحقيقة: ما إذا كانت هناك

Telegram: @Arab_Books

قضيـة مثارة ضـده، أو هو رهـن المحاكمة، أو رهـن التحقيق. مساكين هـؤلاء وأية مسكنة، اللهم عونك! حجرتهم دائماً هادئة ساكنة، وكأنها خاليـة من أي ساكن. وحتى الأطفال لا يصدر عنهم صوت. ولم يحصل قـط أن مرح الأطفـال ولعبوا، وتلك علامة سـوء. ذات مرة صادف أن مررت ببابهم مساء، وكان البيت، في ذلك الوقت، قد شمله سكون غير اعتيـادي، فسمعت شهيقاً، ثم همساً، ثم شهيقاً مرة أخرى، وكأن أحداً يبكـي، ولكن بخفوت وبؤس جعلا قلبي يتمـزق، وفيما بعد ظل هؤلاء المساكين عالقين بفكري طوال الليل، حتى أنني لم أنعم بنوم طيب.

والآن، وداعاً، يا صديقتي العزيزة الغالية، يا فارنكا! لقد وصفت لك كل شـيء، حسب مقدرتي. (أحياناً اليوم أقضـي النهار كله في التفكير فيـك. إن قلبـي ليتألم عليك، يا شقيقة روحي. فأنـا أعرف، يا حبيبتي، أنـك لا تملكين معطفاً دافئاً. آه من ربيعـات بطرسبورغ، فليس فيها غير الرياح والأمطار المخلوطة بالثلج.

إنهـا موتى، يـا فارنكا! ربـي، احفظني من لطافة الجـو[٧] هذه! لا تلومينـي على كتابتي هذه، يا روحي، فليس لي أسلوب كتابة، لا أسلوب لي على الإطلاق. ليتني أملك اسلوباً أياً كان! اكتب ما يعن في خاطري، لمجـرد أن اسليك بشيء مـا. ولو كان لي شيء من التعليم لاختلف الأمر، ولكن أي تعليم كان لي؟ تعليم المعوزين.

صديقك الدائم والوفي

ماكار ديفوشكين.

---

٧. لطافة الجو - تعبير ورد في دعاء يتلى اثناء الصلاة في الكنيسة، أثناء صلاة يوحنا زلاتاوست بالذات. وهو تعبير يستعمل بمعنى الهدوء والراحة والطقس الرائع. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

٢٥ نيسان.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

اليوم التقيت بابنة خالي ساشا! فظاعة! ستسقط هذه المسكينة أيضاً! وسمعت أيضاً من جهة ما أن آنا فيدوروفنا ما تزال تجمع المعلومات عني. يبدو أنها لن تكف أبداً عن ملاحقتي. تقول: إنها تريد أن تسامحني، وتنسى كل ما سلف، وإنها ستزورني بالتأكيد. وتقول إنك لا تمت إليّ بصلة قربى، وإنها أكثر قرابة لي. ولا يحق لك أن تتدخل في علاقتنا العائلية، ومن العيب عليّ وغير اللائق أن أعيش على عطاياك وإعالتك... وتقول أنني نسيت ضيافتها وكرمها، وإنقاذها لي ولأمي من احتمال أن نموت جوعاً، وأنها سقتنا وأطعمتنا، وتحملت النفقات علينا أكثر سنتين ونصف بسببنا، وأنها فضلاً عن ذلك كله، عفتنا من دَيْن. وإنها لم ترد أن ترحم أمي، ليت المسكينة أمي عرفت ماذا فعلوا بي! والرب بصير! .. وتقول آنا فيدوروفنا إنني لحماقتي لم أستطع المحافظة على سعادتي، وإنها نفسها قادتني إلى درب السعادة، وأنها لم تكن ملومة في الأشياء الأخرى، وإنني نفسي لم أستطع، بل وربما لم أرد الدفاع عن شرفي. فمن الملوم إذن، يا ربي العظيم وهي تقول أن السيد بيكوف على حق تماماً، ولا يمكن أن يتزوج، أية واحدة هي؟! ... ولكن لا حاجة إلى الكتابة! من الفظاظة سماع مثل هذا الكذب، يا ماكار الكسييفتش! أنا لا أعرف ماذا يجري معي الآن، أرتجف، أبكي، أعول، وقد قضيت ساعتين في كتابة هذه الرسالة لك. كنت أظن أنها، على أقل تقدير ستعترف بخطئها إزائي، بينما هي تقول الآن هذه الأقاويل! بحق الرب لا تلقلق يا صديقي والمحسن الوحيد

Telegram: @Arab_Books

إليَّ ! فيدورا تبالغ دائماً، فأنا لست مريضة سوى أن برداً خفيفاً قد أصابني بالأمس، حين خرجت إلى مقبرة فولكوفو لأداء القداس على روح أمي. لماذا لم تأت معي، فقد رجوتك كثيراً. أوه، يا مسكينة، يا أمي المسكينة، ليتك نهضت من القبر، ليتك عرفت، ليتك رأيت ما فعلوا بي ! ..

ف .د.

٢٠ أيار.

عزيزتي فارنكا !

أرسل لك بعض العنب، يا روحي، يقال أنه نافع للنقاهة، كما أن الدكتور يوصي به لإطفاء العطش، أنا أرسله لمجرد أنه يروي العطش. قبل حين كنت، يا أميمتي، ترغبين في بعض الحلويات، وها أنا أرسلها لك الآن. هل شهيتك جيدة، يا روحي؟ إنها الشيء المهم. والحمد للرب، على أية حال، لأن كل شيء زال وانقضى، ولأن الشدائد التي نعانيها موشكة على أن تنتهي كلياً. فلنتوجه بشكرنا للسماء ! أما بخصوص الكتب فليس بوسعي في الوقت الحاضر أن أحصل عليها من أي مكان. يقولون يوجد كتاب جيد هنا مكتوب بأسلوب رفيع جداً، يقولون إنه كتاب جيد، ولكنني لم أقرأه، إلا أنهم يثنون عليه كثيراً. طلبته لنفسي، ووعدوني بإرساله. ولكن هل ستقرأينه؟ فأنت صعبة الإرضاء في هذا الخصوص، ومن العسير إرضاء ذوقك، وأنا أعرف ذلك، يا حمامتي، من المؤكد أنك تحتاجين إلى الأشعار، والغراميات، والغزليات. حسناً، سأحصل لك على أشعار، سأحصل لك على كل شيء. يوجد هناك دفتر من المقتبسات.

Telegram: @Arab_Books

عيشتي جيدة، فلا تقلقلي عليَّ، يا أُميمة، أرجوك. أما ما حكته فيـودورا لك عني فهو محض هـراء. قولي لها أنـت كذبتِ، قولي بالتأكيد لهذه المتقوِّلة ! .. لم أبع بزتي الجديدة، ولماذا، وأرجوك أن تحكمي بنفسك، لماذا أبيعها؟ يقال أن حصتي من العلاوات ستبلغ أربعـين روبلاً فضياً، فلمـاذا أبيعها؟! فلا تقلقلي، يـا أُميمة، فإن فيدورا هذه موسوسة، عندها وسوسة. سنعيش، يا حمامتي! فقط عليك ان تتماثلي للشفاء، يا ملاك ، مِنْ أجل الرب تماثلي للشفاء، ولا تكسري خاطر العجوز. مَنْ قال لك أنني نحفت؟ كذب، مرة أخـرى كذب ! صحتي ناصحة، وقد سمنت إلى حد أنني أخجل مـن نفسي، وطعامي متوفر ونفسي مكتفية إلى الحلقوم. بقي فقط أن تشفي أنت، والآن وداعـاً يا ملاكي، أُقَبِّل كل أصابعك الحلوة ..

وأظل صديقك الأبدي الوفي..

ماكار ديفوشكين

ملاحظـة : مـا هذا الذي عـدت تكتبينه، يا روحـي؟ يا لها من أحلام يقظة ! كيـف لي أن أزورك باستمرار يا أُميمة ؟ إياك أسأل. ليتني استغل ظلام الليل ولكن لا يكاد يوجد ليل الآن، في مثل هذا الوقـت. ثم إنني، يا أميمتي، يا ملاكي، لم أكد أفارقك طوال فترة مرضـك، في فترة غيبوبتك، ولكننـي الآن لا أعرف نفسي كيف تسنـى لي أن أقوم بتلك الأفعال فانقطعـت عن زيارتك فيما بعد، لأن الناس أخذوا يستطلعون ويستفسـرون. ثم كانت هنا تجري أقاويل، حتى دون هذا. وأنا أعتمد على تيريزا، فهي ليست ثرثارة، ومـع ذلك احكمي بنفسك، يـا أُميمة، ماذا سيكون حين يعرفون

Telegram: @Arab_Books

كل شــيء عنا؟ ماذا سيظنون، ومــاذا سيقولون حينذاك؟ فتجملي بالصــبر، إذن، يــا أُميمــة، وانتظري حتــى تعود إليــك صحتك، وعندئذ، سنحدد مواعيد لقاء ووصال في مكان ما خارج البيت.

١ حزيران.

الأكرم ماكار الكسييفتش!

أنا أريد أن أقوم لك بشيء يرضيك ويريحك، مقابل اهتماماتك وغيرتك عليَّ، مقابل حبك لي، فعزمت أخيراً ولضجري أن أنبش في دولابــي الصغير وأجد كراستي التي أرسلها إليك الآن. وكنت قــد بدأتهــا في الفترة السعيدة مــن حياتي. غالباً مــا كنت تتساءل بحــب استطلاع عن حياتي الماضية، عن أمي، عن بوكروفسكي، عــن إقامتي عند آنا فيدوروفنا، وأخيراً عن مصاعبي القريبة العهد، وكنت ترغب بلهفة أن تقــرأ هذه الكراسة، التي خطر لي، لسبب لا يعرفه غــير الله، أن أسجل فيها بعض اللحظات من حياتي، وأنا لا أشــك في أن أسجــل فيهــا بعض اللحظات مــن حياتي، وأنا لا أشك أن رسائلي هذه ستجلب لك متعة كبيرة. حتى كأنني عشت ضعــف عــدد السنين التي مــرت منذ أن خططــت السطر الأخير مــن هذه المذكرات. وقد كُتبــت كلها في أوقات مختلفة. وداعاً، يا مــاكار الكسييفتش ! أحس بوحشة مريعــة الآن، والأرق يعذبني باستمرار. إن فترة النقاهة مضجرة جداً !

ف . د.

Telegram: @Arab_Books

١

لم يكـن عمري يتجاوز الرابعة عشرة حين توفي والدي. وطفولتي كانـت أسعد فـترة في حياتي. و لم تبدأ هنا، بـل بعيداً عن هذا المكان، في غـور البلاد. كان أبي مدير الضيعة الضخمة للأمير ب .. في ولاية ت ..وكنـا نعيش في إحدى قـرى الأمـير، عيشة هادئـة، معتكفة، سعيـدة... وكنـت وأنـا صبية مفعمـة بالحيوية والمـرح، ليس لي غير الجـري في الحقول والاجمات والبستان، ولا أحد يهتم بي. فقد كان أبـي مشغولاً بشؤونه على الدوام، وأمي بتدبير المنزل، و لم أتعلم شيئاً، وكنت مسرورة بذلك. كنت أخرج في الصباح الباكر راكضة، إما إلى البركـة، أو إلى أجمة، أو إلى الحصّاديـن، لا يهمني إذا كانت الشمس تلفحنـي، أو أركض لا أدري إلى أين.. بعيداً عـن القرية، أو تخدش جسمـي الأشواك، وتتمزق ثيابي، وكان أهلـي يوبخونني بعد ذلك، و لم أكن اعبأ.

يبـدو لي أنني لو كنت قد قضيت حياتي كلها في مكان واحد دون أن أبـرح القرية لكنت في غايـة السعادة. إلا أننـي اضطررت وأنا ما أزال صغـيرة إلى ترك ملاعب طفولتي. وكنت لم أتجاوز الثانية عشرة، حين انتقلنـا إلى بطرسبورغ. آه، ما أشد حزني حين أتذكر استعداداتنا المضجـرة! وكم بكيت، وأنا أودع كل ما كان عزيزاً عليَّ. أتذكر أنني ارتميـت على عنق أبي، وتضرعت إليـه، والدموع في عيني، لنبقى في القريـة ولو لبعض الوقت. صرخ بي أبي، وأخذت امي تبكي وتقول:

Telegram: @Arab_Books

يجب أن نرحل، وإن الأعمال كانت تتطلب ذلك. الأمير ب. العجوز توفي، والورثة أعفوا الوالد من منصبه. وكان لوالدي بعض النقود الموظفة لدى بعض الأشخاص في بطرسبورغ. فرأى من الضروري وجوده هناك، آملاً في تعديل ظروفه. وقد عرفت كل ذلك من أمي، فيما بعد. نزلنا هنا في حي بطرسبورغسكايا ستورونا، وأقمنا في مكان واحد حتى وفاة أبي.

وكم وجدت مشقة في التعود على الحياة الجديدة! وكنا قد دخلنا بطرسبورغ في فصل الخريف. غادرنا القرية في يوم وضيء دافىء مشرق، وقد انتهت الأعمال في الحقول، ولاحت في البيادر أكداس القمح الهائلة، وتزاحمت أسراب الطيور الصائحة. وكان كل شيء صافياً مراحاً. أما هنا، فحين دخلنا المدينة استقبلنا المطر، والجمد الخريفي الرطب، والطقس السيىء والوحل، وحشد الوجوه الجديدة الغريبة علينا، المتجهمة الغاضبة، غير المحتفية بأحد! رتبنا أمورنا البيتية على نحو من الأنحاء. أتذكر أن الجميع في البيت انهمكوا في الرواح والمجيء وكانوا مشغولين، وتزودوا بما يلزم لشؤون السكن الجديد. وكان والدي طوال اليوم خارج البيت، ولم تكن لأمي لحظة من الهدوء، وقد نسوني كلياً. وقد شعرت بالحزن وأنا أنهض في الصباح، بعد الليلة الأولى التي قضيناها في السكن الجديد. كانت نوافذنا تطل على سياج أصفر. وفي الشارع وحل دائم. وكان المارة قليلين، وجميعهم قد لفوا أنفسهم بالملابس السميكة لشدة البرد. كان الضجر والوحشة الرهيبة يخيمان على بيتنا أياماً بطولها. ولم يكن لنا تقريباً أقارب أو أصحاب. وكان أبي على خصام مع آنا فيدوروفنا (كان مديناً لها بشيء). وكان

Telegram: @Arab_Books

يـتردد علينا في معظم الأحيان أناس في شـأن أو عمل. وفي العادة كانوا يتجادلون ويتصايحون. وبعد كل زيارة كان الاستياء والغيظ يظهران علـى أبي، فيظل أحياناً يذرع الحجـرة ساعات كاملة من ركن إلى ركن متجهماً، ودون أن يقول لأحد كلمة واحدة. وحتى أمـي لم تكن آنذاك لتجرؤ على أن تبادره الكلام، فكانت تصمت. وكنـت أنا أعتكف على كتاب في زوايـة، ساكنة هادئة، ودون أن أجرؤ على التململ أحياناً.

بعـد انقضاء ثلاثة أشهر على وصولنا إلى بطرسبورغ، أودعوني مدرسـة داخلية مغلقـة. وقد أحسست بالوحشـة في بادئ الأمر، وأنـا بين أناس غربـاء! كان كل شيء في منتهـى الجفاف والجفاء. المعلمات زاعقـات الأصوات، والطالبات ساخـرات، وأنا بينهن غريبة مستوحشة. والنظام صارم ومتزمت! الساعات كلها محددة، والمائـدة مشتركـة، والمعلمات مضجـرات، وكل ذلك عذبني في بـادئ الأمر، ومـزَّق جَلَدي. كما أننـي لم أستطـع أن أنام هناك. فكنـت أحيانـاً أبكي طـوال الليل الطويـل المضجر البـارد. وفي العادة، حـين كان جميع الطالبات يراجعـن دروسهن، ويدرسنها في الأماسـي، كنت أنا أعتكف على كتاب المحادثات أو المفردات بالفرنسيـة، دون أن أجرؤ على التململ، بينما كان فكري يسرح إلى بيتنـا، وإلى أبي وأمـي، وإلى مربيتنا العجـوز، وحكاياتها ... آه، مـا أشـد كآبتي! كنت أعيـد إلى ذاكرتي بمتعة حتـى أتفه شيء في البيـت، كنت لا أكـف عن أن أفكر : ما ألطـف الأمر لو كنت الآن في البيـت! جالسـة في حجرتنا الصغيرة، قـرب السماور، مع أهلي، حيـث الدفء والهناءة والألفة. وأقـول لنفسي: عندئذ

Telegram: @Arab_Books

سأحتضن أمي، بقوة القوة، ودفء الدفء! وأظل أفكر وأفكر، وآخذ بالبكاء بخفوت من الوحشة، حابسة العبرات في صدري، فلا تدخل المفردات في ذهني، ولا أهيئ الدروس للغد. فأظل أحلم طوال الليل بالمعلم والمدام والفتيات، وطوال الليل أردد الدروس في حلمي، وفي اليوم التالي لا أعرف شيئاً. عندئذ يجبرونني على الركوع على ركبتي، ولا يقدمون لي غير صحن واحد. فكنت مضجرة جداً وخالية من المرح. في بادئ الأمر كان جميع الفتيات يهزأن بي ويناكدنني، ويشوشن أفكاري حين كنت أسرد دروسي في الصف، ويقرصنني حين كنا نسير صفوفاً إلى الغداء أو الشاي، ويشكونني إلى المربية لدونما سبب ولا داع. ومقابل ذلك كم كانت تغمرني سعادة الفردوس حين كانت المربية تأتي لتأخذني مساء السبت. فكنت أحتضن عجوزتي هذه في نشوة الفرح. وتأخذ هي بمساعدتي في ارتداء ملابسي، وتدثرني، ولا تستطيع اللحاق بي في الطريق، بينما أنا أظل أثرثر لها وأقص عليها. وأصل إلى البيت مرحة فرحة، وأعانق أهلي بقوة وكأنني غبت عنهم عشر سنين. وتبدأ الأحاديث والمحاورة والحكايات، وأسلم على الجميع، وأضحك وأقهقه وأركض وأنط. وتبدأ أحاديث جدية مع أبي عن العلوم وعن معلمينا، وعن اللغة الفرنسية، وعن نحو لوموند[٨]، وجميعنا في غاية السعادة والارتياح. وحتى الآن يهزني المرح حين أتذكر تلك اللحظات. كنت أسعى بكل قواي إلى أن أتعلم، وأسرَّ والدي. فقد رأيت أنه تخلى لي عن آخر ما لديه، بينما

٨. هو « النحو الفرنسي الكامل الذي يتضمن تركيب الكلام والإنشاء وقواعد كتابة الكلمة، وهو من تأليف لوموند ومراجعة وإكمال يتليه» موسكو، ١٨٣١ (وهناك عدد واسع من الطبعات الروسية المبكرة، من بينها مرجع لاغراض التدريس). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

كان يعـاني من بؤس لا يعرف إلا الله مداه. وكان في كل يوم يزداد تجهماً واستيـاءً وغيظاً، وتعكر طبعه كلياً. فالأعمال لم تكن تفلح، والديـون لا تكاد تحصـى. وكانت أمي تتوجس حتـى من البكاء، وتخـاف أن تنطق كلمة واحدة، خشية أن تغضب أبي، وبدا عليها السقم، وهزلت هزالاً شديداً، وراحت تسعل سعالاً خبيثاً. وكنت أعـود من المدرسة الداخلية فأرى الوجوه الكئيبة دائماً: أمي تبكي صامتة، وأبي غاضب. ويبدأ التقريع والتوبيخ والملامة. ويشرع أبي ليقـول أنني لم أجلب له ايـة مسرة، ولا أية سلـوى، وأنهم بسببي يحرمـون أنفسهم مـن آخر ما عندهـم، بينما أنا، حتـى الآن، لا أعـرف التكلم بالفرنسية، وبأختصـار: الخيبة دائماً، كل شيء يقع عليّ وعلى أمـي. وكيف يمكن أن يعذب المرء أمي المسكينة؟ كنت إذا نظرت إليها تمزق قلبي إرباً: انخسف خداها، وغارت عيناها، واكتسى وجهها لون المسلولين. وكنت أنا أنال من التقريع أكثر من الآخريـن. وكان يبدأ دائمـاً لسبب تافه، وفيما بعد، يصل إلى ما لا يعلمـه إلا الله، وفي أحيان كثيرة كنـت لا أفهم حتى حقيقة الأمر. فما أكثر الأشياء التي أحاسب عليها! اللغة الفرنسية، وكوني حمقاء كبـيرة، وكون القائمة على مدرستنا الداخليـة، إمرأة مهملة بلهاء، إنها لا تعتني بأخلاقنا، وكون أبي لم يجد عملاً له حتى الآن، ولأن نحو لوموند نحـو شائه، والأحسن منه بكثير كتاب زابولسكي[٩] ولأنهم صرفوا عليّ الكثير من الفلوس عبثاً، ولأنني، على ما يبدو، عديمة الشعور كالصخـر. وباختصار: كنت ملومة على كل شيء،

---

٩. هو «الكتاب المدرسي الجديد للغة الفرنسية وهو يحتوي على الأبجدية وأصل الكلمة وتركيب الكلمات، والمطالعة»، تأليف ف. زابولسكي ، موسكو، ١٨١٧ (الطبعة الثانية – موسكو، ١٨٢٤). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

ومسؤولـة عن كل شـيء، بالرغم من أنني المسكينـة، أبذل كل ما بوسعـي لدراسة المحادثات والمفردات. وليس هذا البتة لأن أبي لم يكـن يحبنـي، فقد كان يحبني وأمي حباً جمـاً، بل لأن طبعه كان بهذا الشكل.

كانـت المشاغل والهمـوم والإخفاقـات تعذب أبـي إلى آخر حـد، فصار صفراوي المزاج لا يثـق بأحد، وكثيراً ما كان قريباً إلى اليأس، فصار يهمل الاهتمام بصحته، وأصيـب بنزلة بدر، ووقع صريع المرض فجـأة، ولم يتعذب طويلاً، وتوفي فجأة وعلى غفلة، حتـى أننا ظللنا عـدة أيام لا نعي أنفسنا مـن الصدمة. وكانت أمي مـن الذهول بحيـث خشيت على عقلهـا. وحالما تـوفي أبي جاء الدائنون إلينا، وكأنهم نبعوا من تحت الأرض، وانثالو انثيالاً. قدمنا لهـم كل ما لدينا، كما بعنا بيتنا الصغير، الـذي كان أبي قد اشتراه في حـي بطرسبورغسكايا ستورونا بعـد نصف عام من انتقالنا إلى بطرسبـورغ. وأنا لا أعرف كيف سووا بقيـة الأشياء، إلا أننا بقينا بلا مـأوى، بلا ملاذ، بلا غذاء. كانت أمي تعاني من مرض مضن، ولم نكن قادرين على إطعـام أنفسنا، ولا شيء نعيش به، والهلاك مصيرنـا. وكنت آنذاك قـد بلغت الرابعة عشـرة لا غير. وفي هذه الفترة زارتنا آنا فيدوروفنا. إن آنا فيدوروفنا تردد دائماً أنها صاحبة ضيـاع وأنها على صلة قربى بنا، وأمـي أيضاً كانت تقول أنها من ذوي قربانـا، ولكن من الأبعدين جـداً. وفي حياة والدي لم تزرنا قط. جاءت والدموع في عينيها، وراحت تقول إنها تحس بتعاطف شديـد معنا، وعزّتنـا في مصابنـا، في وضعنا المؤسـي، وأضافت إن اللـوم في ذلـك يقع علـى الوالد نفسه، فقد عاش فوق حدود

Telegram: @Arab_Books

إمكانياته، وسعى إلى مستوى عال من العيش وأسرف في الاعتماد على قواه. وأبدت رغبتها في مصادقتنا، واقترحت أن ننسى ما وقع بيننا من منغصات. وفاضت عاطفتها واغرورقت عيناها، حين أعلنت لها أمي أنها لم تحمل ضغينة لها قط، فأخذتها إلى الكنيسة، وطلبت صلاة الترحم على «العزيز» (هكذا سمّت والدي). وبعد ذلك تصالحت مع أمي بفخامة.

وبعد مقدمات وتحذيرات طويلة أبدتها آنا فيدوروفنا، وبعد أن صوَّرت بألوان قوية وضعنا المؤسى، وتيتّمنا، وانقطاع أملنا وحيلتنا، دعتنا إلى أن نلوذ بحماها، على حد تعبيرها. شكرتها أمي، ولكنها ظلت مترددة وقتاً طويلاً، ولمّا لم تكن لنا حيلة أخرى، ولا خيار آخر أعلنت أمي لآنا فيدوروفنا أخيراً، بأننا نقبل عرضها بامتنان. وأنا الآن أتذكر جيداً ذلك الصباح الذي انتقلنا فيه من حي بطرسبورغسكيا ستورونا إلى جزيرة فاسيلييف. كان صباحاً خريفياً، صافياً، جافاً، صقيعاً. بكت أمي، وداهمني حزن فظيع، وكان صدري يتمزق وروحي مثقلة بوحشة رهيبة غامضة ... لقد كان وقتاً عصيباً.

٢

في بادئ الأمر، وقبل أن نتعود على العيش في مسكننا الجديد عند آنا فيدوروفنا، كنا، أقصد أنا وأمي، نحس بالرهبة والاستيحاش.

Telegram: @Arab_Books

كانت آنا فيدوروفنا تسكن في البيت الذي تملكه في شارع الخط السادس. وكان البيت لا يضم غير خمس غرف صالحة للسكنى، كانت آنا فيدوروفنا تعيش في ثلاث منها مع ابنة عمي ساشا، وهي طفلة ميتمة من الأبوين، كانت آنا فيدوروفنا تربيها. وأقمنا نحن في غرفة أخرى، وكانت الغرفة الأخيرة، المجاورة لغرفتنا، مؤجرة من قبل طالب فقير يدعى بكروفسكي. كانت آنا فيدوروفنا تعيش حياة رضيّة جداً، وأغنى مما يمكن أن يتوقعه المرء. إلا أن ثروتها كانت لغزاً خافياً، مثل أشغالها. كانت مشغولة دائماً، غارقة دائماً في أفكارها الخاصة، تخرج من البيت مشياً أو تستقل عربة عدة مرات في اليوم. ولكنني لم أستطع أن أحدس ماذا تفعل، وبماذا تنشغل، وإلى أي شيء تسعى. كان معارفها كثيرين متنوعين. كان الضيوف يفدون عليها دائماً، ويتردد هؤلاء وأولئك من الناس في زيارات قصيرة ولشأن من الشؤون. وكانت أمي تأخذني إلى غرفتنا، حالما يدق جرس الباب. وكانت آنا فيدوروفنا، من أجل ذلك، تغضب على أمي غضباً شديداً، ولا تفتأ تقول إننا انوفتان اكثر من اللازم، وأنفتنا اعلى من مستوى إمكانياتنا، وليس لنا ما يستوجب الأنفة، وتظل تنسج على ذلك المنوال ساعات كاملة دون أن تسكت. حينذاك لم أكن أفهم تلك التقريعات على الأنفة، كما أنني عرفت الآن فقط، بالحدس، على أقل تقدير، السبب الذي جعل أمي تتردد في العيش لدى آنا فيدوروفنا. لقد كانت آنا فيدوروفنا إمرأة لئيمة. فيدوروفنا كانت تعذبنا دون انقطاع. ولحد الآن لم أفهم على وجه التحديد ما الذي جعلها تدعونا إلى الإقامة عندها؟ في بادىء الأمر كانت رقيقة معنا كثيراً، وبعد ذلك كشفت عن خلقها الحقيقي تماماً، حالما عرفت أننا بلا حول كلياً، ولا ملجأ آخر لنا. وفيما بعد صارت تعاملني بلطف

شديـد، بـل وكان لطفها يحمـل بعض الخشونـة، وإلى حد التزلف، ولكننـي في البدايـة عانيت مع أمي. كانت تكيل لنـا اللوم لحظة بعد أخرى. ولا تفتأ تتحدث عن أياديها علينا. وكانت تقدمنا للغرباء على أننا أقاربهـا المساكين، أرملة وابنتها اليتيمة ضاق بهما الدهر فآوتهما بدافـع الرحمة وحباً للقريب. وعلى المائدة كانت تراقب ببصرها كل ما نتناوله من الطعام، وحينما لا نأكل كانت تكرر مراراً وتكراراً قائلة أننا نستنكف، وعلينا أن نقتنع بما على المائدة. وتشك في أن يكون لنا في بيتنا زاد أفضل. وكانت تشتم أبي دائماً، وتقول: إنه كان يريد أن يكون أفضل من الآخرين فنـال جزاءه، وترك زوجته وابنته للضياع، ولولا قريبته المحسنة، بيضاء القلـب، الحدوب، لربما متنا جوعاً على قارعـة الطريق. وما أكثر مـا كانت تقوله! ولم يكـن سماعها يبعث علـى المرارة، بقـدر ما يبعث على الاشمئـزاز. وكانت والدتي تبكي على الدوام، وصحتها تسوء من يوم إلى آخر، وكانت كل عين تراها تـذوي، بينما كنا نعمـل من الصباح حتى الليـل، وننجز العمل على طلبـات الناس، ونخيط، وهو أمر لم يكن يـروق لآنا فيدوروفنا على الإطـلاق، فكانت تعيد وتكرر أن بيتها ليس محل خياطة. ولكن كان علينـا أن نكتسـي، وكان علينا أن نوفر لمصروفـات غير منظورة، ولا بدأن تكون لدينا نقودنا. وكنا قد ادخرنا تحوطاً، آملين أن تتوفر لدينا إمكانية الانتقال في يوم ما إلى مكان آخر.

إلا أن أمـي استهلكت آخر عافيتها في العمل، وكانت تزداد ضعفاً كل يوم. فقد كان الداء كالسوس ينخر حياتها على ما يبدو ويدنيها من القبر. وكنت أرى كل شيء، وأحس بكل شيء، وأعاني من كل شيء، فقد كان كل ذلك يقع أمام بصري!

Telegram: @Arab_Books

كانت الأيـام تنقضـي وراء الأيام، وكل يـوم لا يختلف عن اليوم الـذي سبقه. وكنـا نعيش بهدوء، وكأنما لم نعش في المدينة. وهدأت آنـا فيدوروفنا شيئـاً فشيئاً، بالقدر الذي كانـت نفسها تصبح واعية بسلطانهـا، رغـم أن أحـداً، على أية حـال، لم يدر في خلـده قط أن يعترض عليها. كانـت حجرتنا مفصولة بالدهليز عـن النصف الذي تحتله من البيت، وكان بوكروفسكي يجاورنا، كما ذكرت آنفاً. وكان يُعلّـم ساشا اللغتـين الفرنسية والألمانيـة، والتاريـخ والجغرافية، وكل العلوم، كما كانت آنـا فيدوروفنا تقول، وكان لقاء ذلك يحصل منها علـى مسكن، وعلى غذاء. كانت ساشا فتـاة لامعة الذكاء، رغم خفة روحها ومشاكستها، وكانت آنذاك، في نحو الثالثة عشرة. ألمحت آنا فيدوروفنـا لأمي أن من المستحسـن أن أدرس، لاسيما وأنني لم أكمل دراستـي في المدرسة الداخليـة. وافقت أمي بسـرور، ودرست لدى بوكروفسكي سنة كاملة مع ساشا.

كان بوكروفسكـي شابـاً فقـيراً، وفقـيراً جداً، ولم تكـن صحته تسمـح له بأن يواصـل دراسته، فكان أهـل بيتنا يسمونـه طالباً على مألـوف العـادة لا غير. كانت عيشتـه متواضعة، وديعـة، هادئة، فلم نكـن نسمع له صوتاً من حجرتنا. وكان غريباً في هيئته، إذا سار ظهر على مشيته الارتباك، وإذا انحنى للتحية بدت انحناءته مرتبكة، وكان يتكلـم بطريقـة غريبة، حتى كنـت في البداية لا أستطيـع أن أنظر إليه دون أن أضحـك. وكانـت ساشا تتهكم منه باستمـرار، لاسيما حين كان يلقـي الدروس علينا. بينما كان هو حاد المـزاج كثيراً، ويغضب على الدوام، يخرج عن أطواره لكل صغيرة، ويصرخ علينا، ويتشكى منـا، وغالباً ما كان ينصرف إلى حجرته غضبـان دون أن يتم الدرس.

Telegram: @Arab_Books

وفي حجرتـه كان يقضي أياماً كاملة منكباً على الكتب. وكان له الكثير منهـا، وجميعها كتب غالية نـادرة. ومع ذلك فقد ظل يلقى الدروس في أماكن أخرى، ويحصل من ذلك على شيء من الأجر، وحالما تكون لديه فلوس يخرج ليشتري له كتباً. ومع الوقت صارت معرفتي به أفضل وأكثر وداداً. كان إنسانـاً طيب القلب، كريم النفـس، وأحسن مَنْ تسنّى لي أن ألتقي بهم. وكانت أمي تُكِنُّ له احتراماً شديداً. وفيما بعد صار لي أفضل أصدقائي بعد أمي، بالطبع.

في البدايـة كنت، وأنا فتـاة راشدة، أشارك ساشـا في مشاكستها له، فكنـا نقضي ساعـات بكاملها نجهد ذهننـا، لنبتكر أساليـب في إغاظته وإخراجـه عن رباطة جأشه. فكان يغضب غضبـاً مثيراً للضحك، فيبدو ذلـك مسلياً لنا. «إنني لأخجل حتى من مجـرد الدموع تطفر من عينيه، وسمعتـه بوضـوح وهـو يهمـس «طفلتان خبيثتـان». تملكنـي ارتباك مفاجئ، وأحسست بالخجل من نفسي، وبالمرارة، وبالإشفاق عليه.

أتذكر أن الاحمرار صبغ وجهي حتى أذني، ورحت أهدؤه، والدموع تكاد تترقـرق في عيني، وأتوسل اليـه ألا يتمدر في معابثاتنـا البلهاء. إلا أنـه أطبق الكتـاب دون أن يتم الدرس، وانصـرف إلى حجرته. ظللت اليـوم بطوله تمزقني الندامة. لم أطق التفكير بأننـا نحن الطفلتين، جعلناه بفظاظتنا مختنق العينين بالدموع. إذن، فقد كنا ننتظر أن يذرف الدموع. كنا، إذن، نريد هذه الدموع. يعني أننا أكرهنا هذا البائس المسكين إكراهاً علـى أن يتذكر قصته القاسية في الحياة! لم أنم طوال الليل من الضيق، من الغم، من الندم. والندم لا يخفف على النفس وقرها، على عكس ما يرى الناس. وكان حزني مشوباً بالكبرياء، ولا أعرف كيف. فقد كنت لا أريد أن يعتبرني طفلة. وكنت، آنذاك، في الخامسة عشرة.

Telegram: @Arab_Books

منـــذ ذلك اليـــوم أخذت أرهق مخيلتي بابتـــكار آلاف الخطط التي من شأنها أن تجعل بوكروفسكي يعدل رأيه فيَّ. ولكنني كنت أحياناً أجـبن وأنكمش. ولم أكن في وضعي ذاك قادرة على أن أعزم أمري، واكتفيت بالتحليق في الأحلام، (والله يعلم أية أحلام كانت). كففت عـن الاشتراك مع ساشـا في معابثتها، وكفَّ هو عـن الغضب علينا. ولكـن ذلك كان قليلاً على كبريائي. ولأتحدث الآن قليلاً عن أغرب واطـرف وأبأس إنسان من بين كل الذين صادف أن التقيتهم في يوم مـا. وأنـا أتحدث عنـه الآن، في هذا الموضع بالـذات من مذكراتي، لأننـي قبل هذه الفترة، لم أكن أعير له أي التفـات تقريباً، بينما صار كل ما كان يتعلق ببوكروفسكـي شغلي الشاغل فجأة! كان يأتي إلى بيتنـا أحياناً عجـوز ضئيل الجسـم، أشيب، زري اللباس، مرعبل، أخـرق الحركة، وبعبـارة واحدة «عجب في عجـب». ومن النظرة الأولى التي تلقيها عليه يمكن أن يتبادر إلى ذهنك أنـه كالمستحي، كأنـه يخجـل من نفسـه ذاتها. وبسبب ذلـك كان منكمشـاً دائماً مرتعد الفرائص، ومن تصرفاته وحركاته يمكنك أن تحكم، دونما خطأ تقريباً، بأنه مختل العقل. كان يأتي إلينا، أحياناً، ويقف في الرواق عند الباب الزجاجي، ولا يجـرؤ على دخول البيت. وإذا صادف أنْ مرَّ أحـد منـا – أنا أو ساشا، أو واحد من الخـدم أكثر عطفاً عليه – لوَّح لنا في الحال، يدعونا إليه، ويأتي بإشارات مختلفة، وعندئذ فقط يومئ أحدنـا برأسه له، ويدعوه، وتلـك علامة متفق عليها تعني أن لا أحد غريبـاً في البيت، وأنه يستطيع أن يدخل حين يريد. عندئذ فقط يفتح العجـوز الباب بهدوء، ويبتسم ابتسامة فـرح، ويفرك يديه ارتياحاً، ويتجه إلى حجرة بوكروفسكي مباشرة، وعلى أطراف أصابعه. كان هذا العجوز أبـاه. وفيما بعد عرفت كل تاريخ هذا العجوز المسكين

Telegram: @Arab_Books

بالتفصيل. كان في وقت ما في وظيفة حكومية وكان يفتقر إلى أبسط القابليات، فكان يحتل أوطأ وأقل منصب من حيث الأهمية. حين توفيت زوجته الأولى (أم الطالب بوكروفسكي) طرأ في ذهنه أن يتزوج للمرة الثانية، فتزوج امرأة من الطبقة المتوسطة. وفي عهدها انقلب كل شيء في البيت رأساً على عقب، ونغّصت على كل من في البيت حياته. وتحكمت بكل فرد فيه. حينذاك كان الطالب بوكروفسكي ما يزال صغيراً، نحو العاشرة من العمر. وقد كرهته زوجة أبيه كراهية شديدة. ولكن القدر أسعفه، فقد احتضنه صاحب الأراضي بيكوف الذي كان يعرف الموظف بوكروفسكي، وكان راعيه في وقته، وأدخله إحدى المدارس. وكان اهتمامه به راجعاً إلى معرفته بأمه المتوفاة التي كانت، قبل زواجها، في رعاية آنا فيدوروفنا، وقد زوجتها للموظف بوكروفسكي. وقد أعطى السيد بيكوف صديق واليف آنا فيدوروفنا خمسة آلاف روبل، بدافع الشهامة، صداقاً للفتاة. وليس معروفاً أين ذهبت هذه النقود. وقد حدثتني آنا فيدوروفنا بكل ذلك، أما الطالب بوكروفسكي فلم يحب قط أن يتحدث عن أحواله العائلية. ويقال أن أمه كانت مليحة جداً، وإني لأعجب لماذا تزوجت هذا الزواج غير الموفق من رجل ضئيل الشأن... وقد توفيت وهي في ميعة الشباب، بعد حوالي أربعة أعوام من زواجها.

انتقل بوكروفسكي الشاب من المدرسة إلى الثانوية ومنها إلى الجامعة. وفي هذه المرحلة أيضاً لم يحجب السيد بيكوف رعايته عنه، وكان كثير التردد على بطرسبورغ. ولم يستطيع بوكروفسكي، بسبب اعتلال صحته، من مواصلة دراسته في الجامعة. فعرَّفه السيد

Telegram: @Arab_Books

بيكـوف بآنا فيدوروفنا، وقدَّمه بنفسه لها، وعلى هذا النحو، أُمِّن له المسكن والغذاء شريطة أن يعلم ساشا كل ما يلزم.

ووقع بوكروفسكي العجـوز أسير أسوأ رذيلة حزناً على ما لحق به من قسوة زوجته، فلا تكاد تجده في حالة صحو، كانت زوجته تضربه، وترسلـه لينام في المطبخ، وتمادت في الأمر حتـى أَلِفَ الرجل الضرب وسـوء المعاملـة دون أن تصدر عنـه شكوى. آنـذاك لم تكن السن قد تقدمت به كثـيراً، إلا أنه كان أقرب إلى الخَرَف بسبب عاداته الرذيلة. وحبـه الطاغي نحو ابنه كان الأمارة الوحيدة علـى المشاعر الإنسانية النبيلة فيه. كانت الناس تقـول إن بوكروفسكي الشاب كان يشبه أمه المتوفاة شبه قطرة ماء بقطرة أخرى.

فهـل كانت ذكريات العجوز المنكوب عـن زوجته الطيبة السابقة هـي التـي ولَّدت في قلبه هذا الحب الغامر نحـو ابنه؟ لم يكن العجوز ليتحـدث إلا عـن ابنـه، وكان يزوره مرتـين في الأسبـوع. و لم يكن يجرؤ على أن يزوره أكثر من ذلك، لأن بوكروفسكي الشاب لم يكن يطيق زيـارات أبيه. وعدم احترامه لأبيـه كان بالتأكيد النقيصة الأولى والكبرى من بين نقائصه كلها. والعجوز أيضاً كان في بعض الأحيان، أبعـد مخلوقات الأرض عنأن يحتمله إنسـان. فهو أولاً شديد الفضول بشكل مريع، وهو ثانياً يعيق ابنه عن الدراسة باستمرار بما يتفوه به من أتفه الاحاديث والأسئلة الفارغة، وأخيراً، كان يأتي في بعض الأحيان ثملاً. فـكان ابنه يحضه علـى التخلي على الرذائـل، وعن الفضول، وعن الهـذر المستمر، وينتهي الأمر، أخـيراً، إلى أن يطيعه العجوز في كل شيء، كما يطيع فتاح فال، فلا يجرؤ على فتح فمه دون استئذانه.

Telegram: @Arab_Books

كان إعجاب العجوز المسكين بابنـه وإجلاله له بلا حدود. وكان يسميـه «بيتينكا»[١٠] فحـين كان يأتي لزيارتـه كان الذهول والرهبة يبدوان عليه دائماً على وجه التقريب، ربما لجهله بما سيجد من ابنه من استقبـال، فكان في العادة يقف وقتاً طويلاً مـتردداً في الدخول، وإذا صادف وجودي هناك كان خلال عشرين دقيقة يسألني كيف بيتينكا، وكيـف صحتـه، وكيف مزاجه، وهـل ينشغل في شـيء مهم؟ وماذا يفعـل بالضبـط؟ وهل يكتب أم ينهمك في تأمـلات؟ وحين اثلجَّ قلبه واطمئنـه بما فيـه الكفاية يعقد أمره أخيراً علـى الدخول، فيفتح الباب بهدوء وحذر شديد، ويدخل في البداية رأسه فقط، وحين يرى أن ابنه لا يبـدي غضبه، ويهز له رأسـه محيياً، عندئذ فقط كان يدخل الحجرة، ويخلـع معطفـه، وقبعته المدعوكـة دائمـاً المثقَّبة، الممزقـة الحواشي، ويعلقهما على المشجب، بهدوء ودون أن يحدث صوتاً، ثم يقعد على مقعـد بحذر، ودون أن يصرف بصره عن ابنه، ويلتقط كل حركة يريد أن يحدسـ مزاج ابنه «بيتينـكا». وإذا كان الابن متعكر المزاج قليلاً، والعجـوز قد لاحظ ذلك، ينهض من مكانه في الحال، ويعلن موضحاً « جئـت لدقيقة لا غير، يا بيتينكا، فقد سـرت مسافة طويلة، ومررت بمنزلك، ودخلت لألتقط أنفاسي». وبعدها كان يتناول معطفه وقبعته بصمت وخضوع، ويفتـح الباب بهدوء مرةأخرى، وينصرف مرغماً نفسـه على الابتسام، يكبح دفقة الأسى المعتملة في قلبه، ويخفيها عن ابنه.

ولكن حـين كان الابن يستقبل أباه بترحـاب، في بعض الأحيان، كان الفرح يطغـى عليه ويذهله عن نفسه. ويطل الارتياح من وجهه،

---

١٠. اسم التدليل من بيوتر. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وإيماءاتــه، وحركاته. وإذا مــا تكلم معه ابنه كان العجــوز دائماً يرفع جسمــه عن المقعد قليلاً، ويرد بهدوء ومواتاة وإجلال، ويحاول دائماً أن يستخــدم أكــثر التعابير انتقاء، أي أكثرها إضحــاكاً. ولكنه لم يكن موهوبــاً في الكلمات، فكان دائماً يرتبك، ويتهيب، فلا يعرف كيف يتصــرف بيديه، ولا ماذا يفعل بنفسه، وفيما بعد كان يهمس بالجواب بخفــوت ولفــترة طويلة، وكأنه يريــد أن يصحح نفســه. وإذا ما وُفّق في الجــواب، أخذ يتهندم، وعــدَّل من وضع صــداره، وربطة عنقه، وسترتــه، واتخــذ هيئه العزة بالنفــس، وأحيانــاً كان يتشجع ويشحذ جرأته حتى ينهض من مقعده بهدوء، ويتقدم من رف الكتب، ويأخذ منــه كتاباً ويشرع بقراءة شيء منــه، مهما يكن هذا الكتاب. يفعل كل ذلــك بلا مبالاة مصطنعة وبرود. وكأنمــا كان في مقدوره أن يتصرف دائماً بكتب ابنه تصرف المالك لها، وكأنّ تَبَسُّطَ ابنه معه ليس أمراً غير معهــود. لكن صادفت أن رأيت كيف ذعــر هذا المسكين حين طلب إليه بوكروفسكي ألّا يمس الكتب. ارتبك العجوز واستعجل، ووضع الكتــاب رأساً على عقب، ثــم أراد أن يعدِّله، فقلبه ووضعه وحاشيته المفتوحــة إلى الخــارج، وابتسم واحمر، ولم يعــرف كيف يخفف من جريرتــه. وكان بوكروفسكي بنصائحه ينفِّر العجوز قليلاً من رذائله، ومــا إن يــراه مرتين أو ثلاث مرات متتاليــة في حالة صحو حتى يقدم لــه، عند التوديع، ربه أو نصــف روبل أو أكثر. وأحياناً كان يشتري له حذاء طويل الساق أو ربطــة عنق أو صداراً. وعندئذ كان العجوز في لباسه الجديــد يتبختر كالديك. وأحياناً كان يعــرّج علينا، ويجلب لي ولساشــا كعكات على هيئة ديوك، وتفاحاً، ويتحدث معنا عن بيتينكا على الدوام.

Telegram: @Arab_Books

ويطلب منـا أن ندرس باهتمـام، ونلتزم بالطاعـة، وكان يقول إن بيتينـكا ابن مثـالي، ابنٌ على قدر رفيـع من العلم. وعندئـذ كان يغمز لنا بعينيـه اليسرى بشكل مضحك، ويحـرك صفحة وجهه بحركات فكهـة حتى كنا لا نستطيع أن نكتم ضحكنـا، فنسترسل من كل قلبينا في الضحـك منه. وكانـت أمي تحبه كثيراً. ولكـن العجوز كان يمقت آنـا فيدوروفنا، رغم أنه كان في حضرتها أسلس من الماء، وأطرى من العشب.

بعـد قليل من الوقت تركت التعلم لدى بوكروفسكي. وكان، على سابق عهده، يعتبرني طفلـة، صبية عابثة على مستوى واحد مع ساشا. وكان ذلـك يؤلمني كثيراً، لأنني كنت أسعـى، بكل قواي، إلى أن أُكفّر عـن سلوكي السابق. ولكنه لم يلحظ جهودي، مما كان يزيد من غيظي اكـثر فأكثر. كنت لا أكاد أكلم بوكروفسكي خارج ساعات الدروس، وما كان في مستطاعي أن أكلمه. فقد كنت أحمر، وأرتبك، ثم أنزوي في ركن أبكي من الكدر.

لا أعـرف بم كان سينتهي هذا كله إن لم يسعفنا ظرف غريب في لَمِّ شملنـا. ذات مساء، حين كانت أمي جالسة عند آنا فيدوروفنا دخلت حجـرة بوكروفسكي خلسة. كنت أعرف أنه خارج البيت، ولكنني، في الحقيقة، لم أدر ما الذي وسوس لي للدخول إلى هناك. وكنت، حتى ذلـك الحين، لم أدخل حجرته، رغم أنـه كان جارنا منذ أكثر من عام. في تلـك المرة خفق قلبي خفقاناً شديداً حتى بدا لي وكأنه كان يريد أن يطفر من صدري. نظرت فيما حوالي بفضول زائد.

كانت حجرة بوكروفسكي بائسة الأثاث جداً، قليلة النظام. دُقت

Telegram: @Arab_Books

على الجـدران خمسة رفوف طويلة للكتـب، والأوراق على المنضدة والمقاعـد. وفي كل مكان كتب وأوراق ! راودتنـي فكرة غريبة، كما استحـوذ علـيَّ شعور بالكدر غـير مريح. وبـدا لي أن صداقتي وقلبي المحـب قليلان عليه. لقد كان عالمـاً، بينما كنت بليدة، لا أعرف شيئاً، ولا أقـرأ شيئـاً، وحتى لـو كتاباً واحـداً... عندئذ نظـرت بحسد إلى الرفوف الطويلة التي كانت تنـوء الكتب. استولى عليَّ كدر ووحشة، واحتـدام. تملكنـي الرغبة، وعزمت في الحال أن أقـرأ كتبه، كلها دون استثناء، وفي أقرب مدة ممكنة. لا أدري، ربما تصوَّرت أنني إذا تعلمت كل مـا كان قد تعلمه، سأكون أكثر استحقاقـاً لصداقته. اندفعت نحو أول مجلـد وقع في يدي، وهو مجلد قديم مغبر، وسرقت هذا الكتاب إلى غرفتي، وأنا محمـرَّة، ممتقعة، أرتجف من القلق والفزع، وعزمت أن أتم قراءته الليلة، مصباح النوم، حين تغفو أمي.

ولكـن كم تكـدرت حين ذهبـت إلى غرفتي وتصفحـت الكتاب بعجالـة، فاكتشفـت أنـه باللاتينية قـديم نصف مهـترئ، أكله العث. عـدت أن أضيِّـع وقتاً. ومـا إن هممت بأن أضـع الكتاب موضعه في الـرف، حتـى سمعت حركة في الممـر وخطوات قريبـة. استعجلت، ولكـن الكتاب المرهق قد حشر بشـدة في صف الكتب، فلما أخرجته تزحزحـت الكتب الأخرى من مكانهـا وتماسكت فيما بينها، لم تترك لصاحبها السابق موضعاً ينحشر فيه الآن، و لم تسعفني القوة على حشر الكتـاب بينها. ومع النظر إلي فقـد ضغطت الكتب بأقوى ما أستطيع، فانكسر المسمار الصدئ الذي كان يسند الرف، والذي يبدو أنه يتعمد انتظار هذه الفرصة. وهوى الرف من أحد طرفيه إلى الأسفل. وتناثرت الكتب على الأرض. انفتح الباب، ودخل بوكروفسكي الحجرة.

Telegram: @Arab_Books

يجب أن أذكر أنه لم يكن يطيق أن يتصرف أحد في ممتلكاته. والويل لمن يمس كتبه! فتصوروا رعبي، حين انهارت على الأرض كتب صغيرة وكبيرة ومن مختلف الأشكال والأحجام والسُمك، وتبعثرت وتقلّبت تحت المنضدة والمقاعد، وفي أرجاء الحجرة كلها. كنت أود أن أهرب، ولكن الأوان قد فات وأول لنفسي: «هذه هي النهاية! انتهيت، وقعت في التهلكة! أنا اعبث واشاكس، مثل صبية العاشرة. أنا فتاة بليدة! أنا في غاية الحمق!!» تمـب بوكروفسكي غيظاً وصرخ: «هذا ما كان ناقصاً! أوه، ألا تخجلين من عبثك بهذا الشكل؟ ... هل ستعقلين في يوم ما؟» واندفع بنفسه يجمع الكتب. انحنيت لأساعده في جمعها. صرخ: «لا حاجة، لا حاجة. أفضل ما كنت ستفعلينه، ألا تدخلي في مكان لم تُدْعي إليه». إلا أن حركتي الطائعة قد خففت من لهجته قليلاً، فمضى يقول أهدأ صوتاً، وبلهجة تعليمية حديثة العهد، مستخدماً حقه القريب العهد كمعلم: «متى ستكونين راشدة. متى ستحكِّمين العقل؟ انظري إلى نفسك/ فأنت لم تعودي طفلة، لست صبية. أنت الآن في الخامسة عشرة!» وعندئذ نظر إليَّ، ربما يريد أن يتأكد من صحة حكمة عليَّ بأنني لست صبية، واحمر حتى أذنيه. كنت في حالة لا أعي فيها، فوقفت أمامه، ألتهمه بكل بصري من الذهول. نهض من الأرض، وتقدم مني بهيئة مرتبكة، كان مرتبكاً بشكل مريع، وتكلم شيئاً، معتذراً من شيء، على ما يبدو، ربما من أنه لم يلحظ انني صرت فتاة كبيرة كما أنا، إلا في هذه اللحظة. واخيراً فهمت. أنا لا أذكر ما حدث لي آنئذ. ارتبكت، أصابني ذهول. واحمررت أكثر من بوكروفسكي، وغطيتُ وجهي بيديَّ، وخرجت من الحجرة ركضاً.

Telegram: @Arab_Books

لم أعرف ماذا بقي عليَّ أن أفعل، وإلى أين أولي وجهي من الخجل. يكفي أنه وجدني في حجرته. ثلاثة أيام كاملة لم أستطع أن أنظر إليه. كنت أحمرُّ إلى حدِّ انبجاس الدموع في عيني. وطافت في رأسي أغرب الأفكار المضحكة. وكانت إحدى هذه الأفكار، هي أكثرها جنوناً، أن أذهب إليه، وأوضح له نفسي، أعترف له بكل شيء، أحكي له كل شيء بصراحة، وأؤكد له أنني لم أفعل ذلك كفتاة بلهاء، بل بنية طيبة. وعقدت العزم كلياً على الذهاب إليه، إلا أن الجرأة، والحمد لله، قد خانتني. إنني أتصور أية ورطة كنت سأقع فيها لو ذهبت. وأنا لحد الآن أخجل حين أتذكر كل ذلك.

بعد بضعة أيام من هذا الحادث أصيبت أمي بمرض شديد مفاجئ. وقد لزمت الفراش يومين، وفي اليوم الثالث أصيبت بحمى وهذيان. لم أنم في إحدى الليالي. أعتني بأمي، أقعد عند سريرها، وأجلب لها ما تشربه، وأقدم لها الدواء في ساعات محددة.

وفي الليلة التالية أُنهكت إنهاكاً كلياً. في أوقات كان النعاس يغلبني، وتلتصق عيناي، ويدور رأسي، فكنت في كل لحظة أوشك على السقوط من الإعياء، إلا أنّ تأوهات أمي الواهنة كانت توقظني، فارتعد واستيقظ لحظة، ثم يغلبني النعاس مرة أخرى. كنت أتعذب. لست أدري -لا أستطيع أن أتذكر- ولكن حلماً رهيباً، رؤيا مريعة كانت تنتاب رأسي المثقل في تلك اللحظة المرهقة من الصراع بين النوم واليقظة. فكنت أستيقظ مذعورة. كانت الغرفة مظلمة، وسراج الليل على وشك الانطفاء، وكانت خطوط الضوء تارة تغمر الغرفة فجأة، وتارة تتوامض على الجدار باهتة، وتارة تختفي تماماً.

Telegram: @Arab_Books

وشعـرت بخوف من شيء مـا، وانتابني فزع، وأثـار الحلم المريع خيالي، وسحقت الوحشة قلبي ... وثبت قافزة من المقعد، ووجدتني أضرخ مـن شعور معذب مرهق بشكل رهيب. وفي تلك اللحظة فُتِح الباب ودخل بوكروفسكي غرفتنا.

لا أتذكـر سـوى أننـي أفقت على ذراعيـه. أجلسنـي على المقعد باحتراس، وقدم لي قدح ماء، وأمطرني بالأسئلة. لا أتذكر بماذا أجبته. قال وقد أمسك يدي: « أنت مريضة، أنت نفسك جد مريضة. عندك حـرارة. أنت تقتلين نفسك، ولا ترأفين بصحتك. اهدئي، استلقي، خـذي غفوة. سأوقظك بعـد ساعتين. اهدئي قليـلاً... هيا استلقي، استلقـي» ظـل متدفقاً في حديثه دون أن يمهلنـي لأقول كلمة أعترضه بهـا. سلبنـي التعب آخر ما لـديَّ من قوة. كانت عينـاي تنغلقان من الضعف. انطرحت على المقعد عازمة على أن أغفو نصف ساعة فقط، ولكنني نمـت حتى الصباح. ولم يوقظنـي بوكروفسكي إلا حين حلَّ وقت تقديم الدواء لأمي.

في اليوم التالي، بعد أن استرحـت قليلاً في النهار، وتهيأت من جديد للقعـود عند سرير والدتي، موطدة العزم تمامـاً على ألا أستسلم للنوم، طـرق بوكروفسكي الباب. فتحـت الباب، فقـال لي : «ستضجرين وأنت قاعدة لوحدك، فهناك كتاباً سيخفف من ضجرك».

أخذت الكتاب، ولا أتذكـر أي كتاب كان. ولا أظنني قد نظرت فيـه حينئذ، رغم أننـي أرقت الليل كله. فـإن قلقاً داخليـاً غريباً كان يـذود النـوم عنـي، ولم يكن في وسعـي أن أمكث في مـكان واحد، فكنـت أنهض من المقعد عدة مرات، وأشـرع في الرواح والمجيء في

Telegram: @Arab_Books

الغرفـة. واستولت قناعة داخلية غريبة على كيـاني كله. لأنني سررت كثـيراً باهتمام بوكروفسكـي. وامتلأت فخراً بقلقـه وانشغالاته بي. فاسترسلـت بالتفكـير والحلم طوال الليل. لم يـأت بوكروفسكي مرة أخـرى، وكنت أعرف أنه لـن يأتي، ورحت اتصـوَّر بالحدس المساء المقبل.

في المساء التالي، حين هجـع جميع أهل البيت، فتح بوكروفسكي البـاب، وشرع يتحدث معي واقفـاً عند عتبة حجرتـه. وأنا لا أتذكر الآن أيـة كلمـة مما قالـه أحدنا للآخـر آنـذاك، لا أتذكر سـوى أنني خجلت وارتبكت، وتكدرت على نفسي، وانتظرت بنفاد صبر انتهاء المحـاورة، رغـم أنني كنت أودهـا بكل ما لدي من قـوة، وأحلم بها طـوال النهار، وأختلق الأسئلة والأجوبة... ومن ذلك المساء انعقدت العروة الأولى لصداقتنا. وطوال المدة التي مرضت فيها أمي كنا نقضي بضـع ساعات من كل ليلة سويـة. وتغلبت على خجلـي شيئاً فشيئاً، رغـم أنني كنـت أغتاظ من نفسي لشيء ما بعـد كل حديث لنا. ومع ذلك فقد رأيت بفـرح خفي وارتياح فخور أنه بسببي كان يغفل كتبه البغيضة. وذات مرة تطـرق الحديث عرضاً وللمزاح إلى سقوطها من الرف. كانت لحظة غريبة، كنت فيها صريحة ومفتوحة القلب أكثر من اللازم. فقد جرفتني فورة وحماس غريب، واعترفت له بكل شيء... بأننـي كنت راغبة في أن أتعلم، وأن أعرف شيئاً ما، وبأنه كان يغيظني أن أُعتـبر صبيـة، طفلـة... أكرر: إننـي كنت في مـزاج غريب جداً، والرقـة تغمر قلبي، والدمـوع تترقرق في عيني، و لم أخـف شيئاً، بل حكيت كل شيء، عن صداقتي له، عن رغبتي في أن أحبه، وأهبه قلبي مثلمـا يهبني قلبه وأُسرّي عنه وأبث الطمأنينة فيه. وكان ينظر إليَّ نظرة

Telegram: @Arab_Books

غريبـة على نحو ما، بشرود وحـيرة، و لم يقل لي كلمة واحدة. عندئذ أحسسـت بـألم مفاجئ مريع وبحـزن. فقد خيل إليّ أنـه لا يفهمني، ولربما يضحك مني. فجأة أخـذت أبكي، كالطفلة أجهشت بالبكاء، و لم أستطـع أن أضبط نفسي، وكأنني في نوبـة عصبية. أمسك يديَّ، وقبّلهما، وضغطهما على صدره، وشرع يهدئني، ويخفف عني، فقد تأثر كثيراً. وأنا لا أذكر ماذا قال لي، إلا أنني ظللت أبكي ثم أضحك، ثـم أعود إلى البكاء وأحمر، وقد عقد الفرح لساني، فلم أستطع التفوه بكلمـة. ومع ذلك، ورغم انفعالي لاحظت أن بوكروفسكي، على أية حال، ما يزال على شيء من الارتباك والتحرج. يبدو أنه لم يكن قادراً على قهـر اندهاشه من سروري، من شدة غبطتـي، من محبتي المفاجئة الساخنة اللاهبة.

ربمـا كان في البداية مأخوذاً بالفضول ليس غير، وفيما بعد تلاشى تردده، وراح يتقبل تعلقي به، كلماتي الحفية، التفاتتي، بنفس شعوري البسيـط الصريح نحـوه، ويرد كل ذلك بنفسـ الالتفاتة، بنفس المودة والحفاوة، كصديق مخلصـ لي، كأخ عزيز عليَّ. وكم من عمر الدفء والهنـاءة قلبي! و لم أكتـم، و لم أخفِ في نفسي شيئـاً، وكان يرى كل ذلك، فيزداد تعلقه بي يوماً بعد يوم.

لا أتذكـر، في الحقيقة، عمَّ كنا نتحـدث في تلك الساعات المعذبة والحلـوة في الوقـت ذاته، ساعـات لقاءاتنا ليـلاً، في ضـوء المصباح المرتعش، ونحن لا نكاد نبتعد عن سرير أمي المسكينة المريضة!... كنا نتحدث عن كل ما يخطر في بالنا، عن كل ما يفيض به قلبانا، ويتوسل إلى الخروج على لساننا، وكنا سعيدين تقريباً... آه، لقد كان ذلك زمناً

Telegram: @Arab_Books

حزينــاً وبهيجاً، على حد ســواء، ومن المحزن والمبهــج لي أن أتذكره الآن. الذكريــات عذاب دائماً، ســواء أكانت سارة أو مرة، بالنسبة لي علــى الأقل، إلا أنه عــذاب لذيذ. وعندما يثقل علــى القلب ألم وعناء وحزن تنعشه الذكريات، وتبث الحياة فيه، مثلما تنعش قطرات الندى في مســاء بليل زهــرة بائسة ذابلة، وتبث الحياة فيهــا، بعد أن سفحتها وقدة الحر في النهار القائظ.

كانت أمي تتماثل للشفاء، ولكنني ظللت أُلازم سريرها في الليالي. وكان بوكروفسكــي غالباً ما يقدم لي الكتب، فكنت أقرأ، في البداية، لأذود النــوم عني، وبعد ذلك كنــت أقرؤها بانتباه أشــد ثم بتعطش. وفجأة انفتح أمامي الكثير من الأشياء الجديدة غير المعروفة لي من قبل. وانثالــت على قلبي أفــكار جديدة، وانطباعات جديــدة دفعة واحدة كالسيل الدافق. وكلما كان يقتضيني تقبل الانطباعات الجديدة المزيد من القلق، والمزيــد من الانفعال والجهد كانت هذه الانطباعات تزداد عــزة عندي، وتهمز روحي كلها. كانــت تنهمر في قلبي فجأة وبدفق أن تــترك له راحة. وأخذت فوضى غريبة، عمَّ كنا نتحدث كله، إلا أن هذا العنف الروحي لم يبقي الوقت ذاته ما كان يستطيع أن يضعضعني كلياً. فقد مصباح المرتعش جداً، وهذا الذي أنقذني.

المسكينــة، المريضة، شفيت أمي انقطعــت لقاءاتنا المسائية طويلة، وكنــا أحياناً نوفِّق في تبــادل كلمات فارغة وقليلــة الأهمية، ولكنني كنــت أجعل لكل شيء أهميته، قيمته الخاصــة، وكانت حياتي مليئة، وكنــت سعيدة سعــادة. وعلى هــذا الحــال انقضت عــدة أسابيع... وجاء إلينــا بوكروفسكي العجوز. وثرثر كان غــير مؤلوف من المرح

Telegram: @Arab_Books

والنشاط مبادلة الحديث. ضحك، ومزح على اخيراً، افضى بسر بهجته، وأعلن لنا أن بيتينكا سيحل بعد أسبوع، وسيأتي إلي بالمناسبة، بالتأكيد، وسيلبس صداراً من زوجته وعدته بشراء حذاء جديد له.

ول أن العجوز كان مفعماً بالسعادة، وراح ما كان يخطر في باله. ! لم يترك لي عيد الميلاد هذا راحة ليلاً نهاراً. عقدت العزم على ان اذكر بمحبتي، فاهدي له شيئاً. ولكن اي رأيي، اخيراً، على أن أهدي له بعض أعرف أنه كان يريد أن يقتني الطبعة الأخيرة من مؤلفات بوشكين الكاملة[١١]، فقررت أن أشتريها له. كانت عندي حوالي ثلاثين روبلاً عن نقودي الخاصة كسبتها بالخياطة. وكنت خصصت هذه النقود لفستان جديد. أسرعت في الحال بإرسال طباختنا العجوز ماترونا لتعرف سعر مؤلفات بوشكين الكاملة. ويا للمصيبة! كان سعر المجلدات الإحدى عشرة كلها مضافاً إليها ثمن التجليد زهاء ستين روبلاً على أقل تقدير. فمن أين آخذ هذه النقود؟ فكرت دون أن أهتدي إلى حل. لم أرد ان أطلب نقوداً من أمي. كانت أمي تساعدني بالتأكيد، ولكن سيعرف جميع أهل البيت آنذاك بهديتنا، وستنقلب هذه الهدية فضلاً عن ذلك إلى نوع من ردّ المعروف، إلى أجرة سنة كاملة من جد بوكروفسكي. كنت أريد أن أهدي لوحدي، ودون أن يعرف الآخرون. أما جهوده معي فقد كنت مدينة له بها طوال عمري، دون أي أجر مهما يكن، ما عدا محبتي. وأخيراً عرفت كيف أخرج من الصعوبة.

١١.المقصور هنا هي الطبعة الأولى لمؤلفات الشاعر الروسي العظيم أ . بوشكين (١٧٩٩-١٨٣٧) الصادرة بعد وفاته في سان بطرسبورغ في أعوام ١٨٣٨-١٨٤١ في احد عشر مجلداً. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

كنت أعرف أن من الممكن للمرء أن يشتري من مكتبات الكتب المستعملة في غوستيني دفور[١٢] بنصف السعر أحياناً كتاباً لم يستعمل كثيراً وجديداً تقريباً، إذا أحسن المشتري المماكسة على السعر. فعزمت على الذهاب إلى غوستينّي دفور حتماً. وهذا ما حدث. في الغد كان علينا أن نشتري حاجة لنا، كما أن آنا فيدوروفنا تحتاج إلى شيء ما أيضاً. وكانت أمي متوعكة الصحة، أما آنا فيدوروفنا فقد تكاسلت لحسن الحظ، فاقتضى وضع الأمر كله على عاتقي، فذهبت بصحبة ماترونا.

من حسن الطالع أنني وجدت مؤلفات بوشكين بسرعة كبيرة، وفي تجليد جميل. أخذت أماكس. في البداية طلبوا سعراً مما في الدكاكين، ولكنني فيما بعد، وليس بدون عناء، وبعد انصراف عدة مرات، جعلت البائع يخفض السعر، ولا يطلب غير عشرة روبلات فضية. وكم تمتعت بالمماكسة!... لم تفهم المسكينة ماترونا ماذا يحدث معي، وماذا طرأ على فكري لأشتري كل هذا العدد من الكتب. ولكن ياللفظاعة! لأن رأسمالي لم يكن يتجاوز ثلاثين روبلاً من الأوراق المالية. بينما التاجر لم يوافق قط على أن يتنازل إلى سعر أرخص. وأخيراً لجأت إلى التوسل، فرجوته وتوسلت إليه حتى نجح توسلي. فتنازل، ولكن عن روبلين ونصف فقط، وأقسم على أنه يقوم بهذا التنازل من أجل خاطري فقط، ولأنني آنسة حلوة رفيعة المقام، وما كان ليفعل ذلك لأي شخص آخر. ما زال ينقصني روبلان ونصف! وكدت أبكي من التكدر. إلا أن ظرفاً غير متوقع أبداً أعانني من محنتي.

---

١٢. حتى الدكاكين والمحلات التجارية. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

عنـد منضدة محملة الكتـب، غير بعيد عني، رأيـت بوكروفسكي العجوز. كان أربعة أو خمسة من باعة الكتب يتجمهرون حوله، وقد سلبوه آخـر ما لديه من حصافة، وأربكوه إرباكاً تاماً. كان كل واحد منهم يعرض عليه بضاعته، حتى لا تجد نهاية لمـا يعرضونه، ولا حداً لمـا كان هو أن يشتريه! كان العجوز المسكين يقف في وسطهم، وكأنه شخص ساهي الفكر لا يعرف ماذا يأخذ مما يعرضونه عليه.

تقدمـت منه، وسألته ماذا يفعل هنا؟ سُرَّ العجوز بي سروراً عظيماً، وكان يحبني حباً لا حد له، ربما، لا يقل عن حبه لابنه بيتينكا. أجابني: « ها، أنا اشتري كتباً، يا فارفارا الكسييفنا، أشتريها لبيتينما. عن قريب سيحـل عيد ميلاده، وهو يعشق الكتب، وهـا أنا أشتريها له...» كان العجوز يعرب عما في نفسه بشكل مضحك دائماً، وهو الآن في حالة فظيعة من الارتباك فضلاً عن ذلك. إذ كلما سأل عن سعر كتاب، فهو روبل فضي، أو روبلان أو ثلاثة روبلات فضية، أما الكتب الكبيرة فلم يسأل عن ثمنها، بل كان يكتفي بالنظر إليها مشتهياً ويورّق صفحاتها بأصابعه، ويقلبها في يديـه، ويضعها ثانية في مكانها، ويقول بصوت خافـت «لا، لا. إنها غالية. ولكـن ربما يوجد شيء هنا» فيأخذ بانتقاء كراسات قليلة الورق، وكتب أغان، وحوليات. فقد كانت هذه كلها رخيصة جداً. سألته: «ولكن لماذا تشتري كل ذلك، انظري أية كتيبات جميلة هذه، جميلة جداً جـداً!». وقد مدَّ الكلمات الأخيرة بتهدج، حتـى خيل إليَّ أنه على وشك أن يبكـي ضيقاً من غلاء هذه الكتيبات الجميلـة، وبعد لحظة ستسقط من خديـه الشاحبين على أنفه الأحمر، سألته: هل لديك فلوس كثيرة؟

« ها هي – وأخرج المسكين نقوده الملفوفة في قصاصة متسخة من

Telegram: @Arab_Books

جريـدة – هذا نصف روبل، وقطعة من فئة عشرين كوبيكاً، وعشرون كوبيـكاً من النحاس». أخذته في الحـال إلى البائع الذي كنت أتعامل معـه. وقلت له : « هذه مجموعة كاملة مـن أحد عشر مجلداً لا يتجاوز ثمنهـا اثنين وثلاثين روبلاً ونصفاً. عنـدي ثلاثون روبلاً، فأضف من عندك روبلين ونصف وسنشتريها ونقدمها بمجموعها هدية منا، نحن الاثنـين». جُـنَّ العجوز من الفـرح، ودلق نقوده كلهـا. حمَّله البائع مكتبتنـا المشتركة هذه بـكل مجلداتها. حشر العجـوز المجلدات بكل جيوبـه، وتحت إبطيه، وأثقل بها يديه، وأخذها إلى بيته، بعد أن أعطى كلمة بأن يجلب كل الكتب إليَّ بالخفاء في اليوم التالي.

في اليوم التالي جاء العجوز إلى ابنه، وجلس عنده زهاء ساعة، على مالـوف عادته، ثم جـاء إلينا، وجلس إليَّ في هيئـة غامضة فكهة. في البدايـة أعلن مبتسماً فاركاً يديه بارتياح فخـور من أن لديه سراً، وهو يقـول إنه جلب كل الكتب إلينا دون أن يفطـن إليها أحد، وإنها الآن في ركـن من المطبخ تحـت رعاية ماترونا. ثم تحـوَّل الحديث، بالطبع، إلى العيد المنتظر، وتحدث العجوز بإفاضة كيف سنقدم الهدية، وكلما استرسـل متعمقاً في موضوعـه وازداد إطناباً فيه، توضـح لي أكثر أنه يضمـر شيئـاً في نفسه لا يستطيـع ولا يجرؤ بل ويخـاف البوح فيه. ظللت صامتـة طوال الوقت أنتظر. تلاشى الفـرح الخفي، والارتياح الباطني الـذي كنت أقرؤه من قبل بسهولة فيإيماءاته الغريبة، وسحنته، وغمزه بعينه اليسرى. وظلَّ يفتر باستمرار، ويكمد، وخايراً لم يحتمل أكثر، فبدأ يقول بتهيب وصوت خافت:

– أرجوك .... أرجوك، يا فارفارا الكسييفنا...

Telegram: @Arab_Books

أتعرفـين، يـا فارفـارا الكسييفنـا؟ .... – كان العجـوز في غاية الارتبـاك – الأمـر كالآتي: حين يحل عيد ميـلاد، خذي عشرة كتب وقدميها لـه بنفسك، أقصد هدية منك، مـن جانبك. وعندئذ سآخذ المجلـد الحادي عشر المتبقي، وأهديه له أيضـاً، أقصد هدية خاصة من جانبـي. عندئذ ستكون لك ما تهديه، كما سيكون لي ما أهديه أيضاً. وسيكـون لنا كلينا ما نهديه – وهنا ارتبك العجوز، وسكت. تطلعت إليـه. كان ينتظر حكمي بتوقع متهيب. «ولكن لماذا لا تريد أن نقدم، هدية مشتركة، يا زاحار بتروفيتش؟» – «لاشيء، يا فارفارا الكسييفنا، مجـرد ... يعني... أنا، تعرفـين ...» وخلاصة القول تلجلج العجوز، واحمر، وحُصِر عليه في جملته، و لم يستطع أن يتحلحل منها.

وأخيراً أفصح قائلاً:

– أنا، يافارافارا الكسييفنـا، أعبث أحياناً ... يعني، أريد أن أقول لك أننـي دائماً تقريباً أعبث، أسرف باستمـرار ... أقدم على ما ليس طيبـاً ... يعني، أنت تعرفين ... تحصل نوبـات برد خارج البيت، بل وتحصـل أحياناً منغصات من كل الأنـواع، أو يخيم على القلب حزن شديـد، أو يحـدث مكروه، فلا أستطيع أن أسيطـر على نفسي أحياناً فأعبث، وأشرب أحياناً أكثر من اللازم. ويستاء بيتينكا من ذلك كثيراً. فيغضـب، كما تعرفـين، يافارفـارا الكسييفنا، ويشتمنـي، ويرشدني ويلقي المواعظ المختلفة.

ولهـذا أود الآن أن أثبت له بنفسي، وبهديتي هذه، أنني أصلح من شأني وأبدأ بسلـوك الطريق المستقيم. وإنني ادخـرت لأشتري كتاباً، ادخرت وقتاً طويلاً، لأنني لا أملك أية نقود تقريباً، سوى ما يعطيه لي

Telegram: @Arab_Books

بيتينكا من بعض النقود. إنه يعرف ذلك، وبالتالي سيرى كيف أنفقت نقودي، وسيعرف أنني أفعل كل هذا من أجله وحده.

أشفقت على العجوز إشفاقاً شديداً. و لم أطل التفكير. كان العجوز ينظر إليّ بقلق. قلت: «اسمعني، يازاخار بتروفيتش، اهد له الكل!». - «كيف الكل؟ تقصدين كل الكتب؟ ... »« نعم، كل الكتب» -« وكهدية مني؟» . «كهدية منك» - «مني وحدي؟ يعني باسمي؟»- «بالطبع باسمك...» كنت أتكلم بوضوح شديد، كما يبدو، ولكن العجوز ظل وقتاً طويلاً غير قادر أن يفهمني.

«نعم، - قال باستغراق- نعم. سيكون ذلك رائعاً جداً، سيكون في غاية الروعة، ولكن أنت، يا فارفارا الكسييفنا؟»- « حسناً، لا أهدي له شيئاً»، صاح العجوز كالمذعور:(كيف! لا تهدين له شيئاً، لا تريدين أن تهدي له شيئاً؟». وارتعب العجوز، وفي تلك اللحظة بدا مستعداً لأن يتخلى عن عرضه لكي أستطيع أنا أيضاً أن أهدي لابنه شيئاً. كم كان طيبَ القلب هذا العجوز! أكدت له أنني سأكون مسرورة لو أهدي له شيئاً، ولكنني لا أريد أن أحرمه من المتعة. وأضفت قائلة: « وإذاً سيرتاح ابنك، وستُسر أنت، فسأكون أنا أيضاً مسرورة، لأنني في سري، في قلبي، سأشعر وكأنني قدمت هدية بالفعل». وهدأ العجوز كلياً بقولي هذا. مكث عندنا ساعتين أخريين، ولكنه ظل غير قادر على أن يستقر في مكان واحد، فكان ينهض، ويتحرك، ويضوضئ، ويشاكس ساشا، ويقبلني خطفاً، ويقرص يدي، ويمط وجهه لآنا فيدوروفنا. حتى طردته آنا فيدوروفنا أخيراً من البيت. وخلاصة القول أن العجوز استخفه الفرح، ربما، على نحو لم يسبق له مثيل.

في اليوم المنشود جاء في تمام الحادية عشرة قادماً، من القداس رأسا، وقد ارتدى سترة فراك مرفأة بشكل جيد، وصداراً وحذاء جديدين، بالفعل، وقد حمل بكل يد إضبارة من الكتب وكنا وقتئذ جالسين جميعاً في الصالة عند آنا فيدوروفنا، نحتسي القهوة (كان ذلك يوم أحد). بدأ العجوز القول، على ما أظن، من أن بوشكين شاعر مجوّد جداً، ثم تحول فجأة وهو يتلجلج ويرتبك، إلى القول بضرورة التصرف بلياقة، لأن المرء، إذا لم يتصرف بلياقة، فمعنى ذلك أنه بل وعدد بعض الأمثلة المهلكة على الإسراف، وانتهى إلى القول بأنه قد أصلح شأنه تماماً منذ بعض الوقت، وأنه الآن يسلك السلوك الصائب الأمثل، وأنه حتى من قبل كان يشعر بصواب إرشادات ابنه، شعر بكل ذلك منذ زمان، وأضمره في قلبه، ولكنه الآن يبدأ يمسك قياد نفسه بالفعل. وبرهاناً على ذلك يهدي الكتب من النقود التي وفَّرها، خلال زمن طويل.

لم أستطع أن أكتم دموعي وضحكي، وأنا أسمع العجوز المسكين، فقد استطاع أن يكذب، حين اقتضت الحاجة! نُقلت الكتب إلى حجرة بوكروفسكي، وصُفت على الرف. وحدس بوكروفسكي الحقيقة على الفور. دُعي العجوز على الغداء. كنا في ذلك اليوم مرحين جميعاً. وبعد الغداء لعبنا لعبة القرعة والورق. انطلقت ساشا في حبورها، ولم أتخلف عنها. كان بوكروفسكي يبدي اهتماماً بي، وقد ظل طوال الوقت ينتهز الفرصة للتحدث معي على انفراد، ولكنني أتحاشى ذلك. لقد كان ذلك أحسن يوم في تلك الأعوام الأربعة من حياتي.

الآن تأتي الذكريات الحزينة المرهقة، إذ سأبدأ بالحديث عن أيامي

Telegram: @Arab_Books

السود. ولربما لهذا السبب تأخـذ ريشتي بالتحرك ببطء أكثر، وكأنها ترفضـ أن تكتب عما جرى بعد ذلك. ولربما لهذا السبب أيضاً كنت أقلّب في ذاكرتي بمثل هذا الشغف والهيام أصغر تفاصيل وقائعٍ حياتي الصغـيرة في أيامـي السهيدة. وكانـت أياماً قصيرة جـداً، حلّ بعدها الشقـاء، الشقـاء الأسـود الذي لا يعرف متـى ينتهـي إلا الله. بدأت متاعبي بمرض ووفاة بوكروفسكي.

أصيـب بالمرض بعد شهرين من الوقائع الأخيرة التي وصفتها هنا. في هذين الشهرين جاهـد بلا كلل ليوفر مستلزمات الحياة، لأنه حتى ذلـك الحين لم يكن لديه مركز محدد. ومثل جميـع المسلولين لم يتخل حتى آخرِ لحظة في حياته عن الأمل في أن يعيش عمراً مديداً آخر. وجد لـه عملاً كمعلم، ولكنه كان ينفر من هـذه المهنة. والخدمة في وظيفة حكومية فوق طاقته بسبب اعتلال صحته. فضلاً عن أنه كان سيضطر إلى انتظـار الراتب الأول مدة طويلة. وباختصار كان بوكروفسكي لا يرى غير الإخفـاق في كل مكان، فساء طبعـه. وتضعضعت صحته، ولكنـه لم يلحظ ذلك. وحلّ الصيف، وكان يخرج كل يوم في معطفه الخفيـف، يتشفع ليجد عملاً، يترجى ويتوسـل لنفسه وظيفة، مما كان يضنيـه في دخيلة نفســه. وكان البلل يتسرب إلى قدميـه، والمطر يُنقع ثيابـه، وأخـيراً وقع طريح الفراش، و لم ينهض منه قـط ... توفي في أواسط الخريف، في نهاية تشرين الأول.

لم أبرح حجرته تقريباً، طيلـة مرضه، أعتني به وأخدمه. وغالباً ما أسهـر ليالي بكاملها. وكان لا يفيق إلى وعيه إلا نادراً، وغالباً مايكون في حالة هذيان، يتحدث بكل ما يرد على لسانه، عن عمله، عن كتبه، عني، عـن أبيه... وخلال ذلـك سمعت الكثير عـن ظروفه، لم أكن

Telegram: @Arab_Books

أعرفهـا من قبل، بل و لم أخمنها تخمينـاً. في الفترة الأولى من المرض كان أهـل بيتنا جميعاً ينظرون إليَّ بغرابة، وكانـت آنا فيدوروفنا تهز رأسهـا. ولكنني قابلـت نظراتهم بنظـرات في عيونهـم، فكفوا عن إداتني على عطفي نحو بوكروفسكي او على الأقل كفت أمي.

كان بوكروفسكي يتعرف على شخصي، ولكن ذلك كان يحصل نـادراً. كان في غيبوبة طيلـة الوقت تقريباً. وفي بعض الأحيان كان يتكلم ليالي كاملة مع مخاطب غير منظور لوقت طويل جداً، وبكلمات غامضـة مبهمة، فيتردد صوته المبحوح احـم في حجرته الضيقة. كما في تابـوت، وعندئذ كانـت الرهبة تمتلكنـي. وفي الليلة الأخيرة على الأخـص كان في حالة شديـدة من التهيج، فقـد كان يتعذب بشكل مريع، ويعاني، وكانت أنّاته تمزق روحي. وكان جميع أهل البيت على مثل هذه الحالة من الفزع. ظلت آنا فيدوروفنا تصلي ليأخذه الرب في أسـرع وقت. استدعينا طبيباً. فقال الطبيـب أنه سيموت عند الصباح بالتأكيد.

قضـى بوكروفسكـي الليلة كلهـا في الممر، عند بـاب حجرة ابنه تماماً. فقد فرشوا لـه هناك حصيرة. وكان يدخل الحجرة من لحظة إلى أخرى، ومنظره مفزع للغاية. فقد أمضت به المصيبة حتى أنه كان يبدو فاقـد الإحساس، فاقد الذهن تمامـاً. كان رأسه يهتز من الهلع. وكيانه كلـه يرتجف، وكان لا يزال يهمس في سـره بشيء، ويتناقش مع نفسه بشيء. وخيل إليّ أن الفاجعة ستفقده عقله.

قبيـل الفجر رقد العجوز على حصيرته كالميت، وقـد أعياه الألم النفسـي. بعد الساعه السابعة أخذ ابنـه يحتضر، فأيقظت الأب. كان

بوكروفسكـي في وعي تـام، وقد ودَّعنـا جميعاً. فيـا للأعجوبة. لم أستطع أن أبكي، ولكن روحي كانت تتمزق إرباً.

إن لحظاتـه الأخيرة هـي التي عذبتنـي ومزقتني أكثر مـن أي شي آخـر. ظل يطلب شيئاً وقتـاً طويلاً جداً بلسانه المثقـل، و لم أفهم شيئاً مـن كلامه. كان قلبي يتمزق ألماً. بقي ساعـة كاملة مضطرباً، يتشوق إلى شـيء ما ويجاهد أن يأتـي إشاره بيديه المبتردتـين، ثم أخذ يطلب مرة أخرى بصوته العميق الأجش وبنبرة شاكيه، إلا أن كلماته لم تكن إلا أصواتـاً غير مترابطة، ومرة أخـرى لم أستطع أن أفهم شيئاً، أدنيت منـه جميع أهل بيتنـا، وقدمت له مـاء ليشرب، إلا أنه ظـل يهز رأسه بحـزن. وأخيراً فهمت ما كان يريد. كان يسـأل أن تزاح الستارة عن النافـذة، وتفتح صفاقتاها. فلعلـه أراد أن يلقي آخر نظرة على النهار، علـى الدنيـا، على الشمـس. سحبت الستـارة، إلا أن النهـار الطالع كان موحشـاً كئيبـاً، مثل حيـاة المحتضر الآفلة المسكينـة. لا شمس، والسحـب تغطي السماء بكفن ضبابي، فكانت السماء ممطرة عابسة، حزينـة. وكان مطر خفيف يـدق الزجاج، ويغسلـه بخطوط من الماء البـارد الوسخ. كان الجو كابيـاً مظلماً. وأشعة النهـار الشاحب تنفذ إلى الحجـرة بشحة ولا تكاد تزاحم الضوء المرتعش الذي يرسله قنديل الأيقونـات. ومقني المحتضر بأسى شديـد، وهزَّ بأن يشتري له تابوت بسيـط للغاية، وتُستأجر عربة حمولـة. ولسد المصروفات استولت آنا فيدوروفنـا على جميع كتب المتوفي وجميـع حاجياته. دخل العجوز معها في جدال، وضج، وانتزع منها كل ما استطاع من الكتب، وكلأ بهـا جيوبه كلهـا، ووضعها في قبعته، وأينمـا استطاع، وظل يحملها ثلاثة أيام، بل و لم يفارقها حتى حين كان عليه أن يذهب إلى الكنيسة.

Telegram: @Arab_Books

وكان طيلـة هذه الأيام كمن فقد ذاكرتـه، كالمصعوق، لا يفتأ منشغلاً عنـد التابـوت بعناية غريبـة، تارة تعـدل الشريط الورقـي على جبهة الفقيـد، وتارة يشعل الشموع، ويغيرهـا. وكان واضحاً أن أفكاره لم تكـن قادرة على أن تستقر على قرار. لم تحضـر أمي ولا آنا فيدوروفنا الجنّـازة في الكنيسـة. كانت أمـي مريضة، وكانت آنـا فيدوروفنا قد تهيـأت للخروج تماماً، إلا أنها تشاجـرت مع بوكروفسكي العجوز، وتخلفـت. فلـم يحضر الجناز غـيري وغير العجـوز. وأثنـاء الصلاة اعـتراني رعـب مفاجئ، وكأنمـا ذلك تنبـؤ بالمستقبـل. وبعسر شديد تحملت الوقـوف في الكنيسة. وأخيراً أُغلق التابوت، ودق بالمسامير، وحمـل إلى العربـة، وتحركت به العربـة، صاحبته إلى نهايـة الشارع فقط. فإن الحوذي راح يخب بعربته، والعجوز يركض وراءه، ويبكي بصوت عـال، وكان البكاء يهزه، ويتقطع أثنـاء جريه. أوقع المسكين قبعتـه، ولكنه لم يتوقف ليلتقطهـا. وبلل المطر وجهه. والعجوز، على مـا يبدو، لم يكن يحس بسوء الجو، وكان يركض باكياً متنقلاً من هذا الجانب إلى ذلك من العربة. كانت أذيال سترته الطويلة الرثة تتطاير مع الريح كجناحين. وكانت الكتب تبرز من كل جيوبه، وفي يديه كتاب ضخـم كان يمسك به بقوة. وكان المارة يرفعـون قبعاتهم، ويرسمون علامة الصليب. وكان بعضهم يتوقف، ويحملق في العجوز المسكين مدهوشـاً، كانـت الكتـب تتساقط من جيوبـه باستمـرار، وتقع في الوحـل. وكان النـاس يستوقفونه، ويشـيرون إلى ماسقط منه، فكان يرفعه، وينطلق من جديد في أثر النعش. عند منعطف الشارع انضمت إليـه متسوِّلـة عجوز لتشييع الجنـازة معه. استـدارت العربة أخيراً في عطفه، واختفت عن ناظري. عـدت إلى البيت. وألقيت بنفسي على صـدر أمي بلوعة رهيبـة. عصرتها بقوة شديدة بـين ذراعيَّ، وقبلتها،

Telegram: @Arab_Books

وأجهشت بالبكاء، منكمشة عليها مذعورة، وكأنني أجاهد لأمسك في أحضاني آخر صديق لي، ولا أسلمه للموت ... إلا أن الموت بالفعل يحوّم فوق أمي المسكينة! ..

١١ حزيران.

كم أنا ممتنة على نزهة الأمس في الجزر، يا ماكار الكسيفتش! ما أطرى الجو هناك وأطيبه، وما أبدع الخضرة ! خضرة لم أر مثلها منذ زمن طويل، وعندما كنت مريضة كنت أتصور دائماً أنني يجب أن اموت، وأنني سأموت بالتأكيد: فاحكم أنت أي إحساس وأي شعور كان، لا بد، قد راودني يوم أمس! لا تزعل مني، إذا كنت يوم أمس على تلك الحالة من الحزن. لقد كنت مرتاحة طليقة، ولكن لا أدري لماذا أحس بالحزن دائماً في أحسن اللحظات. أما أنني قد بكيت، فذلك شيء تافه، فأنا نفسي لا أعرف لماذا أبكي. أنا أشعر شعوراً مؤلماً ومثيراً للأعصاب. انطباعاتي ممرضة. السماء الشاحبة الخالية من الغيوم، غروب الشمس، سكون المساء، كل ذلك – أنا لا أدري – ولكنني كنت بالأمس ميّالة، بشكل ما، إلى أن أتلقى كل الانطباعات بإرهاق وعذاب، حتى إن قلبي قد اكتظ، وروحي كانت تستجدي الدمع. ولكن لماذا أكتب لك كل ذلك؟ كل ذلك يصعب على القلب الإفصاح عنه، وأصعب من ذلك نقله إلى الآخرين. ولكنك قد تفهمني. حزن وضحك معاً! ما أطيبك ياماكار الكسيفتش حقاً! يوم أمس نظرت في عيني لتقرأ فيها شعوري، وأعجبتك نشوتي. وسواء أكان في أجمة أو طريق معرش أو عند شرط ماء كنت أراك أمامي

تتهندم، وتنظر في عيني دائماً. وكأنك ما لك تُريني ممتلكاتك. وذلك يدل على أن لك قلباً طيباً، يا ماكار الكسيفتش. ولأجل ذلك أحبك. والآن، وداعاً. أنا اليوم مريضة أيضاً. بللت قدمي يوم أمس، فأصابني برد وفيدورا أيضاً أصابتها وعكة، يعني كلتانا مريضة. لا تنسى، وأكثر من زياراتك

المخلصة لك

ف.د.

١٢ حزيران.

يا حلوتي، فارفارا الكسييفنا!

أحسب أنك، يا أُميمتي، تصفين كل ما حدث بالأمس بشعر أصيل. و لم تكتبي غير ورقة من الحجم الاعتيادي. وأضيف إلى ذلكَ أنك حتى في كتابتك القليلة هذه لي، وصفت كل شيء بجودة ولذاذة غير اعتيادية. لقد وصفت الطبيعة، والمناظر الريفية المختلفة، وكل الأشياء الأخرى عن الشعور، أو بعبارة مختصرة، كل شيء، وصفته بشكل جيد جداً. وأنا أفتقر إلى هذه الموهبة. وحتى لو كتبت عشر صفحات فإنني لا أظفر بطائل، ولا أفي بالوصف. وقد جرَّبت ذلك. أنت تكتبين لي، يا شقيقة روحي، أنني إنسان طيب، صافي السريرة، لا أقدر على إلحاق أذى بالقريب، وأقدر فهم نعمة الخالق الموجودة في الطبيعة، وتضفين عليَّ، أخيراً، مختلف المناقب. كل ذلك صحيح، يا أُميمة، كل ذلك صحيح تماماً، فأنا كذلك في الواقع، مثلما تقولين،

Telegram: @Arab_Books

وأعـرف ذلك بنفسي، ولكم حالماً اقرأ هـذا، بالشكل الذي تكتبينه، حتى يتندى قلبي رقة، تلقائيـاً، ثم تتوافد مختلف الخواطر المضنية على ذهنـي. والآن، أصغـي، يا أُميمتـي، إلى ما سأقصه عليـك، يا شقيقة روحي.

لأبدأ حكايتي بذهابي إلى الوظيفة، وأنا لا أتعدى السابعة عشرة من عمـري، وعن قريب سأدخل السنة الثلاثين من سن خدمتي. ولكن لا حاجة إلى القول بأنني استهلكت الكفاية من سترات الخدمة الرسمية. بلغت الرجولة، وازددت حِكماً، ورأيت ناساً، يمكنني أن أقول، بأنني عشـت ورأيت الدنيا، بل وأرادوا ذات مرة أن يرشحوني لنيل نيشان. ولربمـا لا تصدقين، ولكنني لا أكذب عليك حقاً. ومع ذلك فلم أحرم مـن أناس أشرار ! وأقول لك، يا شقيقة روحي، إنني، ولو كنت إنساناً غير متعلم، رجلاً أبله، على ما أظن، إلا أن لي قلباً مثل أي إنسان آخر. فهـل تعرفين، يا فارنكا، ماذا فعل بي ذلك الإنسان الشرير؟ من العيب أن أقـول مـاذا فعل، فاسألي لمـاذا فعل ذلك. فعله لأننـي رجل وديع، ولأننـي هادئ، ولأنني طيب! لم أرق لمزاجه فأصابني ما أصابني. بدأ الأمر من القول بأنك «ياماكار الكسييفتش كذا وكذا» ثم أعقبه القول «لا حاجة لأن تسألوا ماكار الكسيفتتش» حتى انتهى الأمر به الآن إلى القـول «طبعاً إن ماكار السييفتش هـو السبب!» فانظري، يا أُميمتي، كيـف حملني كل شـيء، كان همه أن يجعل من مـاكار الكسييفتش مضرب المثل في دائرتنا كلها. ولم يكتف بجعلي مضرب المثل، بل كاد أن يجعـل مني شتيمة فهزأ من حذائي، ومن بزتي، ومن شعري، ومن قامتـي. كل شيء كان لا يروق له، ويجـب أن يُغير! ثم إن هذا الشيء نفسه كان يتكرر كل يوم من أيام الخلق، ومنذ زمن سحيق. وقد تعودت

على ذلك، لأن من عادتي أن أتعود على كل شيء ولأنني رجل وديع، ولأنني رجل صغير الشأن. ومع ذلك فلأي شيء هذا كله. وهل ألحقت أذى بأحـد؟ وهل انتزعت وظيفة من أحد؟ وهل سودت صفحة أحد أمـام الرُؤساء؟ وهل انتزعت علاوة إضافيـة أحد؟ وهل شهدت على أحـد زوراً؟ ومن الخطيئـة أن تتصوري ذلك، يا أُميمـة ! ومن أين لي ذلـك! ماعليك، يا شقيقتي روحـي، إلا أن تنظري إليّ، فهل أنا أملك مثل هذه القابليات على اللؤم والطموح؟ فلماذا تقع عليّ هذه المكارة؟ وليغفـر لي الرب. أنت ترين فيَّ رجلاً ذا كرامة. أنت أفضل الجميع.بما لا يقاس، يـا أُميمة. ما هي الفضيلة الكبرى للمواطـن؟ قبل أيام أعلن بفستافي إيفانوفيتش في حديث خاص أن اكبر فضيلة مدعاة للاحترام في المواطـن هي قدرته على كسب النقـود. وكان يقول ذلك مزاحاً (وأنـا أعرف أنه مزاح)، والمغزى هو أن لا يكون عبئاً على أحد، و أنا لسـت عبئاً على أحد! فأنا أملك كسرة خبزي، ولو كانت مجرد كسرة خبز حقاً، وأحياناً يابسة، ولكنها مكتسبة بالكدح والعمل، وعن حق وشرف، ولكن لا حيلة في اليد ! فأنا نفسي أعرف أنني أفعل القليل.بما أقوم به من استنسـاخ، ومع ذلك فأنا فخور بذلك. فأنا أعمل، وأريق عـرق جبيني. ثم ماذا في عمـل نساخـاً، إذا أردت وجه الحق! وهل الاستنساخ نقيصة؟ يقولون: «إنه يستنسخ» ويقولون :«الكاتب الفأر يستنسـخ!» فأي جانب غير نظيف في ذلـك؟ كتابتي واضحة جميلة تسـر العين، وفخامته راض عنها، وأنا أستنسخ له أهم الأوراق. ولكن يعوزني الأسلـوب، وأعرف أن هذا اللعين يعـوزني، ولهذا السبب لم أتقـدم في سلـم الوظيفة، فترينني الآن أيضاً، يـا شقيقة روحي، أكتب لـك ببساطة، وبدون كل هـذا، ولكن، رغم ذلـك، إذا صار الجميع

Telegram: @Arab_Books

يؤلفون، فمن الذي يستنسخ إذن؟ ها أنا أطرح هذا السؤال، وأرجو أن تجيبيني عنه، يا أُميمة. إذن، فأنا أعي بأنني ضروري، ولا غنى عني، ولا حاجة لتثبيط عزيمة إنسان بالكلام الفارغ. حسناً، لأكن فأراً، إذا كان قد وجدوا فيَّ شبهاً! ولكن حتى الفأر هذا ضروري، وهو يجلب النفع، ويعوَّل عليه، بل إن هذا الفأر يحصل على مرتَّب. فأي فأر هذا، إذن! على أية حال، كفى الخوض في هذا الموضوع، يا شقيقة روحي، فأنا لم أرد أن أتحدث هذا، ولكنني تنرفزت قليلاً. وفضلاً عن ذلك فمن اللطيف أن يرد الإنسان الاعتبار لنفسه من حين لآخر. وداعاً، يا شقيقة روحي، يا حمامتي، فأنت السلوى، يا طبيبة القلب! سأزورك بالتأكيد، وأراك، يا عزيزتي. ولكن لا تستوحشي الآن. سأجلب لك كتاباً. وداعاً، يا فارنكا.

صديقك الراجي لك كل خير

ماكار ديفوشكين

٢٠ حزيران.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

أكتب لك على عجل، فأنا مستعجلة، وأريد أن أنهي العمل في موعده. وخلاصة الأمر، كما أطرحه عليك، أن من الممكن شراء حاجة جيدة. تقول فيدورا إن أحد معارفها يبيع بزة موظف، جديدة تماماً، وقميصاً، وصداراً، وقبعة رسمية، وتقول أن كل هذه الاشياء

Telegram: @Arab_Books

رخيصة جداً. فحبذا لو اشتريتها. إذ لست الآن في ضائقة، وعندك نقود، وأنت تقر بذلك. فكفى تقتيراً على نفسك، أرجوك، فإن كل هذه الأشياء ضرورية. انظر الى نفسك، أية ثياب قديمة تلبس. عيب! كلها رقع. وليس لديك شيء جديد، وأنا أعرف ذلك، ولو أنك تؤكد بأن لك هذا. والله يعلم أين ذهبت به. واستمع لنصحي إذن، واشترِ، أرجوك. افعل ذلك، من أجل خاطري، اشتره، إذا كنت تحبني.

أرسلت لي هدية من الثياب الداخلية، ولكن اسمعني. ياماكار الكسييفتش، أنت تخرب نفسك. ليس مزحاً أن تنفق عليَّ هذا القدر الفظيع من الفلوس! آه، ما أشغفك بالتبذير! أنا لست بحاجة لشيء، وكل ذلك كان زائداً تماماً. أنا أعرف، وأنا واثقة، من أنك تحبني، ولكن من الفضول أن تذكرني بذلك عن طريق الهدايا، بينما يصعب عليَّ أن أقبلها منك، إذ أعرف ما تكلفك به. كفَّ عن ذلك مرة وإلى الأبد. هل تسمعني؟ أرجوك، أتوسل إليك. أنت تطلب مني، يا ماكار الكسييفتش، أن أرسل إليك تتمة مذكراتي، وتود أن أكملها. أنا لا أعرف كيف كتبتُ ما كتبتُ. ولكن ليست لي القوة الآن على التحدث عن ماضيَّ، ولا أود حتى التفكير فيه، فأنا أشعر بالرعب من هذه الذكريات. وأقسى الأشياء عليَّ أن أتحدث عن أمي المسكينة، التي تركت ابنتها المسكينة فريسة لأولئك الأغوال، فبمجرد تذكر ذلك يجعل قلبي ينزف دماً. وكل ذلك ما يزال طرياً، وليس فقط أن أهدأ بالاً، رغم أن أكثر من سنة قد انقضت على كل ذلك. ولكنك تعرف كل شيء.

لقد تحدثت إليك عما تفكر آنا فيدوروفنا فيه الآن. إنها تتهمني بنكران الجميل، وتنكر أية ملامة على علاقتها بالسيد بيكوف. إنها تدعوني لأنزل عندها، وتقول إنني أعيش على الإحسان، وإنني سلكت طريق الضلال.

وتقـول: إذا عـدت للعيش عندها، فإنها ستتكفـل بتسوية كل القضية مع السيد بيكوف. وتجبره على أن يُكَفِّر عن كل جريرته إزائي. وتقول: لهما الله ! فـإن المقـام يطيب لي هنا، معـك، عند فيدورا الطيبـة، التي تذكرني بتعلقهـا بي بالمرحومة مربيتـي. وأنت، ولو كانت لـك صلة قربى بعيدة بـي، إلا أنك تحمينـي باسمك. أما همـا فلست أعرفهمـا، وسأنساهما، لـو أستطيـع. فلماذا يريدان مني؟ فيدورا تقـول: إن كل ذلك مجرد كلام، وأنهما سيتركانني في آخر الأمر.

وأرجو الله أن يكون ذلك!

ف.د.

٢١ حزيران.

عزيزتي، أُميمتي !

أريد أن أكتب إليك، ولكنني لا أعرف بم أبدأ. عيشتي وعيشتك هذه، مـا أغربهما الآن، يا أُميمة. وأنا أقـول ذلك، لأنني لم أقضِ أيامي قط بمثل هـذا الفرح. وكأن الرب قد باركني بيتاً وعائلـة. آه، يا بنيَّتي العزيزة! أي كلام هذا الذي تقولينه عن القمصان الأربعة التي أرسلتها لك. أنت كنتِ بحاجـة إليها، وهذا ما عرفته من فيـدورا. كما أنني أجد سعادة فريدة في أن أُلبّـي حاجتك، تلك هي متعتـي، فاتركيني وشأني، يا أُميمة، ولا تقفي في طريقـي، ولا تمسينـي. لم يحدث لي مثل هذا قط، يـا أُميمة. ها أنا قد نزلـت إلى غمار الحياة. فأنا أولاً أعيش حياة مضاعفة، لأنك تعيشين على مقربـة شديدة منـي، وسلوة لي، وثانياً دعاني اليـوم إلى شرب الشاي أحد

Telegram: @Arab_Books

نزلاء البيت، هو جاري، راتازييف، وهو نفس الموظف الذي تقام عنده الأمسيات الأدبية. اليوم سيعقد اجتماع، وسنقرأ أدباً. هذه حالنا الآن، يا أُميمة. وداعاً. أنا أكتب لك كل ذلك بدون أي غرض منظور، بل مجرد إبلاغك بميسور حالي: لقد عرفت، يا روحي، عن طريق تيريزا، أنك محتاجة إلى خيوط حريرية ملونة للتطريز. سأشتريها لك، يا أُميمة، سأشتري خيوط الحرير هذه أيضاً. غداً ستتاح لي متعة أن أُلَبّي حاجتك كلياً. بل وأعرف من أين أشتريها. ما أزال

صديقك الوفي

ماكار ديفوشكين

٢٢ حزيران.

حضرة السيدة فارفارا الكسييفنا!

أبلغك، يا شقيقة روحي، أن حادثة مؤسفة قد حدثت في شقتنا، حادثة تستحق الأسف حقاً! اليوم، في الساعة الخامسة صباحاً، توفي طفل لغورشيكوف. وأنا لا أعرف بم توفي، بالحمى القرمزية أو بغيرها، الله يعلم! وقد زرت عائلة غورشيكوف هذه. أوه، ما أفقرها، يا أُميمة! فوضى في فوضى! ولا عجب في ذلك، فإن العائلة كلها تعيش في حجرة واحدة سوى أنها مفصولة ببارفان للحشمة. ورأيت التابوت عندهم، بسيطاً، ولكنه لطيف بما فيه الكفاية، اشتروه جاهزاً، وكان الطفل في التاسعة من العمر، كان يبشر بالآمال، كما يقولون. وتأخذك الشفقة، حين تنظرين إليهم، يا فارنكا! أمهم لم تكن تبكي، ولكن أي حزن يبدو عليها، المسكين! ربما سيكون أخف عليهم، إذ انزاح أحدهم

Telegram: @Arab_Books

عن كاهلهــم، بينما يبقى لديهم اثنان؛ طفل رضيــع وصبية صغيرة يبدو عليهــا أنهــا جــاوزت السادسة تقريباً. وكيــف تتعذب النفســ حقاً إذا رأت العــين طفــلاً يتعــذب، والطفل منــك، وليس لك مــا تساعده به! الأب جالســ على كرسي متداع في سترة فراك قديمة متسخة. والدموع تســح منه، ولكن ربما ليس من الحزن، بل بحكم العادة فقط، إذ إن عينه تتقيح. ما أغرب أطواره! ويحمرّ تماماً حين يتحدث أحد إليه، ويرتبك، ولا يعــرف بم يرد. والطفلة الصغيرة، ابنته، تقــف متكئة على التابوت، وعليهــا، المسكينة، الضيق والسهوم! وأنا، يــا أُميمتي فارنكا، لا أحب السهــوم في الطفل، والنظهر إليه لا يريح النفس! وهناك دمية من الخرق ملقــاة على الأرضــ بالقرب منها، ولا تلعب بها، بــل تضع إصبعها بين شفتيها وتقف دون حراك. أعطتها صاحبة البيت ملبَّة، فأخذتها، ولكن لم تأكلها. محزن، يا فارنكا، أليس كذلك؟

ماكار ديفوشكين

٢٥ حزيران.

ماكار الكسييفتش الأكرم! أعيد إليك كتابك. إنه كتاب ضئيل رديء جــداً. ولا يجوز أن يوضع في اليد. أين وجدت هذه التحفة؟ وإذا تركنا المــزاح جانباً، هل من المعقول أن مثل هذه الكتــب تروق لك، يا ماكار الكسييفتشــ؟ وعدوني قبل أيام بأن يجلبــوا لي شيئاً أقرؤه. وسأشاركك به، إذا رغبت. والآن، إلى اللقاء. في الحق ليس لي من الوقت لأكتب لك أكثر.

ف. د.

Telegram: @Arab_Books

٢٦ حزيران.

عزيزتـي فارنـك! في واقـع الأمـر إنني لم أقـرأ هذا الكتـاب، يا أميمـة. في الحقيقة إنني طالعت شيئـاً منه، فوجدته هراء، كتب لمجرد الإضحـاك، لكي يضحك الناس، فظننـت أنه كتاب فكه في الحقيقة، وسيروق لفارنكا. فأرسلته إليك.

وعـدني راتازييف بـأن يعطيني شيئـاً من الأدب الحقيقـي لأقرأه، عندئـذ ستكون لـك بعض الكتب، يـا أميمة. وراتازييـف هذا فاهم شغله، وهو نفسه صاحب قلم، وأي قلم! (١٣) ريشته نشيطة، وأسلوبه فيَّاض، أقصد أنه يجـد أسلوباً ما في كل كلمـة، في أفرغ الكلمات، وأكثرها اعتيادية، وابتذالاً، وحتى في تلك التي أقولها أحياناً لفالدوني أو تيريزا عنـده أسلوب فيها. وأنا أحضـر أمسياته. ندخن نحن، وهو يقـرأ، يقرأ حتى الساعة الخامسة صباحـاً أو نحوها، ونحن نصغي له طيلة الوقت. إنهـا مأدبة، وليست أدباً! فتنـة، زهور، زهور حقيقية، ولـك أن تجمعـي مـن كل صفحـة باقـة منهـا! وهو سمـح، طيب، ملاطـف. ومَـنْ أنا إلى جانبه؟ لاشـيء. إنه إنسان ذو سمعـة، أما أنا؟

١٣.هذه المقتطفات التي أعجب بها مكار ديفوشكين بسذاجة من عمل المقلد راتازييف غير الموهوب عبارة عن محاكاة هزلية. و« العواطف الإيطالية» تقلد اسلوب أ.أ. بيستوجيف – مارلينسكي الذي كانت مؤلفاته الرومانسية تحظى بشعبية هائلة في ثلاثينات وأربعينيات القرن الماضي. وقد هزأ الناقد وساريون بيلينسكي بالمبالغة المصطنعة في العواطف وزركشة اللغة الموجودة لدى الكاتب مارلينسكي وقد انخفضت شعبيته بعد هذا النقد بسرعة. وكان الكفاح ضد الرومانسية المقلدة جزءا لا يتجزأ من الكفاح في سبيل تثبيت الواقعية في الأدب الروسي في أربعينيات القرن الماضي. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

لا وجـود لي أبـداً. وهو يحنو علـيَّ، أنا أيضاً. وأنـا أستنسخ له بعض الأشيـاء. ولكن إياك أن تظني. يافارنكا، أن في الأمر تضليلاً، وأنه من أجل ذلك بالذات يجاملني ويحنو عليَّ، لأنني أستنسخ له. لا تصدقي الأقاويـل، يا أُميمة، لا تصدقي الأقاويـل اللئيمة! بل أنا أفعل ذلك من تلقـاء نفسي، وبادرتي مسرة له، أما حنوه علـيَّ، فهو من جانبه مسرة لي. وأنـا أفهم رهافة سلوكه، يا أُميمـة. فهو رجل طيب، كثير الطيبة، وكاتب لا مثيل له.

والأدب شـي بديع، يا فارنكا، بديـع جداً، وقد عرفت ذلك منهم قبل يومين. شيء عميق! يقوِّي قلـوب الناس، ويهذبهم، وفي كتابهم أشيـاء مختلفة كثيرة عن هذا الموضـوع. مكتوبة جيداً جداً. الأدب هو صـورة، أقصـد في بعض أنواعه صـورة، ومرآة، تعبير عـن العاطفة، صـورة نقدية مرهفة، وإرشاد إلى التهذيب، ووثيقة. وقد جمعت كل ذلك منهم. وأقول لك بصراحة، يا أُميمة، إنني اجلس بينهم، وأستمع (وقد أدخن غليـوني، كما يدخنون) وحالما يبدؤون بالمناظرة والجدال في مختلـف الأمـور حتى أشعر لا بـد من إظهار عجزنا، يـا أُميمة، في هـذه الأحوال. أظهـر بلاهتي البليـدة وأخجل أنا مـن نفسي، حتى أجتهـد طوال الأمسية لأجـد ولو نصف كلمـة أدخلها في الموضوع المطـروح، ولكن حتى نصـف الكلمة هذا لا أجـده، وكأنما من سوء الحـظ! فأرثـي نفسي، يـا فارنكا، علـى أنني لست كيـت ولا بيت، وحسـب المثـل القائل «نما جسمـاً، وهزل عقلاً» فمـاذا تتصورينني أفعـل في أوقات الفراغ؟ أنـام، أنا أحمق الحمقى. فليتني بدلاً من هذا النـوم الزائد قمت بشيء يريح النفـس، كأن أقعد وأكتب، ما ينفعني، ويطيـب للآخرين. ثم انظري، يا أُميمتي، كم يتقاضون، اللهم ارحـم!

Telegram: @Arab_Books

خـدي راتازييف، مثلاً، كـم يتقاضى! وماذا تكلفـه كتابة ملزمة. بل إنـه في بعض الأحيان يكتـب إلى حد خمس ملزمـات دفعة واحدة، ويتقاضـى عن الملزمة ثلاثمائة روبل، حسبما يقول. أما إذا كان طريفاً أو مثيراً للفضول فهو يطلب خمسمائة روبل. وسيأخذها سواء أردت أم أبيت. وإن أخفق هذه المرة سيأخذ ألف روبل مرة أخرى! أي شيء هـذا، يا فارفارا الكسييفنا؟ عجيب! عنده دفتر من الأشعار، والأشعار قصيرة، ولكنه يا أُميمة، يطلب سبعة آلاف، يطلب سبعة آلاف روبل، فتصـوري، هذه ضيعة كاملة، بيـت هائل! يقول انهم يعطونه خمسة آلاف، ولكنه يرفضها. وأعيده إلى الصواب، وأقول له: خذها، يا عم، خذ هذه الخمسـة آلاف منهم، وابصق عليهـم. فهذه فلوس، خمسة آلاف! فيقـول: لا، سيعطون سبعة آلاف، هؤلاء المرابون. إنه حاذق. وأية حذاقة، حقاً!

ومـا دام الحديـث يدور حول هـذا، فما رأيك، لـو أقتبس لك، يا أُميمة، شيئاً من «العواطف الإيطالية»، وهو اسم مؤلَّف له. فاقرئي، يا فارنكا، واحكمي بنفسك.

(... ارتعد فلاديمير، وتدفقت العواطف فيه بعرامة، وفار الدم ...

صـاح:- كونتيسة، كونتيسة! أتعرفين هول هذه العاصفة، وفيض هـذا الجنـون؟ لا، إن أحلامي لم تخدعنـي! أنا أحـب، أحب بهيام، وعرامـة، وجنـون! ودم زوجك كله لـن يغمر هيـام روحي الجنوني الدافـق! والعقبات التافهة لـن توقف نار الجحيم الآتية على كل شيء، والملتهبة في صدري المتعب. آه، يازينايدا، زينايدا!..

Telegram: @Arab_Books

- فلاديمير! ..- همست الكونتيسة غير مسيطرة على نفسها، وقد ارتمت على كتفه...

صاح سميلسكى الهائم:

- زينايدا!

وتبخرت نفثة من صدره. وشبَّ الحريق بلهب ساطع في مذبح الحب، ومزق صدر المعذبين المنكودين. - فلاديمير! - همست الكونتيسة في نشوة. وراح صدرها يصعد ويهبط، وتضرجت وجنتاها، واشتعلت عيناها...

وانعقد وصال مريع جديد!..

بعد نصف ساعة دخل الكونت العجوز إلى مخدع زوجته.

وقال، وهو يربت على خد زوجته:

-ماذا، يا روحي، لو أمرنا الخادم أن يهيئ السماور للضيف العزيز؟»

والآن، اسألك، يا أُميمة، ما رأيك في هذا؟ في الحقيقة إنه سائب قليلاً، ولا جدال في ذلك، ولكنه بديع. وما هو بديع فهو بديع! واسمحي لي الآن بأن اقتبس لك شيئاً من قصة «يرماك وزوليخة» (١٤).

---

١٤. «يرماك وزوليخة» : محاكاة ساحرة للروايات التاريخية الرومانتيكة المتسمة بما فيها من أحداث ومواقف وشخصيات مجافية للواقع تماماً، وبالتزويق في الاسلوب. ويرماك (توفي ١٥٨٤) قائد قوزاقي لعب إلى جانب الرحّالة المستكشفين الروس الآخرين في القرن السادس عشر، دوراً بارزاً في استكشاف سيبيريا.

Telegram: @Arab_Books

تصـوَّري، يـا أُميمـة، أن القـوازي يرمـاك اتح سيبيريـا المتوحش الرهيـب، يعشق زوليخة ابنـة قيصر سيبيريا كوتشوم، بعـد أن يأسرها وهـو حدث يعـود إلى عهد إيفان الرهيـب[١٥] كما تريـن. وهذا هو حوار يرماك وزوليخة: «– أنت تحبينني، يا زوليخة.

أوه، أعيدي، أعيدي كلمات الحب...

همست زوليخة:

– أنا أحبك، يا يرماك.

– أيتهـا السماء والأرض، شكراً لكما. أنـا سعيد... لقد أعطيتما لي كل مـا كانـت تطمح إليـه منذ يفاعتـي روحي المتأججـة. إلى هنا سقتنـي، يا نجمي الهادي من أجل هـذا، جئت بي إلى ما وراء «الحزام الحجـري!»[١٦] سـأري زوليختـي للعالم كلـه، ولن يجسـر الناس، الأغـوال المسعورون، على إدانتي! آه، ليتهـم يفهمون تلك العذابات الخفية لروحها الرقيقة، ليت في وسعهم أن يروا قصيدة كاملة في دُميعة في عـين زوليختي! آه، يا روحي السماوية، دعيني أمسح بالقبل تلك الدُميعة، دعيني أرشف هذه الدُميعة يا حبي السماوي.

قالت زوليخة:

– يرمـاك. العالم شرير، والناس ظالمون! سيحاكموننا ويدينوننا، يا عزيزي يرماك! ماذا ستفعل فتاة مسكينة ترعرعت وسط ثلوج سيبيريا

---

١٥. إيفا الرهيب (١٥٣٠–١٥٨٤) – الأمير الكبير لعموم روسيا منذ عام ١٥٣٣، والقيصر الروسي منذ عام ١٥٤٧. الناشر.

١٦. «الحزام الحجري» هو اسم يطلق على جبال أورال. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

الحبيبة، في خيمة أبيها، ماذا ستفعل في عالمكم البارد المتجمد، عديم الروح، الأناني؟ لن يفهمني الناس، يا مبتغاي، يا معشوقي!

صاح يرماك، مقلباً عينيه كالمجنون :- إذن، فسيتسلط السيف القوزاقي عليهم ويشق الهواء بالصفير».

فيا لمصاب يرماك هذا، يا فارنكا، حين يكتشف أن زوليخة قد ذبحت. إن كوتشوم العجوز الأعمى، يستغل ظلام الليل ويتسلل إلى خيمة يرماك في غيابه، ويذبح ابنته، وهو يريد بذلك أن يوجه طعنة قاتلة إلى يرماك الذي جرده من صولجانه وتاجه.

«- كم يطيب لي صرير الحديد على الصخر! صاح يرماك في عنفوان وحشي، وهو يشحذ حد سيفه الفولاذي على صخرة الشامان - أريد دمهم، دمهم! أريد أن أقطعهم، أقطعهم، أقطعهم !!!»

وبعد هذا كله، وقد عجز يرماك من أن يعيش بدون زوليخته يلقي نفسه في نهر ارتيش، وبذلك ينتهي كل شيء.

وهذا، على سبيل المثال، مقطع صغير من نوع الوصف الفكاهي[١٧]، مكتوب خصيصاً للإضحاك:

«لعلك تعرف إيفان بروكوفيتش جيلتوبوز؟ أجل، أجل، هو نفس الرجل الذي عض قدم بروكوفي إيفانوفيتش. وإيفان بروكوفيتش هذا صاحب مزاج سريع الدوران، ولو أنه له فضائل نادرة. وبروكوفي

١٧.مقطع صغير من نوع الوصف الفكاهي ... محاكاة ساخرة لمقلدي الكاتب الروسي العظيم ن. غوغل (١٨٠٩-١٨٥٢) الذين كانوا، لغرض إضحاك الجمهور، يستنسخون طرائق غوغل الظاهرية، دون أن ينفذوا على عمق فكرة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

إيفانوفيتش، على العكس من هذا، يهيم باللفت المطعم بالعسل. آنذاك كانــت بليغــا انتونوفنا على معرفة به... وأنت تعــرف بليغا انتونوفنا، بالطبع؟ أوه، نفس المرأة التي كانت دائماً ترتدي تنورتها على البطانة».

هــذا شيء مضحــك، يا فارنكا، يجــنن من الضحــك! وكنا نهتز مــن الضحك، حــين كان راتازييف يقــرأ لنا. ذلك هــو، الله يسامحه! إن أسلوبــه، بالمناسبــة، ملتوٍ قليلاً، ولعوب كثــيراً، ولكنه صافي النية، ليس فيه شعــرة من تحرر العقل، والأفــكار الليبرالية. ويجب التنويه، يــا أميمة، أن راتازييف حسن السلوك، ولهذا فهو كاتب ممتاز، وليس كالكُتّاب الآخرين.

في الواقــع.. تخطر أحياناً فكرة في الذهــن... ماذا لو كتبت شيئاً ما؟ وماذا سيكــون إذن؟ ولنفرض، على سبيل المثــال، أن كتاباً صدر فجــأة وعلى غير ميعــاد، تحت عنــوان «ديوان مــاكار ديفوشكين» ! حسنــاً، ماذا ستقولين، عند ذاك، يا ملاكي؟ وماذا ستكون تصوراتك وظنونــك؟ أمــا أنا فسأقول لك صراحــة، يا أميمة، لــو أن كتابي هذا قدر صدر، فلن أجــرؤ بالتأكيد، على أن أَلوح للعين في نيفسكي[١٨]. وكيــف ذلــك، إذا كان كل مَنْ يراني سيقول: هــذا الماشي هو المؤلف الأدبــي والشاعر ديفوشكين! ها هــو ديفوشكين يسير! عندئذ، كيف يكــون حالي مثلاً، وأنا في هذا الحــذاء؟ إنه وأقولها لك، بشكل عابر، يا أميمة، مرقع بكليته، كما أن نعليه، وأقولها بصراحة،لان عنه أحياناً، بشــكل غير مريح جــداً. وأي موقــف سيكون، حين يعــرف الجميع أن حــذاء المؤلف ديفوشكين مرقع! ولو عرفــت إحدى الكونتيسات

١٨.الشارع الرئيسي في بطرسبورغ. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

الدوقـات هذه النقطة، فمـا ستقول العزيزة هذه؟ يجـوز أيضاً أنها لا تفطـن إلى ذلـك، لأن الكونتيسات كمـا أفترض أنـا لا يشغلن بالَهُنّ بالأحذيـة الطويلـة الساق، لا سيمـا أحذية الموظفين مـن أمثالي (لأن هنـاك فرقاً بين حذاء وحذاء) ولكن لابد أنهم سيصفون لها كل شيء، ويخونـني أصدقائي. وسيكون راتازيـف أول الخائنين. فيذهب إلى الكونتيسـة. ف؛ فهو يقول إنه يـتردد عليها، ويزورها من دون كلفة. ويقـول إنها أديبة، سيدة صالون جذابـة. إن راتازييف هذا يتغلغل في كل مكان!

ولكن ، بالمناسبة، يكفي الكلام في هذا الموضوع. فأنا أسترسل في هـذا، يا أُميمة، لمجرد الثرثرة، ولأسليك. وداعاً، يا حمامتي! سطَّرت لـك كثيراً، لكن لمجرد أنني اليـوم في الغاية من انبساط النفس. تغدينا اليوم سوية في حجرة راتازييف حتى أنهم (العابثون، يا أُميمة !) صبوا خمرة الروم في الكؤوس... ولكن لا حاجة لأكتب لك عن ذلك! إياك فقـط، أن تسـيء الظن بي، يا فارنكا. أنا لا أعني مـا أقول. سأرسل لك الكتـب، أرسلها مـن دون بد... تتداول الأيدي عندنـا أحد كتب بول دى كـوك[١٩] ، ولكن لن يكـون في يديك بول دى كوك يـا أُميمة... أبـداً ومطلقاً ! بـول دى كوك لا يليق بـك. يقولون عنه، يـا أُميمة، إنه يثير السخـط النبيل في جميع نقـاد بطرسبورغ، أرسـل إليك رطلاً من الملبسـات، اشتريتـه لك معتمداً. فكليها، يا روحـي، وتذكريني مع كل ملبَّسـة. ولكن لا تقرقشي المكسَّرات، بل مصيها فقط، وإلا فستوجعك

١٩. بول دى كوك(١٧٩٣-١٨٧١)روائي وكاتب اجتماعي فرنسي كان النقد الروسي الرجعي في اربعينيات القرن الماضي يعتبر مؤلفاته (قذرة) وغير محتشمة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

أسنانك. أم لعلك تحبين الثمار المطلية بالسكر؟ اكتبي لي. والآن، وداعاً وداعاً. يحفظك المسيح، يا حمامتي. وسأظل أنا دائماً

صديقك الأوفى

ناكار ديفوشكين

٢٧ حزيران.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش !

تقـول فيدورا: لو رغبـت أنا، فـإن بعض الناس سيتهمون في أمرى بسـرور، ويجدون لي مكاناً جيداً في أحد البيوت كمربية. فما رأيك، يـا صديقي، هل أوافق أم لا؟ عند ذاك بالطبـع، لن أكون ثقلاً عليك، كما أن المـكان ملائم، كما يبدو، ولكن مـن الناحية الأخرى، أحس ببعض الرهبة في دخول بيت غريب.

إنهـا عائلة مُـلاك أراضي. وحالمـا يعرفون خبري، حتـى يأخذوا بالاستفسـار والاستطـلاع. فماذا سأقـول عندئذ؟ كمـا أنني منعزلة لا أحسـن التصـرف في صحبة النـاس، وأحب ملازمـة الركن الذي تعـودت عليه. فإن المكان الـذي اعتاد الإسان عليه هـو أفضل مكان عنـده، ولو كان يصاحـب البؤس فيه صباح مساء. ثم إن ذلك يعني أن أغـادر المدينة، والله يعلم أية مهمة ستـوكل لي، ربما سيجعلونني أرعى الأطفال ليس غير... وهؤلاء الناس أيضاً أصحاب مزاج، فهم يغيرون مربيتهـم للمرة الثالثة خلال سنتين. فأرشـدني، يا ماكار الكسييفتش، مـن أجل الرب، هل أوافـق أم لا؟ – ثم لماذا لا تزورني أبداً؟ ولا تلوح لعيني إلا من حين لآخر، ولا نتقابل تقريباً إلا يوم الأحد، في القداس. بهذا الشكل أنـت لا تحب المعشر ! أنت مثلي تماماً ! بينما تربطنا صلة

Telegram: @Arab_Books

قربى تقريباً. أنت لا تحبني، يا ماكار الكسييفتش، في حين أشعر أحياناً بالحـزن الشديـد، وأنا لوحـدي. وفي بعض الأحيـان، ولاسيما عند الغروب، أجلس وحيدة فريدة، فيدورا خارجة في شأن من الشؤون. أجلس، وأفكر، وأتذكر كل ما مضى، السار منه والحزين، كل شيء يمر أمام عيني، كل شيء يومض، وكأنه خارج من ضباب.

ويظهر الذين أعرفهم (أكاد أراهم في اليقظة) وأمي أكثر من يتراءى لي... وأية أحـلام أرى ! أشعر أن صحتي معتلة، وأنني ضعيفة. اليوم أيضاً، حين نهضت من السرير في الصباح، شعرت بتوعك، وفوق ذلك ينتابني سعال خبيث ! أشعر وأنا أعرف بأنني سأموت عن قريب. فمن سيدفنني؟ ومن سيمشي وراء نعشي؟ ومن سيرثي لي؟ ... والآن، ربما، سأموت في مكان غريب، في بيت غريب، في ركن غريب !.. الله، ما أشجى العيش، يا مـاكار الكسييفتش ! لماذا تغذيني بالحلوى دائماً، يا صديقـي. أنا لا أعرف حقاً، من أيـن تأتي بكل هذه النقود؟ أرجوك، يـا صديقي، احرص على نقودك، بحق الرب، احرص عليها. فيدورا ستبيع البساط الـذي طرزته. إنهم يعرضون خمسين روبلاً من أوراق النقـد سعراً له. وهـو سعر جيد جـداً، بينما كنت أتصـور أنه سيباع بأقل من ذلـك. سأعطي لفيدورا ثلاثة روبلات، وأخيط لنفسي ثوباً، بسيطاً، وأكثر دفئاً. وسأصنع لك صداراً، أصنعه بنفسي، وسأنتقي له قماشاً جيداً.

حصلـت فيدورا لي على كتاب (قصص بياكين)[٢٠]، وإذا كنت تريد أن تقرأه، فسأرسلـه لك. سوى أنني أرجوك ألا تلطخه، ولا تبقه عندك

---

٢٠. حتى عام ١٨٤٦ كانت قصص (قصص بيلكين) للشاعر الروسي العظيم بوشكين قد صدرت ثلاث مرات : في اعوام ١٨٣١و١٨٣٤و١٨٣٨. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

طويلاً، فهو ليس لي. إنه من تأليف بوشكين. وقبل عامين كنت قد قرأت هذه القصص مع أمي، والآن أشعر بالحزن الشديد، وأنا أعيد قراءتها. إذا كانت لديك بعض الكتب فأرسلها لي، شرط أن لا تكون من راتازييف.

أظن أنـه سيعطيك بعض مؤلفاتـه، إذا كان قد طبع شيئـاً منها. لماذا تعجبك مؤلفاتـه، يا ماكار الكسييفتش؟ إنها توافـه... والآن، وداعاً! فقـد ثرثرت كثيراً! حين أكون حزينة، يسعدني أن أتحدث، عن أي شيء كان. فإن ذلك دواء. ويخفف عن النفس في الحال، لا سيما حين يخرج عن كل ما يثقل على القلب. وداعاً، وداعاً، يا صديقي!

المخلصة لك

ف.د.

٢٨ حزيران.

يا أميمتي فارفارا الكسييفنا!

كفى غماً! كيف لا تخجلين من ذلك! الآن، يكفيك، يا ملاكي. كيف تخطر لك مثل هذه الأفـكار؟ لست مريضة، يا روحي، لست مريضة على الإطلاق. بـل أنت تزهرين، تزهرين تماماً، شاحبة قليلاً، ولكنك تزهرين على أيـة حال. ما هذه الأحلام والرؤى التي تحلمين بهـا! عيب، يا روحي هـذا يكفي، ابصقي علـى كل هذه الأحلام، ابصقـي. لماذا أنـام أنا بشكل جيد؟ لماذا لا يحـدث لي شيء؟ انظري إليّ، يـا أميمـة. أحيا حياتـي، وأنام هادئـاً، في صحة فتـى الفتيان،

Telegram: @Arab_Books

بهجة للناظرين. كفاك، يا روحي، كفاك، عيب. فأصلحي من أمرك. أنا أعرف ذهنك، يا أميمة، حالما يجد شيء حتى تآخذي بالحلم والاشتياق إلى شيء ما. فكفي عن ذلك، يا روحي، من أجل خاطري. تذهبين للاشتغال عند ناس؟ لا ! ولن ولن! ثم ما هذا الذي تفكرين فيه؟ وما هذا الذي يدور في خاطرك؟ على الأخص فيما يخص الرحيل! لا، يا أُميمة، لن أسمح بذلك، وسأتسلح بكل القوى لأقف ضد هذه النية. سأبيع سترتي الفراك القديمة، وأسير في الشوارع بالقميص وحده، ولكن لن تكوني بحاجة، لا، يا فارنكا، لا، فأنا الآن أعرفك ! إن ذلك جنون، جنون خالص! والأكيد كما أعتقد، هو أن فيدورا وحدها ملومة في كل ذلك. فالظاهر أن هذه المرأة البلهاء دبَّرت لك كل ذلك. ولكن لا تثقي بها، يا أميمة. أغلب الظن أنك لا تعرفين كل شيء، يا روحي.

أليس كذلك؟ .. وهي امرأة بلهاء، متذمرة، سفسافة، نكّدت على زوجها عيشه، ففارق الحياة.

أم لعلها أغاظتك بشيء ما؟ لا ، لا، يا فارنكا، يا روحي، اقلعي هذا من رأسك. ماذا ينقصك عندنا؟ فرحتنا بك لا تُشبع ولا تروى، وأنت تحبيننا، فاستمري في حياتك وديعة، خيطي أو اقرئي، وإذا أردت فلا تخيطي، فالأمر سواء، فقط تظلي معنا.

والا فاحكمي نفسك، ماذا سيكون من أمرنا بعد رحيلك؟ .. سأحصل لك على كتب، وبعد ذلك سنتنزه مرة أخرى في مكان ما. فقط أن تكفي، أن تكفي يا أميمة احزمي عقلك، ولا تجننك التوافه ! وسأزورك في وقت قريب جداً، فقط أن تقبلي في هذه المسألة حكمي

Telegram: @Arab_Books

الصريح الخالص: لا يجوز، يا روحي، لا يجوز على الإطلاق! وأنا، بالطبع، رجل غير متعلم، وأعرف بنفسي أنني غير المتعلم وقليل الثقافة ومحدودها. ولكنني لا أقصد ذلك والأمر لا يتعلق بي هنا، إلا أنني أدافع عن راتازييف، وليكن رأيك ما يكون. إنه صديق لي، ولهذا أدافع عنه. إنه يكتب بشكل جيد جداً وجداً ثلاث مرات. وأنا لا أتفق معك، ولا يمكن أن أتفق معك. كتابته زاهية، متدفقة، بالتشابيه وفيها أفكار متنوعة، جيدة جداً! ربما قرأته بلا إحساس يا فارنكا، أو كنت متعكرة المزاج حين قرأته، أغضبتك فيدورا بشيء ما، أو حصل عندك شيء مزعج. كلا. عليك أن تقرئيه بإحساس، وباهتمام أكثر، حين تكونين مرتاحة مرحة ومزاجك رائق عندما تكون في فمك ملبسة، على سبيل المثال، عندئذ اقرئيه. وأنا لا أجادل (لا أحد يعارض) في أن هناك كتاباً أحسن من راتازييف، بل وهناك أفضل منه بكثير، ولكن هؤلاء جيدون، وهو جيد أيضاً. هم يكتبون بشكل جيد، وهو يكتب على هواه، وجيد أن يكتب على هواه. والآن، وداعاً، يا أميمة، لا أستطيع أن أكتب أكثر، ويجب أن أسرع، فينتظرني عمل. أرجوك، يا أميمة، يا صاحبتي العزيزة، أن تهدئي بالاً، والله معك، وساظل أنا

صديقك الوفي

ماكار ديفوشكين

ملاحظة: شكرا على الكتاب، يا شقيقة روحي، سنقرأ بوشكين أيضاً، واليوم، مساء، سأمر عليك من كل بد.

Telegram: @Arab_Books

١ تموز.

عزيزي ماكار الكسييفتش!

لا، يا صديقي، لا، ليست لي عيشه بينكم. قلّبت الأمر في فكري، ووجدت أنني سأخطئ لو أرفض مثل هذا المكان الملائم. سيكون لي هناك، على أقل تقدير، قطعة خبز مضمونة وسأجتهد، وأكسب ود الغرباء، بل وسأسعى إلى تغيير طبعي، إذا اقتضت الضرورة. من المؤلم والشاق، بالطبع، أن يعيش الإنسان بين أناس غرباء، ويبحث عن الحسنة بينهم، ويخفي مشاعره ويتحامل على نفسه، ولكن الله سيعينني. إذ لا يجوز البقاء منعزلة طوال عمري. مثل هذه الأشياء حصلت من قبل. أتذكر عندما كنت أذهب إلى المدرسة الداخلية، وأنا مازال صغيرة. كنت أقضي يوم الأحد كله أمرح وألعب وأنط، فتوبخني أمي أحياناً، ولم أكن أشعر بالضيق، كان قلبي منشرحاً، وروحي منبسطة. وحالما يقترب المساء، حتى يهبط عليَّ حزن مميت، فقد كان يجب أن يذهب في الساعة التاسعة إلى المدرسة الداخلية، وكل شيء فيها غريب عليَّ، بارد، صارم والمعلمات، في أيام الاثنين، حادات المزاج، فيتعكر صفاء نفسي، فأريد أن أكبي، وأنزوي في ركن وحيدة فريدة، وأبكي، وأخفي دموعي مخافة أن يقولوا أنها تتكاسل، بينما أنا لا أبكي مطلقاً، لأنني يجب أن أحضر دروسي. وماذا تتصور؟ لقد تعودت، وفيما بعد، حين غادرت المدرسة الداخلية بكيت أيضاً، وأنا أودع صاحباتي.

ثم ليس من الصحيح أن أعيش ثقلاً عليكما كليكما. وهذه الفكرة

Telegram: @Arab_Books

تعذبني. وأنا أصارحك بكل ذلك، لأنني قد تعودت أن أكون صريحة معـك. هل معقول أنني لا أرى كيف تستيقظ فيدورا كل يوم في باكر الصباح، وتنكب علـى الغسيل، وتعمل حتى ساعة متأخرة في الليل؟ بينمـا عظام المسنين تحتاج إلى راحة. وهل معقـول أنني لا أرى كيف تحطـم نفسك مـن أجلي وتنفق آخـر فلس عليَّ. أنـت لست ميسور الحـال، يا صديقـي! أنت تكتب لي: سأبيع آخر مـا عندي، ولكن لن أدعك في حاجة. أنا واثقة، يا صديقتي، واثقة بقلبك الطيب، ولكنك تقـول ذلك الآن. فإن لك الآن نقوداً غـير متوقعة، فقد حصلت على مكافـأة. ولكن ماذا فيما بعد؟ أنت تعرف أنني عليلة دائماً، وليس في مستطاعـي، مثلما في مستطاعك، أن أعمل، ولو أن العمل يسرّ قلبي، كما أن العمل ليس متوفراً دائماً.

فمـاذا يبقى لي؟ أن امـزق قلبي باللوعـة عليكما، أيهـا العزيزان. ومـاذا بوسعي أن أقدم لك ولو أدنى فائـدة؟ ولماذا أنا ضرورية لك، يا صديقي؟ وما الـذي فعلت لك من عمل طيب؟ سوى أنني رهينة لك بروحي، احبـك بقوة وأسر، وبكل قلبي، ولكننـي - يالمرارة نصيبي! -أقدر أن أحـب، وأستطيع أن أحب لا غير ولكنني لا أصنع معروفاً، ولا أرد لك على أياديك فلا تعيلني أكثر، ففكر في الموضوع، وأخبرني برأيك الأخير. وفي الانتظار سأظل

محبتك

ف.د.

Telegram: @Arab_Books

١ تموز

نــزوة، نزوة، يــا فارنكا، نزوة محضــ! إذا تركتــك وأنت في هذه الحــال، فما أكثر مــا يعن لعقلك من أفكار هذا ليــس كما يجب، هذا ليــس كما يجب! بينمــا أرى الآن أن كل ذلك هــراء. قولي لي فقط يا أميمة، ما الذي ينقصك وأنت بيننا؟ نحن نحبك، وأنت تحبيننا ونحن جميعنــا مرتاحون وسعداء، ومــاذا أكثر من ذلك؟ وماذا ستفعلين عند أناس غرباء؟ أظنــك حتى الآن لا تعرفين ما هــو الإنسان الغريب. لا تعرفين، فاسأليني، من فضلك، فأقول لك ماهو الإنسان الغريب. فأنا أعرفه، يا أميمــة، أعرفه جيداً. فقد حصل أن أكلت خبزه. إنه حقود، يا فارنكا، حقود إلى درجة يوجع قلبك ويمزقه باللوم والتقريع والنظرة اللئيمــة. بينمــا أنت في دفء وأمانــة وكأنك في عشــ. بالإضافة إلى ذلــك سنفقد صوابنا بدونك. فماذا سنفعــل بدونك. ماذا سأفعل، أنا العجــوز، بدونــك؟ لا حاجة لنا بك؟ لا خير؟ وكيــف لا خير؟ لا، يا أميمــة، ناقشي الأمر مع نفسك كيف لا خير فيك. إن فيك خيراً كبيراً لي يــا فارنــكا. وإن لك تأثيراً جليــلاً عليّ... ها أنا افكــر فيك الآن، فأشعــر بالغبطة... وأحيانــاً أكتب لك رسالــة، فأصب كل مشاعري فيهــا، وأتلقى منك عليها رداً مفصــلاً– اشتريت لك ملابس، صنعت لــك قبعة، وقد تأتي منــك مهمة، فأقوم أنا بهــذه المهمة... فكيف لا خــير فيك؟ ثــم ماذا سأفعل أنــا وحيداً، في شيخوختــي، وأي نفع لي سيكــون؟ ربما لم تفكري في هذا كله، يا فارنكا، ففكري فيه بالذات، كأن تقــولي أي نفع سيكون له بدوني؟ لقد ألفتك، يا روحي. وإلا فاية نتيجة ستكون؟ أذهب إلى نيفا[٢١]، وتكون النهاية.

---

٢١. نيفا نهر في بطرسبورغ. المترجم

Telegram: @Arab_Books

أجل، سيكون ذلك، يا فارنكا، إذ لا يبقى لدي شيء أفعله بدونك! آه، ياروحـي، يـا فارنـكا! يبدو أنـك تريدين أن يأخـذوني إلى مقبرة فولكوفـو على عربة حمولة بسيطـة ولا تسير وراء نعشي غير متسولة عجـوز كسيحة، يهيلـون عليّ الرمـل هناك، ويذهبـون، ويتركونني وحيـداً. خطيئة، يـا أُميمة، هذه خطيئـة! حقاً خطيئـة، وحق الرب خطيئـة! أرد إليك كتابك، يا صديقتي، يا فارنـكا، أما إذا سألتني عن رأيي في كتابك هذا، فسأقول لك: في حياتي لم يحدث أن قرأت مثل الكتـب الرائعة. وأنـا أسأل نفسي الآن، يـا أميمة، كيف عشت حتى الآن بهـذه الدرجة من الجهل، سامحني الله؟ مـاذا كنت أفعل؟ من أي الأدغـال جئـت: لأنني لا أعرف شيئاً، يا أُميمـة، لا أعرف أي شيء، على الإطلاق! وأقول لك بصراحة، يا فارنكا، أنني إنسان غير متعلم، وحتى الآن لم اقرأ غير القليل، والقليل جداً، بل لا شيء تقريباً. لم أقرأ غـير «صورة الإنسان» وهو كتاب ذكـي [٢٢] و«الصبي العازف على الأجراس أنغاماً مختلفة»[٢٣] و«غرانيـق ابيكوس»[٢٤]، هذا كل شيء، ولم أقـرأ قـط أكثر من ذلـك. الآن قرأت في كتابـك «ناظر المحطة».

---

٢٢. المقصود هنا كتاب (صورة الإنسان) تجربة القراءة التعليمية، عن موضوعة التثقيف الذاتي لجميع المراتب التعليمية من تخطيط أ.غاليتش(سان بطرسبورغ١٨٣٤). وأ. غاليتش (١٧٨٣- ١٨٤٨) مدرس بوشكين في الليسية ومرب وفيلسوف مثالي. الناشر.

٢٣. العنوان الروسي لرواية الكاتب الفرنسي ف.غ. ديوغري دىمنيل(١٧٦١-١٨١٩) "قارع جرس صغير" (١٨٠٩) (الطبعة الروسية صدرت ١٨١٠ و ١٨٢٠ مجلدات ١-٤ ، موسكو)،وهي تصف الحياة البائسة لصبي نشأ فقيراً، وتنتهي نهاية سعيدة، حيث يجد البطل أهله، ويتحول من موسيقي جوّال الى كونت شهير. الناشر.

٢٤. قصيدة غنائية لشيلر ١٧٩٧(ترجمة الشاعر الروسي الكبير ف.أ. جوكومسكي ١٧٨٣- ١٨٥٢). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وأقـول لك، يا عزيزتي، أنـه يحدث أحيانـاً أن الإنسان قد يمضي في حياتـه دون أن يعرف أن بالقـرب منه كتاباً تطرح فيه كل حياته، بدقة ووضـوح وما إن أبدأ بقـراءة مثل هذا الكتاب حتـى آخذ بتذكر كل شيء قليلاً قليلاً، وأكتشف وأحدس كل ما لم أحدسه من قبل. وأخيراً هنـاك سبـب آخر حبّـب إليّ كتابك. هنـاك من الكتـب مهما قرأت وقـرأت فيها، وأتعبت رأسك، بدا وكأنـك لا تفهمها لما فيها من لف ودوران. أنا مثلاً، خامل العقل، وخمول عقلي، بالفطرة، فلا أستطيع قـراءة المؤلفات الجدية. أما هذا الكتاب، فالمرء يقرؤه، وكأنه هو الذي كتبـه، كأنما أخذ قلبـي، كما هو، على سبيل المثـال، وقلبه للناس على البطانـة، كما أنه وصف كل ما فيه بتفصيل، هذا هو! ثم إن الموضوع بسيـط، يا ربـي. و لم لا أكتبه؟ فأنا أشعر بالضبـط نفس ما هو موجود في الكتـاب تماماً، كما أنني عشـت في بعض الأحيان نفس الأوضاع الذي كان يعيشها سمسون فيرين، المسكين ذاك، على سبيل المثال. ثم كم بيننا من التعساء من أمثال سمسون فيرين، حفظهم الله! وكل شيء موصـوف بحذق شديـد! وكادت الدموع تخوفني، يـا أميمة، حين قرأت أن هذا الخاطئ أخذ يدمن على الخمر، حتى فقد ذاكرته، وأصبح سكـيراً مدمنا على الخمر، وصار ينام النهار كلـه، تحت جبته من فراء الغنم ويغرق محنته بالخمرة، ويبكي متشكياً، ماسحاً عينيه بطرف جبته القذر، حين يتذكر معزته الضالة، ابنته دونياشا! أجل، إنه مكتوب على الطبيعـة! فاقرئيه. إنه على الطبيعة! إنه حـيّ. لقد رأيت ذلك بنفسي، وأمثاله يعيشون حولي. لنأخذ تيريزا على الأقل- لا حاجة إلى الذهاب بعيـداً! -لنأخذ موظفنا المسكين، على الأقل، فربما هو سمسون فيرين نفسـه ولكن باسـم آخر، هو غورشكوف. الموضوع عـام، يا أميمة، وقد يحصل هذا لك ولي. والكونت الذي يعيش في شارع نيفسكي،

Telegram: @Arab_Books

أو علـى الكورنيش سيكون نفس الكونت سوى أنه سيبدو آخر، لأن كل شيء عندهم على طريقتهـم الخاصة، وعلى مستوى رفيع، ولكن سيكـون له نفسـ الشيء. كل شيء يمكـن أن يحصل، وقد يحصل لي أنـا أيضاً نفس الشيء. ذلك هو الأمر، يا أميمة، بينما ما تزالين تريدين أن ترحلـي عنا، وهذه خطيئة، يا فارنكا، وقد تلحق بي. وقد تهلكين نفسك، وتهلكينني، يا روحي. آه، يا عزيزتي، ألقي عن رأسك، بحق الـرب، كل هذه الأفكار الطائشـة، ولا تعذبينني عبثـاً. وأين لك، يا طائري الصغير الضعيف، الأزغب أن تطعمي نفسك بنفسك، وتحمي نفسـك من الهلاك، وتقيها من الأشرار! كفاك، يا فارنكا، وعدلي عن رأيـك، لا تصغي إلى النصائح السخيفـة والوشايات، واقرئي كتابات مـرة أخرى، اقرئيه بعناية. وسينفعك كنـت أتحدث إلى راتازييف عن «ناظر المحطة»، فقال لي إن الكتاب قد مضى عهده. الكتب الآن كلها تصدر بالصور والأوصـاف[٢٥]. والحقيقة أنني لم أدرك معنى كلامه بشـكل جيد، ولم أفهم مـاذا كان يقول. وانتهى القـول بأن بوشكين رائع، وأنه مجد روسيا المقدّسة، وأشياء أخرى كثيرة قالها لي عنه. نعم، يا فارنكا، جميل، وجميل جداً، فاقرئي الكتاب مرة اخرى، وبعناية، وأصغي إلى نصائحي، وأسعديني، أنا العجوز، بإصغائك لي. وعندئذ سيجازيك الرب نفسه، يا روحي، يجازيك من كل بد.

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٢٥.أربعينيات القرن الماضي هي فترة من تاريخ روسيا انتشرت فيها "القصص الفسيولوجية". ومثل هذه القصص تكون عادة مصحوبة بطبعات صور محفورة "الصورة" التي تمثل "النماذج" اي ممثلي مختلف الفئات والمهن. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

٦ تموز.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

جلبت فيدورا لي اليوم خمسة عشر روبلا فضياً.

وكـم فرحت، المسكينة، حين أعطيتهـا ثلاثة روبلات! أكتب لك بعجالـة. أنا الآن أفصّل لك صداراً –مـن قماش فتان – أصفر مورد. أرسـل لك كتاباً[٢٦] يحتوي علـى قصص مختلفة. وقد قرأت بعضها، أقرأ واحدة منها بعنوان «المعطف». أنت تستميلني للذهاب إلى المسرح معـك، أفلا يكلفك ذلك غالياً؟ ربمـا سنجلس في مكان ما في الشرفة العاليـة. أنا لم أذهب إلى المسرح منذ وقـت طويل، لا أتذكره في واقع الأمـر. ولكنني أخشى هذه المرة أيضـاً أن تكلفك هذه الدعوة غالياً؟ وفيدورا لا تفتأ تهز رأسها، وهي تقول أنك بدأت تعيش بما لا يناسب مداخيلـك، وأنا أيضاً أرى ذلك، فكـم أنفقت عليّ لوحدي! حذار، يـا صديقي، أن تقع في محنة. ذكرت لي فيدورا أن هناك شائعات تزعم أنـك تشاجرت مع صاحبـة منزلك لعدم تسديدك الإيجـار لها. وأنا قلقة عليك جـداً. والآن، وداعاً، فأنا مستعجلة. عندي شغلة صغيرة، إذ أريد أن أغير شريط قبعة.

ف.د.

ملاحظـة: هل تعرف أننـي، إن ذهبنا إلى المسـرح، سأرتدي قبعتي

---

٢٦. المقصود هنا المجلد الثالث من "مؤلفات" نيقولاي غوغول، التي صدر في بداية ١٨٤٣. وفي نشرت قصة "المعطف" لاول مرة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

الجديدة، وأضع على كتفي الشال الأسود؟ هل سيكون ذلك حسناً؟

٧تموز.

سيدتي فارفارا الكسييفنا!

... أعـود من جديد إلى موضوع الأمس. أجل، يا أميمتي، حتى نحن كان الجنون يركبنا في الماضي. وقعت في حب الممثلة، وقعت في الحب حتى أذني، وليس هـذا بالأمر العجيب، ولكن أعجب العجب أننـي لم أكـن قد رأيتها ولا مـرة تقريباً، ثم إننـي لم أكن في المسرح إلا مـرة واحدة، ومع ذلك فقد وقعت في حبهـا. آنذاك كان يعيش معي – جـداراً لصق جـدار – خمسة شبـان صخابـين. تصادقت معهم. تصادقـت دون إرادتي، رغم أنني كنت دائمـاً أحتفظ بحدود معتبرة بينـي وبينهم. ولكيلا أتخلف عنهم، أوافـق على رأيهم في كل شيء. وما أكثر ما حدثوني عن هذه الممثلة! في كل مساء، وحالما تبدأ التمثيلية تتوجه العصبة كلها –رغم أنهم لا يملكون فلساً واحداً أبداً لسد حاجة –إلى المسرح، إلى شرفته العليا ويشرعون بالتصفيق، والهتاف باسم هذه الممثلـة –مجرد جنون! وبعد ذلـك لا يدعونني أنـام، إذ يقضون الليل كله بالكلام عنهـا دون انقطاع، وكل واحد منهم يدعوها صاحبتي غلاشا، وكل واحد منهم يعشقها وحدها، وللجميع كنارية واحدة في القلب. وحفزوني أنا العديم الحيلة أيضاً وكنت آنذاك ما أزال شاباً غراً.

ولا أدري كيـف وجدت نفسي معهم في المسرح في الجناح الرابع مـن الشرفـة. لم أكن أرى غير حافـة الستارة، ولكن كنـت أسمع كل

Telegram: @Arab_Books

شـيء. كان للممثلة، في الحق، صوت جيـد، صداح، بلبلي، عسلي! ظللنا نلهب أكفنا بالتصفيق، ونهتف هتافاً متواصلاً، وباختصار كدنا نقـع في ورطة، وقد أخرجـوا أحدنا بالفعل. وذهبت أنـا إلى البيت، وكأنني أسير كالمسحور! و لم يبق في الجيب غير روبل وحيد، ما زالت هنـاك عشرة أيام محترمـة على قبض الراتب. وما رأيـك، يا أميمة؟ في اليـوم التالي، وقبـل أن أذهب إلى الوظيفة، عرجـت على فرنسي بائع عطور، وأنفقـت كل رأسمالي عنده على العطـور والصابون المعطّر، وأنـا لا أدري لم اشتريـت كل ذلـك آنذاك؟ بـل و لم أتناول غدائي في البيـت، بل ظللت أمر بنوافذها. كانت تعيش في شارع نيفسكي، في الطابـق الرابع. ذهبـت إلى البيت لأستريح بعضـ ساعة على نحو ما، وعـدت ثانية إلى نيفسكي لا لشـيء إلا لأمر علـى نوافذها. واستمر الحـال على هذا المنوال شهراً ونصـف الشهر أغازلها، وكنت استأجر عربة جيدة على طول، أروح وأجـيء على شبابيكها. أرهقت نفسي تمامـاً تماماً، وغرقت يـا أميمتي، ماذا تستطيع الممثلـة أن تفعل بإنسان محترم! ولكنني كنت في مقتبل العمر، كنت آنذاك، في مقتبل العمر!..

م.د.

٨تموز.

سيدتي فارفارا الكسسيفنا!

أسـرع في إعـادة كتابك الذي تلقيته في السادسـ من هذا الشهر، وأسـرع أيضاً، وفي نفس الرسالة، أن أكاشفك. عيب، يا أميمة، عيب

Telegram: @Arab_Books

عليك، أن تبلغي بي إلى هذا الحد. اسمحي لي، يا أميمة. إن رب القدرة هو الذي حدد للناس أقدارهم. فمنهم من كتب له أن يرتدي كتافيات جـنرال، ومنهم من يخدم موظفاً بسيطـاً، ومنهـم من يأمر، ومنهم من يطيـع بخنوع وفزع، وكلٌ حسب قابلياته. لبعضهم قابلية على شيء، ولآخر قابلية على شيء آخر، والقابليات من صنع الله نفسه. منذ ثلاثين عاماً وأنا أخدم في وظيفة، أخدم بنزاهة وسلوك صالح، و لم يلحظ عليّ قط إخـلال بالنظام. وأنا كمواطن، اعتـبر أن لي نقائصي، ولكن، إلى جانب ذلك، لي فضائلي وأنا أدرك هذا بوعي. محترم من قبل الرؤساء، وصاحب المعالي نفسه راضي عني. ورغم أنه لم يبد، حتى الآن، علائم معينـة على الميل نحوي، إلا أنني أعرف أنـه راضٍ عني. عشت حتى شـاب شعر رأسي، ولا أعرف لي خطيئة كبـيرة. وبالطبع مَن المبرأ من الخطايا الصغيرة؟ كلنا خاطئ، وحتى أنت، يا أميمة، خاطئة! ولكن لم تلحظ عليّ قط ذنوب كبيرة، ولا وقاحات، سواء ضد القواعد القائمة، أو تعكيراً لصفو النظام، إن ذلك لم يسجل عليّ قط، و لم يكن له وجود أبـداً، بل وكانوا يرشحونني للحصول علـى نيشان، ولكن دعك من هـذا! إن كل ذلك يجـدر أن تعرفيه، يا أميمة، وأقـول هذا بصراحة، والجدير به أيضاً أن يعرف. إذا كان قد أخذ على عاتقه أن يكتب فعليه أن يعـرف هـذا كله. لم أتوقع ذلك منك. يا فارنـكا، يا أميمة! لم أكن اتوقع منك هذا بالذات.

أوه! إذن بعد هذا لا يمكن أن يعيش المرء خالي البال في ركنه الصغير –علـى أي حـال كان– أن يعيش دون أن يعكر صفو ماء، كما يقول المثـل – دون أن يمس أحداً، عارفاً خوف الـرب ونفسه ذاتها، ودون أن ينال منه أحد، ولا ينسل إلى مأواه ليرى كيف هو في حياته المنزلية،

Telegram: @Arab_Books

وهل لديـه -على سبيل المثـال -صدار جيد، أو مـا ينبغي من الثياب الداخليـة، وهـل لديه حذاء طويل العنق، وأي نعلـين له؛ وماذا يأكل، ومـاذا يشرب، وماذا يستنسخ؟.. ثم مـاذا في الأمر، لو أنني عمدت، يـا أميمة، إلى السير على طـرفي حذائي في موضع سيء من الرصيف، حرصاً على هذا الحذاء! وما الغاية من الكتابة عن فلان من الناس بأنه في عـوز أحياناً، ولا يستطيع أن يشرب الشاي؟ وكأن الجميع ومن كل بد يجب أن يشربوا الشاي! وهل من المعقول أن أعاين في فم كل شخص لأعـرف أية قطعة يمضغ؟ وهل أهنت أحداً بهذا الشكل؟ لا، يا أميمة، لا حاجـة لأن يهـين المرء الآخريـن، إذا كانوا لا يمسونـه! وإليك هذا المثل، يا فارفارا الكسيبفنا، هـذا المثل. الإنسان يخدم ويخدم بانتظام ودأب، -روعه! -والرؤساء يحترمونه (يحترمونه مهما تكن هناك من أشيـاء) وإذا بفلان مـن الناس، وعلى مرأى منـه ومسمع، وبدون أي سبب منظور، لا على البال ولا على الخاطر، يصنع منه تشنيعة. أحياناً بالطبع، وهذا صحيح، يخيط الإنسان لنفسه شيئاً جديداً، ويفرح به، لا ينـام الليل من الفـرح، فأي متعة في أن يلبس حـذاءً طويلاً جديداً، مثـلاً، وهذا صحيح، وأنا أحس بـه، لأنه من المريح واللطيف أن ترى رجلك في حذاء أنيق ناعم. وهذا موصوف بصدق! ولكنني مندهش عن حق من أن فيدور فيدوروفيتش لم يلتفت إلى مثل هذا الكتاب و لم يدافع عن نفسه. حـق أنه موظف شاب رفيع المكانة، ويجب أن يرفع صوتـه أحيانـاً، ولماذا لا يرفع صوته؟ ولماذا لا يوبـخ أيضاً، إذا اقتضى توبيخ أحد مـن أمثالنا؟ ولنفرض، مثلاً، أنـه يوبخ لمجرد توبيخ، ففي الأماكن أيضاً التوبيخ لمجرد توبيخ، ويجب تعويد الناس على هذا.

يجـب توبيخهـم، لأن جماعتنـا -وليكن ذلك بيننا، يـا فارنكا،

Telegram: @Arab_Books

-لا تفعل شيئاً إذا لم توبخ، وكل واحد منهم لا يسعى إلا لأن يكون مسجلاً في خدمة مما يمكنه أن يقول: أنا أشتغل في هذا المكان أو ذاك، أما في الواقع فإنه يتحاشى العمل أو يداور عليه. ولما كانت هناك رتب مختلفة، وكل رتبة تقتضي التوبيخ المناسب لها تماماً، فمن الطبيعي أن نبرة التوبيخ، بالتالي، تختلف من رتبة إلى أخرى. هذه من طبيعة الأشياء! والدنيا قائمة، يا أميمة، على أننا جميعنا نرفع نبرات أصواتنا إزاء الآخرين، وإن كل واحد منا يوبخ الآخر.

وبدون هذا التوبيخ ما كانت لتقوم للدنيا قائمة، وما كان هناك نظام. وأنا مندهش عن حق من أن فيدور فيدوروفيتش ترك مثل هذه الإهانة تمر دون اهتمام!

ما الغرض من كتابة ذلك، وما الفائدة منه؟ هل يصنع لي أحد القراء معطفاً مقابل هذا؟ أو أن يشتري لي حذاءً جديداً طويل الرقبة؟ لا، يا فارنكا، سيقرأ ما هو مكتوب ويطلب أكثر. إن الإنسان يحجب نفسه أحياناً، يخفي ما أخفق فيه، يخاف أحياناً أن يطل بأنفه، في أي مكان كان، لأنه يفزع من القيل والقال لأن الكُتّاب يعملون صورة ساخرة من كل ما هو موجود في الدنيا، من الشيء ومن اللاشيء، وإذا بكل حياتك المدنية والعائلية معروفة في الأدب، كل شيء مطبوع ومقروء ومضحوك منه، وفيه قيل وقال! عندئذ لن يكون في مستطاع أحد من جماعتنا أن يظهر في الشارع، لأن كل شيء موصوف جيداً، حتى إن صاحبنا سيُعرف الآن من مجرد مشيته. أوه، ليته أصلح من نفسه قليلاً قبل الختام، ولطّف شيئاً ما، وذكر، مثلاً، ولو بعد الفقرة التي وصف فيها كيف نثروا الأوراق على رأسه، أنه رغم كل ذلك، كان فاضلاً، مواطناً حسناً، أنه كان يصغي إلى الكبار(وهنا يمكن أن يورد مثلاً

Telegram: @Arab_Books

علـى ذلك) و لم يكن يضمـر الأذى لأحـد، وكان يؤمن بالله، ومات (إذا كان يريده أن يموت من كل بد) مأسوفاً عليه. ولكن الأفضل أن لا يترك المسكين يموت، بـل جعله يعثر على معطفه، ويجعل الجنرال بعد أن يعـرف تفاصيل أكـثر عن فضائله، يعيده في مكتبـه، ويرقي رتبته، ويعطيه راتباً طيبـاً، عندئذ سيبدو الأمر كالآتي: عقاباً للشر، وانتصاراً للخـير، وخذلاناً بالكامـل لرفاقه الكَتَبة. لو كنـت في مكانه لعملت ذلـك مثلاً، وإلا فأي فريد في القصـة، وأي خير؟ إنها مجرد مثل عديم الجـدوى من الحياة اليومية السافلة. يـا شقيقة روحي؟ إنه كتاب سيء القصد، يا فارنكا، إنه مخالف للواقع تماماً، لأنه لا يمكن أن يكون وجود لمثـل هذا الموظف. يجب رفع شكوى، يا فارنكا، شكوى شكلية بعد قراءة مثل هذا الكتاب.

خادمك المطيع

ماكار ديفوشكين

٢٧ تموز.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

أفزعتنـي الحوادث ورسائلـك الأخيرة، وأذهلتنـي، وجعلتني في حـيرة، غـير أن ما روتـه لي فيدورا أوضـح لي كل شـيء، ولكن لماذا جزعـت هذا الجزع، وسقطت فجـأة في تلك الهـوة السحقية، التي وجـدت نفسك فيهـا الآن يا مـاكار الكسييفتش؟ إن تفسيراتك لم تقنعنـي علـى الإطلاق. ألا تـرى أنني كنت على حـق حين أصررت

Telegram: @Arab_Books

علـى قبول العمل الملائم الذي عرضـ علي؟ كما أن مغامرتي الأخيرة تخيفني خوفاً شديداً. أنـت تقول أن حبك لي جعلك تخفي وضعك عنـي. من قبل أيضاً كنـت أرى أنني مدينة لك بالشـيء الكثير، بينما كنـت تؤكد لي أنك لا تنفق علي إلا نقـودك المدخرة التي كنت تقول أنها مودعة لدى مصرف الرهونات للطوارئ. والآن حين عرفت أنك لم تكـن تملك أية نقود على الإطلاق، وأنـك حين عرفت، عن طريق المصادفـة، بالضائقة التي أنا فيها وتأثرت بها، وقررت أن تنفق راتبك الذي كنت تأخذه سلفاً، بل وبعت ثيابك حين كنت مريضة، الآن وقد تكشف لي كل ذلك وجدت نفسي في وضع شديد الإيلام، حتى أنني لا أعـرف حتى الآن كيف أتقبل كل ذلـك، وأي رأي أتخذه فيه. آه، يا ماكار الكسييفتشـ كان يجب أن تتوقف عن أياديك الأولى المنبعثة مـن تعاطفك وحبك لذوي القربى، ولا تبذل نقودك، فيما بعد، على الأشيـاء غير الضروريـة. لقد نكثت بصداقتنا، يا مـاكار الكسييفتش، لأنـك لم تكن صريحاً معي، والآن حين أرى أن آخر ما عندك قد أنفق علـى الترفيات والحلويات، والنزهات والمسرح والكتب، الآن أجدني أدفـع عن كل ذلك ندامـة على تصرفي الطائش الـذي لا يغتفر (لأنني كنـت أتقبل منك كل شـيء دون أن أهتم فيك ذاتـك) وكل ما كنت تريـد أن تسرني به انقلـب الآن إلى مصيبة لي، و لم يخلف في نفسي إلا الندامة غـير المجدية. لقد لاحظت اكتئابك في المـدة الأخيرة، ورغـم أنـي أيضاً كنـت أتوقف، بكآبة، شيئـاً ما، ولكن ما حـدث الآن ما كان حتـى أن يدخـل في عقلي. أوه! إلى هذه الدرجـة تنهار يا ماكار الكسييفتشـ! ولكـن ماذا سيظـن الناس فيـك الآن، ومـاذا سيقول عنك هؤلاء الذين يعرفونـك؟ أنت الذي كنت دائماً موضع احترامي واحترام الجميع على طبيعة نفسك وتواضعك وحصافتك، فجأة تقدم

Telegram: @Arab_Books

الآن على رذيلة منفرة لم تلحظ عليك قط في الماضي، على يبدو لي، فيدورا أنك قد ضبطت في الشارع في حالة سكر، وجلبوك إلى البيت بصحبة شرطي! لقد صعقت من الدهشة، رغم أنني كنت أتوقع شيئاً غير اعتيادي، لأنك غبت عن ناظري أربعة أيام. ولكن هلا فكرت، يا ماكار الكسييفتش، فيما سيقوله رؤساؤك حين يعرفون السبب الحقيقي لغيابك؟ أنت تقول أن الجميع يضحكون منك، وأن الجميع عرفوا علاقتنا، بل وأن جيرانك يذكرونني أيضاً في سخرياتهم. لا تلق بالاً لذلك، يا ماكار الكسييفتش، واهدأ بحق الرب. ثم إن حكايتك مع أولئك الضباط تخيفني أيضاً، وقد سمعت عنها بشكل غامض. اشرح لي ما معنى هذا كله؟ أنت تكتب لي أنك خفت أن تكاشفني، خفت أن تفقد باعترافك صداقتي لك، وأنك كنت في حالة جزع وأنت لا تعرف بم تساعدني في إشفائي من مرضي، وأنك بعت كل شيء لكي تعيلني، ولا تتركني أنزل في المستشفى، وأنت استدنت قدر ما استطعت، وإن لك في كل يوم متاعب مع صاحبة البيت، ولكن بإخفائك كل هذه الأشياء عني اخترت أسوأ الأشياء. فقد عرفت كل شيء الآن.

استحيت أنت أن تدعني أعرف بأنني كنت السبب في وضعك غير السار، ولكن الآن، بتصرفك، جلبت لي الشقاء مضاعفاً. وكل ذلك قد أهلني يا ماكار الكسييفتش. آه، يا صديقي! التعاسة مرض معد.

والتعساء والفقراء بحاجة إلى أن يتحاشى بعضهم بعضاً، حتى لا تشتد العدوى بينهم. وقد نقلت إليك تعاسات لم تعانها من قبل في حياتك المنعزلة المتواضعة وكل ذلك يعذبني ويقتلني.

Telegram: @Arab_Books

اكتـب لي الآن بكل صراحة مـاذا حدث لك، وكيف أقدمت على تلك الفعلة. طمئني، إذا كان ذلك ممكناً ليست الأنانية هي التي تدفعني إلى أن أكتب لك الآن عن تطميني، ولكنها صداقتي ومحبتي لك اللتان لـن يحميها شيء مـن قلبي. وداعاً. أنتظر ردك بلهفـة. لقد أسأت بي الظن، يا ماكار الكسييفتش.

المحبة لك من القلب

فارفارا دوبرسلوفا

٢٨ تموز.

عزيزتي الغالية فارفارا الكسييفنا!

حسنـاً، إذ إن كل شـيء انتهى الآن، ويسير شيئـاً فشيئاً إلى وضعه الطبيعي. فهـذه كلمتي لك، يا أميمة أنت تقلقـين على ما يظن الناس بـي، ولذلك أسرع لأعلن لـك، يا فارفارا الكسييفنـا، أن عزة النفس عندي أغلى من كل شيء، وتبعاً لذلك، ولإبلاغك بتعاستي وبكل هذه التجـاوزات أحيطك علماً بأن احداً من الرؤسـاء لا يعلم بشيء حتى الآن، ولـن يعلم، ولهذا فسيظلون يكنـون لي الاحترام كالسابق. ولا أخشـى غير شيء واحد، أخشى القيـل والقال. وصاحبة البيت عندنا تزعـق، ولكنها الآن، بعد أن دفعت جزءاً من ديني لها بمعونة روبلات العشـر تكتفي بالدمدمة، ولا أكثر. أمـا بخصوص الآخرين، فلا بأس أيضاً، سوى أنهم لا يحبون أن يستدين منهم أحد. وإلا فلا بأس بهم. وفي ختـام توضيحاتي أخبرك، يا أميمة، بأنني أعتبر احترامك لي أرفع

Telegram: @Arab_Books

شـيء في الدنيا، وهـو سلوتي الآن في تجاوزاتـي المؤقتة. حمداً للرب علـى أن الصدمة الأولى والورطات الأولى قد مرت، وقد تقبلت أنت ذلك بحيث لا تعتبرينني صديقاً غداراً ولا أنانياً، لأنني أبقيتك عندي، وخدعتك، وأنا غير قادر على مفارقتك، ومحب لك كملاكي الصغير. الآن عـدت أعمـل بمثابرة، وأخـذت أؤدي واجبي جيـداً. و لم ينطق يفستـافي ايفانوفيتش بأية كلمة، حـين مررت به يوم أمس. ولا أخفي عنك، يا أميمة، أن ديوني وحالة ثيابي السيئة تقتلني، ولكن لا بأس في هذا أيضاً، وأتضرع إليك ألا يأخذك الجزع من ذلك، يا أميمة. ترسلين لي نصـف روبـل آخر يا فارنكا، وقد جرح نصـف الروبل هذا قلبي. هكـذا أصبـح الأمر الآن، هكـذا، إذن! يعني أن الأبلـه العجوز ليس هـو الذي يساعدك، يـا ملاك، بل أنت، اليتيمـة، المسكينة، أنت التي تساعدينـي! حسنـاً ما فعلت فيدورا إذ حصلـت على نقود لأنني في الوقت الحاضر، لا آمل في الأفق، سأكتب لك عن كل شيء بالتفصيل.

ولكن القيل والقال، والقيل والقال يقلقني، أكثر من أي شيء آخر. وداعـاً، يا ملاكي أقبل يدك الحلوة، وأتوسل إليك أن تشفي. ولا أطيل عليك، لأنني مستعجل للذهاب إلى الوظيفة، فأنا أريد بالمثابرة والدأب أن أعوض عن كل ذنوبي في إهمـال الوظيفة، وسأؤجل إلى المساء ما تبقى لي أن أرويه عن جميع الحوادث وعن مغامرتي مع الضباط.

مع احترامي وحبي القلبي

ماكار ديفوشكين

Telegram: @Arab_Books

٢٨ تموز.

آه، يـا فارنـكا! الآن بالذات الذنـب على جنبـك، والعاقبة على ضميرك. لقد سلبتني برسالتك آخـر ما لدي من أعصاب، وحيرتني، ولكننـي الآن فقط، في أوقات فراغي، نفذت إلى صميم قلبي، فرأيت أنني كنت على حق، على حق تماماً. أنا لا أعني بذلك سكري وعربدتي (اللعنة عليها، يا أميمـة، كفى ذكراً لها!). بل أعني أنني أحبك وليس حبـي لـك ضرباً من عدم التعقـل على الإطلاق، ليس ضرباً من عدم التعقل على الإطلاق. أنت لا تعرفين شيئاً، يا أميمة، ولو كنت تعرفين فقـط، لَمِ كل ذلـك لم علـي أن أحبك، لما قلت ذلـك كلامك وحده الموزونَ، ولكنني واثق من أن في قرارة قلبك شيئاً آخر مختلفاً تماماً.

يـا أميمتي، أنا نفسي لا أعرف ولا أتذكـر جيداً كل ما وقع لي مع الضبـاط. ويجب أن انوه لك، يا ملاكي، بأنني حتى ذلك الحين كنت في حالـة مريعة من البلبـة تصوري أنني طوال شهـر كامل معلق على خيـط، كما يقولون. كان وضعي شديـد البؤس. فكنت أخفيه عنك، وعن أهل البيت أيضاً. ولكن صاحبة البيت كانت تملأ البيت بالصراخ والعويل. وما كان هذا يهمني. ولتصرخ هذه العاطلة الباطلة ما شاء لها الصـراخ. ولكن ذلك عيب، أولاً، والشـيء الثاني أنها عرفت بعلاقتنا والله يعلم كيف عرفت، فكانت تصرخ بها في أرجاء البيت وبكلمات تجعلنـي أصعق وأصم أذني ولكن المصيبة أن الآخرين لم يصموا آذانهم بل بالعكس، وتروها. وأنا الآن، يا أميمة، لا أعرف أين أولي وجهي...

وكل هـذا، يا ملاكي، كل هذا الخليط من شتى النوائب قضى علي كليـاً. وفجأة أسمع أشياء غريبة من فيدورا، وهي أن غاوياً شائناً دخل

Telegram: @Arab_Books

عليك البيت، وأهانك بعرض شائـن، إهانتك إهانة عميقة، وأستطيع أن أحكـم أي شيء لأنني أنا نفسي أحسست بهـذه الإهانة العميقة. وهذا، يا ملاكي، ما ضعضعني، هذا ما هز كياني، فقدت صوابي كلياً. خرجت من البيت، يا صديقتي، يا فارنكا، أركض بجنون لا يوصف، وأردت أن ذهـب إليه، إلى ذلـك الفاسق. لم أعد أعـرف ماذا أردت أن أفعـل، لأنني لا أريـد أن تتعرضي للإهانة. يا ملاكي! أوه كم كنت حزينـاً! في ذلك الوقت، كان مطر، وحـل، وحشة رهيبة!.. وأردت أن أعـود... وهنا جاء سقوطي، يا أميمة. التقيت بإميليا، أقصد إمليان إيليتش، وهو موظـف، أقصد كان موظفاً، أما الآن فهو ليس كذلك، لأنهـم رفضوه منها. وأنا الآن لا أعرف ماذا يفعل، وكيف يدبر أمره. التقينـا وسرنا سوية. أوه، يعني هـل يفرحك، يا فارنكا. أن تقرئي عن تعاسة صديق لك. عن نوائبه والمغريات التي وقع بها؟ وفي مساء اليوم الثالث أغـواني إميليا فذهبت إليـه، إلى ذاك الضابط طلبت عنوانه من بوابنا. ومادمنا بصدد الحديث عنه، يا أميمة، أقول أنني منذ زمان كنت لاحظـت هذا الشاب، وراقبته منـذ أن كان يسكن في بيتنا مستأجراً. والآن أرى أنـي أقدمت على عمل في محتشم، لأنني لم أكن في حالتي الطبيعيـة، حين أبلغـوه بقدومي. والحقيقة، يا فارنـكا، أنني لا أتذكر شيئـاً، أتذكـر فقط أن ضباطـاً كثيرين كانوا عنـده، أم ذاك من خداع البصر– الله يعلم. كما لا أتذكر ماذا تحدثت، أعرف فقط أنني تكلمت كثـيراً في حنقي النبيل. وهنا حصل ما حصـل، طردوني. وألقوني من الـدرج، أقصـد لم يلقـوني تماماً، بل دفعـوني فقط. وأنـت تعرفين، يا فارنـكا، الحالة التي رجعت بها إلى البيت، وهذه كل الحكاية. بالطبع إنني حططت من كرامتـي وأصيبت عزة نفسي ولكن أحداً لا يعرف ذلك، لا أحد يعرف من الغرباء، لا أحد يعرف غيرك، حسناً.

Telegram: @Arab_Books

في هذه الحال، كأن شيئاً لم يحدث قط. ربما هو كذلك، يا فارنكا، مـا رأيك؟ ولكنني أعرف شيئاً واحداً على التحقيق، وهو أن اكسنتي اوسيبوفيتش من جماعتنا حط بهذه الطريقة من قدر بيتر بيتروفيتش في السنـة الماضية ولكنه فعل ذلك بالخفاء، دعاه إلى حجرة الحارس، وقد رأيت كل ذلك من شق الباب، تصرفه معه حسب اللازم ولكن بطريقة نبيلـة لأن احـداً لم ير ما عداي، وأنـا لا بأس، أعني أريـد أن أقول لم أعلـن ذلك لأحد، حسناً، وبعد ذلك لا بأس أيضاً في بيتر بيتروفيتش، واكسنتي اوسيبوفيتـش. وبيتر بيتروفيتش صاحب عزة، ولهذا لم يقل لأحـد، وهما الآن ينحنـي أحدهما للآخر بالتحيـة، ويتصافحان. أنا لا أجـادل، يا فارنـكا، لا أحسن علـى أن أتجادل معـك، لا أجادل، ولا أتشـكك في أننـي سقطـت سقطة كبـيرة، وأفظع مـا في الأمر، سقطـت في عين نفسي، ولكـن هذا ما كتب عليّ على ما يبدو، وهذا هـو القدر في أغلب الظن، والإنسـان لا يستطيع أن يفلت من القدر، وأنـت بنفسك تعرفـين ذلك. حسناً، هذا هو شـرح مفصل لتعاساتي ونوائبي، يا فارنكا. كلها محزنة، لا يحب المرء حتى أن يقرأها مكتوبة. أنا متوعك، بعض الشيء، يا أميمتي، وقد فقدت كل ما لدي من روح الدعابـة. وعلى هذا وإثباتـاً لتعلقي وحبي واحترامي لـك سأظل، يا سيدتي فارفارا الكسييفنا

خادمك المطيع

ماكار ديفوشكين

Telegram: @Arab_Books

٢٩ تموز.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

قرأت رسالتيك كليهما، وأرسلت الآهات! اسمع، يا صديقي، إما أنـك تخفـي شيئاً عني، فلم تكتب لي غير جزء مـن متاعبك، وإما... حقـاً، يا ماكار الكسييفتش، ما يزال في رسالتيك قدر من التفكك... تعـال إلي، بحق الـرب، تعال اليوم. ثم اسمعني، تعـال في فترة الغداء وتغـدى عندنـا. أنا لا أعـرف الآن كيف تعيش في مسكنك وكيف رتبـت الأمور مـع صاحبة البيت. فأنت لا تكتـب شيئاً عن هذا كله، وكأنـك تصمت عـن ذلك تعمداً. إذن، إلى اللقـاء، يا صديقتي، زرنا اليـوم من كل بد، ولكن سيكون أفضل لو جئت دائماً لتتغدى عندنا. فيدورا تطبخ جيد جداً. وداعاً.

المخلصة لك

فارفارا دوبرسلوفا

١ آب.

أميمتي فارفارا الكسييفنا!

أنـت مسرورة، يـا أميمتـي لأن الله يسـر لك فرصة فجـاء دورك لتجـازي الخير بالخير، وتردي إلي معروفـاً بمعروف. وأنا واثق بذلك، يـا فارنكا، واثق بطيبة قلبك الملائكي. وأقول - وليس في قولي تأنيب لـك - لا تؤاخذيني فقط على أنني وقعـت في ورطة في شيخوختي،

Telegram: @Arab_Books

وإذا كان هنـاك منكر فليس لي حيلة عليه! بل وقد كان منكر بالفعل، إذا شئت ذلك، ولكن أن أسمع ذلك منك، يـا صديقتي، يعز على كثيراً! فـلا تغضبي علي، من قـولي هذا. فإن قلبي قد تمـزق يا أميمة. والمساكين أصحاب أطوار، والطبيعة صنعتهم بهذا الشكل. وهذا ما كنت أشعر به من قبل. إن المسكين رجـل موسوس، يرى في دنيا الله رأيا مختلفاً. وينظر شزراً إلى كل عابر سبيل، ويدير فيما حوله نظراً زائغاً حائـراً، وتلتقط أذنـه كل كلمة، يقولها الناس، فلربمـا يتحدثون عنه؟ ربمـا يقولون أنه دميم الخلقـة؟ وماذا يمكن أن يشعر بـه بالضبط؟ وما هـو من هذا الجانب؟ وما هو من ذلـك؟ وكل إنسان يعلم، يا فارنكا، أن الإنسـان المسكين الفقـير أتفه من خرقة باليـة، ولا يمكن أن يتلقى أي احـترام مـن أي واحد، مهما حـبر وخط هؤلاء الكتبـة المحبِّرون سيظل كل شيء في الرجل المسكين على حاله مهما حبروا! ولماذا يظل الحـال على هذا المنـوال؟ لأن الفقير، حسب رأيهـم، يجب أن يقلب علـى البطانة، بحيث لا يبقى لديه ما يحرص عليه، ولا عزة نفس، أية حبـة صغيرة منها! هـذا إميليان كان يقول قبل أيـام أنهم نظموا قائمة تبرعـات له، وكانوا لقـاء كل قرش يتبرعون به ينظـرون إليه وكأنهم يفحصونه فحصاً شاملاً. فقـد كانوا يظنون أنهم يعطونه قروشهم بلا مقابل ولكـن لا، فقد دفعوا لقاء استعراضهـم لإنسان مسكين. حتى الإحسان في الوقت الحاضر يـزاول بطريقة عجيبة، يا أميمة... ولربما كان يـزاول بهذه الطريقة العجيبة دائماً، مـن يدري! فإما أن الناس لا يعرفـون مزاولة الإحسان، وإما أنهم مهرة لا يشق لهم غبار في ذلك، ولا ثالث لذلك. ربمـا كنت لا تعرفين بذلك، فتفضلي وأعرفيه! نحن خارج اللعبة في القضايـا الأخرى، أما في هذه فلاعبون مهرة! ولكن لمـاذا لا يعرف الإنسان المسكـين كل ذلك، وله فيه مثـل هذا الرأي؟

Telegram: @Arab_Books

حقاً، لماذا؟ بالتجربة طبعاً! لأنه، مثلاً، يعرف أن هناك سيداً إلى جنبه يسير متجهاً إلى مطعم، يقول بينه وبين نفسه: ترى، ماذا سيأكل هذا الموظف، الصعلوك اليوم؟ سآكل أنا سوته بابليوت [٢٧] بينما سيأكل، ربما، العصيدة بدون سمنة.

وما دخله لو أني سآكل عصيدة بلا سمنة؟ يوجد مثل هؤلاء الناس، يا فارنكا، ولا يفكرون إلا في ذلك. يسيرون -هؤلاء المهينون الوقحون- ويراقبون: هل هذا يطأ الرصيف بكل قدمه أم بطرف حذائه فقط، وإن ذلك الموظف في الدائرة الفلانية، من الدرجة التاسعة، تبرز أصابع رجليه العارية من بوز حذائه، وسترته متآكلة عند المرفقين، وبعد ذلك يكتبون وصفاً لهذه الأشياء ويطبعونه وينشرونه. وما دخلهم في أن تكون سترتي متآكلة عند المرفقين؟ ثم اسمحي لي، إذا تفوهت بكلمة نابية، يا فارنكا، فأقول لك أن للمسكين، في هذه الناحية، نفس الحياء الذي لديك، على سبيل المثال، حياء الفتاة. فأنت -واعذريني من هذه الكلمة النابية- لا يمكن أن تعري نفسك أمام الجميع، وهذا شأن الإنسان المسكين بالضبط، لا يحب أن ينظر الآخرون في شأنه، يروا، مثلاً، ما هي علاقاته العائلية. هذا هو إذن، فلم يكن هناك داع آنذاك لإهانتي، يا فارنكا، سوية مع أعدائي الطاعنين في شرف وعزة الإنسان الشريف!

واليوم أيضاً في دوامي في الوظيفة جلست كحيوان صغير أخرق كعصفور منتوف الريش أكاد أحترق من الخجل من نفسي. شعرت بخجل شديد، يا فارنكا! وطبيعي أن يخجل الإنسان حين يلوح مرفقاه العاريان من خلال ملابسه وتتدلى الأزرار من خيوطها. وكل شيء لدي كان بهذه الحال من الاختلال، وكأنما من نكد الطالع! فلا مفر من اليأس.

---

٢٧. بالفرنسية تعني المشوي برقائق الالمنيوم. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

ايـه!.. اليوم بدأ ستيبـان كارلوفيتش نفسه يتحـدث معي عن العمل، ظـل يتحدث، ويتحدث، وإذا به يضيف، وكأن ذلك مصادفة: (آه، يا لـك يا ماكار الكسيفتش!») ولكنـه لم يقل باقي الكلام، وما يدور في ذهنـه، ولكنني حدست كل شـيء، فصعد الدم إلى وجهي، بل وحتى إلى صلعتـي. ولكـن لا بأس في ذلـك في جوهر الأمـر، ولكنه مقلق ويثـير أفـكاراً مرهفة. ربما بلـغ سمعهم شيء! والله يسـتر لو كانوا قد سمعـوا شيئاً! أعترف بأنني أشك، وأشـك شكاً قوياً بشخص واحد. هـؤلاء الأوغاد لا يهمهم شيء! والخيانة سهلة عندهم! يبيعون حياتك الشخصية كلها بحبة، وليس لديهم شيء مقدس.

أنـا أعـرف الآن مـن آية يـد خرجت هـذه الطبخة. إنهـا طبخة راتازييف. إن له أحد المعـارف في دائرتنا ومن المرجح أنه. من خلال الحديـث، نقل لـه كل شيء مع زيـادات، أو ربما، تحـدث في دائرته، فتسربـت الحكاية إلى دائرتنا. أما في مسكننا فالجميع يعرفون كل شيء حتى آخر التوافه، ويشيرون إلى نافذتـك بالبنان. وأنا أعرف بالتأكيد أنهم يشيرون. وما كدت أذهب لأتغدى عندك يوم أمس، حتى أطلوا برؤوسهم جميعاً من النوافذ، بينما قالت صاحبة البيت ها هو الإبليس صـارت له علاقة مع الطفلة، ثم أطلقت عليـك نعتاً بذيئاً. ولكن كل ذلـك لاشيء أمـام نية راتازييف الخبيثـة في استخدامنـا -أنا وأنت- في أدبـه، ووصفنا في هجائيـة شديدة الواقع. وقد قـال ذلك بنفسه، فنقلـه إليَّ الطيبون من أهل بيتنا. لم أعـد أستطيع التفكير في شيء، ويا أميمـة، ولا أعرف من أي شيء أقدم. ولا مفـر من الاعتراف بذلك. فقـد آثرنا غضب الرب علينا، يا ملاكي! كنت تريدين. يا عزيزتي، أن ترسلي كتاباً لي قتلاً للضجر، دعيك من هذا الكتاب يا عزيزة! فمانفع

Telegram: @Arab_Books

الكتــاب؟ إنه شخصيات خيالية! والرواية هراء، وهي مكتوبة للهراء، ليقرأهــا المتعطلون من الناس، صدقيني، يــا عزيزة، صدقي خبرة سِنِيَّ الطويلة.

وإذا مــا حدثــوك كثيراً عن شخصــ اسمه شكسبــير قائلين أن في الأدب شكسبير، فــإن شكسبير أيضاً هراء، كل ذلك هراء محض، وقد صنع لغرض واحد هو التشنيع بالصور الساخرة

صديقك

ماكار ديفوشكين

٢ آب.

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

لا تقلــق على شيء، حمداً للرب فــإن كل شيء يسير على ما يرام. حصلــت فيدورا علــى عمل كثير لهــا ولي، فبدأنا بــه بابتهاج، ولربما نديــر كل شيء، إنها ترتــاب في أن يكون لآنــا فيدوروفنا ضلع في كل متاعبــي الأخــيرة. ولكن لا فــرق عندي الآن. أحســ اليوم بمرح غير اعتيــادي. أنت تريــد أن تستدين نقوداً، معاذ الــرب! إن ذلك سيعود عليــك بالأذى، حين تضطر إلى سد الدين فيما بعد. الأفضل أن تكون أقرب إلينا، وأن تــتردد علينا أكثر، وألا تعير التفاتاً لصاحبة البيت. أما بخصوصــ أعدائك الآخريــن والضاغنين عليك، فأنــا واثقة من أنك تعذب نفسك بشكوك لا لزوم لها يا ماكار الكسيفتتش! انتبه إلى قولي

Telegram: @Arab_Books

لـك في المرة السابقة مـن أن كلماتك مفككة جـداً. والآن أودعك. وإلى اللقاء. أنتظر زيارتك من كل بد.

صديقتك

ف.د.

٣ آب.

ملاكي فارفارا الكسييفنا!

أسرع لابلغك، يا حياتي الحلوة، بأن بعض الآمال ولدت لي، ولكن يـا عزيزتي، يا بنيتي، أنـت تكتبين لي، يا ملاكي، لا تستدن. مستحيل بـدون ديون، يـا حمامتي. فأنا في حالة سيئة، فمـاذا لو حدث لديك طـارئ؟ فاأنت ما تزالين ضعيفـة، ولهذا ترينني أقـول لك الاستدانة ضرورية بالتأكيد. والآن، سأستمر.

أخـبرك، يا فارافارا الكسييفنا، أنني، في الدائرة، أجلس إلى جانب إمليان ايفانوفيتش. وهو ليس إمليان ذلك الذي تعرفينه. إنه مثلي، كاتب من الدرجة التاسعة، ونكاد نكون أنا وهو، أقدم الموظفين وأعرقهم في دائرتنا. إن له نفساً طيبـة، نفساً نزيهة، كما أنه صموت، ويبدو دائماً كالدب الهرم. ومقابل ذلك فهو عملي، لريشته خط صاف إنجليزي، وإذا مـا قلت الحقيقة كاملـة، فإنه ليس أسوأ منـي حظاً. رجل معتبر! لم أرتبـط معه قط بعلاقـة قريبة، بل نكتفي فقـط ب «مرحبا» و «مع السلامـة» المعتادتين. وإذا ما صادف، أحيانـاً أن احتجت إلى سكين

Telegram: @Arab_Books

بري الريشة طلبت إليه قائـلاً: أعطني السكين، يا إمليان ايفانوفيتش. وباختصـار علاقتنا مقتصرة على مـا تتطلبه المجالسة في مكان واحد، وهـا هو اليوم يقول لي« يـا ماكار الكسييفتش، مـا لي أراك غارقاً في تفكـير؟ وأعاين فأرى أن الرجل يرجو لي خـيراً، فلا فتح نفسي كله، فأقـول له الأمر كذا وكذا،، يـا إمليان ايفانوفيتش، أقصد لم أقل له كل شـيء، فالله يستر، لن أقول ابـداً، لأنني لا أجرؤ على ذلك بل كشفت لـه شيئاً مما في نفسي، فقلت له أنـا في ضائقة، إلى غير ذلك وما أشبه. فيقـول إمليان ايفانوفيتش «الأحرى بك أن تستدين، يا صاحبي. على الأقـل أن تستدين من بيتر بتروفيتشـ. فهو يقرض بالفائدة. فقد كنت أستديـن منه، وفائدة بسيطة، وليسـت فاحشة». نط قلبي، يا فارنكا، فرحـت أفكر وأفكر. فلعل الله يهدي بيتروفيتش، ويضع الإحسان في قلبه، فيقرضني. وأملت أنا أن أدفع لصاحبة البيت، وأن أساعدك، وأن أرقـع كل ما في ثيابي من خروق وإلا فأي عيـب: أشعر بالضيق حتى لو لازمت مكاني، لا أبرحه، وفضلاً عن ذلك إجابة بضحك أصحابنا المشكريـن عن أنيابهم، سامحهم الله! ثم إن صاحب السعادة يمر أحياناً بمنضدتـي، وقد يلقي نظرة علي، الله يسـتر، ويلاحظ أن ملابسي غير لائقـة! والشيء الرئيسي عنده النظافـة وحسن القيافة. ولربما لا يقول شيئـاً، ولكنني سأمـوت من الخجل. هذا ما سيحـدث. وتبعاً لذلك، لملمـت نفسـي، وأخفيت خجلـي في جيبي المثقـوب وتوجهت إلى بيتروفيتشـ مفعمـاً بالآمـال، ولكننـي بين المـوت والحياة مـن لهفة الانتظار، ولكن، ما رأيك، يا فارنكا؟ إن كل شيء قد انتهى بالعبث كان مشغولاً بشيء ما، منخرطاً بالكلام مع فيدوسي ايفانوفيتش. تقدمت منه من جانب، وجذبته من كمه، وقلت له: يا بير بيتروفيتش! فالتفت فتابعـت قائلاً: الأمر كذا وكيت، يعني ثلاثين روبلاً إلى غير ذلك. في

Telegram: @Arab_Books

بـادئ الأمر لم يفهمني، وفيما بعـد، حين أوضحت له كل شيء أخذ يضحـك، ولا شيء آخر، وصمت و لم يقل شيئاً. فأعدت عليه الكرة. فيقول لي: هل عندك رهن؟ وانكب على أوراقه، يكتب ولا ينظر إلي، ذهلـت قليلاً. فقلت له: لا، يا بيتر بيتروفيتش، ليس عندي رهن، بل أوضحـت له أنني سأقبض راتبي وسأرد الديـن، أرد الدين بالتأكيد. فسأعتـبره واجبي الأول. في هذه اللحظة استدعاه أحد فانتظرته حتى عاد. ولكن، أخذ يبري الريشة، وكأنه لا يلحظ وجودي، بينما رحت أنـا أذكره في أمري. قلت: بيـتر بيتروفيتش، يعني ألا يمكن بطريقة من الطرق؟ صمت، وكأنه لم يسمعنـي. فوقفت لحظة ثم أخرى، وأقول لنفسـي: لا، جـرب المرة الأخيرة، وجذبته من كمـه. ولكن ليته نطق بكلمة علـى الأقل. انتهى من بري الريشـة، وأخذ يكتب. فانصرفت عنه. قد يكونون، يا أميمـة، ولعلك تعرفين، قد يكونون جميعاً أناساً معتبريـن، ولكنهـم ذوو كبرياء، وكثير من الكبرياء. مـا لي وذاك! أين نحـن منهم، يا فارنـكا! ومن أجل هذا كتبت كل ذلـك لك. إميليان ايفانوفيتش أيضاً ضحـك وهز رأسـه، ولكن العزيز هـذا شجعني، وإمليـان ايفانوفيتـش رجـل معتـبر. وعدني بـأن يعرفنـي بشخص، إن هـذا الشخص يسكن في شارع فيبورسكايا يا فارنكا، وهو يقرض بالفائـدة أيضاً، موظف في الدرجة ١٤ [٢٨] ويقول إمليان ايفانوفيتش إن هذا الشخص سيقرضنـي بالتأكيد، وسأذهب إليه غداً، يا ملاكي. ها؟ مـا رأيك؟ مصيبـة إذا لا أقترض! تماد صاحبـة المنزل تطردني من

---

٢٨. وفقاً لجدول الوظائف الذي أقره بطرس الأول والذي كان ساري المفعول في روسيا قبل الثورة كانت جميع وظائف الخدمة المدنية والعسكرية تنقسم إلى ١٤ درجة. وكانت الدرجة ١٤ تعتبر أدنى الدرجات. الموظف من الدرجة التاسعة المذكورة في هذه الرواية تعتبر في وظيفة مدنية مساوية لرتبة نقيب العسكرية. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

حجرتي ولا توافـق على تقديم غداء لي. كما أن حذائي الطويل الرقبة في حالـة يرثى لهـا، أميمة، كما أن ثيابي بـلا أزرار وليس هذا كل ما ينقصنـي! وماذا لو لاحظ أحـد رؤوسائي حالتي السيئـة؟ مصيبة، يا فارنكا، مصيبة، مصيبة صرف!

ماكار ديفوشكين

٤ آب.

العزيز ماكار الكسييفتش!

اقترض بعض النقود في أقرب وقت ممكن، يا ماكار الكسييفتش، لخاطـر الله، ما كنت لأسألك عوناً، مهما يكن من شيء، في الظروف الحالية، ولكن ليتك تعرف وضعي! لا يمكن لنا أن نبقى في هذا المسكن مطلقاً. وقعت لي متاعب غاية في الفظاعة، وليتك تعرف في أي حال آنا الآن من التشوش والقلق! تصور، يا صديقي، أن رجلاً غريباً يدخل علينـا اليوم صباحاً، رجلاً في سن الكهولة، بل وعجوز تقريباً، يتحلى بالنياشين. ذهلت، وأنا لا أعرف ماذا يريد منا.

وكانـت فيدورا قد خرجـت إلى الحانوت في ذلـك الوقت. أخذ يسألنـي كيف أعيش، ومـاذا أفعل، وقبل أن يتمهـل ليسمع جوابي، أعلـن أنه عم ذلك الضابط، وأنه غاضب جـداً على ابن أخيه لسلوكه السـيء، ولتشهيره بنا في البيت كله. وقال أن ابن أخيه صبي وطائش، وأنـه مستعـد لأن يضعنـي تحـت حمايتـه، ولم ينصـح أن أستمع إلى الشبان، وأضاف بأنـه يشاركني مصابي، كأبي، وأنه يكن لي المشاعر

Telegram: @Arab_Books

الأبوية، ومستعد لأن يساعدني في كل شيء. شعرت بالحمرة تغمرني، و لم أعـرف ما أفكـر فيه، ولكنني لم أتعجل شكـره. أخذ يدي عنوة، وربت على خدي، وقال إنني حلوة جداً، وإنه مسرور جداً من وجود غمازتـين على خدي. (والله يعلم ماذا قال!)... وأخيرا بتقبيلي قائلاً: إنـه عجوز الآن«إلى هذا الحد كان مقرفـاً!) وفي هذه اللحظة دخلت فيـدورا. ارتبك الرجـل قليلاً، وراح يتكلم من جديـد قائلاً إنه يشعر بالاحـترام نحوي على تواضعي ودماثة خلقي، وإنه يود ألا يشعر بأنه غريب مني. ثم دعا فيدورا جانباً، وبذريعة غريبة أراد أن يعطيها بعض النقـود. ورفضـت فيدورا، بالطبـع. وفي آخر الأمر تهيـأ للانصراف وكرر مرة أخرى كل تأكيداته.

وقـال إنه سيـزورني مرة أخرى، ويجلب لي قرطـين (يبدو لي هو الآخـر كان حائراً جـداً). ونصحني بأن أغـير مسكني وعرض علي مسكناً جميلاً كان قد وقع في نفسه، ولا يكلفني شيئاً وقال إنه أحبني كثيراً! لأني فتاة نقية متألقة، ونصحني بأن أكون على حذر من الشباب المتهتك، وأخيراً، أعلن أنه يعرف آنا فيدروفنا، وأنها أوصته بأن يخبرني بأنها ستزورني هي الأخرى.

وهنا فهمت كل شيء. أنا لا أعرف ماذا حدث لي فقد كنت أجابه مثل هذا الوضع لأول مرة في حياتي، وقد جن جنوني، وجعلته يخجل من نفسه تمامـاً. وساعدتني فيدورا، وطردته من البيت تقريباً. واتفقنا على أن لانا فيدورفنا ضلعاً في كل ذلك وإلا فمن أية جهة عرف عنا؟

والآن، ألجأ إليك، يا ماكار الكسييفتش، وأتوسل إليك لمساعدتي. مـن أجل الرب لا تتركني في هذا الوضع! استدن، أرجوك، ودبر ولو

Telegram: @Arab_Books

قليلاً مـن النقود، فليس لنا مـا نستعين به للانتقال مـن مسكننا، كما أن البقـاء فيه مدة أطول غـير ممكن، وهذا ما تنصح فيـدورا به. نحن بحاجـة إلى خمسة وعشريـن روبلاً على أقل تقديـر، وسأرد لك هذا المبلـغ، فسأكسبه. بعد أيام ستحصل لي فيدورا على عمل آخر. ولهذا إذا طلبـوا منك فوائد كثيرة، فلا يهمك أمرهـا ووافق على كل شيء. سـأرد كل شيء، فقـط لا تتركني بلا عون، من أجـل الرب، يعز على كثـيراً أن أزعجـك الآن أنت في مثل هذه الظـروف. ولكن أملي كله فيك وحدك! وداعاً، يا ماكار الكسييفتش، ولاكن على بالك ليوفقك الله!

ف.د.

٤آب.

عزيزتي فارفارا الكسييفنا!

كل هـذه الضربات غير المتوقعـة تضعضعني! ومثـل هذه النوائب الرهيبـة تزهـق روحـي! وبالإضافة تريد هـذه الشرذمة مـن أصناف المنافقـين والعجزة الأوغـاد أن يجعلوك طريحة الفراش، يا ملاكي، وفضلاً عن هذا كله يريد هؤلاء المنافقين أن يفتكوا بي أيضاً وسيفتكون بي، عليّ الإيمان يفتكون بي! الموت عندي أهون الآن من ألا أساعدك! أن لا أساعدك يعني موتي يا فارنكا، يعني موتي الصرف المحقق، وإذا ساعدتـك فستطيريـن كما يطير من عشـه طائر صغير هربـاً من تلك الأبوام، تلك الجوارح التي أرادت نهشه.

Telegram: @Arab_Books

وهـذا هو الذي يعذبني، يا أميمة. ثـم أنت ايضاً، يا فارنكا، قاسية جـداً! فكيف هذا منـك؟ إنهم يعذبونـك، يهينونـك، وتضامين، يا طيرتـي، ومع ذلك فأنت تعانين لأنك مضطرة إلى إزعاجي بل وزيادة علـى ذلك تعدين بـأن تكسبي لـتردي الدين، يعنـي، بصريح القول، سترهقين نفسك، وصحتك عليلـة، لتجعليني أسد الدين في موعده. ولكن فكري فيما تقولينـه، يا فارنكا! ثم ما حاجتك إلى أن تخيطي، إلى أن تشتغلـي، ترهقـي رأسـك المسكـين بالهـم، وتتلفـى عينيك الجميلتين وتفتكى بصحتك؟ آه، يا فارنكا، فارنكا، ولعلك تفكرين، يـا حمامتي، انني لا اصلح لشـيء ابداً، وأعرف بنفسي انني لا اصلح لشيء ابـداً، ولكن سأسعى لان اكون صالحـاً! سأقهر كل المصاعب، وسأحصـل عمل عمل اضـافي، واستنسخ مختلـف الاوراق لمختلف الادبـاء، وسأذهب اليهم، اقصدهم بنفسـي، والحف عليهم بالطلب، لآنهـم، يا عزيزتي، يبحثون عن الخطاطـين الجيدين، وانا أعرف انهم يبحثـون، ولكنني لن ادعك ترهقين نفسـك، سأمنعك من تنفيذ هذه النية المهلكة. سأستدين. انت تكتبين لي، يا حمامتي، أن لا اخاف من الفائدة الكبيرة، لا اخاف، يا أميمة، لا اخاف، لن اخاف الان من اي شيء. سأطلب، يا أميمة، اربعين روبلاً من اوراق النقد، وهو مبلغ غير كبير، فمـا رأيك، يا فارنكا؟ هل سيأتمنونـي بابعين روبلاً من الكلمة الآولى. يعنـي اريد أن اقول هل تعتبرينني قادراً على الايحاء بالتصديق والائتمان مـن الوهلة الاولى؟ وهل من الممكـن أن يحكموا على من سحنتي ومـن النظرة الاولى حكماً ايجابياً؟ تذكـري، يا ملاكي، هل أنـا قادر على الايحاء؟ ماذا تظنين انت؟ ليتك تعرفين اي رعب اكابد، مؤلم قـول الحقيقة مؤلم! سأخصص من الروبـلات الاربعين، خمسة وعشريـن روبـلاً لك، يـا فارنكا، وروبلـين لصاحبة البيـت، والبقية

Telegram: @Arab_Books

لمصروفاتي الخاصة. كان بالاحـرى أن اعطي لصاحبة البيت اكثر، بل ومن الضروي ذلك، ولكن عليك أن تتصوري المسألة كلها، يا عزيزة، خـذي بالحسبان كل احتياجاتـي، عندئذ ستجدين مـن المستحيل أن عطيهـا اكثر وبالتـالي، لا حاجة إلى قول ذلك، ولا حتـى التذكير به. سأشـتري بروبل فضي حذاء طويل العنق، وأنا لا ادري هل استطيع أن أذهب غداً إلى الوظيفة بحذائـي القديم. ولفاح الرقبة ضروري ايضاً، لآن القـديم ستمضي سنة عليه عن قريب، ولكنك مادمت قد وعدتني بأن تصغي لي من مئزرك القديم ليس لفاحاً فقط، بل وغطار القميص، فأنني لن افكر في اللفاح بعد الان. اذن، عندي حذاء طويل ولفاح.

والان نأتـي إلى الازرار، يـا صديقتـي الحلـوة! انـت توافقين، يا صغيرتـي، على انه لا غني لي عـن الازرار، لآنني فقدت نصفعا تقريباً! ويتملكـي الهلع، حـين يخطر في بـالي أن سعادته قد يلحـظ مثل هذه الاهمـال، وينطق بشـيء واي شـيء! ولكني لن اسمع مـا سينطق به، لأنـني سأموت سأموت في الحـال، وفي التو واللحظة هكذا، سأمـوت من الخجل، من مجرد ما سيـدور في خلدى! آه، ياأميمة! على كل حـال ستبقى بعد كل اللـوازم والضروريات ثلاثـة روبلات وهذه للعيشـة، ولنصـف رطل من التبـغ. لأنني، يـا ملاكـي، لا أستطيع أن اعيشـ بدون تبغ، وها هو اليـوم التاسع وأنا لم أضـع الغليوم في فمي. وما من مـن الممكن، بصريح القول أن اشتري التبـغ، ولا اذكر لك شيئاً، ولكنني اخجل من ذلك. فأنت في ضائقة وتحرمين من آخر شيء، بينما استمتـع بمختلف اللذائذ. ومن أجل ذلك أقول لك كل هذا من اجل أن لا اتعـذب بتكبيت الضمير. اعترف لك بصراحة يـا فارنكا، انني الان في اشـد حالات البؤس واعني انني لم اشهد قط مثل هذه الحال صاحبة

Telegram: @Arab_Books

البيت تحتقرني، ولا احترم من اي امرئ كان. وعوزي غاية في الفظاعة، ديون. وفي الدائرة، حيث لم يكن وضعي من قبل بين زملائي الموظفين زبداً حيث لم يعد ثمة مجال لقول. فأنا اخفي، اخفي بعناية كل شيء عن الجميـع، واتخفي. وحـين ادخل الدئرة، احـاول الا الفت الانظار الي واتحاشى الجميع.

ولي مـن قوة النفس ما يكفـي لان اعترف لك وحدك بكل شيء... ثـم ماذا لو رفضوا اعطاء النقود! لا، يـا فارنكا، الافضل أن لا افكر في هـذا، ولا ارهق نفسي بمثل هـذه الافكار مسبقاً. وانا لا اكتب ذلك الا لأنبهـك إلى أن لا تفكري انت في ذلـك، ةلا تتعذبي بالتفكير المزعج. أوه، يـا ربي، يالهول ما سيحصل لـك عندئذ! سيكون محققاً الا تنتقلي مـن مسكنك هذا، وسأكون أنا معك، بل لا قطعاً، لن اعود عندئذ، بل أضيـع في مكان ما، واهلك. وها أنا قـد كاشفتك، بينما عندي حاجة ماسة إلى الحلاقة، فهي تجعـل المرء ابهى طلعة، وبهاء الطلعة دائماً يعول عليه. حسناً، حفظنا الله! سأصلي، واخرج في طريقي!

م.ديفوشكين.

٥ آب.

الفاضل ماكار الكسييفتش!

علـى الاقل الا تيأس انت نفسك. فأن لنـا من دون ذلك قدراً كافياً مـن المصائب. ارسل لك ثلاثين كوبيا فضياً، ول استطيع اكثر من ذلك. فأشـتر لك ما هو اكثر ضرورية، علـى الاقل لتدبر امرك إلى الغد. لم يبق عندنا، انفسنا، اي شيء تقريباً، ولا أعرف ماذا سيحصل في الغد. كآبة،

Telegram: @Arab_Books

يـا ماكار الكسييفتش! ولكن لا تكتئب واذا لم تنجح في مساعيك، فلا يهم! تقول فيدورا لم يصل الأمر إلى حد المحنة، ويمكننا أن نبقى في هذه الشقـة إلى حين، واننا لو انتقلبنا لن نجنـي شيئاً كثيراً، وانهم يستطيعون أن يجدونـا في كل مكان إذا رادوا ذلك. فقط انني لا اشعر بالراحة من البقاء هنا الان. ولو لا ما احس به من كآبة لكتبت لك اكثر.

اي طبـع غريب لك، يا ماكار الكسييفتش! قلبك يتأثر من كل شيء بشدة اكثر مـن اللازم ونسبب ذلك ستكون دائمـاً انساناً تعيساً جداً. أنا اقـرأ كل رسائلك بعناية رأرى انك في كل رسالة تتعذب بي، وتهتم اكـثر مما كنت تهتم بنفسك في اي وقت مضي. الجميع، يقولون أن لك قلباً طيباً، ولكنني اقول امه طيب اكثر من اللازم. وانا اقدم لك نصحية وديـة، يا ماكار الكسييفتش. أنا ممتنة لك، وكثيرة الامتنان، على كل ما فعلتـه من أجلي، كل ذلك احس بـه احساساً قوياً، فأحكم بنفسك اي احساس احس به وأنـا ارى الآن ايضاً، بعد كل البلايا التي الحقها بك دون أن ادري، ارى الان ايضـاً انك لا تحيا الا بما احيا به، تحيا بمسراتي، وبأحـزاني، وبقلبي! فاذا كان قلبك يتأثـر هذا التأثر الشديد بكل ما هو غريـب، واذا كنت تتعاطف مـع كل شيء هذا التعاطـف الشديد، فأن لـك، حقاً، مـا يجعلك انسانـاً تعيساً جداً. اليـوم فزعت حين نظرت اليك، وقد دخلت علي بعد خروجك من الدائرة.

كنت شاحباً مرعوباً قنوطاً إلى حد بعيد، ولا قطرة حياة في وجهك وكل ذلـك لانك خفت أن تخبرني عـن فشلك، خفت أن تكدرني، أن تفزعنـي وحالما رأيتنـي اكاد اضحك حتى تطاير من قلبـك تقريباً كل مـا يثقله. يا مـاكار الكسييفتش! لا تحـزن، لا تيأس، وكـن اكثر تعقلاً ارجوك، اتوسل اليك، كل شـيء يتغير نحو الاحسن، والا فأن حياتك

Telegram: @Arab_Books

ستكون صعبة، إذا كنت تبتئس دائماً، وتتألم بمصائب الاخرين. وداعاً، يا صديقي، اتوسل اليك الا تقلق عليّ اكثر من اللازم.

ف.د.

٥آب.

عزيزتي فارنكا!

طيب، يا ملاكي، طيب! قر رأيك على أن الامر أن يبلغ بعد حد المحنة، لأنني لم احصل على الفلوس. طيب أنا هادئ، أنا سعيد بخصوصك! بل ومسرور لآنك لا تتركينني، أنا العجوز، وستظلين في هذه الشقة. ثم إذا اردت أن اقول كل شسء اضفت أن قلبي قد فاض فرحاً، حين رأيت أنك في رسالتك الحلوة قد كتبت عني كتابة طيبة، واثنيت على مشاعري الثناء المستحق. وأنا لا اقول ذلك من الفخر، بل من كوني ارى كم تحبينني، اذ تقلقين على قلبي هذا القلق.

ولكن طيب، لا حاجة إلى الكلام الان عن قلبي! القلب وحاله، ولكنك، يا أميمة، تشيرين بأن لا اكون رخو النفس، اجل، يا ملاكي، اظنني، سأقول بنفسي لا حاجة إلى رخازة النفس. ولكن مع ذلك كله احزمي بنفسك، يا أميمتي، في أي حذاء سأذهب غداً إلى الدائرة! هذه هي المسألة، يا عزيزة. ومثل هذه الفكيرة يمكن أن تدمر انساناً، تدمره كلياً، والشيء الرئيسي، يا روحي انني لا اتحسر على نفسي. ولا اتعذب من اجل نفسي، فأن كل شيء سواء عندي، حتى لو خرجت في شدة الزمهرير بلا معطف، وبلا حذاء طويل، فأنا اصبر، واحمل

Telegram: @Arab_Books

كل شـيء، ولا يهمنـي شيء، فأنـا انسان بسيط، صغـير، ولكن ماذا سيقوول الناس؟ مـاذا سيقول الاعداء، السنة السوء هذه، حين اخرج مـن دون معطف؟ فنحن نرتدي المعاطف مـن أجل الناس، والاحذية أيضاً، حسب ظني، نرتديها من اجلهم أيضاً. فالحذاء، في هذه الحال، ضـروري لي، يا اميمة، يا روحي، من اجل الاحتفاظ بالكرامة وكيب الذكر.

وارتـداء حـذاء ممزق يضيع علـى الإنسان كليهما. ثقـي يا اميمة، ثقي بتجربة عمـري الطويل، واسمعيني أنا العجـوز الذي خبر الدنيا والناس، ولا تسمعي إلى الكتبة المخربشين.

حتـى الان لم اخـبرك بالتفصيل، يـا عزيزة، كيـف أن كل هذا قد وقـع اليوم، في حقيقة الامر، وماذا كابدت في هذا اليوم. وما كابدته، وما تحملته مـن العذاب النفسي في صباح واحد لا يستطيع أن يحمله انسان آخر خلال عام كامل. وهذا ما حصل: أولاً، خرجت في بكرة الصباح الباكر، لاجـده في بيته ولالحق على الدائرة. واليوم كان مطر شديـد وحل رطب! وقد لفقت نفسـي بالمعطف، يا عزيزتي، وسرت وأنـا اقول لنفسـي طوال الوقت: «يارب، اغفـر لي ذنوبي، وحقق لي ماربـي». مررت بكنيسة... فرسمت علامـة الصليب، وندمت على كل خطايـاي، ولكـن جال في خاطري أن من غـير اللائق أن اتساوم مـع الـرب. فأنطويت على نفسـي، و لم تكن لي الرغبـة في النظر إلى اي شـيء، وسـرت و لم أعـد اتبين الطـرق. كانت الشـوارع الخالية، وكل مـن كنت التقي بـه كان بنفس الحال من الانشغـال والانطواء، وليس هذا بالأمـر العجيب؟ فمن يخرج للتنزه في هذا الوقت المبكر، وفي مثـل هذا الطقس! التقي بي فريق من الشغيلـة الملطخي الثياب،

Telegram: @Arab_Books

ودفعني بعض الغلاظ! اخذتني الرهبة، واحسست بالفزع. و لم اعد، في الحقيقـة، افكر في الفلوس، فل ترك المسألة للحـظ! وعند جسر فزسكريسنسكـي تمامـاً انخلع نعل حذائي، بحيـث لا ادري في اي شـيء كنت اسير. وفي هـذه اللحظة التقاني يرمولايـف احد كتبتنا، وانتصب بجذعـه، واقفاً يشيعني بعينيه، وكأنـه يطلب بعض النقود للفـودكا فقلت في سري:آه، يا اخ، تطلب فودكا، واية فودكا عندي! كنت متعباً بشكل فظيع، توقفت واسترحت قليلاً، ومضيت في حال سبيلي. تطلعت فيما حولي عن قصد، لاشغل فكري بشيء، واصرف انتباهـي، وانتشط. ولكن، لا، لم استطـع أن اشغل فكري بشيء. بل وتلطخت بالوحل فضـلاً عن ذلك، حتى خجلت نفسي من نفسي. واخـيراً رأيت من بعيد بيتاً خشبياً اصفـر له علية تشبه البرج الصغير. فأقـول لنفسي: هذا هـو بيت ماركـوف تماماً، حدثني عنـه اميليان ايفانوفيتشـ (ماركوف هذا، يـا عزيزة، هو الشخصـ الذي يقرض بفائدة). وهنا لم اع، نفسي، فقد كنت أعرف أن هذا بيت ماركوف، ومـع ذلك وجدت نفسي اسأل الشرطي الحارس هذا غليظ يتكلم من وراء انفه، وكأنه غاضب على احد، فرشح الكلمات من خلال اسنانه، حين قال: هذا بيت ماركوف. أن الشرطة الحراش في الاكشاك رجال عديمـو الاحساس مثل هـذا. ولكن ما لي ولشرطـي الاكشاك؟ ومع ذلـك فقد كان الانطباع عنه رديئاً وغير مريح. وبأختصار تخرج من واحدة، لتدخل في أخرى، ومن كل شيء تجد ما يطابق وضعك وهذا يحـدث دائماً. اجتزت البيت ثلاث مرات عبر الشارع من طرف إلى طرف، وكلما مضى الوقـت في السير ازدادت حالي سوءاً، وفكرت مـع نفسي:لا، انه لن يفرضني، لن يقرضني مهما يكن من شيء! فأنا رجل غير معـروف له، وقضيتي حساسة، وهيئتـي غير لائقة. وقول

Telegram: @Arab_Books

لنفسي: اتركها للقدر، فقط الا اندم فيما بعد انني لم افعلها، فأنهم لن يأكلوني إذا حاولت.

وفتحت الباب الخارجي بأحتراس. فأذا بسوء طالع آخر. تشبث بي كلب حراسة خبيث أحمق، استبد به السعار فراح ينبح نباحاً يطلع الروح! ومثل هذه المصادفات الصغيرة المنحوسة دائماً تجنن الإنسان، يا أميمة، وتبث الرهبه فيه، وتقضي على كل العزيمة التي ازمع عليها من قبل. وهكذا دخلت البيت بين الموت الحياة، دخلت لأجابة مصيبة اخرى وجها لوجه، دخلت دون أن انظر ماذا في الظلام في الاسفل عند العتبة، فأذا بي اصطدم بأمرأة كانت تصب الحليب من جردل الحليب في ابريق، فسكبت الحليب كله على الأرض. وراحت هذه الحمقاء تزعق وتجأر، قائلة إلى أين تتطفل، يا رجل، وماذا تريد؟ واخذت ترغي وتزبد. واقول لك، بهذه المناسبة، يا عزيزة، أن ذا ما يحصل لي دائماً، في مثل هذه الامور. هذا مكتوب لي، على ما يبدو. اتشربم بشيء جانبي دائماً. واطلّت على الضجيج عجوز هي صاحبة البيت الفنلندية، فلجأت اليها قائلاً: هل ماركوف يسكن هنا؟ قالت: لا، ووقفت قليلاً/ وامنعت النظر في، حسب الاصول،«وماذا تريد منه؟» فشرحت الامر لها بكيت وكذا، وامليان ايفانوفيتش، وسائر المسألة، واقول عندي شغل معه. نادت العجوز على ابنتها، فدخلت الابنة ايضاً، وهي فتاة تجاوز الشباب. حافية القدمين، «نادي اباك، انه مع النزلاء في الاعلى، تفضل بالدخول». ودخلت أنا. الغرفة لا بأس لها، وعلى الجدران لوحات، كلها صور جنرالات. وهناك اريكة، ومنضدة مستديرة، وخزامي، وزهور البلسمينة واقول لنفسي: الا اكتفي بذلك، وانقلع، قبل أن يقع الشر، انصرف ام لا انصرف؟ والفعل،

Telegram: @Arab_Books

اردت أن افر بجلدي، يـا أميمة. واقول لنفسي: الافضل أن أجيء غداً، والطقس سيكون احسن، ولاؤجل الامر، اليوم انسكب الحليب، والجنرالات هؤلاء ينظرون إلى غضاباً... وكنت قرب الباب حين دخل هو، كما هو، اشيب، عيناه مثل عيون اللصوص، وروبه المتسخ مربوط بالحبل، استفسر ماذا وكيف، فشرحت له كذا وكيت، وذكرت اميليان ايفانوفيتش، والمسألة بحدود الاربعين روبلاً، ولكم لم اتم كلامي. فقد رأيت من عينيه أن القضية خاسرة. فيقول: «لا، قضيتك لا تهمني، لا توجد عندي فلوس. ولكن هل عندك رهن؟» اخذت اشرح له قائلاً: لا رهن عندي، ولكن اميليان ايفانوفيتش وبأختصار، قلت ما ينبغي قوله. وسمعني إلى الآخر، ويقول: وما علاقة املیان ايفانوفيتش هنا! ليست ادي نقود. وقلت لنفسي: حدث ما توقعته. كنت أعرف ذلك، احس به مقدماً، ولكن، وبصراحة، يا فارنكا، الأفضل لو أن الارض انخسفت بي. انتابتني برودة، وتخدرت رجلاي، وسرت القشعريرة في ظهري. نظرت اليه، ونظر هو إلي يكاد أن يقول: اخرج، يا أخ، لا شأن لك هنا. فلو أن شيئاً من هذا حدث في ظرف آخر لخجلت من نفسي تماماً وما حاجتك إلى هذا المبلغ من النقود؟ (سألني هذا السؤال، يا أميمة!) فتحت فمي، لمجرد الا أظل واقفاً كالصنم، ولكنه لم يعد يسمعني. قال: لا، لا توجد نقود، والا لاعطيتها لك بسرور. ولكنني الححت عليه والححت، قائلاً انه مبلغ صغير، وانني سأرده لك، واحدد تأريخاً لذلك وانني سأرد الدين حتى قبل هذا التاريخ ولك أن تأخذ ما تشاء من الفائدة، وسأرد المبلغ قسماً بالله. فقد متاعبك، واحتياجاتك، تذكرت نصف روبلك، ولكنه قال: لا تهم الفائدة، لو كان هناك رهن! والا فليست عندي نقود، وحق الرب ليست عندي، والا لاعطيتها لك بسرور. لا يستحي هذا الوغد أن يحلف الرب على ذلك!

Telegram: @Arab_Books

ولكنني بعـد هذا، يا روح قلبي، لم اذكـر كيف خرجت، وكيف اجتزت فيوبرسكايا، وكيف جئت إلى جسر فوسكريسنسكي، تعبت بشـكل رهيب، وتثلجت وارتجفت من الـبرد و لم اصل إلى الدائرة الا في الساعة العاشرة. اردت أن انظف نفسي من الوحل، الا أن الحارس سنيغيريـف قال غير ممكـن، ستتلف الفرشـاة، والفرشاة يـا سيد، من امـوال الدولة. هكـذا يعاملني هـؤلاء الان يا اميمة، فأنـا عند هؤلاء السـادة ايضاً اكاد اكون احقر من الخرقـة التي يمسحون بها اقدامهم. مـا الذي يقتلني، يا فارنـكا؟ الفلوس لا تقتلني، بـل كل هذه الهموم المعيشية، كل هذه التهامسات، والابتسامات، والنكات. وقد يلومني سعادتـه. آه، يا اميمة، أن اوقاتي الذهبيـة قد ولت! اليوم اعدت قراءة كل رسائلك. كآبة، يا عزيزة! وداعاً، يا روحي حفظك الرب!

م.ديفوشكين

ملاحظة: اردت أن اصف لك مصيبتي، يا فارنكا بين الجد والهزل، ولكـن روح النكتة لا تطاوعني، على ما يبـدو. اردت أن ارفه عنك. سأزورك، يا عزيزة، سأزورك بالتأكيد، سأزورك غداً.

١١ آب.

فارفارا الكسييفنا! عزيزتي، يا أميمة!

انتهيت، انتهينا كلانا، كلانا سوية انتهينا دون رجعة. سمعتي، عزة نفسي، كل شـيء انهار! هلكت أنا، وهلكت انت يا أميمة، وهلكت انـت معـي، دون رجعـة! أنا، وأنـا الذي قدتـك إلى الهـلاك! انهم

Telegram: @Arab_Books

يطردونـــي، يا عزيــزة، يحتقرونني، ويهزأون بي، امــا صاحبة البيت فراحـــت تشتمنـــي علنا. صرخت اليــوم وصرخـــت، وقرعتني كثيراً، وجعلتنـــي احقر من قلامة ظفر. وفي المساء، في حجرة راتازييف، قرأ احدهم علانية مســودة رسالة كنت قد كتبتها لك، ووقعت من جيبي مصادفــة. واي ضحك اثاروا، يا اميمــة! وسمونا بالاسم، وضحكوا ضحكــوا كثيراً، وهــؤلاء الخونة! دخلت عليهــم، ودمغت راتازييف بالغــدر، وقلت له انــه خائن! ولكــن راتازييف رد عليــذ قائلاً: انت الخائــن، وانت صاحب غزوات شتى. ويقول : انك كنت تخفي عنا، وان لوفيلاســ(٢٩) . والان يسمينـــي الجميع لوفيلاســ، وليس لي اسم غيره! هــل تسمعين، يا ملاكي، هل تسمعين: أنهــم يعرفون الان كل شيء، ومطلعون على كل شي عنك! وماذا اكثر من أن يكون فيلوديني معهــم، ويعمل معهــم، ارسلته اليوم إلى حانــوت السجق، ليجلب لي شيئــاً، فأمتنع، قائلاً انه مشغول! فأقوله له: ولكن هذا شغلك. فيقول: «لا، ليس شغلي، فأنـــت لا تدفع الفلوس إلى سيدتي، فلست مسؤولاً عنــك». لم اتحمل منه، من هـــذا الريفي الجاهل، هـــذه الاهانة. فقلت لــه: انت احمق. فيرد على «الاحمق هو القائـــل» فأقول لنفسي: لعله سكـــران حين تفوه بهـــذه الغظاظة بحقي. قلت له: انـــت سكران، يا جلــف! فيقول لي: «وهل الخمرة من فلوسك؟ انت نفسك لا تملك ما تسكر به. تشحذ عشرة كوبيكات من الامرأة» واضاف ايضاً : «اوه، ويعتــبر نفسه سيداً محترماً!» هكـــذا، وهكاذ، يا أميمــة، إلى هذا الحد وصلـــت الامور! اخجل أن اعيش يا فارنـــكا! وكأنني صعلوك، اسوأ

٢٩. زير نساء: وهو اسم بطل رواية "كلاريس غارلو" (١٧٤٧–١٧٤٨) للروائي الانجليزي س. ريتشاردسون(١٦٨٩–١٧٦١) وهي رواية كانت شائعة في روسيا في القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . الناشر.

Telegram: @Arab_Books

مـن صعلوك بلا هوية. مصائب فتاكة! هلكت، هلكت تماماً! هلكت بلا رجعة.

م.د.

١٣ آب.

الفاضـل ماكار الكسييفتش! تنهـار علينا المصائب وراء المصائب. أنـا نفسي لم اعد أعرف ماذا افعل! ماذا سيحصل لك الآن والامل في ضعيف. اليـوم احرقت يدي اليسرى بالمكواة. سقطت مني مصادفة، فأصبحـت برضـ واحترقـت يـدي. المصيبتان معـاً. والعمـل صار مستحيـلاً عليّ. وهذا هو اليوم الثالث وفيـدورا مريضة. وانا في قلق معـذب. ارسل لك ثلاثين كوبيكا فضياً. هذا كل ملكيتنا تقريباً. والله يعلم كم اود أن اساعدك الآن في احتياجاتك. للأسف المبكي! وداعاً، يا صديقي! ستسري عني كثيراً، لو جئت الينا اليوم.

ف.د.

١٤ آب.

ماكار الكسييفتش! ماذا جرى لك؟ انت لا تخاف الرب، على ما يبدو! تفقـدني عقلي تماماً هلا خجلت! انت تقتل نفسك، ويجب أن تفكر بسمعتك! انت انسان شريـف، نبيل، صاحب كرامة. وماذا لو يعرف الجميع عنك! لابد انك ستموت من الخجل وحده! أم لعلك لا تشفـق على شيباتك؟ اتق الله، يا رجل! قالت فيدورا انها لن تساعدك بعد الان، كما اننـي أن اطيك نقوداً. إلى هذا الحد اوصلتني، يا ماكار

Telegram: @Arab_Books

الكسيفتتش! لعلك تظن أن الامر لا يعنيني، فتتصرف هذا التصرف السيء. انت لا تعرف بعد كم اتحمل من اجلك! لا استطيع حتى أن اجتاز سلمنا، فأن الجميع ينظرون اليّ، ويشيرون إلى الشخص بالاصابع، ويقولون عني اشياء فظيعة، بل ويقولون بصراحة أن لي علاقة مع سكير. وما أفظع أن اسمع ذلك! حين يجلبونك مخموراً يشير اليك جميع النزلاء بازدراء قائلين جلبوا ذلك الموظف بعينه. فأخجل عليك كل الخجل. اقسك لك انني سأنتفقل من هنا. أذهب لاشتغل مربية في احد البيوت أو غسالة، ولكن لن ابقي هنا. كتبت اليك أن تأتي اليّ. ولكنك لم تأت. اذن، فكل دموعي وتوسلاتي لا تهمك، يا ماكار الكسيفتش! من اين تأخذ الفلوس؟ الزم الحذر، بحق الخالق. انت تهلك نفسك تهلكها للا شيء! عيب وعار! صاحبة البيت التي تؤجر عندها لم ترد بالامس أن تدخلك البيت، فنمت في الرواق. أنا أعرف كل شيء. ليتك تعرف كم كابدت حين عرفت كل ذلك. تعال اليّ، فستشعر بمرح بيننا سنقرأ سوية، ونتذكر ما مضى، وستقص فيدورا علينا عن رحلاتها للاديرة. من اجل خاطري، يا عزيزي، لا تهلك نفسك ولا تهلكني معك. فأنا اعيش من اجلك وحدك، ومن اجلك ابقي معي. فيكف انت الآن! كن نسلا، صلب العود في النائبات، وليكن على بالك أن الفقر ليس نقيصة. ثم لا حاجة إلى اليأس. فأن كل ذلك عرضي زائل! سيساعدك الرب ويصلح كل شيء، فقط أن نتماسك الان. ارسل لك عشرين كوبيكا فاشتر لك يغا، او ما تشاء من اشياء، فقط الاتنفقها على السيئة بحق الرب، تعال الينا من كل بد. ربما ستخجل، كما من قبل، ولكن لا تخجل، انه خجل كاذب. فقط لو تندم ندامة حقيقية. توكل على الله. فهو المسيّر لكل الامور نحو الاحسن.

ف.د.

Telegram: @Arab_Books

١٩ آب.

العزيزة فارفارا الكسييفنا!

انا خجلان، يــا عزيزتي، فارفارا الكسييفنــا، خجلان تماماً ولكن اي شــيء غــير اعتيــادي في سلوكي؟ لمــاذا لا ابهج قلبــي؟ عندئذ لا افكــر في نعلــي، لأن النعل شــيء تافه، وسيظل دائمــاً مجرد نعل حقير قــذر. كما أن الحــذاء الطويل تفاهة! وحكماء اليونــان كانوا يسيرون بدون احذيــة طويلة الرقبة. فلماذا يجــب أن يعتني شخص من امثالي بهــذا الشي التافه. فلماذا يهينوننــي ويحتقرونني اذن؟ آه، يا أميمة، يا أميمــة، وجدت ما تكتبينــه؟ قولي لفيدورا انها امــرأة تافهة، شكسة، رعنــاء فضلاً عن كونها بليدة، بليدة بشكل لا يوصف! اما بخصوص شيبتي، فأنت نخطئة كذلك، يــا روحي لأنني لست عجوزاً بالشكل الــذي تتصورينــه. اميليــان يهديك الســلام. تكتبين انــك قد حزنت وبكيــت اكتب لك انني كذلك حزنت وبكيت. وفي الختام اتمنى لك منتهى العافية والخير. أما أنا فمعافى ايضاً وبخير، وسأبقى، يا ملاكي، صديقك.

ماكار ديفوشكين

٢١ آب.

السيدة الفاضلة والصديقة الكريمة

فارفارا الكسييفنا!

اشعر انني مذنب، اشعر انني اجرمت في حقك، ولكن لا فائدة من

Telegram: @Arab_Books

انني اشعر بهذا، في رأيي، يا أميمة، مهما قلت فيه. وقد شعرت بذلك ايضاً قبل جريرتي، ولكن معنوياتي انهارت وسقطت مع احساسي بالذنب. لست خبيثاً، يا أميمة، ولا جافي القلب.

ولتمزيق قلبك، يا حمامتي، لا بد أن يكون الفاعل غرا متعطشاً للدوم لا اكثر ولا اقل، بينما قلبي قلب حمل وليست لدي، كما هو معروف اليك، نزعة إلى شرب الدماء، وبالتالي، يا ملاكي، لست ملوماً كل اللوم في جريرتي، كما أن لا قلبي ولا مشاعري متورطة في ذلك. وما دام الأمر كذلك فأنا لا أعرف اين تقع اللوم.

قضية غامضة يا أميمة! ارسلت لي ثلاثين كوبيكا فضياً، ثم ارسلت لي عشرين كوبيكا آخر. وقد توجع قلبي، وانا انظر إلى نقودك الزهيدة. لقد احرقت يدك، وعن قريب ستعانين من الجوع، بينما تكتبين لي أن اشتري تبغاً لي. طيب، سأتصرف في هذه الحال؟ ام ابدأ، بدون تقريع ضمير، ومثل اي مبتز، ابأ بنهبك، وانت اليتيمة! وهنا انهارت معنوياتي، يا اميمة، اقصد، في البداية، احسست، بدون ارادتي، بأنني لا اصلح لشيء، وانني، في الحقيقة، لست افضل بكثير من نعلي، ولذلك اعتبرت من غير اللائق أن اعد نفسي شيئاً ذااعتبار، بل على العكس، صرت اعتبر نفسي شيئاً غير لائق. وبلا اعتبار إلى حد ما.

ولكن حالما فقدت الاحترام لنفسي، وانكرت في نفسي خصالي الحميدة وكرامتي حتى ضاع كل شيء، ذلك هو الانهيار! وهذا من صنع القدر، ولست ملوماً فيه.

Telegram: @Arab_Books

في بادئ الامر خرجت لاستنشق الهواء الطلق قليلاً.

وهنا توالت الامور يأخذ بعضها برقاب البعض. كانت الطبيعة باكية، والطقس بارداً، والمطر يهطل. ثم حصل أن صادفت امليان. كان، يا فارنكا، قد رهن كل ما كان يملكه، ذهب كل إلى جهتة المعلومة. وعندما التقيت به كان منذ يومين لم يضف في فمه ذرة ولا قطرة، وكان يريد أن يرهن ما لا يمكن أن يرهن، لان مثل هذه الرهونات لا وجود لها قط. طيب، يا فارنكا، عندئذ استسلمت مدفوعاً بالتعاطف مع الانسانسة اكثر مما مدفوعاً بميلي الشخصي. هذكا وقع ذلك الاثم، يا عزيزة! وكم بكينا سوية! وتذكرناك.

انه انسان طيب، معجون بالطيبة، وشديد الحساسية. وكل ذلك احسه بنفسي، فيقع معي ما يقع لانني شديد التأثر من كل ذلك. أنا أعرف كم أنا مدين لك، يا عزيزتي! فأنا بعد أن عرفتك صرت اولاً أعرف نفسي احسن، وصرت احبك. وقبل التعرف بك، يا ملاكي، في الدنيا كنت وحيداً، كنت نائماً، ولم اكن اعيش في الدنيا. كان اولئك الاشرار يقولون: حتى قوامي غير مقبول، وانهم كانوا يستنكفون مني، طيب، وبعد ذلك صرت أنا نفسي استنكف من نفسي. وكانوا يقولون انني بليد، فتصورت، بالفعل، انني بليد، ولكن حالما ظهرت لي حتى اضئت حياتي القاتمة كلها، اضئت قلبي وروحي،فأكتسبت سكينة روحية، وعرفت انني لست اسوأ من الآخرين، فقط انني لا ابرز بشيء لا بهندامي ولا بتصرفي، ولكنني انسان على اية حال، انسان بقلبه وافكاره. والآن، وقد احسست بأنني طريقة القدر، مهان منه،

Telegram: @Arab_Books

واستيلمت لنكران كرامتي، وانهارت معنوياتي بعد أن سلبتني المصائي لبي.

والان وانت تعرفين كل شيء اتوسل اليك، يا أميمة، إلى حد العبرة، الا تستفسرى مرة اخرى عن هذه الحكاية، لأن قلبي يتمزق، فأشعر بالمرارة والاعياء.

اؤكد لك، يا أميمة،احترامي

وسأظل صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٣ ايلول.

لم أتم رسالتي السابقة، يا ماكر الكسيفتش، لأن الكتابة كانت عسيرة عليّ. احياناً تأتيني لحظات اشعر بالسعادة في أن اكون وحيدة، احزن لوحدي، واتشوق لوحدي، دون مشاركة. وهذه اللحظات اخذت تتوارد على اكثر فأكثر. في ذكرياتي يوجد شيء غير موضح لي يأسرني بطغيان وقوة، حتى انني اصير لبضع ساعات لا اشعر بكل ما يحيط بي، وانسى كل الحاضر. وما من انطباع في حياتي الراهنة سواء اكان لطيفاً أو ثقيلاً أو محزناً، لا يذكرني بسببه له في ماضيّ، وفي اكثر الحالات في طفولتي، في طفولتي الذهبية! ولكنني احس دائماً بالارهاق بعد مثل هذه اللحظات. وانا اضعف، وتضنيني نزعتي إلى الحلم، فتصير صحتي بدون ذلك، اسوأ فاسوأ.

الا أن الصباح المنعش الساطع الالق، النادر هنا في فصل الخريف،

Telegram: @Arab_Books

انعشتني اليـوم، فأستقبلته بفرح. اذن، فقد حـل الخريف عندنا! وكم كنـت احـب الخريف في الريف! كنـت ما ازال طفلـة، وكنني كنت احسـ بأشيـاء كثيرة. كنـت احب مسـاء الخريف اكثر مـن صباحه. اتذكـر أن بحـيرة كانت بعـد خطوتين من بيتنـا، عند شفـح الجبل. كانت هذه البحـيرة -كأنني اراها رأي العيـم الآن،-واسعة وضاءة، صافيـة كالبلور! وحـين يكون المسـاء، احياناً، هادئـاً تكون البحيرة ساكنـة، وعلـى الاشجار التي كانـت على صفافهـا لا تتحرك ورقة، والمـاء بلا حراك، وكأنه مـرآة. طراوة! برودة! والنـدى يتساقط على العشـب، وفي البيوت الخشبية على الضفـاف تضاء النوافذ، والقطيع يعـاد إلى القريـة، فكنـت انسل من البيـت خفية، لانظـر إلى بحيرتي واتسلـى وانسـى نفسي بالنظـر احياناً. وتشعل حزمـة من الاغصان لـدى الصيادين عند الماء تمامـاً، فيندلق الضوء بعيـداً بعيداً على سطح الماء. والسمـاء تشع برودة وزرقة، وفي حوافيهـا تتكون شرائط نارية حمراء، ثم تشحب هـذه الشرائط اكثر فأكثر، ويطلع الهلال، والهواء رنـان جداً، حتى ليسمع كل شيء، سـواء اكان طيراً مرعوباً، او قصبة تـرن عند هبوب نسمة، أو سمكة تطرطش في الماء. ويتصاعد من الماء الازرق بخار ابيض رقيق شفاف. ويسري الظلام في البعيد، وكل شيء يبـدو وكأنه يغرق في ضباب، امـا في القرب فكل شيء حاد الملامح، وكأنما نحت بازميل -القارب، الشاطئ، الجزر، والبرميل الملقي منسياً عنـد الشاطئ تمامـاً يتمايل قليلاً على الماء وغصـن الصفصاف المصفر الاوراق يتشربك في القصـب -وتطير نورسة متأخرة مرفرفة الجناحين وتغطسـ في المـاء البارد تارة، ثم تعود فتصفـق بجناحيها، وتغرق في الضباب. كنـت امتع بصري وسمعي، واشعـر بالروعة بينما كنت ما ازال صبية، طفلة!...

Telegram: @Arab_Books

كنت احـب الخريف جداً، احـب اواخر الخريـف، حين يحصد القمـح، وتنتهي كل اعمال الحقول، وحين تبـدأ السهرات في بيوت الفلاحـين، والجميـع ينتظرون قـدوم الشتاء. عندئذ يمسـي كل شيء كئيبـاً، السماء تتهجم بالسحـب، والاوراق الصفراء تفرش دروباً في حـوافي الغابـة المعراة. بينما تكتسـي الغابة زرقة واسـوداداً، لا سيما في المسـاء، حـين ينسدل ضباب رطب، وتـبرز الاشجار من الضباب كالجبـارة، كاشباح شوها رهيبة. واحياناً حين كنت اتأخر في النزهة، واتخلـف عن الآخريـن، اسير وحيدة واحث خطـأي وأشعر بالرهبة وارتعشـ، أنا ايضاً، كالورقة، واتصـور أن شخصاً رهيباً من لحظة إلى اخرى، من وراء هذا التجويف في الشجرة وخلال ذلك تخترق الريح الغابة وتصفر وتصطخب، وتعول متشكية، وتنتزع سحابة اوراق من الاغصـان الهزيلة، وتدوم بهـا في الهواء، وخلفهـا تنطلق الطيور في سـرب طويل عريض صخاب مرسلة صياحاً وحشياً حاداً، حتى تظلم السماء، وتتغطى كلها بالطيـور. واشعر بالرهبة فأحس وكأنني اسمع صـوت احد من الناس، وكأن احداً يهمسـ لي «اركضي، اركضي يا بنت. ولا تتأخـري، سيكون الجو رهيباً في الحال، اركضي، يابنت!» ويسـري الرعب في القلـب، فاركض واركض حتـى تنقطع انفاسي، حتـى اصل إلى البيـت لاهثة الانفاسـ. وفي البيـت صخب ومرح. ويعطونا جميعاً، نحن الاطفال، عمـلاً من الاعمال، تقشر الفاصوليا أو بـذور الخشخاش، والحطب الرطب يفرقع في الموقد. وامنا العزيزة تشـرف مرحة على عملنا البهيـج. وتقص المربية العجـوز اوليانا عن الزمن القديم، أو حكايـات رهيبة عن الساحرات والموتى. فنتحاشك صديقـة بصديقة، والبسمة على شفاة الجميع. وفجأة نصمت سوية.. فوه! ضجـة! كأن احداً يطرق! ولاشيء، سـوى المغزل اليدوي يطن

Telegram: @Arab_Books

عنـد فرولوفنا العجـوز. ويرتفع ضحكنا، وما أكـثره! وفيما بعد، في الليل لا ننام من الرعب، ونحلم احلاماً رهيبة.

وكنت إذا استيقظت في الليل لا اجرؤ حتى على التململ، فارتجف تحت اللحاف حتى الفجر. وفي الصباح انهض بكل حيوية في نضارة الزهور الصغيرة.

وانظر في النافذة فأذا بالصقيع قد جلّد الحقل كله،

والجمـد الخريفـي الرقيق تدلى مـن الأغصان المجـردة، والبحيرة تغطـت بالجليـد الرقيق كالـورق، ويرتفـع بخار أبيض مـن البحيرة، والطيور المرحة تزعق. والشمس تضيء كل شيء فيما حولك بأشعتها الساطعـة، والأشعة تهشـم الجليد الرقيق، كالزجـاج. والدنيا منورة، متألقة، مرحة! وتقرقع النار في الموقد من جديد، ونجلس جميعاً قرب السمـاور. وتطل في النافـذة كلبتنا السوداء بولـكان التي تثلجت في الليل، وتهز ذيلها محيية. ويمر بالنافذة فلاح على فرس نشيط ليحتطب في الغابة. ونحن جميعاً في غاية من الارتياح والغبطة!.. آه، أية طفولة ذهبية كانـت لي!..

وها أنا الآن قد غلبنـي البكاء، كالطفلة، وأنا منغمرة في ذكرياتي. لقـد تذكـرت كل شيء وكأنه حـي، دافق في الحيـاة، ونهض الماضي كلـه أمامـي ساطعـاً شديد السطـوع بينمـا الحاضر شديـد الخمود، شديـد الحلكـة!.. بم سينتهي هـذا، بم سينتهي هذا كلـه؟ أعترف أن اعتقـاداً يخامرني، شيئاً مـن الوثوق بأنني سأمـوت في هذا الخريف، فأنـا مريضـة، ومريضة جـداً. غالباً مـا أفكر في أننـي سأموت، ومع ذلـك فلسـت أود أن أموت بهـذه الصورة، وأرقـد في هذه الأرض.

Telegram: @Arab_Books

ربما سألزم الفراش ثانية، كما لزمته آنذاك في الربيع، فما زلت غير شافية من مرضي. وأنا أحس باعتلال شديد الآن. اليوم خرجت فيدورا وللنهار كله، وأنا أجلس وحيدة. وقد صرت أخاف من البقاء لوحدي فأنا أتخيل دائماً أن شخصاً آخر يوجد معي في الغرفة، وأن شخصاً يتحدث معي، على الأخص حين استغرق في تفكير، لأفيق منه فجأة، فأحس بالرهبة. ولهذا السبب سطرت لك هذه الرسالة، فإن هذا الإحساس يزول عني حين أكتب. وداعاً، ها أنا أختم الرسالة، إذ لا ورق عندي ولا وقت. لم يبق لدي غير روبل فضي من النقود التي تسلمتها لقاء ثوبي وقبعتي. شيء جيد جداً أنك أعطيت لصاحبة البيت روبلين فضيين. فإنها ستسكت الآن لبعض الوقت.

حسن ملبسك بطريقة من الطرق. وداعاً، فأنا أحس بتعب شديد. لا أدري لماذا أضعف هذا الضعف، فإن أقل شغل يرهقني. فكيف سأعمل، إذا حصلت على عمل؟ وهذا ما يقتلني أيضاً.

ف.د.

٥ أيلول

عزيزتي فارنكا!

اليوم تلقيت انطباعات كثيرة، يا ملاكي. أولاً كان لدي صداع طوال النهار، فخرجت لأستنشق الهواء الطلق قليلاً وتمشيت في فونتانكا. كان المساء معتماً، رطباً. وقد هبط الغسق قبيل الساعة

Telegram: @Arab_Books

السادسة. هذه هي أوقاتنا الآن! لم يكن المطر يهطل، ومع ذلك فقد كان ضباب، يشبه مطراً غزيراً. وفي السماء تطوف أشرطة طويلة عريضة من السحب. وفي شارع النهر كان يتنزه جمع غفير من الناس. وهؤلاء الناس كانوا، من نكد الطالع، ذوي وجوه مخيفة تبعث على القنوط، ريفيين سكارى، وفنلنديات فطساوات في أحذية طويلة ورؤوس حاسرة، حرفيين وحوذية، وناس من على شاكلتي ماضين في شأن من شؤونهم، وصبياناً وتلميذ براد في قفطان مخطط، منحولاً مهزولاً ذا وجه ملطخ بزيت التشحيم، يحمل قفلاً في يده، وجندياً مسرحاً، هائل الطول. وهؤلاء كانوا الجمهور. إنها ساعة لا يمكن أن يكون فيها جمهور آخر غير هذا كما يبدو. في الفونتانكا من قناة للملاحة مثقلة بالصنادل حتى أن المرء لا يفهم كيف تسع هذا العدد منها. وعلى الجسور تجلس نسوة يبعن الكعك المبلل والتفاح المتعفن، وجميعهن قذرات مبللات. ما أضجر التمشي في فونتانكا! غرانيت رطب تحت الأقدام، وبيوت عالية سوداء مسخمة على الجانبين، وضباب تحتك، وضباب آخر فوق رأسك. فكم كان كئيباً قاتماً مساء هذا اليوم.

عندما عدت إلى شارع غوروخوفيا كان المساء قد هبط تماماً، وراحوا يضيئون مصابيح الغاز. لم أكن في غوروخوفيا منذ زمن طويل، لعدم سنوح الفرصة. إنه شارع صاخب! وفيه حوانيت ومخازن غنية بما فيها، وكل شيء يتلألأ ويتوهج، وأقمشة وزهور وراء الزجاج، وقبعات متنوعة بأشرطة. فيتصور المرء أن كل ذلك معروض للزينة، ولكن لا، هناك أناس يشترون كل ذلك، ويهدونه لزوجاتهم، شارع غني! والكثيرون جداً من الخبازين الألمان يسكنون في غوروخوفيا. ولا بد

Telegram: @Arab_Books

أيضـاً من أن يكونوا من أهل الغنـى الواسع. وكم من المركبات تمر بلا انقطاع، فلا أعـرف كيف يتحمل الرصيف كل ذلك! عربات فاخرة زجاجها لامـع كالمرآة، وفي الداخل مخمـل وحرير، والخدم من خدم القصـور. لهم كتافيـات، وسيوف. وكنت أعايـن في كل المركبات، فـأرى دائماً سيدات جالسات فيهـا، سيدات أنيقات اللباس، ربما هن أميرات وكونتيسات. والحق أن الساعة كانت ساعة يسرع فيها الجميع إلى الحفلات الراقصة، اللقاءات. من الممتع أن يرى المرء عن قرب أميرة أو سيـدة راقية على الأقل. لا بـد أن يكون ذلك لطيفاً جداً. لم أر أبداً منظـراً من هذا القبيل إلا أننـي أعاينهن في مركبة كما أفعل اليوم. وقد تذكرتـك في هذه اللحظة. آه، يا حمامتي، يـا روحي! حالما أتذكرك الآن حتـى يحز الألم قلبـي! لماذا أنت تعيسة إلى هـذا الحد يا فارنكا؟ يـا ملاكـي، لأي شيء أنـت أسوأ مـن جميعهن؟ أنت طيبـة القلب، رائعـة، متعلمة، فلماذا تكـون من نصيبك هذه القسمـة الفظة؟ لأي شـيء يحصل هذا دائماً: أن يجـد الإنسان الطيب نفسه مهملاً، بينما تخطب السعـادة نفسها ود إنسان آخر؟ أنا أعرف، أعرف، يا أميمة، أن من غير اللطيف التفكير في هذا، فهو التفكير الفالت؛ ولكنني أسأل عن إخلاص، عن حق وحقيقة، لأي شيء يدعو القدر الغراب لإنسان بالخير، وهو في بطن أمه، بينما يخرج إنسان آخر إلى دنيا الله من مأوى لليتامـى؟ ذلـك لأن السعادة غالباً مـا تدرك انساناً مثـل بطل أساطير ايفان المعتـوه، قائلة له: انبش، يا إيفان المعتوه، في ركائب الجد، آكل، وأشـرب، وأمرح، أما أنت، يا فلان يا عـلان، فالحس أصابعك فقط، فأنـت لا تصلح إلا لهذا، أنت يا أخ، كذا وكيت! من الاثم، يا أميمة، من الاثم التفكـير بهذا الشكل ولكنه يتسلل الإثـم إلى نفس الإنسان دون أن يـدري. مـاذا لو ركبت أنت أيضاً مركبـة من تلك المركبات.

Telegram: @Arab_Books

يـا روحي، يا عزيزتي. عندئذ سيتطلع الجنرالات إلى نظرة قبول منك، وليس أنا ومن على شاكلتي، ولارتديت الحرير والذهب وليس ثوبك الكتـاني المستهلك، ولما كنت نحيلة، مهزولة، كما أنت الآن، بل مثل تمثال من سكر، نضرة، موردة الخدين، ممتلئة الجسم وعندئذ سأكون أنا سعيـداً بمجرد أن ألقي نظرة من الشـارع إلى نوافذك المضيئة الساطعة وأرى ظلـك، على الأقل، واغتبط من مجرد التفكير بأنك هناك سعيدة مغتبطة، يا طائري الجميل، أما الآن، فأي شيء! حطمك أشرار الناس، وعـلاوة على ذلك يسـيء إليك فاسـق قذر. ولأن هـذا العديم الحياء يرتـدي سترة فراك بغنـدرة. وينظر إليـك من خلال نظارتـه الذهبية ذات السلسلـة، فهو حر في أن يقدم علـى شيء، ويفلت من العقاب، وعلينا نحن أن نصغي إلى كلامـه الصفيق بتساهل! كفاية، يا حلوين! ولأي شيء كل هذا؟ لأنك يتيمة، ولأنك بلا حماية، ولأنك لا تملكين صديقاً قوياً يكون سنداً لائقاً لك. ومن هو هذا الرجل، من هـم هؤلاء الناسـ من السهل عليهـم أن يهينوا يتيمة؟ إنهم سقـط متاع، وليسوا بشـراً، سقط متاع لا غير، سوى أنهم يعتـبرون أنفسهم كذلك، بينما لا وجـود لهم في واقع الأمـر، وأنا واثق من ذلـك. ذلك هم، هؤلاء الناسـ! أعتقد، يـا روحي، أن عازف الأورغن المتجـول الذي التقيته اليوم في شـارع غوروخوفيا يوحي بالاحترام أكثر مما يوحون هـم. إنه رغـم تجواله اليوم كله وآلامه وانتظاره كوبيكا حقيراً ليتغذى به إلا أنه سيـد نفسه، ويطعم نفسه بنفسه. إنـه لا يريد أن يستجدي حسنة، إلا أنه يكدح كالآلة المشتغلة للمسرة الإنسانية، وكأنه يقول: بهذا أستطيع أن أدخـل المسرة. إنه متسـول، متسول حقاً، متسـول على أية حال، ولكنـه متسول شريف. كان متعباً، متثلجاً، ولكنه يواصل كدحه، ولو بطريقتـه الخاصة، إلا أنه يكدح. وهناك يا عزيزتي الكثيرون من الناس

Telegram: @Arab_Books

الشرفـاء، الذين لا يكسبون إلا القليـل على قدر حجم عملهم ونفعه، إلا أنهـم لا يحنون هامة لأحـد، ولا يسألون خبزاً من أحد. وأنا أيضاً مثـل عازف الورغن ذاك بالضبط أقصد لست مثله تماماً، وليس شغلي مثل شغله، ولكننـي في تفكيري، في علاقتي الشريفـة النبيلائية، مثله بالضبط، أكدح بقدر ما تسعفني قوتي، بقدر ما أستطيع. وليس لدي أكثر من ذلك. ثم لا حاكم لمن لا قضية له.

تحدثـت عن عازف الأورغن هـذا، يا أميمة، لأننـي شعرت اليوم بشقـاء مضاعـف. لقد توقفت لأنظـر إلى عـازف الأورغن. توقفت لأطرد أفـكاراً سيئة نفذت إلى رأسي. أقـف وإلى جانبي يقف حوذياً وفتـاة لا أدري من هي، ثم أخرى أصغر منها، ملطخة بكليتها. اتخذ عازف الأورغن موقعه أمـام نوافذ أحد البيوت. وألاحظ صبياً، ولداً في حـدود العاشـرة. كان مليحـاً لولا ما يبـدو عليه مـن هيئة المرض والوهن، ليس عليه غير القميص وشيء ما آخر ويكاد أن يكون حافياً، يقـف فاغر الفم يصغي إلى الموسيقى _ هـا هو سن الطفولة! إنه يحدق كيـف ترقص دمى الألماني، بينما يداه هو ورجلاه قد جمدها الصقيع، فيرتعش ويقضم طـرف كمه. وألاحظ في يده ورقة صغيرة. مرّ سيد، وألقى لعازف الأورغن قطعة نقدية صغيرة، فوقعت تماماً في الصندوق ذي الجـدران الصغيرة حيث كان الفرنسـي الدمية يراقص السيدات. ومـا كادت القطعة النقدية ترن، حتى جفـل الصبي، ونظر فيما حوله برهبـة، وظن، علـى ما يبـدو، أنني الـذي ألقى قطعـة النقد. ركض نحوي، ويـداه الصغيرتان ترتجفـان، وصوته الخفيـف يرتعش، ومدّ نحوي ورقته الصغيرة، وهو يقول: هذه مذكرة حال! فتحت المذكرة، فـإذا بكل شيء معروف كالعادة. مكتوب فيها: أيها المحسنون، أنا أم

Telegram: @Arab_Books

أطفــال تحتضر، وأطفالي الثلاثة يتضــورون جوعاً، فمدوا يد المساعدة الآن، ولن أنساكم في الآخرة، حين أموت، لأنكم لم تنسوا عصافيري الصغيرة الآن، أيها المحسنون، والقضية واضحة، قضية عيشة. ولكن مــاذا أستطيع أن أفعل لهــم؟ لم أعطه شيئاً. وكم رثيــت لحاله! الصبي مسكــين، مزرق مــن البرد، وربما هــو جائع أيضاً، وليســ في العملية كــذب أو نصب، والله العظيــم، لا، فأنا أعرف هــذا الأمر، سوى أن الجانب السيئ فيه هو أن هاذه الأمهات الحقيرات لماذا لا يحرصن على أطفالهن! فيطلقنهم نصف عراة يحملون رسائل عرض الحال، في مثل هذا الطقس البارد. ربما هي امرأة بليدة، ضعيفة النفس، ولعلها لا تجد نصيراً لها أيضاً، فتقعد مطوية الساقين. وقد تكون مريضة حقاً. ولكن بالأحــرى أن تتوجه إلى الجهة المعنية. وهناك احتمــال أيضاً أن تكون مجرد محتالة، تتقصد إرسال طفل جائع واهن لخداع الناس، ترسله لكي يمرض. وماذا سيتعلم الطفل المسكين برسائل عرض الحال هذه؟ ليس إلا أن يقســوا قلبــه، إنه يسير يستجدي النــاس، والناس يمرون، وليس لديهــم الوقــت للالتفات إليــه. وقلوبهم حجريــة، وكلماتهم قاسية: «ابتعــد! انصــرف! رح!» هــذا ما يسمعه مــن الجميــع، فيقسو قلب الطفل. ويرتجف عبثاً في البرد صبي مسكين مروع، وكأنه طائر صغير سقط من عش محطــم. يداه ورجلاه متجمدة، وأنفاسه متقطعة. وبعد فترة قصيرة وجدته قد بدأ يسعل، ولا حاجة للانتظار كثيراً وسيزحف المرضــ، كالحشرة السامة إلى صدره ومــا هي إلا فترة قصيرة، وسترى المــوت يخيــم عليه، وهــو في مكان مــا في ركن مسخم، بــلا عناية، ولا عــون. وهذه هــي حياته كلها! على مثل هــذه الحال تكون الحياة أحياناً! آه يا فارنكا، من الموجع أن يسمع المرء «لوجه المسيح» وأن يمر دون أن يعطى شيئــاً، ويقول له «الله يعطيك» أحياناً تكون... «لوجه

Telegram: @Arab_Books

المسيـح» لا بأس بها (حتى عبارة «لوجـه المسيح» تختلف، يا عزيزة) أحيانـاً طويلة ممطوطة مألوفة، ممرن عليهـا، استجدائية صرف، وليس موجعـاً كثيراً إلا تعطى شيئاً لقائلها. إنه متسول مزمن، عريق، متسول بالمهنة، ويقول المرء لنفسه إنه تعود على ذلك، وسيصبر، ويعرف كيف يصـبر. وهناك «لوجه المسيح» أخرى غـير مألوفة، غليظة رهيبة، مثل تلـك التي سمعتها اليوم حين تناولـت رسالة عرض الحال من الصبي، فقد كان السائل يقـف عند سياج، و لم يكن يسأل الجميع. فيقول لي: «أعطنـي أيها السيد كوبيكا لوجه المسيح!» وبصوت غليظ جفلت له من إحساس رهيب استـولى علي، و لم أعطه كوبيكا، لأنني لا أملكه. وأغنياء الناس، مع ذلك، لا يحبون أن يتشكى الفقراء علناً من قسمتهم السيئة، قائلين: إنهـم يزعجوننا، هؤلاء الملحون! ولكن الفقر ملحاح دائماً. ربما أنات الجياع تمنعهم من النوم!

واعترف لـك، يا روحي، أنني بدأت وصف كل ذلك إلى حد ما، للتخفيف عما في قلبي، والأكثر من ذلك لأظهر لك نموذجاً للأسلوب الجيـد من كتاباتي. ذلـك لأنك على الأرجح، واعـترفي بنفسك، قد لاحظـت يا عزيزتـي، أن اسلوبي آخذ بالصياغة منـذ عهد غير بعيد. إلا أن وحشـة كبـيرة استولت علـيّ الآن، حتى أخـذت أتعاطف مع أفـكاري حتى أغوار النفس، ورغم أنني أعـرف، بنفسي، يا عزيزتي أن هذا التعاطف لا يجدي، إلا أنه يساعد على أن يقدر المرء حق نفسه بصـورة من الصـور. وفي الواقع غالباً ما يحطـم الإنسان نفسه بدون سبـب، حين يبخسها حقهـا، ويبيعها بيع السـوام. ولربما سبب هذا، إذا لجأنـا إلى المقارنة يعـود إلى أنني نفسي مذعـور مسحوق، كذلك الطفل المسكـين، الذي طلب مني إحسانـاً. والآن سأحدثك بالمجاز

Telegram: @Arab_Books

والاستعـارة، يا أميمة، فاصغـي إلي. يحدث لي، يا روحي، وأنا أسرع إلى الدائرة في الصباح الباكر أن ألقي نظرة على المدينة، كيف تستيقظ وتنهض، وترسل الدخان، وتغلي، وتهدر، حتى لأحس أحياناً بالتضاؤل أمام هذا المنظر، وكأنني تلقيت صفعة على أنفي الفضولي من شخص ما، فأنساب في طريقي أهدأ من الماء، وأوطأ من عشب، وأضرب ذراعي في استسلام! والآن، انظري ماذا يجري في هذه البيوت المتينة السوداء المسخمة الكبيرة واسبري ذلك.. وعندئذ ستحكمين بنفسك هل من العدل أن يبيع الإنسان نفسه بيع السوام ويحط من قدره بلا سبب. لاحظي، يا فارنكا، أنني أستخدم استعارة، ولا أتكلم بالمعنى المباشر. إذن لننظر ماذا في هذه البيوت؟ في ركن مسخم، في حجر رطب يعتبر مسكناً بسبب الحاجة، استيقظ صانع من نومه، وفي نومه ولنضرب مثلاً، كان يحلم طوال الليل بالحذاء الطويل العنق الذي شقه بالمصادفة يوم أمس، وكأنما ينبغي أن يحلم به الإنسان هو هذه التفاهة بالذات! ولكنه صانع، اسكاف. وهو معذور لو فكر طوال الوقت في الشيء الذي يصنعه. أن أطفاله يصوصئون، وزوجته تجوع. وليس الإسكافون وحدهم ينهضون في بعض الأحيان بهذه الصورة يا روحي. وليس في ذلك ضير، وما كان ذلك ليستحق الكتابة، لولا الظرف الذي ينجم هنا، يا أميمة، وهو أن في هذا البيت نفسه، في طابق أعلى أو أسفل، وفي حجرات مذهبة ربما حلم رجل واسع الثراء، طوال الليل، بالحذاء إياه أقصد، من نوع آخر، من طراز آخر، ولكنه حذاء طويل العنق، على أية حال، وبالتالي فإننا جميعاً، في المعنى الذي أكني به هنا، يا أميمة، يا روحي، إسكافون على نحو ما. وليس في ذلك ضير، سوى أن الجانب السيىء فيه هو أنه لا يوجد، إلى جانب هذا الثرى، شخص يمكن أن يهمس في أذنه: «كفاك تفكيراً في

Telegram: @Arab_Books

ذلك، تفكيراً في نفسك، كفى أن تعيش لنفسك وحدها، فأنت لست اسكافاً، وأطفالك أصحاء،وزوجتك لا تستجدي لتأكل، فانظر فيما حولك، ألا ترى لذهنك موضوعاً لهمومك أفضل من حذائك الطويل الرقبة!» هذا ما أردت أن أقوله لك بالمجاز والاستعارة يا فارنكا، وقد تكون هذه الفكرة متحررة أكثر من اللازم، يا روحي، ولكنها توجد أحياناً، تراود الفكر أحياناً، وعندئذ تتحول إلى كلمات حارة تنبع من القلب دون أن تدري. ولهذا لا يجوز أن يحط الإنسان من قدره بعد أن ارتعب من مجرد الصخب والهدير! وانتهى إلى القول بأنك، يا روحي، قد تظنين أنني أحدثك افتراء أو أن سوداوية قد استولت عليّ، أو أنني نسخت ذلك من أحد الكتب؟ لا، يا أميمة، بددي هذا الاعتقاد من ذهنك، فأنا أمقت الافتراء، ولم تتسول السوداوية على، ولم أستنسخ ذلك من أي كتاب، ذلك هو!

عدت إلى البيت مكتئب النفس، واندفعت إلى الطاولة، وسخنت السخان، وتهيأت لأشرب قدحاً أو قدحين من الشاي. وفجأة أرى غورشكوف، نزيلنا المسكين، يقبل على. وكنت قد لاحظت، منذ الصباح، أنه يحوم حول النزلاء وهمّ أن يأتي إلي. وأقول لك، على الماشي، يا أميمة، أن عيشته أسوأ من عيشتي بكثير. بالتأكيد! زوجة، وأطفال! فلو كنت غورشكوف، لما عرفت كيف أدبر حالي! إذن، فهذا صاحبي غورشكوف قد أقبل علي، وينحني محيياً، والدمعة، كما هي دائماً عالقة في رموشه، ويشحط بقدميه، ولا يستطيع أن ينطق بكلمة. أجلسته على مقعد محطم، في الحقيقة، ولكن ليس لي آخر غيره. عرضت عليه قدح شاي. فاعتذر، اعتذر طويلاً، إلا أنه تناول القدح، في آخر الأمر. أراد أن يشربه بلا سكر، وعاد يعتذر من جديد

Telegram: @Arab_Books

حين أخذت أؤكد له ضرورة أن يأخذ السكر. وجادل طويلاً رافضاً، وأخيراً وضع في قدحه أصغر قطعة، وصار يؤكد على أن الشاي لذيذ جداً. آه، إلى هذا الحد من الإذلال أوصل الفقر الناس! سألته: «ماذا وكيف، يا صاحبي». قال: «الأمر كذا وكذا، يا ماكار الكسييفتش، أيها المحسن، أعط حسنة للرب. وساعد عائلة بائسة. ليس للأطفال والزوجة ما يأكلونه. وأنا، كأب، حالتي صعبة!» هممت بالكلام، إلا انه قاطعني قائلاً: «أنا أخاف من الجميع هنا، يا ماكار الكسييفتش، اقصد لا أخاف بالضبط، بل أخجل. الناس هنا فخورون جميعاً ومتكبرون، كان بودي ألا أزعجك، يا صاحبي والمحسن إلي، وأنا أعرف أن لك أيضاً متاعبك الخاصة، وأعرف أيضاً أنك لا تستطيع ان تقدم الكثير، ولكن أقرضني على الأقل شيئاً قليلاً. ويقول: «ما كدت أتجرأ على ذلك، لولا ما أعرف من طيبة قلبك، وأعرف أنك نفسك ذقت الحاجة، وحتى الآن تعاني من الضائقات، ولهذا يتعاطف قلبك مع آلام الاخرين». وختم كلامه قائلاً: اعذرني على جسارتي، وقلة كياستي، يا ماكار الكسييفتش. فأرد عليه: كنت سأبتهج من كل قلبي، ولكنني لا أملك شيئاً، أي شيء على الإطلاق. فيقول لي: «ماكار الكسييفتش، يا محترم، أنا لا أسأل شيئاً كثيراً، بل كذا وكذا (وهنا أحمر) فزوجتي وأطفالي جائعون، على الأقل عشرة كوبيكات من هنا أو هناك» وأحس بقلبي ينفر. وأفكر مع نفسي: وجدت من يبزني في الفقر إلى هذا الحد! ولكن لم يبق عندي غير عشرين كوبيكا، فضلاً على اعتمادي الكبير عليها، فقد كنت أريد أنفقها في الغد على احتياجاتي القصوى، فأقول له: «لا، يا عزيزي، ليس في ميسوري، فأنا كذا وكذا». فيقول: «يا سيد ماكار الكسييفتش، حسبما تشاء، ولكن عشرة كوبيكات، لا أكثر». فوجدت نفسي

Telegram: @Arab_Books

أخـرج العشرين كوبيـكا من صندوقي، وأعطيها لـه، يا أميمة، وعلى الله التـوكل! آه، الفقـر، الفقـر! وتحدثـت إليه متسائـلاً: كيف هذا، يا صاحبي إلى هذا الحـد أنت معوز، وتؤجر حجرة بخمسة روبلات فضية؟ أوضح لي أنه استأجرها قبل نصف عام، ودفع أجرة ثلاثة أشهر مقدمـاً، وبعدها استجدت ظـروف جعلت المسكين في مأزق حرج، وانتظر أن تتحسن أحوال قضيته بمرور الوقت. ولكن قضيته مزعجة، وهو يستجوب أمام محكمة، يا فارنكا. فهو متورط مع تاجر احتال في مقاولة حكومية، وانكشف الاحتيال، والتاجر رهن المحاكمة، وقد جرّ غورشكوف إلى قضيته اللصوصية، فوجد غورشكوف نفسه متورطاً أيضاً. بينما ذنبه في الحقيقة لا يعدو أن يكون إهمالاً، إغفالاً، تماهلاً لا يغفر في المصلحة الحكومية، والقضية في القضاء منذ أعوام. ويصادف غورشكوف ضده مختلف العقبات. يقول لي غورشكوف: «يلصقون بي عدم الإمانة، وأنا بريء منها تماماً، أنا بريء من الاحتيال والسرقة». لوثت هذه القضية سمعته قليلاً، فطرد من وظيفته. ورغم أن تورطه لم يثبت بالتهمـة الرئيسية، إلا أنه قبل أن تبرأ سماحته تماماً لا يستطيع أن يسترجع من التاجر مبلغاً كبيراً من المال يستحقه، وهو موضع أخذ ورد أمـام المحكمة. وأنا أصدق به ولكن المحكمة لا تصدق به من الكلام وحده، والقضية معقدة من رأسها إلى ذيلها، ولن تحل خلال مائة عام. مـا إن يحلـوا عقدة حتـى يعقـد التاجر عقدتـين. وأنـا أتعاطف مع غورشكـوف تعاطفـاً صميمياً، وأرثـي لحاله، يا روحـي. إنسان بلا وظيفة، ولا يقبلونه لأيـة خدمة لعدم ائتمانه وقد أتت العائلة على كل ما أدخره، والقضية مشربكة، ومما زاد الطين بلة أن طفلاً ولد فجأة في غـير وقته تماماً، يعني هذا مصروفـات ومرض ابن، وهذه مصروفات، ومات وهذه مصروفات أخرى. والزوجة مريضة، وهو مريض بمرض

Telegram: @Arab_Books

مزمـن، وباختصار تعـذب الرجل، تعذب تماماً. ويقـول أنه ينتظر أن تحسـم قضيته خـلال أيام، حسمـاً لصالحه، وأن ذلـك لا يحتمل أي شـك الآن. أنا أشفق عليه، يا أميمـة، أشفق عليه كثيراً! فعطفت عليه، إنـه إنسان ضائع، مشربك، يبحث عـن رعاية، فعطفت عليه، والآن، وداعاً يا أميمة، المسيح معك يعطيك العافية يا حمامتي! ما إن تخطري على بـالي، حتى أحس، وكأنني وضعت بلسماً على روحي الموجعة، ورغم أنني أتعـذب من أجلك، إلا أن العذاب من أجلك خفيف على النفس.

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

٩ أيلول

العزيزة فارفارا الكسييفنا!

أكتـب لـك، وأنا غير متمالـك نفسي. منفعل كليـاً بسبب حادثة رهيبـة. رأسـي في دوران، وأحس بـأن كل شيء حولي يـدور. آه، يا روحـي، أي شيء أحدثك به الآن! نحن لم نتحسس ذلك مسبقاً. لا، أنا لا أصدق بأنني لم أتحسس كل ذلك مسبقاً. لقد تحسست كل ذلك مسبقاً. لقد كان قلبي يتسمع إلى كل ذلك مسبقاً! بل وحلمت بما يشبه ذلك قبل أيام.

وهـذا ما حصل! سأقص عليك بلا أسلوب، بل كمـا أسره الرب

Telegram: @Arab_Books

في قلبي. ذهبت اليوم إلى الدائرة. وصلت، وجلست، ورحت أكتب. وإذا أردت أن تعرفي، يا أميمة، فقد كتبت يوم أمس أيضاً. والمسألة أن تيموفي ايفانوفيتش جاء إليّ يوم أمس قائلاً: هذه ورقة مستعجلة فاستنسخها، يا ماكار الكسييفتش بأكثر ما يكون من النظافة والاستعجال والعناية. فهي ستقدم اليوم لتوقيعها. ومن الضروري أن أذكر لك، يا ملاك، أنني لم أكن على بعضي يوم أمس، لم أكن أريد أن أنظر في أي شيء. احتوتني وحشة وكآبة! قلبي بارد، وروحي مكفهرة، وأنت تملئين ذاكرتي، يا عزيزتي البائسة. ولكنني شرعت بالاستنساخ، فنقلت بنظافة وخط جيد، سوى أنني أغفلت سطراً كاملاً، ولا أعرف نفسي كيف أفسر ذلك، هل الشيطان سها بي، أم المقادير كتبت عليّ ذلك، أم ذلك مجرد مصادفة، وضاع السياق، والله يعلم لا سياق البتة، تأخروا في تقديم الورقة يوم أمس، و لم يعطوها لتوقيع سعادته إلا اليوم. وصلت اليوم إلى الدائرة في الساعة المعتادة، وكأن شيئاً لم يحدث، واتخذت مكاني إلى جانب إميليان ايفانوفيتش. ويجب أن أذكر لك، يا روحي، أنني في الفترة الأخيرة صرت أخجل وأشعر بالحراجة أكثر من السابق، ولا أرفع بصري إلى أحد. وما أن يصرف كرسي أحد حتى أكون ما بين الموت والحياة. وهذا ما حدث اليوم بالضبط. التصقت بالمكتب، وجلست وادعاً، منكمشاً كالقنفذ، حتى قال يفيم اكيموفيتش (لا أحد يباريه في المناكدة في الدنيا كلها)، قال بصوت يسمعه الجميع: ما لي أراك، يا ماكار الكسييفتش منكمشاً في جلستك؟ وهنا تعبّس تعبيسة جعلت القاصي والداني يضج بالضحك، وبالطبع، على حسابي. واغربوا، واغربوا! فأطبقت على أذني، وأغمضت عيني، وأجلس بلا حراك. تلك هي عادتي، وعندئذ سيكفون بأقرب وقت. وفجأة أسمع

Telegram: @Arab_Books

ضجيجاً ولغطاً وجلبة، وأسمع، ألا تخدعني أذناي؟ وينادونني، يطلبونني، يدعون ديفوشكين. أخذ قلبي يرتجف في صدري، وأنا نفسي لا أعرف ماذا أرعبني، لا أعرف سوى أنني ارتعبت رعباً لم يحصل لي طوال حياتي. تسمرت على المقعد، وكأنما لم يحدث شيء، وكأنني لست أنا. ولكنهم عادوا من جديد، أقرب فأقرب، حتى وصلوا إلى أذني تماماً. ينادون: ديفوشكين! ديفوشكين! أين ديفوشكين؟ وأرفع بصري، فأرى يفستافي ايفانوفيتش أمامي يقول: يا ماكار الكسييفتش، سعادته يدعوك، أسرع! عملت مصائب في الورقة! و لم يزد على ذلك، ولكن أليس في قوله ما فيه الكفاية يا أميمة؟ كادت روحي تفارقني، تجمدت، وتبلدت حواسي، وأذهب، أسير لا بالحي ولا بالميت، ويقودني عبر حجرة، ثم أخرى، ثم ثالثة، وإلى المكتب وأمثل أمامه! أنا لا أستطيع أن أعطيك جواباً واضحاً، إذا سألتني ماذا كنت أفكر آنذاك. أتطلع، فأرى سعادته واقفاً، وحوله جميعهم. أظن أنني لم أنحن بالتحية، نسيت. أصابني ذهول شديد جعل شفتَيَّ ترتعشان ورجلَيَّ ترتجفان. وهناك ما يسوغه، يا أميمة. أولاً، كنت خجلاً. نظرت في المرآة إلى يميني، وما رأيته فيها يفقد المرء صوابه. وثانياً: كنت دائماً أتصرف وكأنني غير موجود على الأرض. ولهذا كان سعادته لا يكاد يحس بوجودي. ربما سمع سعادته عرضاً بأن في دائرته يوجد شخص يدعى ديفوشكين، ولكن لم تكن له أية مداخلة معي.

بدأ في غيظ: «ما هذا منك، يا سيد! أين كنت تنظر؟ الورقة لازمة، ومستعجلة، بينما أنت أفسدتها. فكيف هذا منك» وهنا توجه سعادته إلى يفستافي ايفانوفيتش. ولا أسمع غير أصوات كلماته تصلني: «إهمال! غفلة! توقعنا في متاعب! فتحت فمي لشيء ما.

Telegram: @Arab_Books

أردت أن أطلب مغفرة، ولكنني لم أستطع، حتى محاولة الهروب لم أجرؤ عليها، وهنا... هنا حصل، يا أميمة، شيء جعلني لا أكاد أمسك الريشة في يدي من الخجل الآن، حين أذكره، أن زرى _ عليه اللعنة _ زرى الذي كان متدلياً من خيطه، انقطع فجأة في تلك اللحظة، ونط، وتدحرج. (والظاهر أنني ضربته عرضاً) فرن، وتدحرج اللعين، إلى قدمي سعادته مباشرة، وذلك وسط صمت شامل! وهذا كان كل تبريري، كل اعتذاري، كل جوابي، كل ما نويت أن أقوله لسعادته! وكانت العواقب وخيمة! في الحال التفت سعادته إلى قرامي، إلى بزتي. وتذكرت ما رأيت في المرآة. اندفعت لأمسك بالزر! ركبتني حماقة! انحنيت أريد أن أمسك بالزر، وهو يدور ويلف، ولا أستطيع القبض عليه، وباختصار بينت ما لدي من براعة. وفي هذه اللحظة أحسست أن قواي الأخيرة تغادرني، وأن كل شيء قد ضاع! السمعة كلها ضاعت، إنسان بكامله قد انتهى! وبلا رابطة ولا مناسبة رن في أذني كلتيهما صوتا تيريزا وفالدوني. وأخيراً أمسكت بالزر، ونهضت، ورفعت هامتي، وكان الأحرى بي، ما دمت أحمق، أن أقف بوداعة، وذراعاي مسبلتان على جانبي! ولكنني لم أفعل ذلك. بل أخذت أضع الزر على الخيط المقطوع، وكأنما سيلتصق، وأنا أبتسم، علاوة على ذلك أبتسم. أشاح سعادته بوجهه في بادىء الأمر، ثم صوّب بصره عليّ مرة أخرى، وأسمعه يقول ليفستافي ايفانوفيتش: «كيف هذا؟.. انظر إليه في أية هيئة هو!.. كيف هو!.. ما هو!..» آه، يا روحي، ما هذه «كيف هو» و «ما هو؟» برزت! واسمع يفستافي ايفانوفيتش يقول: «لا ملاحظة عليه، لا ملاحظة عليه في أي شيء. سلوكه مثالي، وراتبه معتبر، حسب الدرجة...» فيقول سعادته: «خفف عليه على نحو ما، أعطه راتبه قبل الموعد...» فيقولون له: «ولكنه أخذ مقدماً

Telegram: @Arab_Books

رواتبه لشهور عديدة. يبدو أن ظروفه تجبره على ذلك أما سلوكه جيد، ولا ملاحظـة عليـه، لا ملاحظة عليـه أبداً». واحترقـت، يا ملاكي، احترقت بنـار جهنم! وشعرت بأنني أموت! ويقـول سعادته جهاراً: «حسنـاً، استنسخها ثانية بأسرع وقت. تعـال إلى هنا، يا ديفوشكين. استنسخهـا ثانية، وبلا أخطـاء، واسمع...» وهنا التفـت سعادته إلى الآخريـن، وأصـدر مختلـف الأوامر، وتفـرق الجميـع. وحالما تفرق الجميع، حتى أسرع سعادتـه بإخراج محفظته، ومنها ورقة من فئة مائة روبـل، ويقول: «هذا ما أستطيع عليـه، فاعتبرها حسب ما تشاء...» ودسّ الورقة في يدي. ارتعـدت، يا ملاكي، ارتجـت روحي كلها، ولا أعـرف مـاذا حصـل لي. أردت أن أخطف يده. أمـا هو، العزيز، فقـد احمر كلية، وأقول لـك دون أن أجانب الحقيقـة شعرة واحدة، يـا ملاكي، إنه أخذ يدي، يدي التافهـة، وصافحها، هكذا، ببساطة، أخذها، وصافحها، وكأنني ند له، وكأنني جنرال مثله. ويقول: «هذا ما أستطيع عليه، فاذهب... وتحاش الأخطاء.. الآن ذنبنا على جنبنا».

والآن، هذا ما قررته، يا أميمة: أرجوك وأرجو فيدورا، ولو كان لي أبناء لطلبت منهم أيضاً، أن يصلوا للرب، يعني أن يصلوا لسعادته، كل يـوم، وإلى الأبد، كما لو لم يصلوا على آبائهم الأصليين قط! وأضيف لك أيضاً، يا أميمة، وأعلنه جهاراً، فاسمعيني جيداً، يا عزيزتي، أحلف لـك أنني رغـم كل ما عانيت من مهانة روحية في أيـام بؤسنا الشاقة، وأنـا أنظر إليـك، وإلى بلاياك، وإلى نفسـي، وإلى ذلي، وإلى عجزي، رغـم كل ذلك، أحلف لك أنـنـي لم أعتز بالمائة روبـل بقدر اعتزازي بـأن سعادته تكرم عليّ فمد إليّ، أنا القشة، السكير، يده ليصافح يدي التافهـة! بهذه اللفتة أعاد إليّ نفسي، بهذا العمل أحياني، وجعل الحياة أحلى إليّ طوال عمري، وأنا واثق ثقة قوية بأنني مهما كنت مخطئاً أمام

Telegram: @Arab_Books

العلـي القدير، فإن دعائي لسعادته بالهنـاء والسعادة سيصل إلى عرش الرب!..

يـا أميمة! أنـا الآن في فورة روحية مريعـة، في انفعال مريع! قلبي يخفق يريد أن يطفر من صدري. وأنا، بكليتي، أشعر وكأنني وهنت. أرسل لك خمسة وأربعين روبلاً من الأوراق النقدية. وسأعطي عشرين روبـلاً لصاحبة البيت، وأبقي خمسة وثلاثين روبلاً لنفسي، أخصص منهـا عشرين روبلاً للملبس، وأبقى خمسة عشر روبلاً للعيشة، والآن فقط هزت كل انطباعات الصباح هذه كياني كله. سأستلقي. أنا أحس بالهـدوء، الهدوء الشديـد. سوى أن روحي تئن علـيّ، أحس بها في أعماقـي تختلج وتهتز وتتحرك. سأزورك. ولكنني الآن ثمل تماماً من كل الأحاسيس هذه... والرب يرى كل شيء، يا أميمتي، يا حمامتي، يا نفيستي!

صديقك المعتبر

ماكار ديفوشكين

١٠ أيلول

صديقي الفاضل ماكار الكسييفتش!

أنا مسرورة بسعادتك إلى حد لا يوصف، ولي القدرة على أن أثمن فضائـل رئيسك، يا صديقـي. إذن فأنت الآن تستريـح من متاعبك! ولكـن، بحق الـرب، لا تنفق فلوسك عبثاً مرة أخـرى. عش بهدوء، بأكثر ما أمكـن من التواضع، ومنذ اليوم ابدأ بادخار مبلغ، مهما يكن

Telegram: @Arab_Books

قليـلاً، حتى لا تفاجئـك ضائقة مرة أخـرى. ولا تقلـق علينا، بحق الـرب. فسندبر حالنا، أنـا وفيدورا، على نحو ما. لمـاذا أرسلت إلينا هـذا المبلغ الكبير من النقود، يا مـاكار الكسييفتش؟ لسنا بحاجة على الإطـلاق. نحن نكتفي بما لدينا. حقاً سنحتاج قريباً إلى نقود للانتقال مـن هذه الشقة، ولكن فيـدورا تأمل في أن تحصل من أحد الناس على ديـن قديم مضى عليه وقت طويل. ولهذا سأبقى لنفسي عشرين روبلاً للاحتياجـات القصـوى، وأعيد لك الباقي. فاحرصـ على الفلوس، أرجـوك، يا مـاكار الكسييفتش. وداعاً، عشـ الآن بهدوء، أتمنى لك الصحة والبهجة. كنت سأكتب لك أكثر، ولكنني أحس بتعب طاغ، يـوم أمس لم أغادر الفراش طـوال اليوم. لطيف أنك وعدت بزيارتنا، فزرني رجاء، يا ماكار الكسييفتش.

ف.د.

١١ أيلول

عزيزتي فارفارا الكسييفنا!

أتوسل إليك، يا روحي، ألا تفارقيني الآن، وأنا في منتهى السعادة، ومرتـاح من كل شيء، يا حمامتي! لا تصغي إلى فيدورا، وسأفعل كل مـا تشائين. سأسلك السلوك الحسن، مـن مجرد الاحترام نحو سعادته سأسلـك السلـوك الحسن والمستقيـم. وسنعود نكتـب بعضنا لبعض رسائل سعيـدة، ونتطارح أفكارنـا ومسراتنا، وهمومنـا، أن تكن لنا هموم. سنعيش سوية في وئـام وسعادة. ونهتم بالأدب... يا ملاكي!

Telegram: @Arab_Books

لقـد تغيّر كل شيء في مصـيري، تغير كل شيء نحو الأحسن. صارت صاحبة البيت أكثر مطاوعـة، وتيريزا أكثر ذكاء، وحتى فالدوني نفسه صـار أكثر خفة. وقد تصالحت مع راتازييف. ذهبت إليه بدافع الفرح مـن تلقاء نفسي. وهو، في الحقيقة، لطيف طيـب، يا أميمة، والكلام السـيء الذي كان يقال عنه كان كله هراء. اكتشفت الآن إن كل ذلك كان افـتراء خبيثـاً. أنه لم يفكر قط بأن يصفنـا في كتاباته. وقد قال لي ذلـك بنفسه. قـرأ عليّ ما أنشأه حديثاً. أمـا تسميته لي بـ «لو فيلاس» حينئـذ، فلم يكن ذلـك شتيمة على الإطـلاق، أو نعتاً غير لائق. وهو الذي أوضح لي ذلك أنها مأخوذة من نص أجنبي كلمة بكلمة. وتعني الفتى الخفيـف الحركة، وإذا ما ترجم بشكل ألطـف، وأقرب إلى لغة الأدب، فبمعنـى الشاب الشاطر _ يلقفها وهـي طائرة _ بهذا الشكل! وليـس فيها معنى آخـر. كانت مزحة بريئة يا ملاكـي. وأنا، الجاهل، تكـدرت حماقة مني. ولكنني الآن اعتذرت أمامه... والطقس اليوم رائـع، يا فارنـكا، طقس لطيف. حقـاً كان في الصبـاح بعض المطر، وكأنه ذرور يتساقط من منخال. لا بأس! وإلى جانب ذلك صار الهواء أكثر طراوة قليلاً. ذهبت لأشتري حذاء طويل الرقبة، فاشتريت واحداً مدهشاً. سـرت في شارع نيفسكي. وطالعت عـدد «بتشولكا»[٣٠]، أها! نسيت أن أخبرك بالأهم.

والقضية كالآتي:

اليـوم صباحـاً تكلمـت مـع إميليـان ايفانوفيتشـ واكسنتـي ميخائيلوفيتشـ عن سعادته. نعـم، يا فارنكا، إنـه لم يعاملني وحدي

---

٣٠. يقصد الجريدة الرجعية " سيفرينا بتشولكا" التي كان يصدرها في بطرسبورغ ف.ف.بولغارين و ن.ي.غرتيش في أعوام ١٨٢٥–١٨٦٤. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

هـذه المعاملة الكريمة. و لم يكرمني وحدي هـذه المكرمة، فإن طيبة قلبه معروفـة للعالم أجمع. ويتوافـد الثناء عليه من جهـات مختلفة، وتذرف دمـوع الامتنان. وقـد تربت في حماه إحـدى اليتيمـات، وقد تفضل برعايـة مصيرها، وزوجها رجـلاً مشهوراً، هو موظف يقـوم لسعادته بمهمـات خاصـة. وقد شغل ابن إحـدى الأرامل في قلـم الأوراق، وله مكرمـات أخرى مختلفة. وقـد وجدت لزامـاً عليّ، يا أميمـة، أن أدلو بقسطي المتواضـع، وأتحدث عن مكرمة سعادته جهـاراً، وعلى مسمع مـن الجميع. وقد حدثتهـم بكل ذلك، و لم أخف شيئـاً. أخفيت العيب في الجيـب. وأي عيب في ذلك، وأي عزة نفس في حال كهذه! وليكن ذلك علناً، وتمجيداً لمـكارم سعادته! تكلمت باندفاع، تكلمت بحرارة الحماس، و لم أحمـر خجلاً، بـل بالعكس، افتخرت بـأن تتاح لي مثل هـذه الفرصة للكلام. تحدثت عن كل شيء (صمت عنك فقط حصافة، يـا أميمة)، تحدثـت عن صاحبة بيتي، عن فالـدوني، عن راتازييف، عن الحذاء الطويـل، عن ماركوف، عن كل شـيء. كان أحدهم يتضاحك، كان الجميـع، في الحقيقة، يتضاحكـون. إلا أنهم، في الأحرى، وجدوا شيئـاً يضحكهـم في شخصـي أو بخصوصـ حذائي، نعـم، بالضبط، بخصوصـ حذائي الطويل الرقبة. وما كان مـن الممكن أن يفعلوا ذلك عـن سوء نية. لا شيء غير مرح الشباب، أو لأنهم أناس أغنياء، ولكن ما كان مـن الممكن أن يضحكوا من خطبتي عن خبيث وسوء نية. أعني أما مـن ناحية سعادته، فما كان من الممكن أن يفعلوا ذلك. أليس صحيحاً، يا فارنكا؟

وحتـى الآن لا أستطيـع أن أتمالك حواسي، يا أميمـة. فقد أربكتني هذه الحـوادث إرباكاً شديداً! هل عندك حطـب؟ أتقي الإصابة بالبرد،

Telegram: @Arab_Books

يـا فارنكا. فهـي ليست بعيدة عن الإنسان. آه، يـا عزيزة، أنك تقتلينني بأفكارك الحزينة، أنا الآن أصلي للرب، للرب من أجلك، يا أميمة! مثلاً هـل لديك جوارب صوفيـة، أو ملابس أكثر دفئـاً. وليكن على بالك، يا عزيزتي، إذا احتجت لشيء، فلا تكسري بخاطر العجوز، بحق الرب، وتعالى إليّ قدماً وبـدون كلفة. إنتهت الآن الأوقات الصعبة، ولا تقلقي بشأني. والمستقبل سيكون بمثل هذه الوضاءة والخير!

وكـم كان الوقـت أسيـاً، يا فارنـكا! ولكنه انقضى علـى أية حال! وستمر السنـون، وسنتذكر حتى ذلـك الزمن بارتياح. أنـا أتذكر سني صبـاي. وأين هذا مـن ذاك! أحياناً لم يكـن لي كوبيك في جيبي. كنت بـردان جائعاً، وليس لي إلا مرح الشبـاب. وفي الصباح أسير في شارع نيفسكي، وأرى وجهاً حلواً، فأظل سعيداً طوال اليوم. وكان وقتاً رائعاً، يـا عزيـزة، وقتاً رائعاً! أنها لروعـة أن يعيش الإنسان في هـذه الدنيا، يا فارنكا! ولا سيما في بطرسبورغ. أمس سجدت للرب ندماً والدموع في عيني، وطلبت منه المغفرة على كل خطاياي في هذا الزمن الكئيب: تذمر، وأفكار متحررة، وعربدة ونزق. وقد تذكرتك في صلاتي بحنان. فأنت وحدك، يا ملاك، قد شددت أزري، وأنت وحدك سرّيت عني، ورافقتني بالنصائح والإرشادات الخيّرة. ولا يمكن أن أنسى ذلك ما حييت. أعدت، يـا عزيزتـي تقبيل رسائلك اليوم مـرة أخرى! والآن، وداعـاً، يا أميمة. يقـال أن هناك، على مسافة غير بعيدة، تخفيضات في الملابس، سأذهب وأتحقق من الأمر. وداعاً، يا ملاك، وداعاً!

الوفي لك بروحه

ماكار ديفوشكين

Telegram: @Arab_Books

١٥ أيلول

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

أنا في حالة من القلق المريع. فاسمع ما حدث عندنا. لقد استشعرت شيئاً منحوساً سيحدث. فاحكم بنفسك، يا صديقي الغالي. السيد بيكوف في بطرسبورغ، وقد التقت به فيدورا. كان يركب عربة، فأمر بأن توقف، وتقدم بنفسه من فيدورا، وأخذ يستفهم أين تسكن. لم تقل له في البداية. ثم قال ضاحكاً بسخرية أنه يعرف من يعيش معها (الظاهر أن آنا فيدوروفنا حكت له كل شيء). عندئذ لم تتحمل فيدورا، وراحت تقرعه وتعنفه في نفس المكان في الشارع، وقالت له أنه إنسان لا أخلاق له، وأنه سبب كل تعاساتي. فردّ أن الإنسان تعيس بالطبع، إذا كان لا يملك كوبيكا واحداً. قالت له فيدورا أنه كان من الممكن أن أدبر معيشتي بالعمل، وأن أتزوج، أو أن أجد وظيفة ما، ولكن سعادتي الآن قد ضاعت إلى الأبد، وأنني، فضلاً عن ذلك، مريضة، وسأموت عن قريب. فردّ على ذلك قائلاً أنني ما زلت صغيرة جداً، وأن عقلي ما يزال في خماره، وأن فضائلنا قد بهتت (تلك كلماته). ظننا أنا وفيدورا، أنه لا يعرف مسكننا، وإذا به يوم أمس يدخل علينا الحجرة، حالما خرجت للتسوق في «غوستيني دفور». والظاهر أنه لم يرد أن يلقاني في البيت. راح يستجوب فيدورا طويلاً عن حالنا ومعيشتنا، ويتفحص كل شيء في حجرتنا، واطلع على شغل يدي، وأخيراً سأل: «من هذا الموظف الذي يصاحبكما؟» في تلك الآونة كنت تجتاز الفناء. أشارت فيدورا له إليك. ألقى نظرة، وابتسم ابتسامة ساخرة. طلبت فيدورا إليه أن يخرج، قائلة أنني، بغير ذلك، معتلة من الهموم، وأنني إذا رأيته عندنا،

Telegram: @Arab_Books

فسيكـون في الأمـر إحراج كبـير. صمت برهـة، وقال أنه جـاء إلينا لا لشـيء إلا لأنـه ليس له مـا يفعلـه، وأراد أن يعطي فيـدورا خمسة وعشريـن روبلاً، إلا أن هـذه لم تأخذها، بالطبع. مـاذا يمكن أن يعني هذا؟ لماذا جاء إلينا؟ لا أستطيع أن أفهم من أين يعرف كل شيء عنّا! أنا تائهـة بين الظنون. تقول فيـدورا أن اكسينيا، أخت زوجها التي تتردد علينا، لها صحبة مع الغسالة ناستاسيا، وابن عم ناستاسيا يعمل حارساً في دائـرة يشتغل فيها صاحب لابـن أخي أنا فيدوروفنا، فلربما تسربت أقاويـل بينهـم؟ كما مـن المحتمل جـداً أن تكون فيـدورا على خطأ، ونحن لا نعرف علامَ نرسو بفكرنا. هل من المعقول أنه سيأتي إلينا مرة أخـرى؟ أن مجرد التفكير في هذا يبـث الرعب فيّ! حين قصّت فيدورا كل ذلـك أمس ذعرت ذعرا شديداً حتى أوشكت أن أسقط في غيبوبة من الفزع. ماذا يريد مني أيضاً؟ أنا الآن لا أريد حتى أن أعرفه! ما شأنه بي، أنـا المسكينة! آه، أي ذعر يتملكنـي الآن! فأنا أتصور أن بيكوف سيدخـل عليّ في هذه اللحظة. مـاذا سيحصل لي؟ وماذا يعد لي القدر من جديد؟ من أجل المسيح تعال إليّ الآن، يا ماكار الكسييفتش. تعال، بحق الرب، تعال.

ف.د.

١٨ أيلول

العزيزة فارفارا الكسييفنا!

في هذا اليوم وقع في شقتنا حادث مؤسف إلى أبعد حد، مفاجىء، ولا يمكـن تفسيره بشيء. إن غورشكـوف صاحبنا المسكين (ويجب

Telegram: @Arab_Books

ان أذكر لك ذلـك، يا أميمة) قد بـرأ ساحته تماماً. والأمر قد حسم
منذ زمـان، ولكنه اليوم ذهب ليسمع القـرار النهائي. انتهت القضية
بالنسبـة له نهاية سعيـدة جداً. وبرئ تماماً من تهمـة الغفلة والإهمال
التـي كانت موجهة ضده. وحكمـوا بأن يدفع التاجر لـه مبلغاً كبيراً
من المال، وبهـذه الظروف تحسنت حاله بشكل قـوي، كما أن شرفه
برأ من الوصمات، وصـار كل شيء إلى الأحسن، وباختصار تحققت
رغباتـه كاملة. جـاء اليوم في السـاعـة الثالثة إلى البيـت. كان في غير
حالاتـه، ووجهه منتقع بلون الكتان، وشفتاه ترتعشان، بينما كان هو
يبتسـم- عانق زوجتـه وأولاده. ذهبنا نهنئـه في جمع صاخب. وقد
تأثـر بالغ التأثر بقدومنا، وراح ينحنـي في كل ناحية، وصافح الجميع
واحـداً واحـداً عدة مرات. بـل وبدا لي أنـه قد نما طـولاً، وانتصب
جذعـاً، وأن الدموع لم تعد عالقة في عينيـه. كان المسكين في منتهى
الانفعـال، لم يستطع أن يقـف في مكانه دقيقتين على بعضهما، وكان
يتنـاول كل ما يقع تحت يـده، ليلقيه ثانية، وكان لا يفتأ يبتسم وينحني
ويقعـد وينهض، ثم يقعد مرة ثانية، ويقول مـا يعن في خاطره. يقول
«شرفي، الشرف. ذكر اسمي بالخير، أولادي» وما أشد التأثر في نبرته،
بـل وأخذ يبكي. ونحن أيضاً دمعت عيوننـا في معظمنا. والظاهر أن
راتازييـف أراد أن يشد من عزيمته، فقال: «أي شرف، يا صاحبي، إذا
كنت لا تجـد ما تأكله، الفلوس، يا صاحبي، الفلوس هـي الأساس.
فاحمـد الرب على ذلـك!». وبعد هذا ربت على كتفـه. وبدا لي أن
غورشكوف قد تكدر، أقصـد لم يبد امتعاضه الصريح، بل اكتفى بأن
نظـر إلى راتازاييـف نظرة غريبـة، ورفع يده عن كتفـه. وما كان هذا
الشـيء يحصل قبل هذا، يا أميمـة! وعلى العموم توجد طباع مختلفة.
فمثـلاً أنا في مثل هذه الأفراح لن أكون أنوفـاً إلى هذه الدرجة، ذلك

Telegram: @Arab_Books

لأن الإنسان ينحني أحيانـاً انحناءة زائدة، يا روحي، ويبدي التذلل، لا شيء إلا لفرط طيبة النفس، وفرط رقة القلب....ولكن المسألة لا تخصنـي هنا! يقول: « نعم، جيد أن الفلوس لدي أيضاً، حمداً لله، حمداً لله! » أوصت زوجته على غداء أمراء وأوفر. طبخت صاحبة بيتنا لهم خصيصـاً. فهي امرأة طيبة أحياناً. وقبل أن يحين الغداء لم يكـن في وسع غورشكـوف أن يستقر في مـكان. كان يذهب إلى حجرات الساكنين مدعواً أو غير مدعو.يأتي، ويبتسم، ويقعد على مقعد، ويتفوه بشيء ما، وأحياناً لا يقول شيئاً، وينصرف. بل وأخذ عنـد البحار ورق لعب، وأمسكه بيـده، فأجلسوه ليلعب رابعهم. فلعـب مرة بعـد أخرى، وخلط خلطـاً لا معنى لـه، وطرح ثلاث أوراق وأربعـاً بالتتابع، وترك اللعب قائـلاً: « مجرد تزجية للوقت. لا أقصد شيئاً» وانصرف عنهم. والتقى بي في الممر، وأمسك بكلتا يدي، وحدّق في عيني، ولكن بغرابـة شديدة، وصافحني، وابتعد مبتسماً طوال الوقـت، ابتسامة ثقيلة غريبة، كالميت. بكت زوجته فرحـاً، وشاع المـرح فيهم، وكأنهـم في عيد. وسرعـان ما، وبعد الغداء يقـول لزوجته: اسمعي، يا روحـي، سأستلقي قليلاً» وآوى إلى فراشـه؟ ودعا إليه ابنته، ووضع يده علـى رأسها، ومسّد رأسها طويلاً. ثـم التفت ثانيـة إلى زوجته وقال: « ماذا عـن بيتنكا، ابننا بتيا، بيتنكا؟...» رسمـت زوجته علامة الصليب وأجابت: ولكن بيتنـكا الآن في مملكة السماء». وترى زوجته أنه ليس على طبيعته، وأن الحـادث قد هزّه تماماً، فتقول له: « حبـذا لو أخذت غفوة، يا روحـي».- «نعم، لطيف، الآن سأغفو قليـلاً» وانقلب، واستلقى بعض الوقت، ثم عاد فانقلب ثانية، وهـمّ أن يقول شيئاً. أخطأت

Telegram: @Arab_Books

زوجتـه السمع، فسألت: «ماذا، يا صاحبـي؟». ولكنه لا يجيب. انتظـرت قليـلاً، وظنت أنه قـد غفا، وخرجـت إلى صاحبة البيت لساعة من الوقت. وعادت بعد ساعة، ورأت أن زوجها لم يستيقظ بعـد، وأنه منطرح بلا حـراك. فظنت أنه نائـم، جلست وأخذت تشتغـل في شيء مـا. وتروي أنهـا مضت في الشغـل زهاء نصف ساعـة، واستغرقت في أفكارها، حتى لم تذكـر في أي شيء كانت تفكـر، وتقول فقط أنهـا نسيت أمر زوجها. إلا أنهـا أفاقت فجأة علـى توجس هالع، وأذهلها قبل كل شيء صمت القبر في الحجرة. وتنظـر إلى السرير، وترى زوجها ما يزال منطرحاً في نفس الوضع. تقدمت منه وسحبت اللحاف، وترى أنه صار جسماً هامداً، مات، يا أميمة، مات غورشكوف، مـات فجأة وكأن صاعقة قتلته! والله يعلـم مم مات. وقد أذهلني هذا الحادث، يا فارنكا، حتى لا أستطيع ان أفيق على نفسي حتى الآن. لا أصدق بأن الإنسان يمكن أن يموت بهذه البساطة. إنه لمسكين سيء الطالع غورشكوف هذا! أوه. يا له مـن مصير تعيس! وزوجته مذعورة دامعة العينين. وابنته انكمشت في ركن. ويحدث هرج ومرج عندهم، وسيجري فحص الجثة... ولا أستطيع أن أقول لك بالضبـط. خسارة فقط، أوه، أية خسارة! مـن المحزن أن يفكر المـرء بأنه في حقيقة الأمـر لا يعرف يومه ولا ساعته...يموت بهذه البساطة، وبلا سبب.

المخلص لك

ماكار ديفوشكين.

Telegram: @Arab_Books

١٩ أيلول.

حضرة السيدة فارفارا الكسييفنا!

أسرع لأبلغك، يا صديقتي، بأن راتازييف وجد لي عملاً عند أحد المؤلفين. جاء إليه شخص، وجلب له مخطوطة سميكة، إنها عمل كثير، والحمد لله. سوى أنها مكتوبة بخط غير واضح، بحيث لا أعرف كيف سأعمل عليها، وهم يريدونها على عجل. إنها مكتوبة عن أشياء لا يفهم المرء منها شيئاً... اتفقنا على أربعين كوبيكا للصفحة الواحدة. وأنا أكتب لك كل ذلك، يا روحي، لأعلمك بأنني سأحصل على نقود إضافية. والآن، وداعاً، يا أميمة. سأبدأ العمل في الحال.

صديقك الوفي

ماكار ديفوشكين.

٢٣ أيلول

صديقي العزيز ماكار الكسييفتش!

لم أكتب لك شيئاً منذ ثلاثة أيام، يا صديقي، فقد كان لي الكثير والكثير من الهموم، والكثير من الإزعاجات.

قبل يومين كان بيكوف عندي. كنت وحيدة، وقد خرجت فيدورا لشأن من الشؤون. فتحت له الباب، وفزعت حين رأيته، حتى أنني لم أستطع أن أتحرك من مكاني. وشعرت بأن الدم يفيض من وجهي. دخل بضحكة عالية على مألوف عادته، وتناول كرسياً، وقعد. ظللت وقتاً طويلاً غير متمالكة نفسي، وأخيراً جلست إلى العمل في زاوية.

Telegram: @Arab_Books

ثف عن الضحك بعد قليل. والظاهر أن منظري أفزعه. فقد هزلت هـزالاً شديداً في المـدة الأخيرة، وغارت وجنتـاي وعيناي، كنت شاحبة بلـون المنديل... وبالفعل يصعـب أن يتعرف عليّ من كان يعرفنـي قبل عام من الزمن. حدّق فيّ طويـلاً وبتفرس، وأخيراً عاد إلى مرحـه من جديد. قال شيئاً من الـكلام، ولا أتذكر بماذا أجبته، فضحك مرة أخرى. مكث في حجرتي ساعة كاملة، وتحدث معي طويـلاً، وسأل عن هذا وذاك. وأخيراً، وقبيل الوداع أمسك يدي، وقـال (وأنا أنقل لك قولـه كلمة بكلمة): «يا فارفـارا الكسييفنا! والـكلام بيننا، هذه آنا فيدوروفنا، قريبتـك، وصاحبتي وصديقتي الحميمـة امـرأة لئيمـة جـداً» (وهنا نعتهـا بصفة أخـرى قبيحة). «حرفت ابنة عمك عن الطريق المستقيم، ودمرتك. وأنا من ناحيتي تصرفـت تصرف اللئيم أيضاً، لكنها قضية اعتيادية تحدث كل يوم».

وهنا ضحك بكل ما له من قوة. ثم لاحظ أنه لا يجيد تدبيج الكلام، وأنه قد أعلن الشيء الرئيسي الذي كان عليه أن يوضحه والواجب النبيـل يفرض عليه ألا يسكت عنه فأعلـن بأنه سيتحدث عن البقية بكلمات مختصـرة. وهنا صرح لي بأنه ينشد خطب يدي، وأنه يرى مـن واجبه أن يعيد لي شرفي، وأنـه غني، وسيحملني، بعد الزفاف، إلى عزبتـه في السهب، وأنه يريد أن يصطاد الأرانب هناك، وأنه لن يعـود إلى بطرسبورغ بعد الآن، لأن الحيـاة في بطرسبورغ حقيرة، وأن لـه في بطرسبورغ، على حد تعبيره، ابن أخ متبطل، أقسم على أن يحرمـه من الميراث، وأنه لهذه الغاية بالـذات، أي لرغبته في أن يكون له ورثة شرعيون، يطلب يدي، وهو السبب الرئيسي لخطبته. ثم لاحظ أنني أعيش عيشة بائسة جداً، فلا عجب أن أكون مريضة، وأنـا أسكن هذا المسكن الحقير، وتنبأ لي بموت محتم، لو بقيت حتى

Telegram: @Arab_Books

شهراً آخر بهذا الشكل، وقال أن الشقق في بطرسبورغ حقيرة، وأخيراً، ألا تحتاجين شيئاً؟

بهرني عرضه تماماً، حتى أنني أخذت أبكي، ولا أعرف لماذا! اعتبر دموعي امتناناً، وقال لي أنه موقن دائماً بأنني فتاة طيبة حساسة ومتعلمة، وأنه أقدم على هذا الإجراء فقط بعد أن عرف كل التفاصيل عن سلوكي الحالي. وهنا استفسر عنك، وقال لأنه سمع بكل شيء، وأنك إنسان ذو سجايا نبيلة، وأنه، من جانبه، لا يريد أن يكون مديناً لك، وهل سترضيك خمسمائة روبل تعويضاً عن كل ما فعلته من أجلي؟ عندئذ أوضحت له أن ما فعلته لأجلي لا يمكن أن يعوّض بنقود، حينذاك قال: كل ذلك سفاسف، كل ذلك روايات رومانتيكية، وأنني ما أزال شابة، وأقرأ الشعر، وأن الروايات تدمر الفتيات الشابات، وأن الكتب لا تفعل غير أن تفسد الأخلاق، وأنه لا يطيق أي كتاب، ونصح بأن أبلغ مما بلغ من العمر، وعندئذ أتحدث عن الناس. وأضاف: «عندئذ ستعرفي الناس» وقال بعد ذلك بأن أفكر ملياً في اقتراحاته، إذ سيكون مصدر إزعاج كبير له، حين أتخذ هذه الخطوة المهمة دون تروٍّ، وأضاف أن عدم التروي والاندفاع يدمران الشباب غير المجرب، ولكن ما يرغب فيه رغبة بالغة هو أن يتلقى من جانبي دوراً إيجابياً وأخيراً، وفي الحالة المعاكسة سيضطر إلى الزواج في موسكو من ابنة تاجر،وقال: لأنني أقسمت على حرمان ابن لأخي المتبطل من الميراث. ووضع على طارة تطريزي عنوة خمسمائة روبل للحلويات على حد قوله. وقال أنني سأسمن في القرية وامتلئ كالفطيرة، وأنني سأكون معه كالجبنة على الزبدة، وأن له الآن مشاغل كثيرة جداً، وأنه كان يقضي النهار كله في رواح ومجيء، وأنه عرّج

Telegram: @Arab_Books

عليّ مسرعاً في الفسحة بين عمل وعمل. وهنا انصرف. وقد فكرت طويلاً، و لم أستقر في تفكيري على رأي، وتعذبت وأنا أفكر، يا صديقي، وأخيراً اهتديت إلى رأي. سأتزوجه، يا صديقي، ويجب أن أوافق على عرضه، فإذا كان هناك شخص يخلصني من عاري، ويعيد إليّ سمعتي النقية، وينجيني من البؤس والحرمان والشقاء في المستقبل، فإنه هو وحده. ماذا أنتظر من المستقبل وأي شيء آخر أطلبه من القدر؟ تقول فيدورا: لا يجوز أن أضيّع سعادتي هذه، وتقول: ما هي السعادة إذا كانت غيرها؟ وأنا، على أقل تقدير، لا أرى لي طريقاً آخر، يا صديقي الغالي. ماذا عليّ أن أفعل؟ أتلفت كل صحتي بالعمل وليس في مستطاعي أن أعمل باستمرار. هل أذهب لخدمة الناس؟ سأذبل من الوحشة، فضلاً عن ذلك لن أكون نافعة لأحد. أنا عليلة بطبيعتي، ولهذا سأكون دائماً عبئاً على أيدي الآخرين. وبالطبع لن أذهب الآن أيضاً إلى الجنة، ولكن ماذا علي أن أفعل، يا صديقي، ماذا عليّ أن أفعل؟ ماذا عليّ أن أختار؟

أنا لم أطلب منك نصائح. أردت أن أتَرَوَّى في الأمر لوحدي. والقرار الذي قرأته في رسالتي قبل حين هو قرار قاطع، وسأبلغه في الحال لبيكوف الذي يستحثني، من دون ذلك، لاتخاذ قرار نهائي. قال أن له أشغالاً لا تقبل الانتظار، وأنه يجب أن يسافر، وأنه لن يستطيع تأجيلها لأسباب تافهة. والله يعلم هل سأكون سعيدة ومصيري في سلطانه المقدس الخفي، ولكنني اتخذت قراري. يقال أن بيكوف إنسان طيب، وسيحترمني، ولربما سأحترمه أيضاً. فماذا ينتظر أكثر من مثل هذا الزواج؟

Telegram: @Arab_Books

أنــا أبلغك بكل شيء، يا مــاكار الكسييفتش. وأنــا واثقة من أنك تفهــم كل لوعتي. لا تصرفني عما نويته. فــإن جهودك ستذهب عبثاً. زن في قلبك كل ما دفعني إلى أن أقدم على هذا. لقد قلقت قلقاً شديداً في البدايــة، ولكننــي الآن أهــدأ. ولا أدري ما سيحــدث في مستقبل الأيام، فليكن ما يكون، كما يشاء الله...!

وصــل بيكوف. أترك الرسالة غير كاملــة. كنت أريد أن أقول لك أشياء كثيرة أخرى. بيكوف الآن هنا!

ف.د.

٢٣ أيلول.

العزيزة فارفارا الكسييفنا!

أسرع في الــرد عليك، يا أميمة، وأسرع لأعلن لــك يا أميمة، أنني ذاهــل. كل ذلك كأنه على غير ما ينبغي... بالأمس دفنّا غورشكوف. نعم، هكــذا، يا فارنكا، هكــذا. بيكوف تصرف تصرفــاً نبيلاً ولكن المسألة، كما ترين، يا روحي، أنك توافقين أيضاً. وفي كل شيء مشيئة الرب، بالطبــع، هكذا ويجب أن يكون هكــذا، بالتأكيد. وأقصد أن مشيئــة الرب يجب أن تكــون بالتأكيد في هذا الأمــر، وتدبير الخالق السماوي مبارك، بالطبع، ولا أحد يعرفه والمصائر أيضاً، نفس الشيء. وفيدورا تظهر تعاطفاً نحوك. وبالطبع ستكونين سعيدة الآن، يا أميمة، وستكونــين في كفاية، يا عزيزتي، يــا حمامتي، يا محبوبتي، يا ملاكي، ولكن فقط لــمَ هذه العجالة، يا فارنكا؟...

Telegram: @Arab_Books

نعم، أشغال... لدى السيد بيكوف أشغال، بالطبع لا يخلو إنسان من أشغال، وقد تكون عنده أيضاً.. رأيته حين كان يخرج منكم. إنه حسن الطلعة، رجل حسن الطلعة، بل وحسن الطلعة جداً. سوى أن كل ذلك ينقصه شيء ما، ليست المسألة تماماً كونه رجلاً حسن الطلعة. أنا الآن في غير أطواري.

ولكن كيف سنتبادل الرسائل الآن؟ وكيف يكون حالي حين سأبقى وحيداً؟ أنا، يا ملاكي، أوازن وأوازن طول الوقت، كما كتبت إليّ في رسالتك، أوازن في قلبي الأسباب هذه. انتهيت من استنساخ الصفحة العشرين، وخلال ذلك وقعت هذه الحوادث! ستسافرين، يا أميمة، لهذا يجب أن تقومي لك بمختلف المشتريات، أحذية من مختلف الأنواع، وأثواب، بالمناسبة أنا أعرف مخزناً في شارع غوروخوفيا. تذكرين أنني ذات مرة وصفته لك تماماً. ولكن لا! كيف هذا منك، يا أميمة! لا يجوز لك أن ترحلي الآن، مستحيل تماماً، مستحيل كلياً. لأنه يجب أن تقومي بمشتريات كثيرة، أن تكون لك عربة. ثم إن الطقس الآن رديء، انظري كيف ينسكب المطر، وكأنه من جردل، وهو مطر رطب، ثم... ثم ستشعرين بالبرد، يا ملاكي، سيشعر قلبك الحبيب بالبرد! أنت تخافين من هذا الرجل الغريب، ومع ذلك ترحلين. ولمن سأترك وحيداً؟ ثم هذه فيدورا تقول: إن سعادة كبيرة في انتظارك... ولكنها امرأة عنيفة، وتريد أن تدمرني. هل ستذهبين لقداس المساء اليوم، يا أميمة؟ كنت أذهب لرؤيتك. إنها لحقيقة، يا أميمة، لحقيقة تامة، أنك فتاة متعلمة، فاضلة، حساسة ولكن الأفضل أن يذهب ويتزوج ابنة التاجر! ما رأيك يا أميمة؟ الأفضل أن يتزوج ابنة التاجر! أما أنا، فحالما يهبط الغسق، سآتي لأقضي عندك ساعة، يا فارنكا، يا فتاتي. والغسق يهبط الآن مبكراً، وسأمر عليك. من

كل بـد سآتي إليـك لساعة من الوقت،اليوم، يا أميمـة. أنت الآن تنتظرين بيكوف، وحالما ينصرف...عندئذ انتظري قليلاً، يا أميمة، سآتي....

ماكار ديفوشكين

٢٧ أيلول

صديقي ماكار الكسييفتش!

قـال السيد بيكـوف: يجب أن يكون لـدي بالتأكيد، ثلاث دوزينات مـن الأثواب من القماش الهولنـدي. ولهذا يجب أن أجد في أقرب وقت ممكـن، خياطـات لصنع دوزينتين، بينمـا لدينا وقت قصير جـداً، والسيد بيكوف غاضب، ويقول: هذا الاهدام تقتضي هرجلة كثيرة للغاية. زفافنا سيكـون بعد خمسـة أيام، وسنرحـل في اليوم التالي بعد الزفـاف. السيد بيكـوف مستعجل، ويقـول: لا حاجة إلى تضييع الكثـير من الوقت على التوافـه. أضنتنـي المشاغل، فلا أكاد أقـف على قدمي مـن الإعياء. هناك قـدر هائل مـن المشاغل، ومـن الأفضل، في الحقيقة، لـو لم يكن شيء من هـذا قط. وفضلاً عن ذلـك عندنا نقص في المخرمـات والدنتلا الحريرية، ولهذا يجب شراء المزيد منها، لأن السيد بيكوف يقول: أنه لا يريد أن تبدو زوجته كالطباخة فيما عليها من ثياب، ويجب عليّ حتماً «أن أكسر أنوف زوجـات أصحاب الأطيان» كما يقول هـو. وعلى هذا أرجوك، يا ماكار الكسييفتش، أن تتوجه إلى مدام شيفون، في شارع غوروخوفيا، وتطلب إليهـا أولاً أن ترسل إلينا خياطات، وثانياً أن تتفضل وتأتي إلينا بنفسها. أنا اليوم مريضة. شقتنا الجديدة باردة جداً وتعمها فوضى رهيبة. وعمة السيد

Telegram: @Arab_Books

بيكـوف لا تـكاد تتنفس من الهرم. أخشى أن تمـوت قبل رحيلنا، ولكن السيـد بيكوف يقول: لا بأس. إنها ستفيق. في بيتنا فوضى رهيبة. والسيد بيكـوف لا يعيش معنـا، ولهذا فالخدم طوال الوقـت يخرجون إلى حيث لا يعلـم إلا الله. وأحيانـاً تبقى فيدورا وحدها في خدمتنـا. وخادم السيد بيكـوف الخاص، الذي يشرف على جميع الشؤون، متغيب منذ ثلاثة أيام وغـير معلوم أيـن. السيد بيكوف يزورنا كل صبـاح، وهو غاضب طوال الوقت، ويوم أمس ضرب المقيم على البيت، ولذلك كانت له مصاعب مع الشرطـة....ولم يكن لديّ مَن أبعثه بالرسائل إليك. فها أنا أرسلها بواسطة البريد.أها! كدت أنسى أهم شيء. قل لمدام شيفون أن تغير الدنتلا الحريرية من كل بد لتلائم تفصيلات يوم أمس، وأن تأتي بنفسها إليّ لتريني التشكيلة الجديدة. ثم أخبرها أيضاً بأنني غيرت فكري في مسألة الكنزة[٣١]، ويجب أن تطـرز بالكروش، كما أن حـروف العلامة على المناديل يجب أن تطرز بخيـوط التطريـز وليس بالخيـوط الاعتياديـة. انتبه: بخيـوط التطريز فلا تنسـى! أوه، هناك شيء آخر كـدت أنساه! أخبرها بحق الرب، بأن تخاط الأوراق على البلرين[٣٢] بشكل بـارز، والمحاليق والأشواك بالزخرفة. ثم تأطـير الياقة بالدنتلا أو الفلبـال[٣٣] العريضة. انقل لهـا ذلك، أرجوك، يا ماكار الكسييفتش.

صديقتك

ف.د

٣١. بلوزة خفيفة بدون أكمام. الناشر.

٣٢. لباس نسائي بشكل بلوزة بدون أكمام يلبس فوق فستان. الناشر.

٣٣.وردت بلفظتها الفرنسية، وتعني الهدب. الناشر

Telegram: @Arab_Books

ملاحظـة: أنا خجلى كثيراً من إرهاقـك في مهماتي طوال الوقت. وأمســ الأول أيضاً ركضت طيلة الصباح. ولكن ما في اليد من حيلة! ليس عندنا أي نظام في البيت، بينما أنا عليلة. فلا تزعل عليّ، يا ماكار الكسييفتش. أية وحشـة! آه، كيـف سيكون الأمر، يـا صديقي، يا عزيـزي، يا صاحبي الطيب ماكار الكسييفتش! أخشى حتى التطلع إلى مستقبلي. وأتوجس شراً وأعيش كأنني في هذيان حمى.

ملاحظـة: بحق الرب، يا صديقــي، لا تنسى شيئاً مما قلته لك الآن. أخشى دائماً أن تخطئ في شيء ما. فذكر بخيوط التطريز، لا بالخيوط الاعتيادية.

ف.د

٢٧ أيلول.

حضرة السيدة فارفارا الكسييفنا!

نفـذت كل مهماتك بدقة. وتقول مدام شيفون أنها نفسها فكرت في أن تطـرز بخيـوط التطريـز، فإن ذلـك أكثر اعتبـاراً أو غير ذلك، لســت أدري، لم أفهم الموضوع جيداً. ثـم أنك ذكرت الفالبال، وقد تحدثت عن الفالبال أيضـاً. سوى أنني، يا أميمة، نسيت ماذا قالت لي عــن الفالبال. أذكر فقط انها تحدثت كثيراً، فأية امرأة مزعجة هي! أي شيء آخر، بالمناسبة؟ ولكنها ستقص عليك كل شيء بنفسها. أنهكت تمامـاً، يا أميمة، بـل لم أذهب اليوم إلى الوظيفـة. ولكن من العبث أن تيأســي يا روحي. فأنا مستعد، في سبيـل راحتك أن أدور في المخازن

Telegram: @Arab_Books

كلهـا. أنت تكتبين أنك تخشين التطلـع إلى المستقبل، ولكنك اليوم، بعـد الساعة السادسة ستعرفين كل شـيء. ستأتي مدام شيفون بنفسها إليك. ولذلـك لا تيأسي وعليك أن تأملي، يا عزيـزة، وأعتقد أن كل شـيء سيكون على مـا يرام، بالضبط. هذا اللعـين، الفالبال، أوه، دار رأسـي من الفالبال، الفالبال هـذا! كنت أود أن أمرّ عليك، يا ملاكي، ومـن كل بد سأمر عليك، تقدمت من بابـك الخارجي مرتين. ولكن بيكـوف، أقصد، أريد أن أقول السيـد بيكوف حاد المزاج دائماً. فلم يحصل....يعني....هكذا، طيب!

ماكار ديفوشكين

٢٨ أيلول

حضرة السيد ماكار الكسييفتش!

بحـق الـرب أسـرع الآن، إلى الجوهراتي، وقل لـه: لا حاجة لأن يصنـع قرطين باللؤلـؤ وأحجار الزمرد. فإن السيـد بيكوف يقول أن ذلك ترف زائد، فاحش. وهو غاضب ويقول: من دون ذلك أضررنا بجيبه، وأننا ننهبه نهباً، ويوم أمس قال: لو كان يعرف مسبقاً، ويتوقع مثل هـذه النفقات، لما ارتبط بنـا. ويقول حالما يعقـد قراننا سنرحل، ولـن يكون هناك ضيوف، فلا تأملي في الرقص والدوران، وان وقت الأفـراح مـا زال بعيداً. هذا مـا يقوله! ولكن الرب يعلـم أنني لست بحاجة إلى هذا كله! بل السيد بيكوف نفسه أوصى على ذلك. وأنا لا أجرؤ حتى على الرد عليه بشيء، فهو حاد المزاج. ماذا سيحصل لي!

ف.د.

Telegram: @Arab_Books

٢٨ أيلول

عزيزتي فارفارا الكسييفنا!

أنــا، أقصد الجوهراتي يقول: طيــب. أردت أن أتحدث عن نفسي في البدايــة، فأقول وقعت مريضــاً، ولا أستطيع مغادرة الفراش. الآن، مثل هذا الوقت الشغّال المهم ألّمت بي نزلة برد لعنها الله! كما أحيطك علماً بأن سعادته، فوق مصائبي كلها، صار متشدداً، وقد غضب على أمليــان ايفانوفيتش كثيراً، وصاح عليــه، وفي آخر الفصل أنهك تماماً، المسكــين. وها أنا أحيطك علمــاً بكل ذلك. كما أردت أن أكتب لك شيئــاً آخر، ولكني أخشى أن أزعجك. ذلك لأنني، يا عزيزتي، رجل بليد، بسيط، أكتب ما يأتي على بالي، ولهذا ربما

ستجدين في كتابتي شيئاً غير مناسب ولكن لا بأس!

صديقك

ماكار ديفوشكين

٢٩ أيلول

فارفارا الكسييفنا، يا روحي!

رأيــت اليوم فيدورا، يا عزيزتي، تقول أنهم سيعقدون قرانك غداً، وبعد غد ستسافريــن، وأن السيد بيكوف يستأجر الخيول بالفعل. أما

Telegram: @Arab_Books

بخصوص سعادته، فقد أحطتك علماً يا أميمة. وشيء آخر. أنا دققت فاتـورات الحساب من مخـزن في شارع غوروخوفيـا، إنها مضبوطة، سـوى أنها غالية جـداً. ولكن لمـاذا يغضب عليك السيـد بيكوف؟ طيـب، أتمنى لك السعادة، يا أميمة! أنا مسرور، نعم، سأكون مسروراً إذا ستكونـين سعيدة. كان من الممكن أن آتـي إلى الكنيسة، يا أميمة، ولكننـي لا أستطيـع، أسفل ظهري يؤلمنـي. لا أزال أفكـر في مسألة الرسائـل، من سينقلها إلينـا الآن، يا أميمة؟ على فكـرة! كنت محسنة مع فيدورا، يـا روحي! قمت بعمل طيب، يـا صديقتي، ونِعم العمل الذي قمت بـه. عمل طيب! وعلى كل عمل طيب سيجازيك الرب. فالأعمال الطيبة لا تذهب سدى، والفضيلة دائماً مكللة بإكليل العدالة الربانيـة عاجلاً أو آجلاً. يا أميمة! وددت لـو أكتب لك كثيراً، أكتب لـك كل ساعة، كل دقيقة، طول الوقت! بقي كتاب واحد لك عندي هـو «قصص بيلكين»، ولكـن لا تأخذيه مني، يا أميمة، وأهديه لي، يا روحـي. ليس لأن لي رغبة شديـدة في قراءته. ولكـن، أنت تعرفين، سيأتي الشتاء عن قريب، وستكون الأمسيات طويلة، وسأشعر بالحزن، فأود لو أقرأ. سأنتقل يـا أميمة من شقتي، إلى شقتك القديمة، وأستأجر عند فيـدورا. أنا الآن لن أفارق هذه المـرأة الشريفة مهما يكن من أمر والكدودة في الوقت ذاته. فحصت يـوم أمس شقتك القديمة الفارغة فحصـاً دقيقاً. وجدت هناك طارة تطريزك وعليها التطريز بقيت على حالها، لم تمس، مركونة في ركن. وعاينت تطريزك. بقيت هناك خرق مختلفة. على إحدى رسائلي كنت قد بدأت تلفين الخيوط. وفي المنضدة الصغيرة عثرت علـى قصاصة من الورق. وقد كتـب عليها: «حضرة السيد مـاكار الكسييفيتش، فأنا مستعجلة «وهـذا فقط. والظاهر أن أحدهـم قطـع عليك الكتابة في أطـرف المواضـع. ووراء البرافان في

Telegram: @Arab_Books

الركـن يوجد سريرك.... يـا حمامتي!! والآن، وداعـاً، وداعاً؟ بحق الرب، ردي على رسالتي بشيء ما في أقرب وقت.

ماكار ديفوشكين

٣٠ أيلول

صديقي الغالي ماكار الكسييفتش!

تم كل شـيء! وقـع المقدور ولا أعرف أي شـيء سيكون، ولكنني قانعـة بمشيئة الرب. غداً سنسافـر. أودعك للمرة الأخيرة، يا صديقي الغالي، والمحسـن إليّ، يا روحي! تأس عليّ، وعش بهناءة، وتذكرني، وليسبغ الرب بركته عليك! سأتذكرك كثيراً في أفكاري، في صلواتي. إذن، لقد انتهى هذا العهد! لن أجلب الكثير من المسرة لحياتي الجديدة مـن ذكريات الماضي، ولذلـك ستكون ذكرياتي عنـك أغلى، لذلك ستكـون أنت أغلـى على قلبي، فأنت صديقـي الوحيد، أنت الوحيد الـذي أحببتني هنا. فقـد كنت أرى وأعرف طـوال الوقت كم كنت تحبنـي! فإن ابتسامـة واحدة مني كانت تجعلك سعيـداً، سطراً واحداً مـن رسالة لي، والآن يجب أن تسلو عنـي! كيف ستظل وحدك هنا! لمن ستترك هنا، يا صديقي الطيب، الغالي، الوحيد! أترك لك الكتاب، وطـارة التطريز، والرسالة المستهلّة، وعندمـا ستنظر إلى تلك السطور المكتوبة اقرأ بأفكارك بعدها كل ما يحلو لك أن تسمعه أو تقرأه مني، كل مـا كان مـن الممكن أن أكتبه لك الآن! تذكـر صاحبتك المسكينة فارنـكا، التي أحبتك بقـوة. كل رسائلك بقيـت في صوان بياضات

فيدورا، في الجارور الأعلى. أنت تكتب أنك مريض، أما السيد بيكوف فلن يسمح لي اليوم بالخروج إلى أي مكان. سأكتب لك، يا صديقي، أنا أعدك، ولكن الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يحصل. إذن، فنستودع الآن، وإلى الأبد، يا صديقي، ويا عزيزي، يا روحي، إلى الأبد! آه، ليتني الآن أعانقك! وداعاً، يا صديقي، وداعاً، وداعاً. عش بسعادة، وكن بصحة وعافية، سأدعو لك دائماً بالخير. آه، ما أحزنني، وما أوقر روحي كلها! السيد بيكوف يدعوني. محبتك إلى الأبد.

ف.د

ملاحظة: روحي طافحة، طافحة بالدموع...

الدموع تخنقني، تمزقني، ودعاً.

يا إلهي! كم أنا كئيبة!

تذكر، تذكر فارنكاك المسكينة!

يا أميمة، يا فارنكا، يا حمامتي، يا نفسيتي إنهم يرحلون بك، أنت تسافرين! آه لو انتزعوا قلبي من صدري أفضل من أن ينتزعوك مني! الآن كيف هذا منك! أنت تبكين ولكنك ترحلين؟! الآن تلقيت منك رسالة ملطخة كلها بالدموع. إذن، فأنت لا تريدين الرحيل، إذن.... فهم يأخذونك عنوة، إذن، فأنت تشفقين عليّ، إذن، فأنت تحبينني! ولكن مع من ستكونين الآن؟ هناك سيشعر قلبك الصغير بالحزن، والضيق، والبرودة. وستمتصه الوحشة، ويشطره الحزن. وستموتين هناك، وتوضعين في أرض رطبة، ولا أحد سيبكي عليك هناك! سيمضي السيد بيكوف وقته بصيد الأرانب....آه، يا أميمة، يا أميمة! على أي شيء أقدمت، وكيف أمكنك أن تتخذي مثل هذا القرار؟ ماذا فعلت،

Telegram: @Arab_Books

ماذا فعلت، ماذا فعلت بنفسك! سيسوقونك إلى القبر هناك، ويؤدون بــك إلى المــوت، يا ملاك. فأنت ضعيفة كالريشة، يــا أميمة! وأنا، أين كنــت؟ أين كنت أضع عيوني، أنا الأحمق! أرى طفلة تطيش. ورأسها الصغــير يدور! كان في الإمــكان أن أحدثها بصراحة، ولكن أنا رأسي الحمقى، لم يطرأ في ذهني شيء، و لم أر شيئاً، وكأنما أنا على حق، كأن الأمر لا يخصني، بل وركضت لأجلب الفالبال!.... كلا سأنهض، يا فارنــكا، ربما سأشفى في يوم غد، وأنهض من وقعتي..! سألقي نفسي تحــت العجلات، يا أميمة، ولن أدعــك ترحلين! ولكن لا، ما هذا في الواقع والحقيقة؟ بأي قانون يجري كل هذا؟ سأرحل معك، سأجري وراء مركبتك، إذا كنت لا تأخذينني، سأجري بكل قواي، حتى تطلع روحــي. ولكن هل تدرين إلى أين أنت ذاهبة، يا أميمة؟ ربما لا تعرفين ذلك، فاسأليني على الأقل! هناك سهب، يا روحي، سهب، وسهب أجــرد، مثــل راحة كفي أجــرد! هنــاك ستجدين ريفيــات لا شعور لهن، وريفيين جهــلاء، وسكارى. هناك الآن تساقطت الأوراق من الأشجــار، هناك مطــر، هناك برد. وأنت تذهبــين إلى هناك! طيب، السيــد بيكوف عنده ما يشغله هنــاك، سيكون مع الأرانب، وأنت؟ هــل تريدين أن تكوني زوجة صاحــب أطيان، يا أميمة؟ ولكن كيف هذا، يــا ملاكي الصغير! انظري إلى نفسك، هل أنت تشبهين زوجة صاحب أطيان؟.... ثم كيف يكون هذا، يا فارنكا؟! إلى من سأكتب رسائلــي، يا أميمة؟ أها! ضعي في تصورك، يا عزيزة، وقولي لنفسك إلى مــن سيوجــه رسائله هذا الرجل؟ ومن سيسمــى أميمة؟ على من سيطلــق هذا الاســم اللطيف؟ وأيــن سأجدك بعد هــذا، يا ملاكي؟ سأمــوت، يا فارنكا، سأموت قطعاً، لن يتحمــل قلبي هذا المصاب!

Telegram: @Arab_Books

لقـد أحببتك حب ضوء الرب، أحبك مثـل ابنتي، أحببت كل شيء فيك، يا أميمة، يا روحـي! ولأجلك وحدك عشت! كنت أعكف، وأستنسـخ الأوراق، وأسـير، وأتنزه، وأنقل على الـورق انطباعاتي على شكل رسائل ودية، كل ذلك لأنك كنت تعيشين هنا، يا أميمة، قبالتـي، وعلى مقربة مني. ربما كنت لا تعرفين بذلك، بينما كان كل شيء كما وصفت لك بالضبط! فاسمعي، يا أميمة، وحكّمي عقلك، يـا حمامتي العزيزة، كيف يمكن هذا، كيف يمكن أن ترحلي من هنا؟ يا روحي، لا يجوز لك أن ترحلي، غير ممكن، محض مستحيل! فالمطر يهطل، وأنـت ضعيفة وستصابين بالبرد. ستتبلـل عربتك، بالتأكيد. ستتكسر حالمـا ستخرج وراء بوابة المدينة، تنكسر عمداً. ذلك لأنهم هنا، في بطرسبورغ يصنعون هذه المركبات بشكل سيء! فأنا أعرف صنـاع المركبات هؤلاء جميعاً، إنهم مهرة فقط في صنع التوافه على الموضـة وليست متينة! أقسم على أنهـم لا يصنعونها بمتانة! سأركع، يـا أميمة، أمام السيد بيكوف على ركبتي، سأثبت له، سأثبت له كل شـيء! أما أنت، يا أميمة، فبرهنـي له، برهني له بالعقل! قولي له أنك ستبقين، وأنـك لا تستطيعين أن تسافـري!....آه، لماذا لم يسافر إلى موسكـو ليتزوج ابنـة تاجر؟ ليتزوجهـا هناك! ابنـة التاجر خير له، إنهـا تليق به أكثر بكثير. وأنـا أعرف لماذا! إذن، لأبقيتك عندي هنا، فمـا أنت وبيكـوف هذا؟ كيف أصبح عزيزاً عليـك فجأة؟ ربما لأنه يشـترى لك الفالبال، ربما لهذا السبب، ولكـن ما هذا الفالبال؟ و لمَ الفالبـال؟ إنـه تفاهة، يا أميمـة! الأمر يتعلق هنا بحيـاة إنسان، بينما الفالبـال خرقة، يا أميمة، إن الفالبال، يا عزيزة، خرقة حقيرة. طيب، سأشتري لك بنفسـي، حالما أقبض الراتب، سأشـتري لك الفالبال،

Telegram: @Arab_Books

سأشتريه لك فأنا أعرف صاحب مخزن أيضاً، أمهليني فقط حتى أقبض الراتب يا ملاكي الصغير، يا فارنكا! آه، يا ربي، يا ربي! يعني سترحلين بالتأكيد مع السيد بيكوف إلى السهب، ترحلين بلا عودة! آه، يا أميمة!....لا، اكتبي لي رسالة أخرى، اكتبي لي عن كل شيء، وعندما ترحلين، اكتبي إليّ من هناك أيضاً. وستكون هذه، يا ملاكي السماوي، الرسالة الأخيرة، ولكن لا يمكن أن تكون الرسالة الأخيرة. ثم كيف لو ستكون فجأة، وبالفعل، الرسالة الأخيرة! لا، قطعاً، سأكتب، وستكتبين أنت...ذلك لأن الأسلوب يتكون لديّ الآن...آه، يا روحي، ما يعني الأسلوب! لأنني الآن أيضاً لا أعرف ما أكتبه، لا أعرف البتة، لا أعرف شيئاً، ولا أعيد قراءة أي شيء، ولا أصحح الأسلوب، بل أكتب لمجرد الكتابة، لمجرد أن أستمر في الكتابة....يا حمامتي، يا روحي، يا أميمتي!

عام ١٨٤٦

Telegram: @Arab_Books

الليالي البيض
رواية رومانسية من ذكريات حالم

...............أم خلق لأن يكون بجوار قلبك

ولو للحظة واحدة؟....

إيفان تورغينيف

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

الليلة الأولى

كانت ليلة ساحرة، ليلة لا يمكن أن تكون إلا وأنت في عمر الشباب أيها القارئ الكريم. كانت السماء كثيرة النجوم، وضاءة جداً، حتى لتسأل نفسك، دون أن تدري، بعد أن تلقي نظرة إلى السماء: هل من المعقول أن في الإمكان أن يعيش تحت هذه السماء أناس من شتى الأمزجة المتقلبة والحادة؟

وهذا سؤال فتى أيضاً، جد فتى، أيها القارئ الكريم، جعله الله يخطر على بالك أكثر!...وبمناسبة الكلام عن السادة ذوي الأمزجة المتقلبة والحادة المتنوعة، لا يسعني إلا أن أتذكر سلوكي المستقيم طوال ذلك اليوم. منذ الصباح صارت تعذبني وحشة مدهشة. أحسست فجأة بأن الجميع يهجرونني لوحدي، والجميع يتحاشونني، ومن حق كل إنسان، بالطبع، أن يسأل: ماذا تعني بالجميع هؤلاء، ذلك لأنني أعيش في بطرسبورغ ثماني سنوات، ولم أستطع أن أعقد صحبة واحدة. ولكني ماذا تعنيني الصحبة؟ أنا، بدونها، أعرف بطرسبورغ كلها، ولهذا السبب بدا لي أن الجميع يهجرونني، حين استيقظت بطرسبورغ كلها، ورحلت فجأة إلى البيوت الريفية. وأحسست بالخوف من البقاء وحيداً، فرحت أطوف في المدينة ثلاثة أيام كاملة، في وحشة عميقة، ولا أعرف بالضبط ماذا يجري لنفسي. لم ألتق بوجه واحد من تلك الوجوه التي تعودت أن التقيها في نفس المكان

Telegram: @Arab_Books

والساعة المعينة طوال العام سواء أكنت أسير في شارع نيفسكي أو في الحديقة العامة، أو أتجول على شارع النهر. إنها لا تعرفني، بالطبع، ولكنني أعرفها. أعرفها معرفة قريبة، بل ودرست سحناتها تقريباً، أتسرى فيها، حين تكون مرحة، وتعلوني الكآبة، حين تكون جهماء. وكدت أعقد صداقة مع عجوز ألتقيه كل يوم من أيام الله، في ساعة معينة، في فونتانكا. سحنته ذات اعتبار، مستغرقة في التفكير، وطوال الوقت يهمس بينه وبين نفسه، ويلوح بذراعه اليسرى، بينما يضع في يده اليمنى عصا طويلة كثيرة العقد لها مقبض مذهب. حتى أنه لاحظني، بل ويتعاطف معي روحياً. وأنا واثق من أن الكآبة ستركبه حين لا أكون في تلك الساعة المعينة في ذلك المكان من فونتانكا. ولهذا السبب يكاد الواحد ينحني للآخر أحياناً، لاسيما حين نكون كلانا، في مزاج رائق. وقبل حين لم نلتق خلال يومين كاملين، والتقينا في اليوم الثالث، كدنا نرفع يدينا إلى قبعتينا، ولكننا فطنا في اللحظة المناسبة، فأنزلنا يدينا، اجتاز أحدنا الآخر بتعاطف. وأنا أعرف البيوت أيضاً. حين أسير كان كل بيت يبدو وكأنه يسير أمامي في الشارع وينظر إلي بعيون نوافذه كلها، ويكاد يقول: «مرحباً، كيف صحتك؟ أنا والحمد لله، في صحة جيدة، وسيضاف إليّ طابق آخر في شهر أيار» أو «كيف صحتك؟ أما أنا فسيجرون عليّ تصليحات غداً» أو «كدت أحترق، ولهذا كنت في هيئة مذعورة» إلى غير ذلك. ولديّ من بين هذه البيوت معشوقات، أقصد أصحاب مقربين. أحدها ينوي العلاج في هذا الصيف لدى معماري. وسأمر به كل يوم عمداً، حتى لا يعالجوه علاجاً سيئاً، حفظه الله!... ولكنني لن أنسى أبداً حكاية وقعت لبيت صغير بديع الصنع ذي لون وردي فاتح. كان بيتاً حجرياً صغيراً دأبت أن أنظر إليه بحفاوة كبيرة، وإلى جيرانه، حتى كان قلبي

Telegram: @Arab_Books

يبتهـج حير أمر به. وفجأة، في الأسبوع الماضي، نظرت إلى صديقي، وأنا أجتاز الشارع، وأسمع صيحته الشاكية: «إنهم يصبغونني باللون الأصفـر!» أوه أوغاد! متوحشون! لم يرأفـوا بشيء، لا بالأعمدة ولا بالأفاريـز، فاصفـر صديقي، وصـار بلون الكناريـة، وكادت تفيض صفراويتـي، بهذا الخصوص، ولحد الآن لا أقوى على مقابلة صديقي المسكين المشوّه الذين صبغوه بلون الإمبراطورية السماوية[٣٤].

وعلـى هذا النحـو، تفهم، أيهـا القارئ علـى أية صـورة أعرف بطرسبورغ كلها.

لقـد قلت من قبـل أن القلق ظل يعذبني أياماً ثلاثـة بكاملها إلى أن حدست علتـه. فقد أحسست بالضيق في الشارع (هذا غائب، وذاك غـير موجود، وذلك أين ذهب؟) كما أنني في البيت لم أكن في حالتي الطبيعيـة. جاهدت أمسيتين أن أعرف ماذا ينقصني في مسكني؟ لماذا أشعـر بالضيق من البقاء فيه؟ كنـت أعاين، في حيرة، الجدران الخضراء المسخمـة، والسقف المتدلى منه نسيج العنكبوت وقد أطلقت ماترونا لـه العنان ليشيع ثم عـدت أتفحص جميع أثاثـي، وأقلب كل كرسي مفكـراً مع نفسي: لعـل العلة في هذا؟ (فلو أن كرسيـاً واحداً لم يكن في وضعه يوم أمس، لخرجت عن أطواري) ونظرت في النافذة، وكل ذلك بدون سدى.... ولم يخفف ذلك من ضيقي قط! بل وارتأيت أن أستدعـي ماترونا، وأصدرت لها في التو واللحظـة توبيخاً أبوياً على نسيـج العنكبوت ذاك، وعلى إهمالها بشكل عام، إلا أنها اكتفت بأن نظـرت إلي نظـرة مندهشة، وانصرفت، دون أن تـرد بكلمة، وهكذا

٣٤. يقصد اللون الأصفر " الامبراطورية السماوية" وهو الاسم القديم للصين التي كان علمها الوطني حتى عام ١٩١٢ عبارة عن تنين على خلفية صفراء. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

بقـي نسيج العنكبوت متدلياً في مكانه بحالة جيدة. وأخيراً في صباح اليـوم فقط حدست حقيقـة الأمر. أها! إنهم يولـون عني إلى البيوت الريفيـة. وأرجـو المعذرة على هـذه الكلمة المبتذلـة، فلست في حال تسمح لي بانتقاء الكلمـات.... لأن كل ما كان في بطرسبورغ إما أنه انتقـل أو في سبيله إلى الانتقـال إلى البيوت الريفية، لأن كل سيد محترم ذي وجاهـة معتبرة استأجر حوذيا، وانقلـب في مخيلتي إلى رب عائلة يتوجـه، بعد أعمال الوظيفة اليوميـة، بدون أمتعة إلى رحم عائلته، إلى البيت الريفي، ولأن كل عابر سبيل اتخذ الآن لنفسه هيئة متميزة تماماً. وكأنما كان يقول بها لكل من يلتقي به: «لسنا الا عابرين هنا، يا سادة، وبعد ساعتين سنغادر إلى البيت الريفي». أما إذا انفتحت نافذة ونقرت عليهـا في البداية أصابع صغيرة رقيقة بيضاء كالسكر، وأطل رأس فتاة حلـوة لتنادي على بائع زهور متنقل، فقد كنت أتصور في الحال أنهم لا يشـترون الزهور للغاية المقصـودة، أي لا للاستمتاع مطلقاً بالربيع والزهور في الشقة الخانقة في المدينة، بل لأنهم سينتقلون قريباً جداً إلى البيـت الريفي، ويأخذون الزهور معهم. كمـا أنني أحرزت نجاحات في اكتشـافي الجديد الفريـد في نوعه تجعلني أعين، بـدون خطأ، أين يسكـن في الريـف هـذا أو ذاك من مجـرد هيئته. كان سـكان جزيرة كامني وجزيـرة ابتيكارسكي وطريق بطرغـوف[٣٥] يتميزون برشاقة الحـركات المعتنى بها، والبزات الصيفية الأنيقة والعربات الجميلة التي كانـوا يستقلونها في ذهابهم إلى المدينة. بينما كان سكان بارغولوف، والأبعد منها «يوحـون»، من النظـرة الأولى، بحصافتهم ورزانتهم،

---

٣٥. أحياء من ضواحي بطرسبورغ: كانت جزيرة ابتيكارسكي في ذلك الحين موقع البيوت الريفية خارج المدينة. أما جزيرة كامني وطريق بطرغوف فكانتا مصطافا لاستراحة علية القوم، بينما كان متوسطو الحال يصطافون في بارغولوف. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وكان قاصد جزيرة كريستوفسكي يتميز بمظهره المرح الرصين. وإذا صادفت موكباً طويلاً من عربات النقل يسير حوذيتها بالقرب منها بكسل وفي أيديهم الأعنة، والعربات موسقة بتلال كاملة من شتى الأثاث والمناضد والمقاعد والأرائك التركية وغير التركية وغيرها من الأمتعة البيتية، وقد جلست فوقها تماماً، طباخة عجفاء تحرص على متاع سيدتها حرصها على حدقة عينها وإذا رأيت في القوارب المثقلة باللوازم المنزلية، والمنزلقة على نهر النيفا أو فونتانكا، حتى نهر تشورنيا أو حتى الجزر وقد تضاعفت العربات والقوارب في عيني عشر مرات أو مائة مرة، فقد كنت أتصور، على أية حال، أن كل شيء قد نهض من مكانه وغادر، وكل شيء ينتقل بقوافل كاملة إلى البيوت الريفية، كنت أتصور أن بطرسبورغ كلها مهددة بالتحول إلى خواء، حتى أنني أحسست، أخيراً، بالخجل والتكدر والأسى، ولم يكن لي البيت الريفي الذي أذهب إليه، ولا السبب الذي يدعوني إلى ذلك، لم يكن ذاك البتة. كنت مستعداً لأن أرحل مع كل عربة، أن أغادر مع كل سيد ذي مظهر محترم استأجر عربة، ولكن، لم يدعني أحد البتة، وكأنما نسوني، كأنني، بالنسبة لهم، غريب في واقع الأمر والحال!

سرت طويلاً وكثيراً، فنسيت، بحكم عادتي، أين أنا، حتى وجدت نفسي فجأة قرب البوابة الخارجية للمدينة. وفي لمحة عين شاع المرح في أعطافي، فتمشيت وراء حاجز البوابة، وسرت بين الحقول والمروج اليانعة، ولم أكن أشعر بالتعب، ولكنني أحسست بكل مفاصلي وكأن وقرا يسقط عن روحي. كأن جميع السابلة ينظرون إلي بحفاوة، ويكادون ينحنون إلي بالتأكيد، كان الجميع مسرورين بشيء ما، والجميع قاطبة يدخنون السيغار. وكنت مسروراً أيضاً. بشكل لم

Telegram: @Arab_Books

يحـدث لي من قبل على الإطلاق. وكأنني وجـدت نفسي في إيطاليا بغتة. بهذا الشكل بهرتني الطبيعة، أنا ابن المدينة شبه المريض، الموشك على الاختناق في جدران المدينة.

ثمة شـيء مؤثر غير قابل للتوضيح في طبيعـة مدينتنا بطرسبورغ، حـين تبدي في مطلـع الربيع كل جبروتهـا، كل القوى التـي وهبتها السماء لها، تنتفش، تتبرج، تتحلى بالزهور...فتذكرني، على نحو ما، بفتاة هزيلة عليلة تنظر إليها أحياناً برثاء وأحياناً بحب متواشج، وأحياناً تسهو عنها لا غير، ولكنها فجأة، وللمحة واحدة، تغدو، وكأن ذلك محض مصادفة، رائعة الجمال بشكل مذهـل وغير قابل للتوضيح، أما أنـت، المبهور النشوان فتسأل نفسـك دون أن تدري: أية قوة جعلت عينيهـا الحزينتين الساهمتين تلمعان بهذا الألـق، وما الذي بعث الدم إلى وجنتيهـا الشاحبتين النحيفتين؟ وما الذي نثر هذه الصبغة العاطفية علـى قسمات الوجه الناعمة هذه؟ ولأي شـيء يتلع هذا الصدر بهذا الشـكل؟ وما الذي أعطى القوة والحيـاة والجمال لوجه الفتاة البائسة بهذه الصـورة المفاجئة، وجعله يتألق بهـذه الابتسامة، وينتعش بهذه الضحكة الناريـة المتلألئة؟ وتنظر فيما حولـك، وتبحث عن شخص مـا، وتحزر.... ولكن اللمحة تنقضـي، ولربما، في غد، تصادف ثانية النظرة الساهمة الذاهلة نفسها، كما من قبل، والوجه الشاحب نفسه، والخضـوع والترهـب نفسه في الحركات وحتـى الندم، بل وترى آثار وحشة مميتة ولوعة على الاندفاع الزائل....وستشعر بالأسف على أن الجمـال اللامح قد ذبل بهذه السرعـة إلى غير ما عودة، والتمع أمامك بهـذا الشكل الخادع العبثـي، ستشعر بالأسف علـى أنه لم يتسن لك الوقت حتى لأن تحبه...

Telegram: @Arab_Books

ومع ذلك فقد كانت ليلتي أفضل من نهاري! وهذا ما كان.

عدت أدراجي إلى المدينة في ساعة متأخرة جداً، وقد دقت الساعة العاشـرة، حين أخذت اقترب من شقتـي، كان طريقي يمتد عبر شارع علـى القناة لا يلتقي المرء فيه في تلـك الساعة بروح حية. الحقيقة أنني أسكن جزءاً نائياً من المدينة. كنت أسير وأغني، لأنني كنت دائماً أترنم بشـيء مع نفسي، إذا كنت سعيداً، مثـل أي إنسان سعيد آخر ليس له أصدقـاء ولا معـارف طيبون، وليس له من يشاطـره فرحه في لحظة الفرح. وفجأة وقعت لي مغامرة غير متوقعة البتة.

رأيـت في ناحية امرأة تقف متكئة علـى سياج القناة. كانت تسند كوعيهـا على شبكـة، وتنظر باهتمـام شديد، على ما يبـدو، إلى مياه القنـاة الكدرة. كانت ترتدي قبعة صفراء حلوة، ومعطفاً خفيفاً أسود غنجا. فكرت مـع نفسي «إنها فتاة، ولا بد أن تكون سوداء الشعر». يظهـر أنها لم تسمع وقع خطواتي، فلم تحرك ساكناً، حين مررت بها، وأنـا أحبس أنفاسي خافق الفؤاد. فكـرت مع نفسي: « غريب! يبدو أنهـا كانت مستغرقة في شيء ما بعمق». وفجأة توقفت كالمسمر على الأرض. بلغ سمعي نشيج مكتوم. أجـل! لم يخدعني سمعي. كانت الفتاة تبكي، وفي كل دقيقة كان نشيجها يشتد ويشتد. يا إلهي! انعصر قلبي. ومهما أكن متهيباً من النساء، فقد كانت لحظة!.....استدرت، واتجهـت نحوها، وكان مـن الممكن أن أقـول، بالتأكيد: « سيدتي! » لـو لم أكن أعرف أن هذا الخطاب تـردد ألف مرة في جميع الروايات الروسيـة عن المجتمـع الراقي. وهذا وحده هو الـذي أوقفني. وبينما كنـت أبحث عن كلمـة تقال، كانت الفتـاة قد أفاقت علـى نفسها، وتلفتت، وتيقظـت حواسها وأنزلت عينيهـا إلى الأسفل، ثم انسلت

Telegram: @Arab_Books

على شارع القناة مارة بي. سرت في أثرها على الفور، إلا أنها حدست ذلك، فانحرفت عن شارع القناة، وتحولت إلى شارع آخر، وسارت على الرصيف. لم أجرؤ على اجتياز الشارع. كان قلبي يخفق، كقلب طائر مصطاد. وفجأة أسعفني حادث عارض.

ظهر فجأة في الجانب المقابل من الرصيف، وعلى مسافة غير بعيدة من المرأة الغريبة، سيد في سترة فراك، سنه معتبرة، ولكن لا يصح أن توصف مشيته بأنها معتبرة. سار مترنحاً مستنداً على الحائط بحذر. وسارت الفتاة أيضاً كالسهم بعجلة وتخوف، مثلما تسير عموماً الفتيات اللواتي لا يريدن أن يرافقهن أحد إلى بيوتهن ليلاً، وبالطبع، ما كان من الممكن أن يلحقها السيد المترنح لو لم يسعفه قدري بوسائل مصطنعة. فإذا بصاحبي السيد ينقلع من مكانه، دون أن يقول لأحد شيئاً، وينطلق بكل قواه ليلحق بفتاتي الغريبة. وكانت هذه تسير كالريح، إلا أن السيد المترنح لاحقها ولحق بها، وصرخت الفتاة، وأنا... أحمد القدر الذي ألقى في يدي اليمنى، في تلك اللحظة، عصا رائعة معقدة. وبلمحة عين وجدت نفسي في ذلك الجانب من الرصيف، وبلمحة عين فهم السيد الدخيل واقع الحال وأخذ بعين الاعتبار ما جوبه به من حجة دامغة، فصمت، وتراجع، وحين كنا على مسافة بعيدة جداً عنه، عند ذاك فقط، احتج علي بتعابير قوية بما فيه الكفاية. إلا أن كلماته لم تكد تصل إلى مسامعنا.

قلت للفتاة الغريبة:

– أعطيني يدك، عندئذ لن يجرؤ على إزعاجنا.

أعطتني يدها بصمت، فكانت لا تزال مرتجفة من القلق والفزع.

Telegram: @Arab_Books

اه، أيهــا السيد الدخيل! كم دعوت لــك بالبركات في تلك اللحظة!.

ر مقتهــا خطفاً. كانت كثيرة الملاحة سوداء الشعر. لم يخطئني حدسي إذن. كانــت أهدابها السود مــا تزال تلمع بدموع الفــزع القريب أو المحنــة السالفة، لسـت أدري. إلا أن ابتسامــة كانت تومض، بالفعل، على شفتيها. رمقتني هي أيضاً خلسة، واحمرّت حمرة خفيفة، وظهر عليها الارتباك.

-انظــري ماذا حدث، فلماذا تحاشيتنــي؟ لو كنت معك لما حدث شيء....

-ولكنني لم أكن أعرفك، ظننت أنك أيضاً....

-هل تعرفينني الآن حقاً؟

-قليلاً. خذ، مثلاً، لماذا أنت ترتجف؟

– آه، حدست من الوهلة الأولى! – أجبت في نشوة الفرح أن فتاتي ذكية، وهذا لا ضير فيه أبداً، إذا توفر الجمال– نعم، لقد حدست، من الوهلة الأولى، الشخصــ المقابل. فأنا أتهيب مع النساء، بالضبط، ولا جدال في أن انفعالي لا يقل عن انفعالك قبل لحظة، حين أفزعك ذلك السيد....أنــا الآن في نفس الدرجة من الفــزع. كأني في حلم، بل أنا حتى في الحلم ما كنت لأتصور أنني سأتكلم مع امرأة يوماً ما.

-كيف؟ مع....قول؟؟

– نعم، إذا كانت يدي ترتجف، فذلك لأنني لم أضم قط كفا صغيرة حلوة، مثل كفك. لم أعد أعتاد النساء كلياً، أقصد، لم أعتدهن من قبل

Telegram: @Arab_Books

قط، فأنا وحيد... بل لا أعرف كيف أتحدث إليهن. وأنا الآن لا أعرف هل نطقت بحماقة أمامك؟ قولي لي صراحة.

وأنبهك إلى أنني لا أتكدر بسرعة....

– لا شـيء، لا شـيء، بالعكس. وإذا كنت تريـد أن أكون صريحة منـذ الآن، فسأقول لك أن النساء يـروق لهن مثل هذا التهيب، أما إذا أردت أن تعرف أكثر فإنه يروق لي أيضاً، ولا أبعدك عني حتى وصولي إلى البيت.

– أنـت تتصرفـين معـي – بـادرت إلى القـول متقطـع الأنفاس – بحيـث تجعلينني أتخلى عن التهيـب في الحال، وعندئـذٍ وداعاً لكل وسائلي!....

– وسائل؟ أية وسائل، ولماذا؟ عندئذٍ سيكون هذا مسلكاً سيئاً.

– أنـا مقصر، لن أفعل، زلة لسان. ولكن كيف تريدين ألا تكون في مثل هذه اللحظة رغبة....

– في أن تعجبني؟

– أوه، نعم، اعملي معروفاً، بحق الرب، واحكمي: من أنا! حتى الآن، وأنا في السادسة والعشرين، لم أر إنساناً قط. فكيف تريدينني أن أتحدث بشكل جيد، بمهارة، وكل كلمة بمكانها؟ سيلائمك الأمر أكثر، إذا كان كل شـيء صريحاً وعلى المكشوف... أنا لا أحسن الصمت، حين يتكلم قلبي في داخلي. والأمر سيان عندي... صدقيني إذا قلت لـك أنني لم ألتق بامرأة واحدة، أبـداً، أبداً! ولا صحبة واحدة! سوى

Telegram: @Arab_Books

انني أحلـم كل يوم بأنني سألتقي يوماً ما، في آخر الأمر، بشخص ما، آه، ليتك تعرفين كم مرة عشقت بهذه الطريقة!...

-ولكن كيف؟ من عشقت؟

- لا أحـد، بل المثال، تلك التي تـتراءى لي في منامي. أنا أخلق في الأحلام حكايات رومنسية كاملة. آه، أنت لا تعرفينني! حقاً لا حاجة إلى كتمـان أنني التقيت بامرأتين أو ثـلاث، ولكن أي نساء هُنَّ! إنهن النسـاء اللواتـي استأجر عندهن وهن... ولكـن سأضحكك وأخبرك انني في بعض المرات فكـرت في أن أبادر بالحديـث، وبدون كلفة، امـرأة أرستقراطيـة سائرة في الشـارع. إذا كانت لوحدهـا، بالطبع. اتكلـم طبعاً بتهيب واحـترام وعاطفة، كأن أقـول سأهلك لوحدي. فلا تطردينـي، أنا لا أملك وسيلـة أتعرف بها على امـرأة، بل أوحي لها بـأن واجبات المرأة تلزمهـا ألا ترفض ابتهالاً متهيبـاً لرجل تعيس مثلـي - وأقـول أخـيراً أن كل ما أطلبه لا يتعـدى أن تقول لي كلمتين وديتـين بتعاطف، ألا ترفضني من الخطوة الأولى، أن تصدق بكلامي، أن تصغـي إلى ما أقوله، أن تضحك منـي، إن شاءت، أن تبعث الأمل في نفسي، أن تقول لي كلمتين، كلمتين فقط، وبعد ذلك لا بأس حتى في أن لا نلتقي إلى الأبد!... ولكنك تضحكين..... بالمناسبة هذا هو الغرض من كلامي.

- لا تتكـدر. أنا أضحك لأنك نفسك عدو نفسك، ولو حاولت لنجحـت، ربما، ولـو كان الأمر في الشـارع، كلمـا كان أبسط كان أفضل... مـا من امرأة طيبة، إذا لم تكن بلهـاء فقط، أو متعكرة المزاج كثيراً في تلـك اللحظة، ستعرفك دون هاتـين الكلمتين، اللتين تبتهل

Telegram: @Arab_Books

إليها بهذا التهيب لتقولهما لك. ولكن ماذا أقول! لقد كانت تتصورك مجنونـاً طبعاً، فأنا كنـت أحكم على أساس تجاربـي. أنا نفسي أعرف كثيراً، كيف يعيش الناس في هذه الدنيا!

صرخت:

– أوه، شكراً لك. أنت لا تعرفين أية خدمة قدمت لي الآن!

– طيـب، طيب! ولكـن قل لي كيف عرفـت أنني المـرأة التي... حسنا... التـي اعتبرتهـا لائقة....بالعنايـة والصداقة....باختصـار، ليسـت تلك التي تستأجر عندهـا، على حد تعبيرك. لماذا عزمت على الاقتراب مني؟

– لمـاذا؟ لماذا؟ ولكنك كنت لوحـدك، وكان ذلك السيد جسوراً أكثر من اللازم، والدنيا ليل. لا بد أن تتفقي معي أن ذلك واجب...

– لا، لا أقصد عندئذ. بل قبل ذلك، حين كنت في الجانب الآخر. ألم ترد أن تقترب مني؟

– في الجانـب الآخر؟ أنا، في الحقيقـة، لا أعرف كيف أجيب، أنا أخشى...أتعرفين أنني كنت اليوم سعيداً، وكنت أسير وأغني، وكنت خارج المدينة، لم تحصل لي مثل هذه اللحظات السعيدة قط...

أنت...ربما بدا لي....أوه، اعذريني إذا ذكرت ذلك...بدا لي أنك كنت تبكين، و لم.... لم أستطع أنا سماع ذلك....انعصر قلبي...أوه، يا ربي! ولكن أما كان من الممكن حقاً أن أتحنن عليك؟ هل من المعقول أن التعاطف الأخوي إثم؟....اعذريني على قولي تعاطف....حسناً،

Telegram: @Arab_Books

بكلمة واحدة، هل من المعقول اقترابي اللاإرادي نحوك كان من الممكن أن يسيء إليك؟...

– دعك، كفى، لا تتكلم – قالت الفتاة مرتبكة، بعد أن ضغطت على يدي – أنا الملومة لأنني بدأت الحديث عن ذلك، ولكنني مسرورة لأنني لم أخطأ فيك....ها أنا الآن قد وصلت إلى البيت، في هذا الزقاق، على بعد خطوتين فقط....وداعاً، شكراً لك...

– ولكن، هل من المعقول، هل من المعقول أننا لا نلتقي بعد الآن؟ هل من المعقول أن تنتهي إلى هذا الحد؟

– انظر – قالت الفتاة ضاحكة – في البداية أردت كلمتين فقط، أما الآن....على العموم لا أستطيع أن أقول لك شيئاً....ربما سنلتقي...

قلت:

– سآتي غداً إلى هنا. أوه، اعذريني على صيغة الطلب.

– نعم، أنت نافذ الصبر... أنت تطلب تقريباً....

قاطعتها:

– اسمعي، اسمعي! اعذريني إذا قلت لك أيضاً شيئاً لا يليق...لا يسعني إلا أن أجيء إلى هنا غداً. أنا حالم، حياتي الواقعية ضئيلة جداً، حتى أنني أعتبر لحظات مثل هذه، مثل الآن، نادرة الوقوع، بحيث لا يسعني إلا أن أكرر هذه اللحظات في أحلامي. سأحلم بك طوال الليل، طوال الأسبوع، طوال العام. وسأجيء غداً إلى هنا بالتأكيد،

Telegram: @Arab_Books

سأجـيء إلى هنـا بالذات، إلى هـذا المكان، في هـذه الساعة بالذات، وسأكون سعيداً وأنا أتذكر ما حدث يوم أمس.

فقد أصبح هذا المكان قريباً إلى نفسي. عندي الآن، في بطرسبورغ مكانـان أو ثلاثة مثله. بـل وفي إحدى المرات بكيـت من الذكريات مثلك....فلربمـا كنـت، قبل عشر دقائـق، تبكين مـن الذكريات... اعذرينـي، شرد ذهني مرة أخرى. لعلـك كنت في وقت من الأوقات سعيدة هنا بشكل خاص....

قالت الفتاة:

- حسناً، أظنني سآتي إلى هنا، غداً، في الساعة العاشرة أيضاً. أرى أننـي لا أستطيـع الآن أن أمنعك....المسألة أننـي يجب أن أكون هنا. فـلا تتصـور أنني أعين لك موعـداً غرامياً. أنبهـك إلى أنني يجب أن أكون هنـا، لنفسي....ولكن أقول لك صراحـة: لا يهم لو تأتي أنت أيضـاً: أولاً لأن من الممكن أن تحصل منغصات، مثلما حصلت اليوم، ولكن هذا شيء جانبـي، باختصار، مجرد أنني أود أن أراك لأقول لك كلمتين. ألا تدينني الآن؟ لا تتصور أنني عينت لك موعداً غرامياً بهذه البساطة....ما كنت سأعين، لو....ولكن ليكن ذلك سري! علينا أن نتفق مسبقاً....

-لنتفق! تكلمي، خبريني، خبريني بكل شيء مسبقاً. أنا موافق على كل شـيء، مستعد لكل شيء- صحت في نشـوة الفرح - سأتكلف بنفسي، سأكون مطيعاً، محترماً....كما تعرفينني....

قالت الفتاة ضاحكة:

Telegram: @Arab_Books

– لهـذا السبب بالـذات لكوني أعرفك، أدعوك غـداً، أنا أعرفك تماماً. ولكـن يجب أن يكون مجيئك مقروناً بشـرط: أولاً (وأرجو أن تتلطف وتنفذ ما أطلبه إليك. فأنت تراني صريحة في كلامي) لا تقع في حبي... هذا لا يجوز، أؤكـد لك. أنا مستعدة للصداقة، ها هي يدي تمتد إليك. أما الحب، فلا يجوز...أتوسل إليك!

اختطفت يدها وصحت:

– أقسم لك.

– كفـى، لا تقسم. فأنا أعـرف أنك قابل للانفجـار كالبارود. لا تدني، إذا تكلمـت بهذا الشكل. آه، لو كنت تعرف....أنا أيضاً ليس لي أحـد يمكـن أن أبادله كلمـة، أو أسأله نصحاً. لا يعنـي هذا بالطبع البحـث عن نصحـاء في الشارع، ولكنك استثناء. أنـا أعرفك وكأننا صديقان منذ عشرين عاماً.

صحيحاً، ألا تخون؟

– سترين....ولكنني لا أعـرف كيف سأتحمل الانتظار، ولو ليوم واحد.

– نم نومـاً أعمق. ليلة سعيدة. وتذكر أنني قد أوليتك ثقتي. ولكن كيـف صحت قبل لحظة: هل مـن الممكن التحقق من كل شعور، ولو كان تعاطفـاً أخوياً على كل حال، لقد أجدت القول فيه، حتى عنّ لي في الحال أن أثق بك...

– بأي شيء من أجل الرب؟ ماذا وراءك؟

Telegram: @Arab_Books

– إلى غـد. ليكن ذلك سـراً الآن. ذلك أفضل لك. ولو كان يبدو، مـن بعيد، شبيهـاً بقصة عاطفية. ربمـا سأخبرك غـداً، أو ربما لا..... سأتحدث معك أولاً، ونتعرف على بعضنا أحسن....

– أوه، يمكنني في الغد أن أحدثك بكل شيء عن نفسي! ولكن أي شيء هذا؟ كأن معجزة تحدث لي.... أين أنا، يا ربي؟ ولكن قولي لي: هـل من المعقول أنك غير مرتاحة لأنك لم تبدي غضبك، مثلما فعلت أية امرأة أخرى، و لم تبعديني منذ البداية؟ ما هما إلا دقيقتان، وجعلتني سعيداً إلى الأبد. أجل! سعيداً، ربما لأنك صالحتني مع نفسي، وحللت شكوكي... ربما تحصل لي مثل هذه اللحظات...حسناً، سأحكي لك كل شيء في الغد، ستعرفين كل شي، كل شيء...

– حسناً، موافقة، وتبدأ أنت...

– وأنا موافق.

– إلى اللقاء!

– إلى اللقاء!

وافترقنـا. مشيت الليل كله، غير قـادر على أن أعزم أمري، وأعود إلى البيت. فقد كنت في غمرة السعادة...إلى الغد!

Telegram: @Arab_Books

الليلة الثانية

– ها أنت قد تحملت الانتظار!

قالت لي ضاحكة، وضغطت على كلتا يدي.

– أنا هنا منذ ساعتين. أنت لا تعرفين ماذا حدث لي طوال اليوم!

– أعرف، أعرف.....ولكن لندخل في الموضوع. هل تعرف لماذا أتيت؟ دعنا لا نثرثر عبثاً، كما في الأمس. والأمر كالآتي: يجب أن نتصرف بذكاء أكثر في المستقبل. لقد فكرت في كل ذلك ملياً يوم أمس.

– بأي شيء يتمثل الذكاء الأكثر؟ أنا، من ناحيتي، مستعد، ولكن، إذا أردت الحقيقة، لم يحدث لي في الحياة ما هو أكثر ذكاء مما هو الآن.

– حقيقة؟ أولاً أرجو ألا تعصر يدي بهذه القوة، ثانياً: أعلن لك انني اليوم فكرت فيك كثيراً.

–طيب، وإلى أي شيء توصلت؟

– إلى أي شيء توصلت؟ توصلت إلى أن كل شيء يجب أن يبدأ من جديد، لأنني انتهيت اليوم في الختام إلى أنك مجهول بالنسبة لي كلياً، وإلى أنني قد تصرفت البارحة تصرف طفلة، تصرف صبية، وطبيعي أن

Telegram: @Arab_Books

تكون النتيجة هي أن قلبي الطيب هو الملوم على كل شيء، أقصد أنني أطريت نفسي، وهذه هي النتيجة الدائمة حين نبدأ بالنفاذ إلى ما نقوم بـه. ومن أجل تصحيح الخطأ قررت أن أستفسر عنك بأدق التفاصيل. وبما أنني لا أجد أحداً أستفسره عنك، فقد توجب عليك أن تقص عليّ بنفسك كل أسرار حياتك الخفية. حسناً، أي شخص أنت؟ أسرع، ابدأ من الآن، أرو لي قصة حياتك كلها.

صرخت مذعوراً:

– قصــة حياتي؟ قصة حياتي؟ ولكن من قال لك أن لي قصة حياة؟ ليست لي قصة حياة.

قاطعتني ضاحكة:

– كيف كنت تعيش، إذا لم تكن لك قصة حياة؟

– بـدون أية قصص البتة! عشت أنا لذاتي، كما يقال عندنا، أقصد وحيداً تماماً، وحيداً، وحيداً كلياً. هل تفهمين ما معنى وحيد؟

– ولكن كيف وحيد؟ يعني لم تكن ترى أحداً قط؟

– بلى، كنت أرى إذا كانت المسألة مسألة رؤية. ومع ذلك وحيد.

– هل معقول أنك لم تكن تتحدث إلى أحد؟

– لا إلى أحد البتة، في المعنى الدقيق للكلمة.

– ولكـن من أنت، أوضـح لي! على مهلك، أنـا أخمن، أن لك،

Telegram: @Arab_Books

علـى الأرجح، جـدة، مثلما عندي. وهي عميـاء، ولا تتركني أذهب إلى أي مكان، العمر كله تقريباً، حتى كدت أنسى الكلام كلياً. وحين رحـت أشاكس قبـل عامين من الزمن، بشكل لا يكبـح، كما تتصور هـي، أخذت وربطتني وشدّت بالدبوس ثوبـي إلى ثوبها، ومنذ ذلك الحـين ونحن نقعد أياماً بطولها. تحوك هـي جورباً، رغم عماها، وأنا أجلس إلى جانبها أخيط أو أقرأ لها كتاباً بصوت مسموع. هذه العادة الغريبة، عامان وأنا مدبسة إليها....

–أوه، يا ربي، أية تعاسة هذه! ولكن ليست لي مثل هذه الجدة.

– وإذا كانت لا توجد، فلماذا تقعد في البيت؟

– اسمعي، هل تريدين أن تعرفي من أنا؟

– نعم، نعم، نعم!

– في المعنى الدقيق لهذه الكلمة؟

– في المعنى الدقيق جداً لهذه الكلمة!

– إذن، فاعلمي أنني نمط.

– نمـط، نمـط! أي نمط؟ – صاحـت الفتاة، وهـي تغرب بضحك شديـد، فكأنما لم يتوفر لها أن تضحك العام بطوله– أرى أن صحبتك مسليـة! انظـر، هناك مسطبـة، فلنجلـس! لا أحد يمر هنـا، ولا أحد يسمـع، فابدأ قصة حياتك! إذ لا يمكن أن تقنعني بأنك بلا قصة حياة. أنت تكتم لا غير. أولاً: ما هو النمط؟

Telegram: @Arab_Books

– النمـط؟ النمط هو طرفة، هو إنســان مضحك! – أجبت، وقد أغربت بالضحك أيضـاً مستدرجاً بضحكها الطفولي– أنه النموذج. اسمعي، هل تعرفين ما هو الحالم؟

– حـالم! بالطبع، وكيف لا؟ أنا نفســي حالمة! أحياناً اجلس قرب الجـدة، وتدخـل في رأسي أشياء مختلفة. فأبدأ بـأن أحلم، وأنسرح مع الخيال تمامـاً، حتى أتصور أنني سأتزوج أميراً صينياً.... أحياناً لطيف أن يحلـم الإنسان! ولكن لا، العلـم عند ربي! لا سيما إذا كان لك ما تفكر فيه، بدون الحاجة إلى ذلك.

استدركت الفتاة بجدية شديدة هذه المرة.

– رائع! ما دمت قد تزوجت مرة إمبراطور سماء صينياً، فلا بد أن تفهميني كليـاً. فاسمعي.....ولكن المعذرة، أنـا حتى الآن لا أعرف اسمك.

– أخيراً! تذكر مبكراً!

– آه، يـا إلهـي! لم يخطر مني حتى على بال. فقـد كنت هانئاً إلى درجة...

– اسمي ناستنكا.

– ناستنكا! وفقط؟

– فقط! لا يعقل أن يكون قليلاً عليك، أنت لا تشبع!

Telegram: @Arab_Books

– قليل؟ بل كثير على العكس، كثير، وكثير جداً. ناستنكا، يا للفتاة الطيبة أنت، لو صرت عندي تسمين بهذا الشكل، ناستنكا[٣٦].

– وليكن! هات!

– اسمعي، إذن، يا ناستنكا، قصة حياة مضحكة. جلست بالقرب منها، واتخذت وضع متحذلق جدي، وشرعت وكأنني أقرأ شيئاً مكتوباً:

– هنالك، يا ناستنكا، وإذا لم يكن لديك علم بذلك، زوايا في بطرسبورغ غريبة بما فيه الكفاية. في هذه الأماكن كأنما لا تطل الشمس التي تضيء لكل أهالي بطرسبورغ، ولكن تطل أخرى غيرها، جديدة، كأنما أوصيت خصيصاً لتلك الزوايا، وتنشر على كل شيء ضوءاً آخر خاصاً. في هذه الزوايا، يا ناستنكا الحلوة، توجد حياة تبدو مختلفة تماماً، لا تشبه الحياة التي تمور حولنا، حياة ربما قد تكون في مملكة وراء سبعة بحور، وليس عندنا، في زمننا الجدي الجاد. وهذه الحياة خليط من شيء خيالي صرف، مثالي ساخن (آه، ياناستنكا) على شيء كامد عمومي اعتيادي، إن لم نقل وضيع إلى حد غير معقول.

– أوف، يا ربي! أية مقدمة! ما هذا الذي أسمعه؟

– ستسمعين، يا ناستنكا (يبدو لي أنني لن أشبع أبداً من تسميتك ناستنكا) ستسمعين، في هذه الزوايا يعيش ناس غريبون – هم الحالمون. الحالم – إذا احتجنا إلى عريف مفصل له – ليس إنساناً، بل

٣٦. هذه الصيغة من الاسم الأول تعني الألفة والقرب. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

لعلمك، مخلوق غير مذكـر ولا مؤنث، جماد. غالباً ما يختار لسكناه زاوية حصينة، وكأنما يختفـي فيها حتى من ضوء النهار، وحين ينسل إلى مـأواه، ويلتصق بها كمـا يلتصق الحلزون في قوقعتـه، أو أنه على الأقـل، كثير الشبـه، من هذه الناحية، بذلك الحيـوان الممتع الذي هو عبارة عـن حيوان وبيت معـاً، والذي يسمى بالسلحفـاة. ما رأيك، لمـاذا يحب هـذا الحب جدرانـه الأربعـة المصبوغة باللـون الأخضر، بالتأكيـد، والملطخة، المقبضة المشبعة برائحة التبغ إلى حد غير مقبول؟ ولمـاذا، حين يزور هذا السيد المضحك أحد من معارفه القلائل (الأمر ينتهي بأن يتلاشى معارفه كلهم) لمـاذا يستقبله هذا الإنسان المضحك شديد الارتبـاك. متغير الوجه، وفي انقطاع من أمره، وكأنما فرغ لتوه مـن جريمة قام بهـا في جدرانه الأربعة، وكأنه زيـف أوراقا كاذبة، أو مقطوعـات شعريـة لإرسالها إلى مجلـة مع رسالة باسـم مستعار تقول أن الشاعـر صاحـب هذه المقطوعات قد تـوفي، وأن صديقه يعتبر من واجبه القدسي أن ينشـر مقرزماته؟ قولي لي، يا ناستنكا، لماذا لا ينعقد الحديـث بين هذين المتحدثين؟ لماذا لا تفلت ضحكة أو كلمة ذلقة من لسـان الصديق الذي دخل فجأة مهمومـاً، والذي كان، في حال غير هذه، يغرم كثيراً في الضحك والكلمة الذلقة، والأحاديث عن الجنس الجميل، ومواضيـع مرحة أخرى؟ وأخيراً، لمـاذا يرتبك هذا الصديق الحديـث العهد، علـى الأرجح، والـذي يقوم بزيارتـه الأولى – لأن زيـارة أخرى، في هذه الحال، لن تكـون، والصديق لن يأتي مرة ثانية – لمـاذا يرتبك الصديق نفسه هـذا الارتباك، ويتخشب هذا التخشب مـع كل ما لديه مـن سرعة البديهة (إذا كانت له حقـاً)، حين ينظر إلى سحنـة مستقبله المقلوبة، والمستقبل بدوره لحق كلياً أن يرتبك ويسقط في حـيرة تامة من أمره، بعد جهـود خارقة وغير مجدية في الوقت ذاته

Telegram: @Arab_Books

ليسلس الحديث ويزركشه، ويظهر معرفتـه بأمور الدنيا، من ناحيته، يتحـدث أيضاً عن الجنس الجميل، ويكسب ولو بمثـل هذا الخنوع، إعجاب الرجل المسكـين الذي أخطأ العنوان، وجاء ليزوره؟ وأخيراً، لمـاذا يختطف الضيف قبعتـه فجأة، وينصرف مسرعـاً، بعد أن يتذكر بغتـة أمراً هاماً للغاية، لم يكن له وجود قـط، ويحرر يده، بطريقة ما، مـن اضمامة المستقبل الحارة، الذي يحاول، بكل وسيلة، ليظهر ندمه ويصحح ما ضاع؟ ولماذا يضحك الصديق المنصرف، وهو يطلع خلف البـاب، ويعطي، في نفس الوقت، عهداً على نفسـه بأن لا يعود ثانية إلى هـذا الغريب الأطوار، رغم أن غريب الأطوار هذا، رقيق الحاشية، في جوهره بشكل رائع، وفي الوقت ذاته، لا يستطيع أن يرفض لخياله نـزوة صغيرة ويقارن، ولو بطريقة بعيدة، بين سحنة صديقه قبل حين. طوال وقت الزيارة، بهيئة ذلـك القطيط التعيس الذي أسره الأطفال، ومرغـوه، وأرعبوه، وجاروا عليه بكل وسيلـة، وأطاروا لبه، فانزوى عنهـم أخيراً تحت مقعد، في الظلام، واضطـر في خلوته هناك، ساعة كاملـة، إلى أن ينفش شعـره، ويحمحم، ويغسل بـوزه الصغير بكلتا يديه، ويظل وقتاً طويلاً بعد هذا ينظر بعداء إلى الطبيعة والحياة، وحتى إلى عطية من طعام سيده وفرتها له مديرة البيت المشفقة على عذاباته؟

– اسمـع! – قاطعتني ناستنكا التي كانـت، طوال الوقت، تصغي إليّ بدهشـة، وقد فتحت عينيها وفمها – اسمـع، أنا لا أعرف مطلقاً لمـاذا حصـل كل ذلك، ولمـاذا تطرح علـيّ، أنت بالـذات، مثل هذه الأسئلة المضحكة. ولكن ما أعرفه، بالضبط هو أن كل هذه المغامرات حصلت لك، بالتأكيد، كلمة بكلمة.

– بدون شك

Telegram: @Arab_Books

أجبت بسحنة جدية للغاية. فردت ناستنكا:

– استمر إذن، إذا كان بدون شك. لأنني أود كثيراً أن أعرف بم ينتهي هذا.

– أنت تريدين أن تعرفي، ياناستنكا، ماذا كان بطلنا يفعل في زاويته، أو الأصح، ماذا كنت أفعل أنا، لأن بطل القصة كلها، هو أنا، بشخصي المتواضع. أنت تريدين أن تعرفي، لماذا كنت مرتعباً بهذا الشكل، وذاهلاً طوال اليوم من زيارة الصديق غير المتوقعة؟ أنت تريدين أن تعرفي لماذا انتفضت واحمررت بذلك الشكل، حين انفتح باب غرفتي، ولماذا لم أحسن استقبال الضيف، فتدمرت بهذه الطريقة المخجلة نحن ثقل حسن ضيافتي؟

– نعم، نعم – أجابت ناستنكا – هذا هو الأمر. اسمع، أنت تروى بشكل جميل، ولكن ألا يجوز أن تروي بأبسط من هذا الشكل الجميل؟ وإلا فأنت تتحدث، وكأنك تقرأ في كتاب.

– ناستنكا! – أجبت بصوت جدي ذي اعتبار، وأنا لا أكاد أكتم ضحكتي – يا ناستنكا الحلوة، أنا أعرف أنني أروى بشكل جميل، ولكنني اعتذر، لأنني لا أستطيع أن أروى بغير هذه الطريقة. أنا الآن، ياناستنكا الحلوة، أنا الآن أشبه بجنى الملك سليمان الذي ظل حبيساً في القمقم ألف عام تحت سبعة أختام وأخيراً رفعت عنه هذه الأختام السبعة[٣٧]. الآن، يا ناستنكا الحلوة، حين التقينا ثانية بعد الفراق الطويل، وأنا أقول ذلك لأنني أعرفك منذ زمان،

---

٣٧. عن قصة من " ألف ليلة وليلة"، يقال فيها أن الجنى العنيد قد حبس في قمقم، وصب الرصاص عليه، وختم عليه الملك سليمان بختمه السحري، وألقاه في اليم. وبعد ألف وثمانمائة عام التقط صياد هذا القمقم مصادفة، وأطلقه من القمقم. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

يـا ناستنكا، لأنني كنت أبحث منـذ زمان عن شخص، وهذخ علامة على أنني كنت أبحث عنك، بالذات، وقد كتب علينا أن نلتقي الآن، آلاف الصمامـات فتحـت في رأسي الآن ويجـب أن أتدفق كنهر من الكلمـات، وإلا فسأختنق. وعلى هذا أرجو ألا تقاطعيني، ياناستنكا، وأصغي بخضوع وطاعة، والا فسأصمت.

– لا، لا، لا! مستحيل تحدث! لن أنطق بكلمة بعد الآن.

– أواصـل. توجد في يومي، يا صديقتـي ناستنكا، ساعة واحدة، أحبهـا بشكل استثنائي. وهي الساعة التـي تنتهي عندها كل الأعمال تقريباً، كل الوظائف والواجبات، ويسرع الجميع إلى بيوتهم ليتغدوا، ويستلقـوا لينالـوا قسطاً من الراحة، وفي الطريـق يخترعون المواضيع البهيجة الأخرى بشأن المساء والليل، وكل ما تبقى من أوقات الفراغ. وبطلنا أيضاً في هذه الساعة، واسمحي لي يا ناستنكا، أن أروى بضمير الغائب، لأنني سأشعر بخجل شديد، إذا رويت بضمير المتكلم، وبطلنا أيضاً، في هذه الساعة، وهو أيضاً ما كان بلا عمل، يسير وراء الآخرين. ألا ان شعوراً غريباً بالمتعة يتراقص على وجهه الشاحب المهروس بعض الشـيء، كما يلوح. أن ينظر، وليـس بدون اكتراث، إلى غسق المساء، المنطفـئ ببطء في سمـاء بطرسبورغ الباردة. وأنـا أكذب، حين أقول ينظـر، انه يقلب عينيه بسهوم، وكأنه متعـب، أو مشغول، في الوقت ذاتـه بشـيء ما، أكـثر إمتاعاً، فلا يفرد مـن الوقت لكل مـا حوله إلا خطفاً،وبـدون شعور منـه تقريباً. وهو مرتاح لأنـه أنهى، وإلى الغد، الأعمال المزعجة بالنسبة له، وفرح كتلميذ المدرسة، الذي أطلقوه من مقعـد الصـف إلى لعبتـه المفضلة وشقاواتـه. انظري إليـه من جنب، ياناستنـكا، تجـدي في الحال أن شعـور الفرح قد أثر تأثـيراً هانئاً على

Telegram: @Arab_Books

أعصابـه الضعيفة وخياله المستثار بشكل مرضـي. ها هو قد استغرق مفكراً في شيء ما....هل تظنين أنه فكر في غداء؟ في مساء اليوم؟ إلى مَ ينظـر هذه النظرة؟ إلى ذلك السيـد ذي المظهر الرصين الذي انحنى بشكل فاتن إلى سيدة مرّت به على عربة لامعة تجرها خيول متخطرة؟ لا، ياناستنكا، لا شأن له الآن بكل هذه الصغائر! إنه الآن غني بحياته الخاصة، كأنما أضحى غنياً فجأة، وبطريقة ما، فلا غرو، أن تألق أمامه بمثـل هذه البهجـة الشعاع الوداعـي للشمس الآفلـة، وأطلق من قلبه العامر بالدفء سرباً كاملاً من الانطباعات. الآن لا يكاد يلحظ الطريق الذي كانت أية صغيرة فيه يمكن أن تبهره. الآن نسجت «آلهة الخيال» (لو كنت قد قرأت جوكوفسكـي، ياناستنكا الحلوة) بيدها الفنطازية سـداة ذهبية، وجاءت تنشئ أمامه زخـارف حياة أعجوبة لا مثيل لها – ومـن يـدري فلربما حملته يدهـا الفنطازية من الرصيـف الجرانيتي الرائع الذي يسير عليه عائداً، وصعدت به إلى السماء السابعة البلورية. حاولي أن توقفيه الآن، وباغتيه بالسؤال: أين يقف الآن؟ وبأي شارع كان يسـير؟ أغلب الظن أنه لن يتذكر شيئاً، لا الشارع الذي كان يسير فيـه، ولا البقعـة التـي كان يقف عليهـا، وبعد أن يحمر مـن الضيق، سيقول كذبة بالتأكيد لإنقاذ الهيبة. ولهذا السبب جفل بشدة، وكادت تند منه صيحة، وتلفت فيما حوله مذعوراً، حين أوقفته عجوز محترمة وسط الرصيف، أوقفته باحترام، وأخذت تستفسر منه عن الطريق التي أضلتـه. ويواصل طريقه عابس الأسارير من الانزعاج، دون أن يفطن إلى أن غـير واحد من السابلة قد ابتسم، وهو ينظر إليه، وشيّعه بنظره، وأن فتاة صغيرة فسحت له الطريق مذعورة، وضحكت بصوت عال، وقد نظرت بكل عينيهـا إلى ابتسامته العريضة المتأملة، وإيماءات يديه. إلا أن هذا الخيال بعينه قد اختطف في تحليقه العابث العجوز، والسابلة

Telegram: @Arab_Books

الفضوليين، والفتاة الضاحكة، والرجال الذين كانوا يتعشون على مراكبهم الخشبية التي كانت تملأ الفونتانكا (ولنفرض أن بطلنا كان يمر بها في ذلك الوقت) وأوقع الجميع وكل شيء في شرنقته، مثلما تقع ذبابة في نسيج عنكبوت، وكان غريب الأطوار هذا قد دخل جحره اللطيف بهذا المكسب الجديد، وجلس إلى الغداء، وفرغ منه منذ وقت طويل، ولم يفق على نفسه إلا حين فرغت ماترونا الساهمة الحزينة أبداً، والتي كانت تخدمه فرغت من رفع الأواني عن المائدة كلياً، وقدمت له الغليون، أفاق على نفسه، وتذكر بدهشة أنه قد فرغ من غذائه كلياً، بعد أن سها عن ذلك كلياً. أظلم الجو في الحجرة، وفي روحه فراغ وحزن، وتحطمت حوله مملكة كاملة من الأحلام، تحطمت بلا أثر، ولا ضجة، ولا طقطقة، وغابت مثل حلم، بينما هو لا يتذكر ماذا تراءى له. إلا أن إحساساً غامضاً كان قد أخذ يزعجه قليلاً، وصدره يصعد ويهبط، ورغبة ما جديدة، تدغدغه بإغراء، وتستفز خياله، وتستجمع سربا كاملاً من الطيوف الجديدة. ويسود السكون في الحجرة الصغيرة، وتطلق الوحدة والكسل العنان للمخيلة فتلتهب قليلاً، وتغلي قليلاً مثل الماء في سخان ماترونا العجوز التي تروح وتجيء بهدوء بالقرب منه، في المطبخ، تحضر قهوتها المطبخية الرديئة. وها هي المخيلة تتفجر توهجات، وها هو كتاب أخذه بلا هدف وكيفما اتفق، يسقط من يدي صاحبي الحالم الذي لم يصل في قراءته حتى إلى الصفحة الثالثة. إن مخيلته قد شحذت من جديد، واستثيرت، ومرة أخرى يظهر عالم جديد، وحياة جديدة فاتنة تلمع في أفقه اللامع حلم جديد يعني سعادة جديدة! تناول جديد لسم رهيف حلو الطعم! أوه، ما شأنه في حياتنا الواقعية! إننا، حسب نظرته المأخوذة، نعيش بكثير من الكسل والبطء والذبول، ونحن، حسب نظرته، مستاؤون

Telegram: @Arab_Books

جداً من قدرنا، مرهقون جداً من حياتنا! ولكن، إذا أردت الحقيقة، يا ناستنـكا، ونظلرت إلى واقع الحال بدا لـك كل شيء بيننا، من الوهلة الأولى، بـارداً، جهمـاً، وكالغاضب...ويفكـر صاحبنـا الحـالم «مساكـين!». ولا غرابـة في تفكـيره هذا! أنظـري إلى هذه الطيوف السحريـة التي تتمثل أمامه بقدر كبـير من الفتنة والانفلات والتمادي والسعـة في لوحة سحريـة حيّة يظهر في مقدمتهـا، في الصدارة منها صاحبنـا الحالم نفسـه بشخصه الغـالي. انظري أية مغامـرات مختلفة الأنواع، وأي فيض لا نهاية له من الرؤى المضطربة. ولربما تسألين: بم يحلـم؟ ولا حاجـة لمثل هـذا السؤال! إنـه يحلم بـكل شيء...بدور الشاعـر، المغمـور في البدايـة، والمتـوج فيمـا بعـد، وبـأن يصادق هوفمـان[٣٨]، وبليلـة فارفولومـى[٣٩]، وبديانـا فيرنـون[٤٠] وبالدور البطـولي عنـد استيلاء ايفـان فاسيليفيتش على قـازان[٤١]، وبكلارا موفـبراى[٤٢]، وبايفـي دينـس[٤٣]، وبمجلـس المطارنـة حيـث مَثـل

---

٣٨. أرنست تاودور امادى هوفمان (١٧٧٦ – ١٨٢٢) – كاتب رومانسي ألماني، ومؤلف قصص خيالية. الناشر.

٣٩. ليلة ٢٤ آب (يوم القديس فارفولومي، حسب المذهب الكاثوليكي) من عام ١٥٧٢، حدثت في باريس مذبحة فظة واسعة قام بها الكاثوليكيون ضد الهوغونوت (البروتستانت) الناشر.

٤٠. بطلة رواية" روب روى" (١٨١٧) للكاتب الإنجليزي والتر سكوت (١٧٧١-١٨٣٢) في شخصيتها يمتزج الحالم بالبسالة والعزم. الناشر.

٤١. يقصد إيفان الرهيب، القيصر الروسي. الناشر.

٤٢. بطلة رواية والتر سكوت "مياه سانت رونان" (١٨٢٣). الناشر.

٤٣. ايفي دينس – الشخصية الرئيسية في رواية سكوت "سجن ادينبورغ" (١٨١٨). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

غوس[٤٤]، وبانتفاضة الموتى في روبـرت[٤٥] (هل تذكرين الموسيقى؟ هناك رائحة مقبرة!)، ومينا وبرندا، وبالمعركة عند بيرزينا[٤٦]، وبقراءة الأشعـار عنـد الكونتيسـة ف- ي-د-ي[٤٧]، وعـن دانتـون[٤٨] وبكليوباطرة *ei soui amanti*[٤٩]، وبالبيت الصغير في كولومنا[٥٠]، وبركنـه الخاص، وبالقرب منه مخلوق حبيب، يصغـي إليه، في المساء الشتائي فاغر الفم مفتوح العينين، كما تصغين أنت إليّ الآن، يا ملاكي الصغـير....لا، يا ناستنكا، ما شأنه، ما شـأن هذا الشهواني الكسول بهذه الحياة، التي نودها أنت وأنا بشغف؟ انه يظنها حياة بائسة حقيرة،

---

٤٤. يان غوس (١٣٦٩- ١٤١٥)- وطني تشيكي عظيم، ورئيس جامعة براغ، وشخصية بارزة في حركة الإصلاح، ومحفز الحركة الشعبية التي قامت ضد الكنيسة الكاثوليكية، والسيطرة الألمانية على تشيكيا. وقد أدانه مؤتمر رجال الدين في الكنستنتسا بالهرطقة وحكم عليه بالحرق في النار. الناشر.

٤٥. "روبرت- الشيطان" (١٨٢٤) - أوبرا لجاكومو ميربير (١٧٩١ - ١٨٦٤). الناشر.

٤٦. الرافد الأيمن لنهر الدنيبر. في تشرين الثاني ١٨١٢ تحطمت كلياً قوات نابليون بونابرت عند عبورها الرافد، بعد انسحابها من موسكو، وفيها كاد نابليون نفسه أن يؤسر (الحرب الوطنية عام ١٨١٢). الناشر.

٤٧. يقصد، في الظاهر، بكاترينا رومانوفنا فورونتسوفا - داشكوفا (١٧٤٣- ١٨١٠)، رئيسة أكاديمية العلوم والأكاديمية الروسية. الناشر.

٤٨. جورج جان دانتون (١٧٥٩-١٧٩٤) - أحد الرجال البارزين للثورة الفرنسية العظيمة عام ١٧٨٩. وقد اتهمه اتباع روبسبير بالتآمر على الثورة، وحكم بالإعدام من قبل محكمة الثورة. الناشر.

٤٩. وعشاقها (باللغة الايطالية). الناشر.

٥٠. المقصود هنا قصيدة بوشكين بهذا الاسم. وكل هذه القائمة من الأسماء والأحداث كانت غير مذكورة في الطبعة الأولى من "الليالي البيض" وقد أدخلها دستيويفسكي عند إعداد الطبعة الثانية عام ١٨٦٠. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

دون أن يحدس مسبقاً أن ساعة اليأس قد تحل له أيضاً، في وقت ما، حيث سيتخلى عن كل أعوامه التي قضاها في الخيال لقاء يوم واحد من هذه الحياة الزهيدة، ويتخلى عنها حتى لإلقاء سرور وسعادة لأنه لا يريد، أن يختار في ساعة الحزن والندم واليأس الشديد. ولكن هذا الوقت الرهيب لم يحل بعد، فهو لا يرغب في شيء، لأنه أعلى من الرغبات، لأن له كل شيء، ولأنه مكتف شبعان، ولأنه هو نفسه فنان حياته، يخلقها لنفسه كل ساعة وفق هواه الجديد. ذلك لأن هذا العالم الأسطوري الخيالي يخلق ببساطة كبيرة، وبلا تكلف! وكأن كل ذلك ليس طيفاً في واقع الأمر! حقاً إن الإنسان مستعد إلى التصديق في لحظة ما بأن هذه الحياة كلها ليست تأرث شعور، وليست سراباً، ولا خداع المخيلة، بل هي، في حقيقة الأمر، واقع حقيقي فعلي! فلماذا ياناستنكا، لماذا تضيق النفس في مثل هذه اللحظات؟ ولماذا يشتد النبض، وتطفر الدموع من عيني الحالم، ويلتهب خداه الشاحبان النديّان بسحر ما، بمشيئة مجهولة، ويملأ كيانه كله فرح لا يكبح؟ لماذا تمضي ليالي أرق كاملة، وكأنها لمحة، في بهجة وسعادة لا تنضب، وحين يلمع الفجر بشعاع وردي في النافذة، ويضيء الشروق الحجرة الجهماء بضوئه الخيالي المريب، كما عندنا في بطرسبورغ، يلقي صاحبنا الحالم نفسه على السرير منهوكاً مرهقاً، ويغفو في غيبوبة من شدة فرح روحه المريضة المصعوقة، وفي قلبه ألم معذب لذيذ؟ أجل يا ناستنكا، ستنخدعين، وتجدين نفسك تصدقين، رغم غرابة الشخص عليك، بان عاطفة حقيقية صادقة تقلق روحه، تجدين نفسك تصدقين أن هناك شيئاً حياً محسوساً في رؤاه الفارغة! إنه خداع على هذا الغرار. ها هو الحب، مثلاً، قد نزل إلى قلبه بكل الفرح الطاغي، بكل العذابات المضنية... ولكن حالما تنظرين إليه تتيقنين! هل ستصدقين، يا

Telegram: @Arab_Books

ناستنكا الحلـوة، وأنت تنظرين إليه، بأنه لم يكن يعرف حقاً تلك التي أحبهـا بقوة في حلمـع النشوان؟ هل مـن المعقول أنـه لم يرها إلا في الطيوف الغاوية، وعند ذلك فقـط حلم بهذه العاطفة؟ هل يعقل حقاً أنهمـا لم يقطعا عدة سنوات من عمرهمـا متلازمين يداً بيد، منفردين لوحدهما، وقد ألقيـا وراء ظهريهما العالم كله، وربط كل واحد منها عالمه، حياته بعالم الآخر وحياته؟ هل من المعقول أنها لم تكن تلك التي كانـت منطرحة على صدره منتحبة في حزن شديد في ساعة متأخرة، حـين حـل الفراق، غـير ملقية سمعـاً للعاصفة التي كانـت تعربد في السماء الكالحة، وللريح التي كانت تقطف الدموع من أهدابها السود، وتحملها بعيداً؟ هل من المعقول أن كل ذلك كان حلماً – وتلك الحديقة المقبضـة، الوحشية المهملة، بممراتها التي نمـا فيها الطحلب، المنعزلة، الجهماء، حيث كانا غالبا ما يتنزهـان، ويأملان، ويشوّقان، ويحبان، يحـب أحدهمـا الآخر وقتاً طويـلاً، «وقتاً طويلاً وبرقّـة[٥١]»! وهذا البيـت الغريـب، بيت الجد الأكـبر، الذي عاشت فيه فـترة من الزمن منعزلـة حزينـة مـع زوجهـا العجـوز العابـس، الصمـوت دائمـاً، والصفـراوي، الـذي كان يرعبهمـا، وهمـا المتخوفـان كالأطفال، المتكتمـان على حبهما بيأس وخـوف؟ وكم تعذبا، وخافا، وكم كان حبهمـا بريئـاً ونقيـاً، وكـم كان النـاس لؤمـا! (وهذا طبيعـي هنا، ياناستنـكا). ثم هل من المعقـول، يا إلهي، أنه لم يلتـق بها، فيما بعد، بعيداً عن سواحل وطنهما، تحت سماء غريبة، في الظهيرة القائظة، في المدينـة العريقة الخالدة، في لألاء حفلـة راقصة، وعاصفة الموسيقى في

---

٥١. اقتباس من شعرم ليرمنتوف (١٨١٤– ١٨٤١) " أحب أحدهما الآخر وقتاً طويلاً وبرقة...." (ترجمة بتصرف لشعر هايني (١٧٩٧–١٨٥٦). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

«بلاتسه[٥٢]» (في بلاتسه من كل بد) غارق في بحر من الأضواء، في تلك الشرفة المغطاة بالآس والورود، حيث عرفته، فأسرعت برفع قناعها، وهمست: «أنا حرة»، وأخذت ترتعش، وارتمت في أحضانه، وصاحا من شدة الفرح، وسارا،وأحدهما ينضغط على الآخر،وفي لحظة واحدة نسيا الفاجعة والفراق،وكل العذابات، والبيت الموحش، والعجوز،، والحديقة الكئيبة في الوطن البعيد، والمسطبة التي كانا جالسين عليها حين أفلتت، بقبلة هائمة أخيرة، من أحضانه المتخدرة في عذاب يائس...أوه، ياناستنكا، لا بد أن توافقي على أنك سترفرف، وترتبك، وتحمر، مثل تلميذ أخفى في جيبه

لتوه تفاحة سرقها من حديقة الجيران، حين يفتح باب حجرتك شاب طويل معافى ممراح فكه، هو صديق غير مدعو لك، ويهتف، وكأن شيئاً لم يحدث «أنا قادم من بافلوفسك منذ لحظة، يا أخ!». يا إلهي، إن الكونت العجوز قد توفي، وتهل سعادة يستحيل التعبير عنها بكلمات. وهنا يصل ناس من بافلوفسك!

وأغرق في صمت مؤثر، بعد أن فرغت من إطلاق هتافاتي المؤثرة. وأتذكر أن رغبة عارمة راودتني في أن أجبر نفسي على القهقهة، لأنني كنت أحس أن شيطاناً صغيراً معادياً يتململ في داخلي، وأنه قد أخذ، بالفعل، يمسك حنجرتي، ويهز ذقني، وأن عينيّ تتنديان أكثر فأكثر... انتظرت أن تطلق ناستنكا، التي كانت تصغي إليّ، وعيناها الذكيتان مفتوحتان. كل ضحكتها الطفولية المرحة، وندمت على أنني تماديت، وحكيت، على الفارغ، كل ما كان يفور في قلبي منذ زمان، وهو

٥٢.تعني القصر بالايطالية. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

مـا كنت قادراً علـى أن أتحدث عنه، نابعاً من نفسـي، ذلك لأنني قد أعددت لنفسي، ومنذ زمان، قرار حكم على نفسي، و لم أستطع الآن إلا أن أقرأه، وأعترف، غير منتظر أن يفهمني الناس. ولكنها صمتت، وسط دهشتي، وبعـد قليل ضغطت على يدي ضغطاً خفيفاً، وسألت بسعادة متهيبة:

– هل من المعقول أنك عشت حياتك كلها بهذا الشكل؟

أجبت:

– كل حياتـي، ياناستنـكا، كل حياتـي، وأظننـي سأختمها بهذا الشكل أيضاً!

قالت قلقة:

– لا، هـذا لا يجوز. هذا لـن يكون. إذن، سأقضـي حياتي كلها قـرب جدتي على ما أظن. اسمع، هل تعـرف أن العيش بهذا الشكل غير صائب على الإطلاق؟

– أعـرف، ياناستنـكا، أعـرف! – صرخت غير قـادر على كبت مشاعـري أكـثر – والآن بالـذات، أعـرف أكثر مـن أي وقت مضى أنني قـد أضعت عبثاً كل أحسـن سنوات حياتي الماضيـة! أنا أعرف ذلـك الآن، وإدراكي له يجعلني أحسـس بألم أكثر، لأن الله نفسه بعثك إليّ، يا ملاكي الطيـب، لتقولي لي ذلك، وتؤكديه. والآن حين أجلس قربك، وأتحدث معك، يرهبني حتى مجرد التفكير في المستقبل، لأن في المستقبل الوحدة مرة أخـرى، وتلك الحياة المنتنة العقيمة، وبأي شيء

Telegram: @Arab_Books

سأحلـم، مادمت سعيداً هذه السعادة، وأنا في يقظتي، بالقرب منك! أوه، بوركـت، أيتها الفتاة العزيزة، على أنـك لم ترفضيني منذ المقابلة الأولى، وعلى أنني، وهذا ما أستطيع أن أقوله منذ الآن، قد عشت على الأقل مساءين في حياتي!

- أوه، لا، لا! - صاحـت ناستنكا، والتمعت في عينيها دموع - لا، لن يكون هذا بعد الآن. لن نفترق بهذا الشكل! ما قيمة مساءين!

- أوه، ياناستنـكا، ناستنكا! هل تعرفين كيف صالحتني مع نفسي ولوقت طويل؟ هل تعرفين أنني لن أسيء الظن بنفسي كما كنت أفعل في لحظـات أخرى؟ هل تعرفين أنني، ربما، لن أتفجع، بعد الآن، على أنني ارتكبت جريمـة وإثماً في حياتي، لأن مثل هذه الحياة هي الجريمة وهـي الإثـم! ولا تظني بأنني ضخمـت لك شيئاً مـا، لا تفكري في ذلـك، ياناستنـكا، بحق الرب، لأن لحظات مـن الوحشة، والوحشة القاسيـة تتلبسنـي أحياناً...ولأننـي في تلك اللحظـات أتوهم بأنني لـن أكون مقتدراً قط علـى أن أبدأ حياة حقيقة، ولأنـه كان يبدو لي، بالفعـل، أنني قد فقدت كل لباقـة كل تحسس للحاضر، للواقع، لأنني وهـذا أخيراً، لعنت نفسي بنفسـي، لأنني، بعد ليـالي الخيالية، أشهد لحظات من الصحو مريعة! خلال ذلك أسمع رعد الحياة يهدر حولي، وحشـود الناس تـدور في دوامة حياتيـة، أسمـع وأرى كيف يعيش الناس، يعيشون اليقظـة وأرى الحياة غير محرمة عليهـم، وأن حياتهم لا تتبـدد كالحلم، كالرؤيا، إن حياتهم متجددة أبداً، فتية أبداً، لا تشبه ساعـة واحدة منها ساعـة أخرى، بينما الخيـال المرتعب مقبض جداً، ورتيـب إلى حد الابتـذال، عبد للظل، للفكرة، عبـد للسحابة الأولى التـي تحجـب الشمس فجأة، وتعصـر بالوحشة قلـب البطرسبورغي

Telegram: @Arab_Books

الحقيقـي الذي يعتز بشمسه كثيراً، وأي خيال، بعد إذن، في الوحشة! وأشعـر، أخيراً، بأنه يتعـب، ينضب في توتر دائم، هذا الخيال الذي لا ينضــب، أنني إنضج وأخرج على مثلـي السابقة، بينما تتهشم هي إلى غبار، إلى حطام، إذا لم تكن، ثمة حياة أخرى، فتضطر أن تبنى من هذا الحطام. وخلال ذلك تتمنى النفس هذا أو ذاك! وعبثاً ينبش الحالم في أحلامه القديمة، كما ينبش باحثاً، في هذا الرماد، عن أية شرارة صغيرة، لينفـخ فيها ويؤججها، ويدفئ في النـار المنبعثة قلبه المبترد، ويبعث فيه مـن جديد، كل ما كان، من قبـل، عزيزاً عليه، وأثيراً في نفسه وأغلت الـدم فيـه، وانتزعت الدموع من عيونـه، إلا أنه خدعـه هذه الخديعة الترفـة! هل تعرفين أننـي إلى مَ توصلت، ياناستنـكا؟ هل تعرفين أنني مجـبر على أن أحتفل بذكرى إحساساتي، ذكرى ما كان من قبل عزيزاً جداً، بينما لم يكن له وجود، في الحقيقة، لأن الاحتفال بهذه الذكرى يجري دائمـاً حسب تلك الأحلام البلهاء غير المجسـدة نفسها، وأنا أفعـل ذلك، مع أن هذه الأحـلام البلهاء نفسها لا وجود لها، لأنني لا أملك وسيلـة لأعايشها: ذلك لأن الأحلام أيضـاً تعايش. هل تعرفين أننـي الآن أحب أن أتذكـر وأزور، في مواعيد محـددة، الأماكن التي كنـت فيها سعيداً، في يوم ما، بطريقتـي الخاصة، وأحب الآن أن أبني حاضـري بالانسجام مع ماضيّ الذي لا عودة لـه، وغالباً ما أطوف، في خبايـا بطرسبـورغ وشوارعهـا، كالخيـال، بلا حاجـة ولا غاية، مغمومـاً محزوناً. وأية ذكريات هذه كلها! أتذكر، مثلاً، أنني كنت قبل عـام بالضبط، وبنفس الفصل، وبنفـس الساعة، أتجول هنا، على هذا الرصيف، وحيداً أيضاً مغموماً، كما أنا الآن! وأتذكر أن تلك الأحلام السالفة كانت حزينة، ورغم أن الحال، من قبل، لم تكن بالأحسن، إلا أننـي، على أية حال، أحس بأن العيش كان أيسر وأكثر هدوءاً، على ما

Telegram: @Arab_Books

يبـدو، و لم يكن، هناك وجود للفكرة السوداء التي تلح عليّ الآن، و لم تكن، هناك، تقريعات الضمير هذه، التقريعات الكئيبة، الجهمة، التي لا تتركنـي الآن بهدوء، لا نهار ولا ليـل. وأسال نفسي: أين أحلامك هـذه؟ وأهز رأسي، وأقول: ما أسرع انقضـاء السنين! ثم أسأل نفسي مرة أخرى: ماذا فعلت بسنواتك؟ وأين دفنت أفضل عمرك؟ هل كنت تعيشـ أم لا؟ وأقول لنفسي: انظر، كيف يبرد العا لم. وستنقضي سنون أخـرى، وبعدها تأتـي الوحدة الموحشة، وتأتـي الشيخوخة الراعشة مـع العكازة، ووراءها الوحشة والقنـوط. وسيشحب عالمك الخيالي، وتجمد أحلامك وتذبـل، وتتساقط كما تتساقـط الأوراق الصفر من الأشجـار....أوه، ناستنـكا! إذ من المحزن أن يظـل الإنسان وحيداً، كلياً، بل ولا يملك شيئاً يأسف عليه، لا شيء، لا شيء على الإطلاق... لأن كل ما أضاعه، كل ذلك، لم يكن إلا صفراً أصمّ لا قيمة له، لم يكن إلا حلماً!

– كفى! لا تثر شفقة في نفسي أكثر! – قالت ناستنكا، ماسحة دمعة صغيرة تدحرجت من عينها – انتهى الآن! سنكون الآن معاً، الآن لن نفـترق مهما يحدث لي من شيء! إسمع. أنا فتاة بسيطة، قليلة التعليم، رغـم أن جدتي استأجرت لي معلماً. ولكننـي، في الحقيقة، أفهمك، لأن كل مـا حكيتـه لي الآن قـد عانيتـه، بالفعل حـين ربطتني جدتي بثوبها. ولكن، بالطبع، لا أستطيع أن أرويه بالطريقة الجيدة التي رويته بهـا أنت. لست متعلمة – أضافت بتهيب، لأنها كانت ما تزال تشعر بالاحترام نحـو خطابي المتحذلق، وأسلوبي الرفيع– ولكنني مسرورة جـداً من أنك فتحت لي نفسك كلياً. والآن أنا أعرفك، أعرفك كلياً، أعـرف كل شيء. ولكـن أتعرف؟ أريد أن أحدثـك عن قصتي، كلها

Telegram: @Arab_Books

دون أن أخفي عنك شيئاً. وعليك أن تقدم لي النصح بعد ذلك. أنت إنسان ذكي جداً، فهل تعدني بأن تقدم النصح لي؟

- آه،ياناستنكا - أجبت - رغم أنني لم أكن نصيحاً أبداً، بله أن أكون نصيحاً ذكياً، إلا أنني الآن أرى أننا لو نعيش بهذا الشكل في المستقبل أيضاً، فإن ذلك سيكون في غاية الذكاء، وسيقدم أحدنا للآخر الكثير من النصائح الذكية! ولكن أية نصيحة أقدمها لك، ياناستنكاى الحلوة؟ قولي بصراحة، فأنا الآن مبتهج سعيد، جريء ذكي بحيث لا تتعذر عليّ أية كلمة.

- لا، لا، - قاطعتني ناستنكا، ضاحكة - لست بحاجة إلى النصح الذكي فقط، بل بحاجة إلى النصح المخلص الأخوي، وكأنك تحبني العمر بطوله!

-موافق، يا ناستنكا، موافق! - صحت من شدة الفرح- لو كنت أحبك منذ عشرين عاماً، لما أحببتك بقوة حبي الآن!

قالت ناستنكا:

- هات يدك!

- هذه هي!

أجبتها وقدمت لها يدي.

- إذن، لنبدأ قصتي!

Telegram: @Arab_Books

قصة ناستنكا

– أنت تعرف نصف قصتي الآن، أقصد أنت تعرف أن لي جدة عجوزاً....

قاطعتها ضاحكاً:

– وإذا كان النصف الثاني قصيراً كهذا....

– اسكت، واسمع. ليكن بيننا اتفاق، قبل كل شيء: لا تقاطعني، وإلا فسيتيه فكري، على ما أظن اسمع إذن وديعاً.

لي جدة عجوز، جئت لأعيش عندها، وأنا ما أزال صبية صغيرة جداً، لأن أمي وأبي توفيا. ويمكن أن أتصور أن جدتي كانت أغنى منها الآن، لأنها تذكر الآن أفضل الأيام. علمتني الكلام بالفرنسية، ثم استأجرت لي معلماً. وحين كنت في الخامسة عشرة (أنا الآن في السابعة عشرة) استغنينا عن المعلم. وفي هذه الفترة بالذات أخذت أعبث. وأنا لا أقول لك ماذا فعلت، يكفي أن أقول أن الفعلة لم تكن كبيرة. إلا أن جدتي استدعتني إلى غرفتها في صباح أحد الأيام، وقالت، بما أنها عمياء فليس في وسعها أن ترى ماذا أفعل، وتناولت دبوساً، وربطتني بثوبها، قائلة وسنبقى العمر كله في القعود، إذا لم أحسن سلوكي بالطبع. وباختصار لم يكن من الممكن الابتعاد عنها في الفترة الأولى. فكنت أشتغل، وأقرأ، وأدرس بالقرب من الجدة. حاولت التحايل ذات مرة وأقنعت فيكلا، خادمتنا الصماء، بأن

Telegram: @Arab_Books

تجلس في مكاني، فجلست، وكانت الجدة، في هذه الأثناء، نائمة على مقاعد، وخرجت لزيارة صديقة ليل غير بعيد عن البيت. ولكن العاقبة كانت سيئة. استيقظت جدتي في غيابي، وسألت عن شيء، وهي تظن أنني لا أزال قاعدة في مكاني ساكنة. ورأت فيكلا أن الجدة تسأل، ولكنها لا تسمع عمّ تسأل، وفكرت ماذا عليها أن تفعل، وفكرت، وفكّت الدبوس، وولت هاربة....

وفي هذه اللحظة توقفت ناستنكا، وأنشأت تضحك، فأخذت أضحك معها، فتوقفت في الحال.

- اسمع، لا تضحك من جدتي. أنا أضحك مما يضحك....ما العمل إذا كانت الجدة بهذا الشكل، في الواقع، ومع ذلك فأنا أحبها قليلاً. طيب، عندئذ لقيت جزائي. أقعدوني في مكاني حالاً، حتى تعذر عليّ حتى التململ.

أوه، نسيت أن أقول لك أيضاً أن لنا، أقصد لجدتي، بيتاً، أقصد بويتاً صغيراً، فيه ثلاثة شبابيك فقط، خشباً في خشب، هرماً مثل جدتي، في الأعلى طابق علوي. وقد انتقل إلينا نزيل جديد سكن الطابق العلوي.

فقلت على العابر:

- يعني كان نزيل آخر قبله؟

-بالطبع كان - أجابت ناستنكا - يحسن الصمت أفضل منك. حقاً ما كاد يدير لسانه. كان عجوزاً ضئيل الجسم، جاف العود، أبكم، أعمى، أعرج، حتى تعذر عليه، أخيراً أن يعيش في الدنيا،

Telegram: @Arab_Books

فمات، فاقتضـى أن نأخذ نزيلاً جديداً، لأننا لا نستطيع أن ندبر أمور العيش بدون نزيـل. فهو وتقاعد الجدة كل دخلنا تقريباً. وكان النزيل الجديـد، وكأنما عن عمد، شابـاً نازحاً، ليس من مدينتنا، وسمحت له جدتـي، لأنه لم يعاكس، وبعدها تسألني: «اسمعـي، ياناستنكا، هل نزيلنا شاب أم لا؟» لم أرد أن أكذب فأقول: «بين بين» ليس شاباً تماماً، وليس عجوزاً»، وتسأل الجدة «وهل هو حلو المظهر؟»

مرة أخرى لم أرد أن أكذب، فأقول «نعم، يا جدتي، حلو المظهر!» فتقـول جدتي «أوه، مصيبة، مصيبة! وأنا أقول لك ذلك، يا حفيدتي، حتى لا تتطلعي إليه. الحياة حياة! النزيل فتى، وحلو المظهر علاوة على ذلك ولسنا في قديم الزمان!»

وجدتـي تهوى قـديم الزمان في كل شيء! وفي قـديم الزمان حتى كانـت أصغر سنـاً، والشمس في قديم الزمان أكثر دفئاً، والقشدة في قـديم الزمان لا تحمض بمثل هـذه السرعة، كل شـيء في قديم الزمان! وأقعـد صامتة، وفي سري أفكر: ما هذا الذي تلقنه جدتي لي، وتسأل هل النزيل شاب وحلو؟ أفكر في ذلك في سري فقط، بينما بقيت أدرز العرى، وأحوك الجوارب، وفيما بعد نسيت ذلك كلياً.

وذات مرة، في الصباح، جاء إلينا النزيل، وسأل عن وعدنا بتغليف حجرتـه بورق الحائـط. وكلمة تجر كلمة وجدتي ثرثـارة، وتقول: «اذهبي،ياناستنكا، إلى غرفة نومي، واجلبي الحسابات». وبدلاً من أن أفك الدبوس، وانسل بهـدوء دون أن يرى النزيل، نططت في الحال، محمـرة لسبب لا أعرفه، وقـد نسيت أنني مربوطـة بدبوس، اندفعت بقوة جـرّت كرسي الجدة. ولما أدركـت أن النزيل قد عرف كل شيء عنـي الآن، تضرجـت بالحمرة، وتسمّرت في مـكاني، بل وانفجرت

Telegram: @Arab_Books

باكيـة، فقد أحسست بالخجل الشديد والمرارة في تلك اللحظة، حتى وددت أن أغيب عن الدنيا! وتصرخ جدتي: « لماذا أنت واقفة؟» فزاد ذلك نحيبي.... ولما رأى النزيل خجلي، استأذن بالانصراف، وخرج.

ومنـذ ذلك الحين مـا إن تصدر حركـة طفيفة في مدخـل البيت، حتى أجمـد كالميتة، أفكر في أن النزيل قـادم، وأفك الدبوس بهدوء، للتحـوط. إلا أنـه لم يكن القادم، طـوال الوقت لم يكـن القادم، ومرّ أسبوعـان. ويبلـغ النزيـل عن طريق فيـكلا بأن له الكثـير من الكتب الفرنسيـة. وأنهـا جيدة كلها، بحيث يمكن أن تقـرأ، أفلا تريد جدتي بـأن أقرأها لها دفعاً للضجر؟ وافقت جدتي مع الشكر، إلا أنها ظلت تسـأل طوال الوقـت أهي كتب مهذبـة أم لا، وإذا لم تكن كذلك فلا تجوز لك قراءتها ياناستنكا، فإنها تعلمك الدون.

– وماذا أتعلم، يا جدتي؟ أي شيء مكتوب فيها؟

– أهـا! – تقول الجـدة– مكتوب فيهـا كيف أن الشبـان يغوون الفتيـات الشريفات بحجة أنهم يريـدون أن يتزوجوهن، فيأخذونهن مـن بيوت آبائهن، وفيمـا بعد يتركون هؤلاء الأوانسـ التعيسات ليد القدر، فيهلكن هـلاكاً مزرياً للغاية. وتقول الجـدة: قرأت الكثير من هـذه الكتب، وكلها رائعة الوصف حتى أنك تقضين الليل كله قاعدة تقرئين فيها، وحاسبي، ياناستنكا لا تقرئي. فأية كتب أرسل؟

– كلها روايات والتر سكوت، يا جدتي.

– روايـات والتر سكـوت! ولكن أليس فيهـا مكائد؟ انظري هل وضع فيها رسالة غرامية؟

Telegram: @Arab_Books

فأقول: لا، يا جدتي، ليس فيها.

- ولكن انظري تحت التجليد، أحياناً هؤلاء المفسدون يحشرونها في كعب التجليد!...

- لا، يا جدتي، لا يوجد في كعب التجليد أيضاً.

- هيا، إذن!

وأخذنا نقرأ والترسكوت، وفي ظرف شهر قرأنا نصفها تقريباً. وبعد ذلك أرسل المزيد والمزيد من الكتب، وأرسل كتب بوشكين أيضاً، حتى أنني، في آخر الأمر، لم أعد قادرة على التخلص من الكتب وخلصت عن التفكير في الزواج من أمير صيني.

كان هذا أمري، حين التقيت ذات مرة، مصادفة، بنزيلنا على الدرج. وكانت جدتي قد أرسلتني في شأن من الشؤون. توقف النزيل، وشعرت بالحمرة تعلو وجهي، واحمر هو أيضاً، إلا أنه أخذ يضحك، وسلّم عليّ، وسأل عن صحة الجدة، وقال: «هل قرأت الكتب؟» أجبت «قرأتها». فيقول «وما الذي أعجبك أكثر؟» فأقول له: «أكثر ما أعجبني ايفانهو وبوشكين». في هذه المرة انتهى الأمر إلى هذا الحد.

وبعد أسبوع صادفته على الدرج مرة أخرى. في هذه المرة لم ترسلني الجدة، بل أنا نفسي كنت خارجة في شأن من شؤوني. كانت الساعة الثالثة، والنزيل يعود إلى البيت في هذا الوقت. ويقول: «مرحبا!» فأقول له: «مرحباً!».

Telegram: @Arab_Books

فيقول:

- ألا تضجرين من الجلوس اليوم كله مع الجدة؟ وما إن سألني هذا السؤال حتى شعرت بالدم يصعد إلى وجهي لسبب لا أعرفه، وخجلت من نفسي، وأحسست بالكدر مرة أخرى، والظاهر لأن الآخرين صاروا يسألون هذ السؤال أيضاً. أردت أن أمتنع عن الجواب، وانصرف، ولكن لم تكن لي القوة. ويقول النزيل:

- اسمعي. أنت فتاة طيبة! واعذريني على أنني أتكلم معك بهذا الشكل، ولكنني أؤكد لك أنني أرجو لك الخير أكثر من جدتك. أليست لك صويحبات يمكن أن تزوريهن؟

فأقول له ليست لي إلا واحدة، هي ماشنكا، وحتى هذه رحلت إلى بيسكوف.

فيقول: اسمعي! هل ترغبين في الذهاب معي إلى المسرح؟

- إلى المسرح؟ وجدتي؟

- انسلي منها بهدوء

- لا، لا أريد خداع جدتي. مع السلامة!

- طيب، مع السلامة!

يقول ذلك ولا يضيف شيئاً.

إلا أنه يأتي إلينا بعد الغداء. جلس وتحدث مع الجدة طويلاً، وراح

Telegram: @Arab_Books

يســأل هل هي تزور أحداً ما، وهل لها معــارف، وإذا به يقول فجأة: «اليوم حجزت مقصورة في الأوبرا إنهم يقدمون «حلاق اشبيلية[٥٣]». رغــب أصحابي في أن يشاهدوها، ولكنهــم تخلوا بعد ذلك، فبقيت عندي تذكرة زائدة».

- «حلاق اشبيليــة»!- صاحت الجدة - نفس ذلك الحلاق الذي كانوا يعرضونه في قديم الزمان؟

فيقول:

- نعم، نفس الحلاق.

ورمقنــي، وفهمت كل شيء، وعلتني حمــرة، وأخذ قلبي ينط من الانتظار!

- بالطبــع- تقــول جدتي- وكيــف لا أعرفه! أنــا نفسي في قديم الزمان مثّلت دور روزينا في مسرح بيتي.

قال النزيل:

- ألا ترغبــين في الذهــاب اليوم؟ عندي تذكــرة، حرام أن تذهب سدى.

-أظننــا سنذهب -تقول الجدة- و لم لا؟ ها هي ناستنكا لم تذهب إلى المسرح قط.

---

٥٣. كانت هذه الأوبرا للملحن الايطالي المعروف روسيني تتمتع بشهرة واسعة في روسيا آنذاك. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

يـا ربي، أيـة فرصة! وفي الحال تهيأنا، وتأنقنـا، وذهبنا. ورغم أن جدتي عمياء، إلا أنها كانت تحب سماع الموسيقى، على الأقل، وهي، فضلاً عن ذلـك، عجوز طيبة، أرادت أن ترفه عني، أكثر من أي شيء آخـر، وما كنـا لنذهب وحدنـا. ولا أقول أي انطبـاع تركه «حلاق اشبيلية»، سوى أن النزيل ظل طوال السهرة يرمقني بلطف، ويتحدث بلطف، حتى أنني أدركت في الحال أنه في الصباح كان يختبرني، حين عرض أن أذهب لوحدي معـه إلى المسرح. ولكن، مـا أشد فرحتي! آويـت لأنام فخـورة، مبتهجة، خفاقـة القلب، حتـى انتابتني حمى صغيرة، فكنت طوال الليل أهذي عن «حلاق اشبيليه».

ظننت أنه سيتردد علينا أكثر فأكثر، بعد هذا المساء. ولكنه لم يفعل. كـفّ عن المجيء كلياً تقريباً. صـار يأتي مرة في كل شهر، وهذه أيضاً ليدعونا إلى المسرح. وقد ذهبنا مرة أو مرتين فيما بعد. إلا أنني استأت لذلـك تماماً. أدركت أنـه يرثي لحالي لا غير، لأن الجـدة تعاملني هذه المعاملـة، ولا أكثر من ذلك. وكلمـا تقدم الوقت صارت تنتابني حالة لا أستطيـع فيها أن أقعد في مكاني، ولا أن أقرأ، ولا أن أعمل، وأحياناً أضحـك، وأفعل شيئاً لأناكد جدتي، وأحيانـاً أخرى مجرد أن أبكي. وأخـيراً نحفت، وكنت على شفا المرض. انتهى موسم الأوبرا، وكف النزيل عن زيارتنا، وكنا حين نلتقي - على الدرج نفسه، بالطبع - كان ينحنـي محيياً بصمت، وبجدية تامـة، وكأنه لا يرغب حتى في الكلام وأظل أنا واقفة، في منتصف الدرج، حتى بعد أن يتجاوزني إلى مدخل البيت تماماً، واحمرّ كالكرز، لأن دمي كله كان يصعد إلى رأسي، حين التقيه.

والآن هـذه هي النهاية. قبل عام بالتمام، في شهر أيار، يأتي النزيل

Telegram: @Arab_Books

إلينـا، ويقول للجـدة أنه فرغ من مشاغـل عمله هنا كليـاً، وعليه أن يسافـر إلى موسكو ثانية لمدة عام. ما كدت أسمع ذلك حتى أمتقعت، وسقطت علـى كرسي كالميتة. و لم تلحظ الجدة شيئاً، أما هو، فبعد أن أعلن أنه سيرحل عنا، انحنى لنا محيياً، وانصرف.

مـاذا علـيّ أن أفعل؟ فكـرت وأطلت التفكـير و تلوّعت وظللت أتلـوع، ولكنني عقدت أمري، أخيراً. غـداً يجب أن يرحل، فعزمت علـى أن أنهي كل شيء في المساء، حين تـأوي الجدة إلى فراشها لتنام. وهـذا ما حصـل. شددت في صرة كل ما أحتاجـه من ثياب وملابس داخليـة، وصعدت والصرة بيـدي، وأنا لا حية ولا ميتـة، إلى العلية، حيـث يقيم نزيلنا. أظـن أنني قضيت ساعة كاملـة في صعود الدرج. وحين فتحت عليه البـاب، ندت منه صيحة، وهو يبصر بي. ظن أنني شبـح، فهرع ليقـدم لي الماء، لأنني ما كدت أقـف على رجليّ. وكان قلبـي يدق دقاً يصدع رأسي، وكان فكري مشوشاً. وحين أفقت على نفسي، عمدت رأسـاً إلى وضع صرتي على فراشه، وجلست بالقرب منهـا، وحجبت وجهـي بيديّ، وأخـذت أبكي، والدمـوع سواق. والظاهـر أنه فهم كل شيء بلمحة واحدة، ووقف أمامي شاحباً، ينظر إليّ بحزن شديد حتى تمزق قلبي في صدري.

ابتدر يقول:

– اسمعـي، اسمعـي، يا ناستنـكا. أنا عاجز لا أستطيـع شيئاً، فأنا فقير، لا أملك شيئاً الآن، حتى المكان اللائق لا أملكه، فكيف سنعيش إذا تزوجتك؟

تحدثنا طويلاً، إلا أن نوبة من الجنون تملكتني فقلت أنني لا أستطيع

العيش مع جدتي، وأنني سأهرب منها، ولا أريد أن يربطني أحد بدبوس، وأنني ذاهبة معه إلى موسكو، أراد أم لم يرد، لأنني لا أستطيع العيش بدونه. تكلم فيّ الخجل والحب والكبرياء دفعة واحدة، وكدت أسقط على السرير مرتعصة. بهذا الشكل خشيت أن يرفض!

ظل بضع دقائق قاعداً في صمت، ثم نهض، ودناني، وأخذ يدي.

- اسمعي، يا فتاتي الطيبة، ناستنكا الحلوة!

- أنشأ يقول من خلال الدموع أيضاً - اسمعي، أقسم لك بأنني، إنْ أصبح في وقت ما، في حالة تسمح لي بالزواج، فإنك ستكونين سعادتي، بالتأكيد، وأؤكد لك الآن، إنك وحدك تستطيعين أن تهبيني السعادة. اسمعي. سأسافر إلى موسكو، وأمكث هناك عاماً كاملاً. وأنا آمل بأن أدبر أموري، وحين أعود، وأنت ما تزالين مقيمة على حبي، فسنسعد كلانا، وأقسم لك على ذلك. الآن غير ممكن، أنا لا أستطيع، وليس لي الحق في أن أعدك بشيء. ولكنني أكرر، إذا لم يتحقق هذا بعد عام، فسيتحقق في وقت ما، بالتأكيد، هذا إذا لم تفضلي أحداً عليّ، لأنني لا أستطيع ولا أجرؤ على أن أربطك بكلمة وعد.

هذا ما قاله لي، وفي الغد سافر. واتفقنا سوية على ألا نقول أي كلمة للجدة. وهذا ما أراده. وهذه خاتمة قصتي تقريباً. انقضى عام كامل. وقد وصل، وهو هنا منذ ثلاثة أيام وحتى....

-ماذا حتى؟

صحت، وأنا شغوف إلى سماع الخاتمة.

Telegram: @Arab_Books

– وحتى الآن لم يظهر! – ردّت ناستنكا، وكأنما تستجمع قواها– لا حس ولا نفس...

وتوقفت هنا، وصمتت قليلاً، وأطرقت رأسها، وفجأة، غطت وجهها بيديها، وأجهشت تبكي جهيشاً قطّع نياط قلبي في صدري.

لم أنتظر قط خاتمة كهذه.

– ناستنكا! – أنشأت أقول بصوت متهيب ملاطف – ناستنكا! لا تبكي، بحق الرب! كيف تعرفين؟ ربما لم يأت بعد...

– إنه هنا، هنا! – بادرت ناستنكا – إنه هنا، وأنا أعرف ذلك. كان بيننا شرط، منذ ذلك المساء، عشية سفره. وكنا قد قلنا كل ما رويته لك، وتعاهدنا، وخرجنا إلى هنا نتنزه، على شارع النهر هذا نفسه. كانت الساعة العاشرة، وقد جلسنا على هذه المسطبة. وكنت قد كففت عن البكاء، وكان يحلو لي أن أسمع ما كان يقول....قال إنني سأجيء إليك حال وصولي، وإذا لم أرفضه، فسنخبر الجدة بكل شيء...والآن وصل، وأنا أعرف ذلك، ولكنه لم يأت، لم يأتِ....

وفاضت دموعها من جديد..

– يا إلهي! أحقاً لا يمكن مساعدة إنسان في ساعة الشدة؟ – صحت، وقد وثبت من المسطبة في ذهول تام – قولي لي، يا ناستنكا، هل يجوز لي أن أذهب إليه؟...

– وهل هذا ممكن؟

قالت ذلك، وقد رفعت رأسها فجأة.

Telegram: @Arab_Books

– لا، بالطبـع، لا! – قلت مستدركاً فجـأة – ولكن....اكتبي له رسالة.

– لا، هذا غير ممكن، هذا مستحيل!

أجابت بحزم، ولكنها مطرقة الرأس، تغض الطرف عني.

– كيـف مستحيـل؟ لمـاذا مستحيـل؟ – تابعـت قـولي، متشبثـاً بفكرتـي– ولكني، لعلمك، يـا ناستنكا. الرسالة تنفـع! ورسالة عن رسالة تختلـف.....آه، يا ناستنكا. هكـذا! فصدقيني، صدقيني! لن أشـير لـك بنصيحة سيئة. كل شـيء يمكن تدبيره. لقـد بدأت الخطوة الأولى، فلمَ الآن....

– مستحيل، مستحيل! سأكون وكأنني أفرض عليه...

– آه، يـا فتاتي الطيبة ناستنـكا– قاطعتها غير مخف ابتسامتي– لا، قطعـاً، لا، فأنـت، في آخر الأمـر، محقة، لأنه وعدك. كمـا أنني أرى مـن كل شيء أنه إنسان مرهف، وأنـه تصرف تصرفاً حسناً، – تابعت كلامـي مأخوذاً أكثر فأكـثر بمنطقية استنتاجاتـي واقتناعاتي– وكيف تصـرف هو؟ ربط نفسه بوعد. فقال لن يتزوج واحدة غيرك، إذا كان يتـزوج، وتـرك لك الحرية الكاملـة في رفضه، ولـو الآن....في هذه الحـال يمكن أن تقومـي بالخطوة الأولى. إن لك الحـق، ولك الامتياز عليه، على الأقل لو أردت، مثلاً، أن تعفيه من الوعد الذي أعطاه....

– اسمع، فكيف لو كتبت؟

– ماذا؟

Telegram: @Arab_Books

– هذه الرسالة.

– إذن، لكتبت: «حضرة السيد....»

– أهذا ضروري تماماً حضرة السيد؟

– من كل بد. و لم لا، بالمناسبة؟ أعتقد....

– هيا، واصل! واصل!

– «حضرة السيد!

أرجو المعذرة، أنا....» لا، لا حاجة إلى أية معذرة! الحقيقة نفسها تبرر كل شيء، اكتبي رأساً:

«أكتب لك، واعذرني على نفاد الصبر، ولكنني كنت العام كله هانئة بالأمل، فهل أنا ملومة على أنني لم أستطع الآن تحمل حتى يوم الشك؟ ربما، وقد عدت الآن، قد غيّرت ما نويت عليه. وعندئذ ستقول لك هذه الرسالة أنني لا أتذمر ولا ألومك. لا ألومك على أنني لا أملك السيطرة على قلبك. ذلك هو القدر!

أنت إنسان نبيل. فلا تبتسم ولا تتضجر من سطوري الجزعة هذه، وتذكر أن كاتبتها فتاة مسكينة، وأنها وحيدة ليس عندها من يعلمها، ويسدي لها النصح، وأنها لم تكن في يوم ما تملك السيطرة على قلبها. وسامحني إذا كان الشك قد تسرب إلى روحي ولو للحظة واحدة. فأنت غير مقتدر على أن تكدر، ولو بالخيال، تلك الفتاة التي أحبتك ذلك الحب، وما تزال تحبك».

نعم، نعم، هذا بالضبط، ما فكرت به!- صاحت ناستنكا، ولمعت الفرحـة في عينيها - أوه، لقد بددت شكوكـي، الله نفسه بعثك إليّ! شكراً، شكراً لك!

- على أي شيء؟ على أن الله بعثني؟

أجبت، وأنا أنظر نشوان إلى وجهها الفرح.

- نعم، على هذا على الأقل.

- آه، يـا ناستنكا! يتعين علينا أحياناً أن نشكر الآخرين على أنهم، علـى الأقل، يعيشون معنا. وأنا أشكرك علـى أنك التقيت بي، وعلى أنني سأظل العمر كله أتذكرك!

- طيب، كفاية، كفاية! والآن اسمع ما أقول لك. في حينها اتفقنا علـى شرط، وهو أن يُعلمنـي حالما يصل، وأن يترك لي رسالة في مكان عند معارف لي، هم أناس طيبون بسطاء لا يعرفون شيئاً عن هذا، وإذا تعـذر عليه أن يكتب رسالة لي، لأن الإنسـان لا يستطيع أن يقول كل شـيء في رسالة، فإنه سيكون هنا، في يوم وصوله، في الساعة العاشرة تمامـاً، حيث اتفقنا على أن نلتقي. وقد علمـت بوصوله الآن، ولكن هـذا هو اليوم الثالث، ولا هو ولا الرسالة. وأنا لا أستطيع الابتعاد عن جدتـي في الصبـاح أبداً. فخذ رسالتي في غـد إلى نفس أولئك الناس الطيبـين الذين أخبرتك عنهم، فإنهم سيرسلون هذه الرسالة بأنفسهم، وحين يكون جواب، اجلبه أنت بنفسك في الساعة العاشرة مساء.

- ولكن الرسالـة! يجب أن تكتبي الرسالة أولاً. لن تكون جاهزة إلا بعد غد.

Telegram: @Arab_Books

– الرسالة...أجابـت ناستنكا، وتلجلجت قليـلاً – الرسالة..... لكن.....

ولكنها لم تتم كلامها. أشاحت وجهها عني في البداية، واحمرّت، كوردة، وفجأة تحسست رسالة في يدي، كانت، على ما يبدو، مكتوبة منذ زمـان، وفي أتم هيئـة، ومختومة. وطافت في رأسـي ذكرى عذبة ظريفة. فأخذت أترنم:

– رو....رو، زي – زي، نا – نا [٥٤].

– روزينـا– أنشدنـا سويـة، وكـدت أعانقهـا من شـدة الفرح، فاحمرّت أشد ما تستطيع من الاحمرار، وضحكت من خلل الدموع التي كانت ترتعش على رموشها كاللآلئ.

– طيب، كفاية، كفاية! وداعاً الآن! – قالت سريعة الكلام – هذه هـي الرسالة، وهذا العنـوان الذي يجب أن تأخذهـا إليه. وداعاً! إلى اللقاء! إلى الغد!

وشـدّت علـى يدي كلتيهمـا بقوة، وهـزّت رأسهـا، وانطلقت، كالسهم، إلى زقاقها. وقفت في مكاني وقتاً طويلاً أشيعها بعينيّ.

«إلى الغد! إلى الغد!».

نطقت في شري، حين غابت عن عيني.

---

٥٤. استشهاد من مشهد فكه لروزينا و فيغارو (الفصل الثاني من أوبرا "حلاق أشبيليه "لروسيني) وفيه ينصح فيغارو روزينا بأن تكتب رسالة لعشيقها، ولكن هذه تسلمه رسالة معدة من قبل إلى الكونت المافيفا. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

الليلة الثالثة

كان اليـوم كئيباً ممطراً يبدو بـلا نهاية، كأنـه شيخوختي القادمة. وتضايقنـي أفكار غريبة، أحاسيس غامضة، تتزاحم في رأسي أسئلة ما تـزال غير واضحـة لي، وليست لي القوة ولا الرغبـة في حلها. لست مكلفاً بحل كل هذا!

اليـوم لا نلتقي. وبالأمس، حين تودعنـا، كانت السحب تحجب السماء، والضباب يتصاعد. وقلت: غداً سيكون يوماً سيئاً، و لم تجب، لم تـرد أن تتكلم ضد نفسها، فهذا اليوم، بالنسبة لها، وضاء وصاف، وما من سحابة تحجب سعادتها.

قالت:

– لا نلتقي، إذا نزل المطر! أنا لا أجيء!

وأظن أنها لم تلحظ مطر اليوم، ولكنها لم تأت.

البارحة كان لقاءنا الثالث، ليلتنا البيضاء الثالثة....

ومع ذلك فعجيـب كيف يجعل الفرح والسعـادة الإنسان رائعاً! كيـف يضطرم القلب بالحب! فيخيل إليـك أنك تود أن تبوح بمكنون قلبك لقلـب آخر، وتود أن يصير كل شيء بهيجاً، كل شيء ضاحكاً. وكم معدِ هذا الفرح! وكم كان في كلماتها البارحة من هناءة،

Telegram: @Arab_Books

مـن طيبة قلـب نحوي....وكم غازلتنـي، وتلاطفت معي، وكم شجعتنـي، ورققت قلبي! أوه، كم في السعـادة من غنج! وأنا.....أنا كنت آخذ كل ذلك مأخذ الجد، فتصورت أنها....

ولكن، لي الله، كيف أمكنني أن أتصور هذا؟ كيف أمكن أن أكون بمثـل هذا العمى، حين أرى كل شيء قد تحـوّل للآخر، كل شيء ليس لي، وأخيراً، حتى رقتهـا، عنايتها، حبها،....نعم،، حتى حبها لي، لم يكن إلا فرحة باللقاء العاجل بالشخص الآخر، والرغبة في أن تشملني أيضاً، بسعادتها....وحين لم يأتِ، حين ذهب انتظارنا هباء، تجهمت، وتهيبـت، وجبُنت. وفقدت كل حركاتها، كل كلماتها بعض خفتها، وغنجها، ومرحها. والغريب في الأمر أنها ضاعفت عنايتها بي، وكأنما تريـد، غريزياً، أن تفيض علـيّ ما تريده هي لنفسهـا، وتخاف عليه، إذا لم يتحقـق. ان صاحبتـي ناستنكا تحجبت كثـيراً، وارتعبت كثيراً، حتـى ليبدو لي أنها أدركت، أخيراً، أننـي أحبها، وأشفقت على حبي المسكين. ذلك، لأننا، حين نكون تعساء، نشعر أكثر بتعاسة الآخرين، فالعاطفة لا تتهشم، بل تتركز.

جئـت إليها بقلب ممتلئ، لا أكاد اصطبر حتـى يحل موعد اللقاء. لم أتوجس ما سـوف أحسه الآن، لم أتوجس أن كل ذلك لن ينتهي النهايـة المرجوة. كانت تتألق فرحاً، كانـت تنتظر الجواب. وكان هو نفسـه الجواب. كان يجـب أن يأتي هارعاً إلى ندائهـا. وصلت قبلي بساعـة كاملة. في البداية كانـت تضحك لكل شيء، لكل كلمة مني، بدأت أتحدث، وصمت.

قالت:

- هـل تعرف لماذا أنـا شديدة الفـرح؟ شديدة الفرح بـأن أراك؟ شديدة الفرح بأن أحبك اليوم؟

- لماذا؟

سألتها، وصار قلبي يرتعش.

- أحبك لأنك لم تقع في حبي، لأن أحداً غيرك، في مكانك، كان لا بد أن يزعج ويلح، أن يتأوه ويتوجع، بينما أنت، فما ألطفك!

وهنـا ضغطـت على يـدي بقوة، حتى كـدت أصـرخ، وأخذت تضحك.

- يـا رب! أي صديق أنت! - شرعـت تقـول بجدية شديدة، بعد دقيقة - بعثك الله نجدة

لي! مـاذا سيكون أمري، إذا لم تكن معـي الآن؟ أي ايثار لك! كم جميـل حبك لي! عندما سأتـزوج سنكون صديقين حميمين، أكثر مما لو نكون أخوين. سأحبك مثل حبي له تقريباً..

أحسست بحزن مريع في تلك اللحظة، إلا أن شيئاً كالضحك أخذ يتململ في دخيلة نفسي. قلت:

- أنت في نوبة. أنت تجبنين، وتظنين أنه لا يأتي.

أجابت:

- الله يسامحـك! لو كنت أقل سعادة مما أنا الآن، لانفجرت باكية، كما أظن، على عدم ثقتك وتقريعاتك لي. بالمناسبة أوحيت لي بفكرة،

Telegram: @Arab_Books

وجعلتني، أطيل التفكير. ولكنني سأفكر فيما بعد، أما الآن فاعترف لك بأنك قلت الحقيقة. نعم! لست في حالتي الطبيعية، كلي انتظار، وأشعر بكل شيء على نحو مفرط في الخفة. وكفى، كفى، دعنا من الشعور!..

في هذه اللحظة تردد وقع خطوات، وظهر سابل في الظلام كان يسير، وكأنه مقبل نحونا. أخذنا نرتعش كلانا، وكادت هي تصرخ. أطلقت يدها، وأومأت كمن يريد أن ينصرف. ولكننا خُدعنا. إذ لم يكن السابل هو.

– لماذا تخاف؟ لماذا أطلقت يدي؟ – قالت، وقدمتها لي ثانية – ماذا في ذلك؟ سنستقبله سوية. أريد أن يرى كم يحب أحدنا الآخر.

صرخت: كم يحب أحدنا الآخر؟

وفكرت مع نفسي: «آه، يا ناستنكا، ناستنكا!» كم قلت بهذه الكلمة من أشياء كثيرة! من مثل هذا الحب كانت البرودة ستصيب قلبي أحياناً، ويهبط ثقل على روحي. يدك باردة، ويدي حارة كالنار. يا لك من عمياء، يا ناستنكا!...أوه، ما أسوأ الإنسان السعيد في بعض اللحظات! ولكنني لم أستطع أن أغضب منك!...»

وأخيراً فاض قلبي. صرخت:

– اسمعي، يا ناستنكا! هل تدرين ماذا حصل لي طوال اليوم؟

– ماذا حصل؟ قل لي بسرعة! لماذا سكت حتى الآن!

– أولا، يا ناستنكا، بعد أن نفذت كل مهماتك، سلّمت الرسالة،

Telegram: @Arab_Books

وكنت عند ناسك الطيبين.... عندئذ ذهبت إلى البيت، واستلقيت لأنام.

قاطعتني ضاحكة:

– هذا فقط؟

– نعم، هذا فقط، على وجه التقريب، – أجبت ضاغطاً على أعصابي، لأن دموعاً حمقاء تجمعت في عيني – استيقظت قبل ساعة من موعدنا، ولكن كأنني لم أنم. لا أعرف ماذا حصل لي. وقد جئت لأقول لك كل هذا، كأن الزمن توقف بالنسبة لي، كأن إحساساً واحداً، شعوراً واحداً كان يجب أن يتبقى فيّ من هذا الزمن إلى الأبد، كأن لحظة واحدة يجب أن تدوم الدهر بطوله، وكأن الحياة كلها توقفت بالنسبة لي... عندما استيقظت خيل إليّ أن نغماً موسيقياً مألوفاً لي منذ زمان، كنت قد سمعته من قبل في مكان ما، نغماً منسياً حلواً، عاد إلى ذاكرتي الآن، وخيل إليّ أنه العمر كلّه كان يريد أن يطفح من روحي، والآن فقط....

قاطعتني ناستنكا:

– أوه، يا ربي، يا ربي! كيف كل هذا؟ أنا لا أفهم أية كلمة.

– آه، يا ناستنكا! كنت أريد أن أنقل لك، بشكل من الأشكال هذا الانطباع الغريب...

أنشأت أقول بصوت شاك، كان الأمل ما يزال منطوياً فيه، ولو أنه أمل بعيد للغاية.

Telegram: @Arab_Books

- كفاية، توقف، كفاية!

أخذت تقول، وبلمحة واحدة حدست كل شيء، إنها شاطرة!

وفجأة صارت طليقة اللسان بشكل غير اعتيادي، مرحة، لعوباً. أمسكتني من يدي، وضحكت وأرادت أن أضحك أنا أيضاً، وكانت كل كلمة مستاءة مني تثير منها ضحكة رنانة طويلة... أخذت أغضب، وفجأة انطلقت تتغنج. أنشأت تقول: - اسمع، أنا متكدرة بعض الشيء لأنك لم تقع في غرامي. فحاول أن تنفذ إلى إنسان مثلك. ومع ذلك لن تستطيع، أيها السيد الصلب، أن لا تثني على بساطتي الشديدة هذه. وأنا أقول لك كل شيء، أقول لك مهما تكن السخافة التي خطرت في رأسي.

- اسمعي يبدو أنها الساعة الحادية عشرة تدق؟ قلت حين طن صوت الأجراس الموزون من برج للمدينة بعيد. فتوقفت فجأة، وكفت عن الضحك، وراحت تعد الدقات.

- نعم، إحدى عشرة.

قالت أخيراً بصوت متهيب متردد.

وندمت في الحال على أنني أفزعتها، وجعلتها تعد دقات الساعة، ولعنت نفسي على سورة الغضب. وحزنت لها، ولم أعرف كيف أكفّر عن جريرتي. أخذت أسري عنها، وأتسقّط الأعذار لعدم مجيئه، وأستخلص مختلف الاستنتاجات، والأدلة. ولا أسهل من خداعها في هذه اللحظة، بل وأن أي شخص سيستمع بسرور، في لحظة كهذه إلى أية تسرية مهما تكن، وسيسعد كثيراً، ولو بظل من التبرير.

Telegram: @Arab_Books

– ثـم إن الأمـر مضحك– شرعت أقـول وأنا أتحمسـ أكثر فأكثر متلذذاً بالوضوح غـير الإعتيادي لأدلتي – طيب، لم يستطع أن يأتي. وأنـت أيضـاً خدعتنـي، والهيتني، يـا ناستنكا حتى فقـدت حساب الوقت....ما عليك إلا أن تفكري بأنـه تسلّم الرسالة لتوه، ولنفرض أنـه لا يستطيـع أن يأتي، لنفرض أنه سيرد، فـإن رده لن يصل قبل يوم غـد. سأذهب إليه في بكرة الصباح غداً، وأخبرك في الحال. وافرضي مسبقاً ألف احتمـال، كأن لم يكن في البيت، حين جاءت الرسالة، أو ربما لم يقرأها حتى الآن؟ كل شيء محتمل الوقوع.

أجابت ناستنكا:

– نعـم، نعـم! لم أتصور، بالطبـع، ان كل شيء محتمـل الوقوع– تابعـت بأطـوع صـوت، ولـو أن فكرة بعيـدة كانت تـتردد في هذا الصـوت كنشاز مضايق. ومضت إلى القول– وهذا ما أريد أن تفعله: أن تذهب إليه غداً بأبكر وقت ممكن، وأعلمني في الحال، إذا حصلت على شيء. فأنت تعرف أين أعيش؟

وأخذت تكرر عنوانها لي.

وبعد ذلـك صارت فجأة في غاية الرقـة والخفَر معي....والظاهر أنها سمعت باهتمام ما كنت أقوله لها، ولكن، حين كنت أتوجه إليها بسؤال، كانت تصمت، وترتبك، وتحول رأسها عني. نظرت إليها في عينيها. نعم، بالضبط، لقد كانت تبكي.

– أوه، معقـول، أوه معقول؟ أوه، يا لك من طفله! صبيانية!..... يكفي!

Telegram: @Arab_Books

حاولت أن تبتسم، وتهدئ أعصابها، إلا أن ذقنها كان يرتعش، وصدرها ما زال يصعد ويهبط.

– كنت أفكر فيك – قالت لي بعد برهة من الصمت – ما أطيبك، سأكون حجراً، إذا لم أشعر بذلك...هل تعرف ماذا دار في ذهني الآن؟ قارنت بينكما. فلماذا هو لا أنت؟ لماذا

هو ليس مثلك؟ إنه أسوأ منك، رغم أنني أحبه أكثر منك.

لم أجب بشيء. وبدا وكأنها كانت تنتظر أن أقول شيئاً.

– بالطبع، ربما ما أزال لا أفهمه تمام الفهم، ما أزال لا أعرفه تمام المعرفة. أحسب أنني كنت أخافه دائماً. فقد كان دائماً في غاية الجدية، وكأنه إنسان فخور. بالطبع أنا أعرف أن ذلك في المظهر فقط، وأن في قلبه من الرقة أكثر مما في قلبي....

أنا أتذكر كيف نظر إليّ، حين جئت إليه حاملة الصرة، ولعلك تتذكر، على أية حال، أنا أحترمه للغاية، ألا يعني هذا أننا غير متعادلين؟

أجبت:

– لا، يا ناستنكا، لا. هذا يعني أنك تحبينه أكثر من كل شيء في الدنيا، بل أكثر بكثير مما تحبين نفسك ذاتها.

ردت ناستنكا الساذجة:

– نعم، لنفرض ذلك. ولكن أتدري ما عنّ في ذهني الآن؟ لكنني لا أتحدث عنه الآن، بل بشكل عام. وكان كل ذلك يعنّ في ذهني

Telegram: @Arab_Books

منذ زمان بعيد. اسمع، لماذا لا نتصرف كأخوان مع أخوان؟ لماذا يبدو الإنسان الأفضل وكأنه يخفي شيئاً ما عن الآخر، ويسكت عليه؟ لماذا لا يقـول في الحـال وبصراحة مـا في قلبه، ما دام يعـرف أن كلمته لن تذهـب أدراج الرياح؟ والا فـإن كل واحد يلوح أكثر خشونة مما عليه في واقع الأمـر، وكأنما يخاف دائماً أن تهان مشاعره، إذا أفصح عنها بصراحة...

– نعـم، يا ناستنـكا، أنت تقولين الحقيقة، وهـذا يحدث لأسباب كثيرة – تدخلـت قائلاً، وأنا أكظم مشاعري في هذه اللحظة أكثر من أي وقت مضى.

– لا، لا! ردّت بعاطفـة عميقة – فأنـت، مثلاً، لا تشبه الآخرين! حقـاً، أنا لا أعرف كيف أعبر لك عن ذلك، عما أشعر به، ولكن يبدو لي، أنـك مثلاً....وحتـى الآن.....يبدو لي، أنـك تضحي من أجلي بشيء ما– أضافـت باستحياء بعد أن رمقتني بنظرة خاطفة – اعذرني على تحدثي معك بهذا الشكل، فأنا فتاة بسيطة، و لم أر الكثير في هذه الدنيا، بل أحياناً لا أحسن الكلام، في الحقيقة – قالت بصوت مرتجف مـن شعور مخفي، مجاهدة في الوقت ذاته لكي تبتسم – سوى أنني أود أن أعرب لك عن امتناني، فأنا أيضاً أشعر بكل هذا.... وليهبك الرب السعـادة على كل ذلك! أما ما حكيتـه لي حينئذ عن حالك، فهو غير صحيح

البتـة، يعني أريـد أن أقول أنـه لا ينطبق عليك بتاتـاً. أنت تتماثل للشفـاء، أنت، في الحقيقة إنسان يختلف تمامـاً عن وصفك لنفسك. وإذا مـا أحببـت يوماً ما، فعسى الله أن يسعـدك معها! ولا حاجة لأن

أتمنى لها شيئاً، لأنها ستسعد معك بالتأكيد. أنا أعرف، أنا امرأة أيضاً، ويجب أن تصدق بي، إذا قلت لك ذلك....

صمتت، وشدّت على يدي بقوة. وأنا أيضاً لم أستطع أن أقول شيئاً بسبب انفعالي. ومضت بضع دقائق. وقالت أخيراً، بعد أن رفعت رأسها:

– نعم، يبدو أنه لا يأتي اليوم! الوقت متأخر!...

–سيأتي غداً.

قلت بصوت أشدّ ما يكون تأكيداً وتصميماً.

– نعم، – قالت بعد أن لاح عليها الانشراح – أرى بنفسي الآن أنه لن يأتي إلا في الغد. طيب، إلى اللقاء! إلى الغد! ربما لا أجيء، إذا نزل المطر. ولكن سأجيء بعد غد، سأجيء من كل بد، ومهما يحصل لي. عليك أن تكون هنا، من كل بد، أريد أن أراك، وسأقص عليك كل شيء.

وبعد ذلك، حين توادعنا، قدمت لي يدها، وقالت، وقد نظرت إليّ نظرة صافية:

– منذ الآن سنكون معاً إلى الأبد، أليس صحيحاً؟

آه، ناستنكا، ناستنكا! ليتك تعرفين في أي وحدة أنا الآن!

حين دقت الساعة التاسعة، لم أصطبر على القعود في الحجرة، فارتديت ملابسي، وخرجت، رغم رداءة الجو. وذهبت إلى هناك،

Telegram: @Arab_Books

وجلست على مسطبتنا. سرت في زقاقهم، ولكنني أحسست بالخجل، فعدت أدراجي دون أن ألقي نظرة على نوافذهم، أنا على بعد خطوتين من بيتهم. قفلت راجعاً إلى البيت في وحشة ما بعدها من وحشة. أي طقس رطب مضجر! ولو كان الجو حسناً لتمشيت هناك طوال الليل...

ولكن إلى الغد، إلى الغد! غداً ستقص عليّ كل شيء. إلا أن أية رسالة لم ترد اليوم. ولكن هذا ما كان يجب أن يكون، إنهما الآن سوية....

الليلة الرابعة

يـا ربي كيف انتهى كل هذا! بم انتهى كل هذا! وصلت في الساعة التاسعة. وكانت هناك بالفعل. لاحظتها من بعيد، كانت واقفة، مثلما كانـت في المـرة الأولى، مرتفقـة علـى درابزين الشاطـئ، و لم تسمع خطواتي، وأنا أتقدم منها.

– ناستنكا!

ناديتها وأنا أكظم انفعالي بصعوبة.

التفتت نحوي بسرعة. قالت:

– هيا! أسرع!

نظرت إليها بحيرة.

– هيا، أين الرسالة؟ هل جلبت رسالة؟

كررت، وهي تتشبث بالدرابزين بيدها. قلت، بعد توقف:

– لا رسالة عندي. هل معقول أنه لم يأت بعد؟

شحبت شحوباً مريعاً، وظلت وقتاً طويلاً تنظر إليّ بلا حراك. لقد حطمت آخر أمل لها.

Telegram: @Arab_Books

– وله الله! – قالت أخيراً بصوت متقطع – له الله، إذا كان يتركني بهذا الشكل.

وخفضت بصرها، وبعد ذلك، أرادت أن ترمقني، ولكنها لم تستطع. ظلت تصارع انفعالها عدة دقائق أخرى، إلا أنها استدارت فجأة، وارتفقت على سياج الشاطئ، وراحت تذرف الدموع.

– يكفي، يكفي!

قلت، ولكن لم تكن لي القوة الكافية للمضي في القول، وأنا أنظر إليها، ثم ماذا كان عليّ أن أقول؟

قالت باكية:

–لا تُسر عني! لا تتكلم عنه، لا تقل أنه سيأتي، وأنه لم يهجرني هذا الهجر القاسي اللا إنساني، وعلى أي جرم، لأي سبب؟ هل معقول، ان رسالتي، تلك الرسالة البائسة، حوت شيئاً؟...

وهنا قطع النحيب صوتها، وتمزق قلبي، وأنا أنظر إليها.

ثم عادت تقول:

– أوه، أية قسوة لا إنسانية في هذا! دون أي سطر، أي سطر! على الأقل لو ردّ بأنني غير لازمة له، وأنه يرفضني، ولكنه لا يكتب سطراً واحداً خلال ثلاثة أيام! ما أسهل عليه أن يهين، أن يكدر فتاة مسكينة لا حول لها، كل ذنبها انها تحبه! أوه، كم كابدت في هذه الأيام الثلاثة! يا ربي، يا ربي! يكفي أن أتذكر أنني جئت إليه بنفسي

Telegram: @Arab_Books

في المرة الأولى، وحططت من نفسي أمامه، وبكيت، واستجديت منه ولو قطرة من الحب....وبعد هذا....اسمع – قالت تخاطبني، ولمعت عيناها الســوداوان – هذا غريب! غير ممكــن أن يكون بهذا الشكل، هــذا غير طبيعــي! إما أنت وإما أنا قد خُدعنا. لعلــه لم يتسلم الرسالة؟ لعله حتى الآن لا يعرف شيئاً؟ كيف يمكن هذا، احكم بنفسك، قل لي بحق الرب، اشرح لي، أنا لا أستطيع أن أفهم هذا، كيف يمكن التصرف بهذه القسوة الهمجية التي تصرف بهل معي؟ ولا كلمة واحدة! ولكن حتى الإنسان المقطــوع في الدنيا يستحق عطفاً. ربما بلغ سمعه شيء، ربمــا قالوا عليّ شيئاً عنــده؟ – صاحت متوجهة إليّ بالأسئلة – ما هو، ما هو رأيك؟

– اسمعي، يا ناستنكا، سأذهب إليه في الغد باسمك.

– هيا!

– استفسر منه عن كل شيء، وأخبره بكل شيء.

– هيا، هيا!

– اكتبــي رسالة، يــا ناستنكا. لا تقولي لا، ناستنــكا، لا تقولي لا! سأجعله يحترم تصرفك، وسيعرف كل شيء، وإذا....

قاطعتني:

– لا، يــا صديقي، لا، يكفي، ولا كلمة واحدة بعد الآن، لا كلمة منــي، ولا سطر. يكفــي! أنا لا أعرفه، ولا أحبه بعــد الآن،سأنــ.... سا......ه.

Telegram: @Arab_Books

و لم تتم كلامها.

– اهدئي، اهدئي! إجلسي هنا، يا ناستنكا.

قلت ذلك، وأجلستها على المسطبة.

–ولكنني هادئة! مجرد دموع، ستنشف!

ماذا تظن، هل سأهلك نفسي، أن أغرقها؟...

امتلأ قلبي، أردت أن أتكلم، ولكن لم أستطع، وتابعت هي، وقد تناولت يدي:

–اسمع! قل لي: هل كنت ستتصرف هذا التصرف، تنبذ الفتاة التي جاءت إليك بنفسها، وتطلق في عينيها ضحكة لا حياء فيها ساخراً من قلبها الضعيف، الأحمق؟ هل ستحرص عليها؟ هل ستتصور أنها كانت وحيدة، وأنها لم تحسن العناية بنفسها، و لم تحسن صيانة نفسها من حبك، وأنها غير ملومة، أنها، في آخر الأمر، غير ملومة.....وأنها لم ترتكب شيئاً!.....أوه، يا ربي، يا ربي....

– ناستنكا! – صرخت أخيراً، دون أن أقوى على السيطرة على انفعالي – ناستنكا! أنت تمزقينني! أنت تسممين قلبي، أنت تقتلينني، يا ناستنكا! لا أستطيع أن أصمت! يجب، أخيراً، أن أتكلم، أن أعبر عما تراكم هنا، في القلب.....

نهضت من المسطبة، وأنا أقول ذلك، أمسكتني من يدي، ونظرت إليّ في دهشة. وقالت أخيراً:

Telegram: @Arab_Books

- ماذا حصل معك؟

- اسمعـــي! - قلت بحزم - اسمعي، يا ناستنكا! إن كل ما سأقوله الآن هــراء، كله محال، كله حماقة! أنــا أعرف ان كل ذلك لا يمكن أن يتحقــق أبداً، ولكــن لا أستطيع صمتاً عليه! باسم مــا تتعذبين به الآن أتضرع إليك، مسبقاً، أن تعذريني!

- ولكــن، ماذا، ماذا؟ - قالت، وقد كفــت عن البكاء، وتفرّست فيّ وعنــد ذاك لمع فضول غريب في عينيهــا المندهشتين - ماذا حصل معك؟

- هــذا محال، ولكننــي أحبك، يــا ناستنكا! هكــذا! حسناً، هذا فصــل الخطاب! - قلت بعد أن هززت ذراعي - والآن سترين هل في وسعــك أن تتكلمي معي، كما كنت تتكلمــين الآن، وهل ستقدرين، أخيراً، على أن تصغي إلى ما سأقوله لك...

قاطعتني ناستنكا:

- ولكــن ماذا يعنــي؟ ماذا ينجم عن هذا؟ فقــد كنت أعرف، منذ زمان، ولكن كان يتراءى لي دائماً أن حبك لي مجرد ود....آه، يا ربي، يا ربي!...

- في البداية كان مجرد ود. أما الآن، الآن، فأنا تماماً مثلك، في تلك المــرة، حين ذهبت إليــه، وفي يدك صرتك، بل أســوأ منك حالاً، لأنه آنذاك لم يكن يحب أحداً، أما أنت فتحبين.

- ما هذا الذي تقوله لي! أخيراً، لم أعد أفهمك كلياً. ولكن اسمع، ما الداعي، بل لمَ أنت، وعلى حين فجأة....يا رب!

Telegram: @Arab_Books

أنا أتكلم سخافات! ولكن أنت....

وارتبكت ناستنكا تماماً...وتوهج خداها، فغضت بصرها.

- لا حيلة، لا حيلة لي، يا ناستنكا! أنا مذنب، تجاوزت الحد.... ولكن لا، لست مذنباً، يا ناستنكا، أنا أتحسس هذا، أشعر به، لأن قلبي يحدثني بأنني على صواب، ولأنني بل يمكن أن أكدرك في شيء، ولا أهينك بشي! لقد كنت صديقك، وحتى الآن صديقك، و لم أحنث عهداً. وها هي دموعي تسح الآن، يا ناستنكا، فدعيها تسح، دعيها تسح، فهي لا تضايق أحداً. وستجف، يا ناستنكا....

- ولكن اجلس، اجلس - قالت، وهي تجلسني على المسطبة - أوه يا ربي!

- لا، يا ناستنكا، لا أجلس. لا أستطيع أن أبقى هنا بعد الآن، ولن تستطيعي أنت أن تريني بعد الآن. سأقول كل شيء، وأنصرف. أود فقط أن أقول: لولا نفاذ صبري الآن لما عرفت قط أنني أحبك، ولحفظت السر في نفسي، ولما صرت أعذبك الآن بأنانيتي. كلا! ولكن أنت بنفسك البادئة في الكلام عن هذا. أنت المذنبة، أنت المذنبة في كل شيء. ولست أنا المذنب. أنت لا تستطيعين اقصائي عنك.

- لا، لا أقصيك عني، لا!

تكلمت ناستنكا، مخفية ارتباكها قدر مستطاعها، المسكينة.

- لا تقصيني؟ لا! بينما كنت أريد الهروب منك. سأنصرف. فقط أن أقول كل شيء في البداية. ذلك لأنني، حين رأيتك تتحدثين هنا

Telegram: @Arab_Books

حينـذاك، كنت لا أستطيـع الجلوس في مكاني، وحـين كنت تبكين، وحـين كنـت تتمزقين، لأنـك، طيب لأنـك (دعيني أسمـي الأشياء بأسمائها) لأن الشخص الآخر ينبذك، ولأنه رفض حبك، كنت أشعر وأتحسـس كم يكن لك قلبي من الحب، كم من الحب، يا ناستنكا!... وقـد أحسست بالمـرارة الشديدة، لأنني لا أستطيـع أن أساعدك بهذا الحب... حتـى تمزق قلبي، و لم أستطع، لم أستطع سكوتاً، وكان يجب أن أتكلم، يا ناستنكا، كان يجب أن أتكلم!...

نعـم، نعم! كلمني، كلمني، كلمني بهذا الشكل – قالت ناستنكا، بحركـة غير مفسّرة– ربمـا تستغرب مـن أن أكلمك بهـذا الشكل، ولكن.....تكلمّ وسأخبرك، بعد ذلك! سأخبرك بكل شيء!

– أنت تشفقين عليّ، يا ناستنكا، مجرد أنك ترثين لي، يا صديقتي! ما فات فات! وما قيل لا يمكن أن يعاد! أليس الأمر كذلك؟ والآن أنت تعرفـين كل شيء. وهـذه نقطة انطلاق، لطيف! كل هـذا رائع الآن. ولكن اسمعي. حين كنت جالسة تبكين، فكرت مع نفسي

(أوه، دعينـي أقـول ما فكـرت فيه!) فكـرت في (بالطبع، هذا لا يمكـن أن يكون، يـا ناستنكا) فكرت....فكـرت في أنك، على نحو من الأنحاء، طيـب، لسبب خارجي، تكفين عن حبه. وعندئذ– وقد فكـرت في ذلك يوم أمس، وأول أمس، يا ناستنكا – عندئذ سأعمل، وسأعمـل من كل بـد لأجعلك تحبيننـي، فقد قلت بنفسـك مرة بعد أخرى أنك أحببتني تمام الحب تقريباً. ولكن ماذا بعد؟ حسناً، هذا كل مـا أردت ان أقوله تقريباً، بقي أن أقـول ماذا كان سيحصل، إذا كنت قد أحببتني، هذا كل ما عندي، ولا أكثر! اسمعي، يا صديقتي– فأنت

Telegram: @Arab_Books

صديقتي في كل الأحوال – أنا، بالطبع، إنسان بسيط، مسكين، عديم الأهمية، ولكن ليس هذا هو الموضوع (أنا دائماً أخرج عن الموضوع، وهذا من الارتبـاك، يا ناستنكا) ولكن كنـت سأحبك حباً، سأحبك حبـاً، بحيث لـو بقيت لديـك فضلة مـن الحب له، ولـو مضيت في حبـك للرجل الذي لا أعرفه، فإنك لن تشعري بأن حبي ثقيل عليك، ستحسـين فقط، وتشعرين في كل لحظة بـأن القرب منك يخفق قلب ممتن ونبيل، قلب حار يسنـدك. أوه، يا ناستنكا، ناستنكا! ماذا فعلت بي!

– لا تبـكِ، أنا لا أريد أن تبكـي– قالت ناستنكا، وهي تنهض من المسطبـة بسرعة– تعال، انهض وتعال معي، لا تبكِ، لا تبكِ – كانت تقـول، وهي تمسح دموعـي بمنديلها– هيا، تعـال الآن. ربما سأخبرك بشيء ما.... نعم، ما دام قد تركني الآن، ما دام قد نساني، رغم أنني ما أزال أحبه (لا أريد أن أخدعك)..... ولكن، اسمع، أجبني. لو كنت، مثـلاً، قد أحببتـك، أقصد، لو كنـت...آه، يا صديقـي، يا صديقي! كمـا يـتراءى لي، أنني أهنتـك، حين ضحكـت، ساعتهـا، من حبك، حـين امتدحتك على أنك لم تقع في حبـي!....أوه، يا ربي! كيف لم أتوقع ذلك، كيف لم أتوقع، وكم كنت بلهاء، ولكن.....على مهلك، قررت أن أقص عليك كل شيء....

– اسمعي، يا ناستنكا، هل تعرفين ماذا؟ سأغادرك، نعم، سأغادرك! فأنا أعذبـك لا غير. الآن مثلاً صار ضمـيرك يؤنبك لأنك ضحكـت منـي، بينما أنـا لا أريد، نعم، لا أريد أن أحملـك فوق مصابك!.... بالطبع، أنا المذنب، يا ناستنكا، ولكن وداعاً!

Telegram: @Arab_Books

– قف، أصغ إليّ. هل تستطيع أن تنتظر؟

– ماذا أنتظر، كيف!

– أنا أحبه، ولكن هذا سيزول، ولا بد أن يزول، ولا يمكن ألا يزول. انه يزول الآن، وأنا أتحسس....وأنا لا أعرف. فقد ينتهي الأمر اليوم، لأنني أكرهه، ولأنه ضحك مني، في الوقت الذي كنت فيه تبكي معي هنا، ولأنك ما كنت ترفضني كما رفضني هو، ولأنك تحبني، و لم يكن هو يحبني، ولأنني، نفسي أحبك، أخيراً....نعم، أحبك! أحبك كما تحبني، فأنا نفسي قلت ذلك قبل أن تقوله أنت، وتتحسسه. أحبك لأنك أحسن منه، ولأنك أنبل منه، ولأن، ولأنه.....

وكان تأثر المسكينة من الشدة، بحيث لم تكمل كلامها، ووضعت رأسها على كتفي، ثم على صدري، وبكت بكاءً مراً. هوّنت عليها، واستعطفتها، ولكنها لم تستطع أن تكف عن البكاء. كانت طوال الوقت تضغط على يدي، وتقول بين النشجات: «انتظر، انتظر قليلاً. سأسكت الآن! أريد أن أقول لك...

لا تظن هذه دموعاً، هذا لا شيء، من الضعف، انتظر قليلاً، حتى يمضي...» وكفّت أخيراً، ومسحت دموعها، وسرنا مرة أخرى. كنت أريد أن أتكلم، إلا أنها ظلت وقتاً طويلاً ترجوني أن أنتظر. ولزمنا الصمت....وأخيراً، جمعت شتات قوتها، وأخذت تتكلم....

– الأمر كالآتي– أنشأت تقول بصوت راهف مرتجف، رنّ فيه فجأة شيء نفذ إلى قلبي رأساً وولول فيه بحلاوة– لا تتصور أنني متقلبة بهذا الشكل، وصاحبة أهواء، ولا تتصور أنني أستطيع أن أنسى

Telegram: @Arab_Books

وأخون بهذه السهولـة والسرعة....لقد أحببته سنة كاملة، وأقسمت بالرب على ألا أخونه أبداً، حتى فكرة الخيانة لم تخطر على بالي. وقد احتقـر هو ذلـك، وهزأ مني – له الله! ولكنه حـطّ من قدري، وأهان قلبـي. أنا، أنا لا أحبه، لأنني لا أستطيع أن أحب إلا الأريحي، النبيل، الذي يفهمني، لأنني أنا بهذا الشكل، بينما هو لا يستحقني، ولكن له الله! مـا فعله أفضل مما لو سيخيب ظنوني فيما بعد، فأعرف أي إنسان هو......طيـب، انتهى! ولكن لا أعرف، يا صديقي – تابعت، وهي تضغط على يدي

– لا أعـرف – لا أعـرف، ربمـا حبي كلـه كان خـداع مشاعر، ومخيلـة، ربما بدأ هذا الحـب بعبث وتوافه ولأننـي كنت تحت حراسة جدتـي؟ ربما كان علـيّ أن أحب إنسانـاً آخر، وليس إيـاه، ليس مثل شخصـه، بل إنساناً آخر كان سيشفق عليّ و، و... طيب، دعنا، دعنا من هذا – استدركت ناستنكا لاهثة من الانفعال – فقط أريد أن أقول لك....فقـط أريـد أن أقول لك إذا كنت، رغم أننـي أحبه (لا، كنت أحبه)، إذا كنت، رغم ما ستقوله بعد هذا، إذا كنت تحس أن حبك من القـوة، بحيث يستطيع، في النهاية، أن يطـرد الحب السابق من قلبي، وإذا كنـت تريد أن تأسو عليّ، ولا تريد أن تتركني وحيدة مع قدري، بلا سلوى، بلا أمل، وإذا كنت ستحبني على الدوام مثلما تحبني الآن، فإنني أقسم بأن امتناني، حبـي، سيكون، في النهاية، أهلاً لحبك..... هلا تناولت يدي الآن؟

– ناستنـكا – صحـت، والعـبرة تخنقنـي – ناستنـكا! أوه، ناستنكا!....

– طيـب، كفى، كفى! طيب، كفايـة الآن تماماً! – قالت، وهي لا تـكاد تسيطر على نفسها – قبل كل شـيء الآن، أليس صحيحاً؟ ها؟ إذن، فأنـت سعيد، وأنا سعيدة، فلا كلمة عن هذا الموضوع بعد الآن. انتظر قليلاً، وارأف بي..... تحدث عن شيء آخر، بحق الرب!....

– نعـم، يـا ناستنكا، نعم!...يكفـي عن هذا الموضـوع، الآن أنا سعيـد، أنا.....هيا، يا ناستنكا، هيا، تحدثي عـن شيء آخر، لنسرع، لنسرع في التحدث. نعم!، أنا مستعد.....

و لم نعـرف مـاذا نتحـدث، فضحكنـا، وبكينـا، وتكلمنا آلاف الكلمات بـلا ترابط، وبلا فكرة. كنا تارة نسير على الرصيف، وتارة نعود فجأة، وننزل لنعبر الشارع، ثم نتوقف، ثم نعبر ثانية إلى الشاطئ. لقد كنا كالأطفال...

أخذت أقول:

– أنـا الآن أعيش وحيداً، يـا ناستنكا، وغـداً... طيب أنا فقير، بالطبع، لا أملك غير ألف ومائتين، ولكن، هذا المبلغ لا بأس...

– بالطبـع، لا بأس، إن جدتي تتقاضى تقاعـداً وهي لن تضايقنا، يجب أن نأخذ الجدة معنا.

– بالطبع، يجب أن نأخذ الجدة معنا.....ولكن ماترونا....

– آه، ونحن أيضاً عندنا فيكلا!

Telegram: @Arab_Books

– ماترونا طيبة، عندها نقيصة واحدة، وهي أنها بلا خيال، يا ناستنكا، بلا خيال تماماً، ولكن لا بأس في هذا!...

– لا يهم. تستطيعان أن تتلازما. انتقل عندنا في الغد.

– كيف هذا؟ عندكم! حسناً، أنا مستعد...

– استأجر عندنا، توجد لدينا عُليّة فوق، وهي فارغة الآن. كانت تسكنها عجوز من الأعيان، وسافرت. وأنا أعرف أن جدتي تريد أن تؤجر لشاب. أقول لها: «ولِمَ شاب؟» فتقول: «لا شيء، فأنا عجوز، ولكن إياك أن تظني، يا ناستنكا، أنني أريد أن أزوجك له». فحزرت أن ذلك لأن....

– آه، يا ناستنك!...

وضحكنا كلانا.

– والآن، يكفي، يكفي. أين تسكن؟ لقد نسيت.

– هناك، عند الجسر... في بناية بارانيكوف.

– تلك البناية الكبيرة؟

– نعم، في تلك البناية الكبيرة.

– أها! أعرفها، بناية جيدة، ولكن اتركها، وانتقل إلينا، في أقرب وقت...

– غداً، يا ناستنكا، غداً، أنا مدين قليلاً عن أجرة السكن، ولكن لا بأس.... عن قريب سأتسلم مرتبي...

Telegram: @Arab_Books

– وأنا أيضاً، ربما ساعطي دروساً، سأتعلم أنا، أعطي دروساً في نفس الوقت...

–طيب، هذا شيء رائع....وأنا، عن قريب، سأحصل على مكافأة، يا ناستنكا...

–إذن، من الغد ستكون نزيلي...

– نعم، وسنذهب لمشاهدة «حلاق إشبيليه» لأنهم سيقدمونه من جديد قريباً.

قالت ناستنكا ضاحكة:

– نعم، سنذهب. ولكن، لا. من الأفضل أن نستمع إلى شيء آخر غير «الحلاق»..

–طيب، إلى شيء آخر. بالطبع، سيكون ذلك أفضل، فأنا لم أفكر في الأمر جيداً.

وكنا، ونحن نقول ذلك، نسير، وكأنما في قتام، في ضباب، كأننا لا نعرف ماذا يجري لنا، مرة نتوقف، ونتحدث طويلاً في موضع واحد، ومرة ننطلق، ونسير إلى حيث لا يعلم إلا الله، مرة ضحك، ومرة دموع....ومرة تريد ناستنكا فجأة أن تعود إلى بيتها. وننطلق في طريقنا، وفجأة، وبعد ربع ساعة، نجد أنفسنا على الشاطئ، عند مسطبتنا. وهنا، تتنهد ناستنكا، وتعود الدموع تفيض من عينيها. وأحس بالرهبة والبرودة.... ولكنها، في نفس اللحظة، تضغط على يدي، وتجرني مرة أخرى لنتمشى، ونثرثر، ونتكلم....

Telegram: @Arab_Books

– حان الوقت الآن، حان وقت عودتي إلى البيت، أظن أن الوقت متأخر جداً – قالت ناستنكا أخيراً – كفانا صبينة بهذا الشكل!

– نعم، يا ناستنكا، ولكنني لن أغفو الآن، لن أعود إلى البيت.

– وأنا أيضاً يبدو أنني لن أغفو. ولكن أوصلني إلى البيت....

– بالتأكيد!

– لا بد أن أعود إلى البيت الآن.

– لا بد، لا بد،.....

– كلام شرف؟.....إذ لا بد أن أعود في وقت ما!

أجبت ضاحكاً:

– كلام شرف.

– لنذهب، إذن!

– لنذهب.

– انظري إلى السماء، يا ناستنكا، انظري! غداً سيكون يوماً رائعاً، أية سماء زرقاء، وأي قمر! انظري إلى هذه السحابة الصفراء ستفرشها الآن، انظري، انظري!...ولكن لا، مرّت عابرة. انظري، انظري!...

ولكن ناستنكا لم تنظر إلى السحابة، وقفت صامتة كالمصعوقة، وبعد دقيقة صارت تلتصق بي بشدة وفي شيء من الرهبة. وأخذت

Telegram: @Arab_Books

يدها ترتعش في يدي، فرنوت إليها....فاستندت إليّ بقوة أشد.

في تلك اللحظة مر بنا شاب توقف فجأة، وتفرّس فينا، ثم عاد فسار عدة خطوات. أخذ قلبي يرتعش.

– ناستنكا – قلت بصوت خفيض – من هذا، يا ناستنكا؟

– إنه هو! أجابت بهمس، والتصقت بي أكثر قرباً وأكثر ارتعاداً.... وكنت لا أكاد أقف على قدمي...

– ناستنكا! ناستنكا! أهذه أنت؟

تردد صوت وراءنا، وفي تلك اللحظة تقدم الشاب منا بضع خطوات...

يا إلهي، أية صيحة ندت منها! أية ارتعاشة! وكيف أفلتت من بين يدي، واندفعت للقائه.!..وقفت أنظر إليهما، كالمطعون. ولكنها ما كادت تمد له يدها، ما كادت ترتمي في أحضانه، حتى عادت إليّ ثانية، كالريح، كالبرق، وكانت بالقرب مني: وقبل أن أتمثل الأمر طوقت رقبتي بكلتا يديها، وقبلتني بقوة وحرارة. وبعد هذا، ودون أن تنطق بكلمة انطلقت نحوه ثانية، وأمسكته من يده، وجرته وراءها.

وقفت طويلاً أشيعهما ببصري....وأخيراً، غاب الاثنان عن عيني..

Telegram: @Arab_Books

الصباح

انتهـت لياليّ بالصباح. كان النهار رديئـاً. هطل مطر، وراح يدق زجاج نافذتـي بانقباض، وكانت غرفتي في الظـلام، والدنيا غائمة. وكان رأسي يوجعني، ويدور بي، والحمى تدب في أطرافي.

– رسالة لك، يا حضرة، جاء بها ساعي البريد من بريد المدينة.

قالت ماترونا، وهي تطل عليّ. صحت:

– رسالة! ممن؟

ووثبت من مقعدي.

– لا أدري، ياحضرة. انظر، فلربما كتب عليها ممن.

مزّقت الختم، الرسالة منها!

كتبـت ناستنكا إليّ: «أوه، اصفح عني، اصفح عني! أتضرع إليك راكعـة أن تصفح عني! خدعتـك، وخدعت نفسـي. لقد كان ذلك حلماً، شبحاً... تألمت عليك اليوم، اغفر لي، اغفر لي!

لا تـدني، فأنـا لم أخنك في شيء. لقـد قلت أننـي سأحبك، وأنا الآن أحبك أيضاً، أحبك أكثر. أوه يا ربي! ليتني استطعت أن أحبكما كليكما سوية! آه، لو كنت هو!»

«آه، لـو كنت هـو!» – طارت في رأسي، وتذكـرت كلماتك، يا ناستنكا!

Telegram: @Arab_Books

«الرب يرى ما كان سأفعل من أجلك الآن! أنا أعرف أنك متضايق وحزيـن. لقد أهنتك، ولكنك تعرف، إذا كنـت تحب، أن الإساءة لن تعلق في ذاكرتك طويلاً. وأنت تحبني مؤكداً!»

شكراً! نعـم! شكراً لك على هذا الحب. لأنه قد طبع في ذاكرتي، مثل حلم لذيذ يتذكره الإنسان، طويلاً بعد أن يستيقظ، لأنني سأتذكر إلى الأبد تلك اللحظة التي تفتح لي فيها قلبك أخوياً، وتلقيت، بأريحية، قلبي المطعون هديـة، لتصونه، وترعاه، وتشفيه...وإذا كنت ستصفح عني، فإن ذكراك ستظل سامية في نفسي بشعور الامتنان الأبدي لك، وهو شعور لـن يُمحى من نفسي....وسأحتفظ بهـذه الذكرى، وأفي لهـا، ولن أخونها، لن أخون قلبي. إنه ثابت مقيم، وبالأمس فقط عاد حثيثاً إلى من كان ملكه إلى الأبد.

سنلتقي،وستأتـي لزيارتنـا، ولن تتركنا، ستكـون صديقي وأخي مدى العمر...وحين ستراني مدّ لي يدك...ها؟ مدّها لي، فقد صفحت عني، أليس كذلك؟ هل ستظل تحبني كالسابق؟

أحببني، ولا تتركني، لأنني أحبك، في هذه اللحظة، كثيراً، ولأنني أهـل لحبك، ولأننـي أستحق هذا الحـب.... يا صديقـي العزيز! في الأسبوع القادم سأزف له. لقد عاد محباً، لم ينسني قط....

لا تزعـل منـي، إذا كنـت أكتب عنـه، حسنـاً، أريـد أن آتي معه لزيارتك، وإنك ستحبه. أليس كذلك؟

اصفح عنا، تذكرني، أحببني.

صديقتك

ناستنكا

Telegram: @Arab_Books

أعــدت قراءة هــذه الرسالة لوقــت طويل، والدمـو ع ترقرقت في عيني. وأخيراً، سقطت الرسالة من يدي، فغطيت وجهي.

أنشأت ماترونا تقول:

– عزيز! يا عزيزي!

– ماذا، يا عجوز؟

– رفعــت خيوط العنكبوت كلها مــن السقف، والآن لك ما تشاء حتى أن تتزوج أو تستقبل الضيوف، في هذه اللحظة...

نظرت إلى ماترونا....إنها عجوز فتية ما تزال جمة النشاط، ولكن لا أعــرف لماذا تصورتهــا فجأة بنظرتهــا المنطفئة وغضــون وجهها، مطوية الظهر، شائخة..

لا أعــرف لمــاذا تصــورت فجــأة أن حجرتي قد شاخــت، كهذه العجوز. جدرانها والأرضية مقشـرة، وكل شيء كامد فيها، وخيوط العنكبوت انتشرت أكثر. لا أعرف لماذا خيل إلي، وأنا أنظر في النافذة، أن البيت المقابل قد هرم أيضاً، وكمد هو الآخر، وأن طبقة الجص على أعمدته قد تقشــرت و تساقطت، والأفاريز قــد اسودت، وتشققت، وصارت جدرانه ذات اللون الأصفر الداكن رقطاء...

إما أن شعاع الشمس الذي أطل من وراء سحابة فجأة عاد فاختفى خلف غيمــة ممطرة، فكمد كل شيء في عيني، وإمــا أن أُفق مستقبلي كله تراءى أمام عيني، ربما، حزيناً وبلا بشاشة، فرأيت نفسي بالصورة التــي أنا عليهــا الآن، بعد خمس عشرة سنة بالتمــام، في هذه الحجرة

Telegram: @Arab_Books

نفسها، وقد شخت، وما زلت وحيداً كما كنت، أعايش ماترونا التي لم تزدد عقلاً قط، خلال هذه السنين.

ولكن لن أتذكر مهانتي، يا ناستنكا! لن أسلط سحابة داكنة على سعادتك الصافية الوادعة، ولن ألومك بمرارة، وأسوق الوحشة إلى قلبك، واسممه بالتقريع الخفي، وأجعله يدق فاتراً في لحظة الهناءة، ولن أخون ولو واحدة من تلك الزهور الرقيقة التي غرزتها في خصلاتك السود، حين ذهبت معه إلى محراب الكنيسة... لا، لن، ولن! فلتكن سماؤك صافية، وابتسامتك وضاءة مطمئنة، ولتكوني مباركة على لحظة الهناءة والسعادة التي منحتها للقلب الآخر، الوحيد، الشاكر!

يا الهي! لحظة كاملة من الهناءة! وهل هذا قليل حقاً حتى على مدى العمر بطوله؟...

١٨٤٨

Telegram: @Arab_Books

القلب الضعيف

قصة طويلة

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

تحـت سقف واحد، وفي شقة واحدة، في الطابق الرابع كان يعيش شابـان زميـلان في الخدمـة همـا أركادي إيفانوفيتشـ نيفيديفيتش، وفاسيـا[٥٥] شومكـوف..... والمؤلف،بالطبع، يجد مـن الضروري التوضيح للقارئ لماذا سمّي أحد البطلين بسمه الكامل، والثاني بصيغة الصغـير، علـى الأقل، مثلاً، حتى لا تعتبر هـذه الطريقة في التعبير غير لائقـة، وإلى حـد ما بلا رسميـات. ولكن ذلك سيقتضـي أن أوضح مقدماً، وأصـف المرتبة، والعمر، واللقـب، والوظيفة، وأخيراً، حتى أخـلاق الشخصين المعنيين. ولمّـا كان هناك الكثير جـداً من الكتّاب الذيـن يستهلون قصصهم بهذه الطريقة بالـذات[٥٦]، فإن مؤلف هذه القصـة لغرضـ وحيد، هو أن لا يسـير على منوالهـم (أي كما يقول البعضـ، ربما، نتيجة لاعتداد غير محدود بنفسه[٥٧]) مزمع على أن يبدأ بالحدث رأساً. وها هو يبدأ بعد أن فرغ من هذه المقدمة.

---

٥٥. فاسيا صيغة التصغير من فايلي. المترجم.

٥٦. يشير دوستويفسكي إلى الطريقة التي صارت تقليدية في الأوتشرك الفيزيولوجي. وقد كتبت مجلة "سوفرمينيك" لنيكراسوف عن هذا:" هناك قصص وروايات كتبت بناء على وصفة معروفة. وفيها لا تكاد تصادف رؤية المؤلف الشخصية للحياة والناس، ولكنك مقابل ذلك تجد الكثير من التفاصيل الصادقة تماماً، والزائدة تماماً" . الناشر.

٥٧. تلميح إلى استهزاء تورغينيف ونيكراسوف باعتداد دوستويفسكي المرضي بنفسه. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

في نحو الساعة السادسة مساء عشية العام الجديد، عاد شومكوف إلى بيته. استيقظ أركادى إيفانوفيتش الذي كان راقداً على السرير، ونظر إلى صديقه بنصف عين. فرآه في بدلته الرسمية الفاخرة، وقُبة صدر غاية في النظافة. وطبيعي أن يدهشه ذلك: «إلى أين يمكن أن يذهب فاسيا بهذه القيافة؟ ثم إنه لم يتناول غداءه في البيت». وخلال ذلك كان شومكوف قد أشعل الشمعة، بينما حدس أركادى إيفانوفيتش في الحال، بأن صديقه ينوي إيقاظه بطريقة تبدو وكأنها غير مقصودة. وبالفعل سعل فاسيا مرتين، وذرع الغرفة مرتين، وأخيراً، وبطريقة غير مقصودة تماماً، أوقع من يده غليونه الذي كان يحشوه في الركن، قرب الموقد. تملك الضحك أركادى إيفانوفيتش في ذات نفسه. قال:

- يا فاسيا، كفى تحايلاً!

- أركادى، أنت غير نائم؟

-في الحقيقة لا أستطيع أن أقول بالتأكيد. يبدو لي أنني غير نائم.

- آه، يا أركاشا! مرحباً، يا عزيزي. أوه، يا أخ، يا أخ!..... أنت لا تعرف ماذا سأقول لك!

- بالطبع، لا أعرف. تقدم من هنا.

وكأن فاسيا كان ينتظر ذلك، فتقدم حالاً، وهو على أية حال لا ينتظر أية خديعة من أركادى إيفانوفيتش. أمسكه هذا من يده ببراعة، وأداره، وعكفه تحته، وأخذ كما يقال، «يخنق» فريسته، مما كان يوفر، كما يبدو، متعة غامرة لأركادى إيفانوفيتش المرح، الذي أخذ يصيح:

Telegram: @Arab_Books

– وقعت! وقعت!

– مـا هذا الـذي تفعله، يا أركاشـا؟ أتركني بحق الـرب، اتركني سأوسخ الفراك!.....

– وما حاجتك إلى الفراك؟ ولماذا أنت سهل التصديق، تقع في اليد من تلقاء نفسك. قل لي: أين ذهبت وأين تغديت؟

– أركاشا، اتركني بحق الرب!

– أين تغديت؟

– عن هذا بالذات أريد أن أحدثك.

– تحدث، إذن.

– ولكن اتركني، أولاً.

– لا، لا أتركك، قبل أن تخبرني!

– أركاشـا، أركاشا! لعلك تفهم أن ذلك غير ممكن بهذه الصورة، مستحيـل أبداً – صـاح فاسيا الواهن، وهو يتحـرر من براثن صديقه القوية – هناك مواضيع....

– أية مواضيع؟

– مواضيـع حالما تتحدث عنها، وأنت في هذا الوضع، حتى تفقد لياقتك. لا يجوز أبداً. سيكون الأمر مضحكاً. بينما هو غير مضحك على الإطلاق بل مهم.

– اتـرك هـذا المهـم! وجد مـا تبتكـره! حدثني بشـكل يجعلني

Telegram: @Arab_Books

أضحــك. هــذا ما يجــب أن تتحدث بــه. ولا أريد مهمــاً. وإلا فأي صديق أنت؟ خبرني أي صديق ستكون لي أها؟

– أركاشا، قسماً بالرب، لا يجوز.

– لا أريد أن أسمع...

– طيــب، أركاشــا! – شرع فاسيا يقول، وقــد انطرح على عرض السريــر، مجاهداً بــكل قوته أن يضفي على كلماتــه أكبر قدر ممكن من الأهمية – أركاشا، أظنني سأقول لك شيئاً، ولكن....

– وهو!

– طيب، أعلنت خطوبتي!

لم يقــل أركادي إيفانوفيتش كلمة أخــرى فارغة، حمل فاسيا على يديــه بصمت، كما يحمل الطفل، رغــم أن فاسيا لم يكن قصيراً جداً، بل طويلاً بقــدر كاف، سوى أنه نحيل، وراح يسير به بخفة من ركن إلى آخر في الغرفة ويتظاهر بأنه يهدهده.

– ها أنا أرجّحك في المهد، أيها المقبل على الزواج!

قال، ولكنه حين رأى فاسيا منطرحاً على يديه بلا حراك، و لم ينطق بأيــة كلمة أخرى، عدل فجأة، وتصوّر أن المزاح تمادى وذهب بعيداً، على ما يبدو، فأنزله في وسط الغرفة، وراح يقبله من خده بطريقة ودية غاية في الإخلاص.

– ألست غاضباً، يا فاسيا؟

Telegram: @Arab_Books

– اسمع، يا أركاشا....

– طيب، من أجل رأس السنة.

– أنـا لا يهمني. ولكن لماذا أنت مجنـون. قالت بهذا الشكل؟ كم مـرة قلت لك: أركاشا، بحق الرب، هذا لا يضحك، لا يضحك على الإطلاق.

– طيب، ألست غاضباً؟

– أنـا لا شـيء. لا أغضب علـى أحد أبداً! ولكنـك أثرت غمي، لعلك تفهم!

– كيف أثرت غمك؟ بأية طريقة؟

– جئـت إليـك، كصديـق، بقلب مملـوء، اسكب أمامـك ما في روحي، وأحدثك عن سعادتي....

– ولكن أية سعادة؟ لماذا لا تقول ما هي؟

– أجل سأتزوج

أجاب فاسيا بانزعاج، لأنه كان متكدراً بعض الشيء، بالفعل.

– أنت! أنـت تتزوج! يعني عن صحيح؟ – صـاح أركاشا بأعلى صوتـه – لا، لا.... ولم هذا؟ ثم إنك تتكلـم بهذا الشكل ودموعك تسح!.....فاسيـا، فاسيا، يا بنيّ، كفـاك! ولكن هل هذا صحيح؟ – واندفع أركادى إيفانوفيتش يعانقه من جديد.

قال فاسيا:

Telegram: @Arab_Books

– طيب، أنت تفهـم السبب في هذا الآن؟ أنت رجل طيب، أنت صديقـي. أنا أعرف ذلك. وقد جئت إليك بفرح غامر، بغبطة نفس، وكان يجب أن أفتح لك كل هذا الفرح القلبي، كل الغبطة، وأنا الوب في عرضـ السرير، فاقداً عزة نفسي....أنت تفهم، يا أركاشا، – تابع فاسيـا كلامه نصف ضاحك – ولكن ذلك بدا في هيئة هازلة. حسناً، لم أكن متملـكاً نفسي كثيراً في تلك اللحظة. لأنني لم أستطع أن أهين هذا الموضـوع....لا ينقص إلا أن تسألني مـا اسمها؟ طيب، أحلف لك أنني أفضل أن تقتلني على أن أرد عليك.

– ولكـن لماذا كنـت ساكتاً، يا فاسيا؟ كان الأحـرى بك أن تقول لي كل شـيء من قبل، ولمّا تعابثت. – صـاح أركادى إيفانوفيتش، في قنوط صادق.

– ولكـن كفى الآن، كفى، أنا مجـرد..... أنت تعرف السبب في كل هذا. لأن لي قلباً طيباً. ما يحزنني، أنني لم أستطع أن أقول لك كل مـا أردت ان أقوله، وأن أجلب لـك شعور الفرح والمتعة وأن أحدثك بشـكل جيد، وأبوح لك بشكل لائق...حقـاً، يا أركاشا، أنا أحبك، بحيـث لو لم تكن أنت، لما تزوجـت، على ما يبدو لي، ولما عشت في هذه الدنيا على الإطلاق.

كان أركادى إيفانوفيتـش شديـد الحساسية بشـكل غير اعتيادي، فـكان يضحك ويبكي، وهو يستمع إلى فاسيـا. وكان فاسيا يضحك ويبكـي أيضاً. فاندفـع كلاهما يحضـن الآخر من جديـد، ونسيا ما حدث.

– كيـف هذا، كيف؟ قـل لي كل شيء، يا فاسيـا! اعذرني، يا أخ،

Telegram: @Arab_Books

أنا مصعوق، مصعوق تماماً، وكأنما أصابني رعد، والله! ولكن، لا، لا أظن، يا أخ، كنت تبتكر من عندك، تبتكر، وحق الرب، تكذب!

– صاح أركادى إيفانوفيتش، بل ونظر إلى وجه فاسيا بارتياب صادق، إلا أنه رأى فيه تأكيداً باهراً على نيته الأكيدة في الزواج، بأقرب وقت ممكن، فاندفع إلى الفراش، وراح ينط عليه في فرح شديد، حتى اهتزت الجدران. وصاح، وقد قعد على السرير أخيراً:

– فاسيا، اجلس هنا!

– أنا، يا أخ، لا أعرف حقاً كيف أبدأ، ومن أين؟

ونظر أحدهما إلى الآخر بتأثر فرح.

– من هي، يا فاسيا؟

– من آل أرتيمييف!...

تفوه فاسيا بصوت أوهنته السعادة.

– معقول؟

– نعم، كثيراً ما كلمتك عنهم وبعدها صمت. و لم تلحظ أنت شيئاً. آه يا أركاشا، كم كلفني أن أخفي عنك حالتي النفسية وكنت أخاف، أخاف أن أحكي! ظننت أن كل شيء سينهار، بينما أنا عاشق، يا أركاشا! يا إلهي، يا إلهي! الحكاية كالآتي – بدأ يقول، وهو يتوقف باستمرار بسبب انفعاله – كان لها خطيب، وقبل عام فقط، إلا أنه أُوفد إلى جهة ما فجأة. كنت أعرفه. حقاً إنه...الله يسامحه! وثم توقف عن المراسلة، ضاع أثره. وهم ينتظرونه، وينتظرون. ماذا

يمكن أن يعني هذا؟......وفجأة، وقبل أربعة أشهر يأتي متزوجاً، ولا يعـرج عليهم بزيارة. فظاظة! وضاعة! ولا شـأن لأحد في حمايتهم. بكت، بكت، المسكينة، بينما أنا مغرم بها...ومنذ زمان، دائماً كنت مغرماً بها! فأخـذت أسري عنها، وأزورها مرة بعد أخرى. طيب، ما كنـت، في الحقيقة، أعرف كيـف حصل كل ذلـك، إلا أنها أحبتني، وقبـل أسبـوع لم أتمالك نفسـي، فبكيت، أجهشـت باكياً،وقلت لها كل شـيء. يعني، أنني أحبها، وباختصـار، كل شيء!.... «أنا نفسي مستعـدة لأن أحبك، يا فاسيلـي بتروفيتش[٥٨]، ولكنني فتاة مسكينة، فـلا تضحك مني. أنـا لا أجرؤ على أن أحب أحـداً». وأنت، يا أخ، أنـت تفهـم! تفهم؟ وهنـا تعاهدنا على الـزواج. وفكرت، وفكرت، ثم فكـرت وفكرت، وأقول لها: كيف نقول لأمك؟ فتقول: صعب، انتظـر قليلاً. إنها تخاف، وأظن أنها لا تعطيني الآن لك. تقول ذلك، وتبكـي. وأنا دون أن أقول لها، طرأ في رأسي فهذرت بالأمر للعجوز وليزانـكا ركعت أمامها على ركبتيها، وأنـا أيضاً.... طيب، فباركتنا العجـوز. أركاشا، يا أركاشا، يا عزيـزي! سنعيش سوية. لا، أبداً، لن أفارقك، مهما كلف الأمر....

– فاسيا، كلما أنظـر إليك لا أصدق، وحق الإله لا أصدق، أقسم لك. حقاً يبدو لي أن هنـاك شيئاً... اسمع كيف ستتزوج؟ وكيف لم أعـرف بذلك؟ حقاً، يا فاسيا، أنا أعترف لك، يا أخ، بأنني أنا فكرت في الـزواج، والآن لا فرق عنـدي حين ستتزوج! طيـب، أرجو لك السعادة، أرجو لك السعادة!.....

---

٥٨. هذه الصيغة الكاملة من اسمه تعني أنها تحترمه. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

– آه، يا أخ، ما أحلى ذلك إلى قلبي الآن. وما أخفه على روحي..... – قال فاسيا، وهو ينهض، ويذرع الغرفة بتأثر – أليس صحيحاً، أليس صحيحاً؟ لك نفس الشعور، أليس كذلك؟ سنعيش عيشة فقر بالطبع، ولكننا سنكون سعيدين. إن ذلك ليس وهماً خيالياً، وليست سعادتنا من طيّات الكتب، بل سنكون سعيدين عن واقع!....

– فاسيا، فاسيا، اسمع!

– ماذا؟

قال فاسيا، وهو يقف أمام أركادي إيفانوفيتش.

– خطرت لي فكرة. حقاً أخاف قليلاً أن أقولها! فاعذرني. عليك أن تبدد شكوكي. بأي شيء ستعيش؟ أنا، لو علمت، في غاية الفرح من أنك ستتزوج، وبالطبع لا أستطيع أن أسيطر على نفسي، وأنا في غاية الفرح. ولكن بأي شيء ستعيش؟ ها؟

– أوه، يا إلهي، يا إلهي! أي إنسان أنت، يا أركاشا! – قال فاسيا، وهو ينظر إلى نيفيديفيتش بدهشة عميقة – ما هذا منك، في الواقع؟ حتى العجوز لم تفكر دقيقتين حتى صار الأمر واضحاً لديها. اسأل بأي شيء كانوا يعيشون؟ خمسمائة روبل في السنة لثلاثة أشخاص. كل ما خلّف المرحوم من تقاعد. كانت تعيش هي والعجوز، وأخ صغير، تدفعان له أجرة المدرسة من هذه النقود أيضاً. بهذه الصورة يعيشون! أنا وأنت فقط رأسماليان! بينما دخلي، انتظر، في أية سنة، جيدة، يصل حتى لسبعمائة روبل.

– اسمـع، فاسيا. اعـذرني، فأنا، والله، لا أفكـر إلا في أن لا ينهار الأمر. أية سبعمائة؟ ثلثمائة فقط....

– ثلاثمائة! ويوليان ماستاكوفيتش؟ هل نسيته؟

– يوليـان ماستاكزفيتشـ! ولكن هـذا، يا أخ أمـر لا يعول عليه، ليسـ مثل ثلاثمائة روبل راتبـاً موثوقاً به، حيث كل روبل مثل صديق لا يخـون. يوليـان ماستاكوفيتش بالطبع، رجل عظيـم، وأنا أحترمه، وأفهمـه، وهو عـالي المقام، وأحبـه، والله، لأنه يحبـك، ويهبك لقاء عملـك، في حين كان في وسعه ألا يدفع لـك، ولاتخذ لنفسه موظفاً خاصاً، ولكنك توافقني، يا فاسيا.....

اسمـع أيضـاً: أنا لا أهـذر هراء، أنـا موافـق، في كل بطرسبورغ لا يوجـد خـط مثل خطـك،، وأنـا مستعـد أن أتنازل لـك – انتهى نيفيديفيتشـ إلى القول، وليس بدون غبطة– ولكـن قد تفقد إعجابه فجأة، لا سمـح الله! ربما لا تعود تصلح له، أو تنقطع أعماله فجأة، أو يستخـدم شخصاً آخر، نعم، وأخيراً مـا أكثر ما يمكن أن يحدث! لأن يوليـان ماستاكوفيتش غير ثابـت، اليوم معك، وغداً لا، من يدري، يا فاسيا!

– اسمـع، أركاشا، يعني من المحتمل أيضاً أن يسقط السقف فوقنا الآن....

– بالطبع، بالطبع....أنا لم....

– ولكـن اسمعني، اسمع. بأية طريقة يمكـن أن ينقطع عني...لا، قطعاً، ما عليـك إلا أن تسمعني. أنا أنفذ كل شيء بمواظبة، وهو أيضاً

Telegram: @Arab_Books

رجل فاضل، يا أركاشا، اليوم أعطاني خمسين روبلاً فضياً.

– معقول، يا فاسيا؟ أعطاك مكافأة؟

– أية مكافأة؟ بل من جيبه! يقول منذ خمسة أشهر لم تقبض نقوداً يا أخ. خذ، إذا تريد. ويقول: شكراً، أنا راضي....وحق الرب! أنت لا تعمل بلا مقابل. حقاً، هذا ما قاله فسالت دموعي، يا أركاشا. يا ربي!

– اسمع، يا فاسيا، هل فرغت من كتابة تلك الأوراق؟...

– لا، لم أفرغ بعد.

– فا.....سنكا! يا ملاكي! ما هذا منك؟

– اسمع، يا أركادى، لا بأس، ما يزال هناك يومان على الموعد، وسألحق....

– وكيف لم تكتبها؟....

– كفاك! كفاك! أنت تنظر إليّ كالقتيل، حتى أن كل أمعائي تتقلب، وقلبي يوجعني! كيف هذا؟ ستظل تقتلني دائماً؟ صراخ!!!!!! ولكن احكم بنفسك: أي شيء هذا؟ سأكملها، وحق الرب، سأكملها...

وثب أركادى وصاح:

– وماذا إذا لم تكملها؟ بينما هو أعطاك مكافأة اليوم! وستتزوج حالاً....آي، آي، آي...!

صاح شوموكوف:

Telegram: @Arab_Books

– لا بأس،لا بأس. سأبدأ الآن، سأبدأ في هذه اللحظة، لا بأس.!

– كيف تقاعست عن ذلك، فاسيوتكا؟

– آه،أركاشا! وهل كان في وسعي أن أقعد للعمل؟ بأية حال كنت؟ حتى في الدوام كنت لا أكاد أستقر، لأنني لم أستطع أن أضغط على قلبي....آه! آه! سأقعد للعمل هذه الليلة، وسأقعد الليلة القادمة أيضاً، والليلة التي تليها أيضاً، وأكمل العمل!...

– هل بقي الكثير؟

– لا تعقني، بحق الرب، لا تعقني، واسكت....

سار أركادى إيفانوفيتش إلى السرير على أطراف أصابعه، وجلس عليه، وبعد ذلك همّ أن ينهض من جديد، ولكنه اضطر، بعد ذلك أيضاً، أن يقعد ثانية، بعد أن فهم أن ذلك قد يعيق صديقه، رغم أنه لم يكن قادراً على القعود، لشدة انفعاله. والظاهر أن النبأ قد هزّه تماماً، وأن الفرحة الأولى لم يتسن لها الوقت بعد لتتبخر في نفسه. نظر إلى شوموكوف، فنظر هذا إليه، وابتسم، ولوّح له بإصبعه متوعداً. وبعدها عقد حاجبيه بشكل مريع (وكأن في ذلك كل قوته، وكامل النجاح في عمله) وثبّت عينيه على الورق.

وظهر أنه، هو الآخر، لم يتغلب على انفعاله، فكان يغبر الريش، ويتململ في كرسيه، ويتحول من وضع إلى آخر، ويشرع في الكتابة مرة أخرى، إلا أن يده كانت ترتجف، وتأبى أن تتحرك.

– أركاشا! لقد حدثتهم عنك!

Telegram: @Arab_Books

صاح فجأة، كأنما تذكر شيئاً لتوه.

– صحيح؟ – صاح أركادي – كنت أريد أن أسأل الآن. ماذا، إذن!

– ماذا! أها، سأخبرك بكل شيء، فيما بعد!

نعم، والله، أنا المقصر. ولكن غاب عن ذهني تماماً، أنني لم أرد أن أقول شيئاً، حتى أكتب أربع صفحات، ولكنني تذكرتك وتذكرتهم. ثم أنني، يا أخ، لا أستطيع الكتابة. أتذكركم دائماً.....

وابتسم فاسيا. وران صمت.

– أوف، أية ريشة حقيرة!

صاح شومكوف بعد أن ألقاها على المنضدة بانزعاج. وتناول ريشة أخرى.

– فاسيا، اسمع! كلمة واحدة....

– هيّا! عجّل، ولآخر مرة.

– هل بقي لديك كثير؟

– آه، يا أخ!....– وتعبّس حتى كأن العالم ليس فيه أفظع وأقتل من هذا السؤال– كثير، كثير للغاية!

– هل تعرف، كانت لي فكرة....

Telegram: @Arab_Books

–ما هي؟

– لا، لا، اكتب

– ولكن ما هي، ما هي؟

– نحن في الساعة السابعة الآن، يا فاسيا!

وهنـا ابتسم نيفيديفيتش، وغمز لفاسيا في مخاتلة، ولكن بشيء من التهيب، على أية حال، وهو لا يعرف كيف سيتقبل صديقه هذا.

– هيا، ما هي؟

قـال فاسيا، وقد ترك الكتابة كلياً، ونظـر إليه في عينيه، بل وامتقع من الترقب.

– هل تعرف؟

– ماذا، بحق الرب؟

– هل تعرف؟ أنت منفعل، ولا تستطيع أن تعمل....على مهلك، على مهلـك، على مهلك. أنا أرى، اسمع! – قـال نيفيديفيتش، وقد نهـض من السرير منشرحـاً، مقاطعاً فاسيا الذي شـرع يتكلم، صارفاً اعتراضه بكل قواه – قبل كل شيء، يجب أن تهدأ، يجب أن تستجمع عزيمتك، أليس كذلك؟

– أركاشـا، أركاشا! – صاح فاسيا، وقد نـطّ من المقعد – سأقعد الليل بطوله، والله سأقعد!

Telegram: @Arab_Books

– أها، نعم، نعم! ولا تغفو إلا قبيل الصباح...

– لن أغفو، لن أغفو مهما يكن....

– لا، لا يصح. ستغفو، بالطبع، اغفُ في الساعة الخامسة. وسأوقظك في الثامنة. غداً عطلة، وستقعد، وتكتب النهار كله..... ثم في الليل... ولكن هل بقي لديك الكثير؟....

– هذا!

وعرض فاسيا عليه الكراسة، وهو يرتعش من الغبطة، ومن الترقب.

– هذا!....

– اسمع، يا أخ، هذا ليس بالكثير....

– يا عزيزي، ويوجد أيضاً، – قال فاسيا وهو ينظر إلى نيفيديفيتش بتهيب شديد، وكأن القرار في أن يذهب أو لا يذهب يتوقف عليه.

– كم؟

– صفحتان....

– صحيح؟ إذن، اسمع! سنلحق ونتمه، والله سنلحق!

– أركاشا!

– فاسيا! اسمع! الآن، في عشية رأس السنة، يجتمع كل الناس عوائل، وأنا وأنت فقط متشردان وحيدان، أوف! يا فاسنكا!

Telegram: @Arab_Books

و أحتضن نيفيديفيتش فاسيا، وأطبق عليه ساعديه الهصورين.

– أركاشا، حُسم الأمر!

– هــذا ما أردت أن أقوله، يا فاسيــا، يا صديقي المعكوف البرائن! اسمع! اسمع! يعني....

وتوقف أركادى فاغر الفم، لأنه عجز عن الكلام من شدة الفرح. أمسكــه فاسيا من كتفيه، ونظر إليه بكل عينيــه، وحرّك شفتيه، وكأنه يريد أن يتم بنفسه ما بدأه صاحبه من كلام. وقال أخيراً:

– طيب!

– قدمني لهم اليوم.

– أركادى! سنذهــب إلى هنــاك لنشرب الشــاي! هل تعرف؟ هل تعرف؟ لن نقعد هناك حتى حلول السنة الجديدة، سنخرج قبل ذلك.

صاح فاسيا بنشوة صادقة.

– يعني ساعتان، لا أكثر ولا أقل!....

– وبعدهما الفراق، حتى أتم العمل!...

– فاسيا!

– أركادى!

وفي ثلاث دقائق كان أركادى في تمام الهندام

Telegram: @Arab_Books

أما فاسيا فقد نظف لباسه فقط لأنه لم يخلع بدلته وقد شمّر للأمر بحماس شديد.

خرجا إلى الشارع مسرعين أحدهما أكثر بهجة من الآخر، وكان طريقهما يمتد من حي بطرسبورغسكايا ستورونا إلى كولومنا. كان أركادي إيفانوفيتش يقيس خطواته بخفة وحيوية، حتى لمن الممكن أن يرى المرء من مشيته وحدها كل فرحه بيُمن فاسيا الطافح بالسعادة أكثر فأكثر. وكان فاسيا يقارب بين خطواته القصار، ولكن دون أن يفقد وقاره. بل على العكس، لم يره أركادي إيفانوفيتش قط في مظهر يعود إليه بالنفع أكثر من مظهره هذا. بل بدا في هذه اللحظة وكأنه يحترمه أكثر، وحتى ذلك العيب المعين في خِلقة فاسيا، غير المعروف للقارئ حتى الآن(كان فاسيا مائل الجنب قليلاً) والذي كان يثير دائماً شعور المحبة العميقة والمشاركة في قلب أركادي إيفانوفيتش الطيب، كان الآن أكثر إدراراً للحنان العميق الذي كان صديقه يكنه له بشكل خاص في تلك اللحظة، والذي كان فاسيا جديراً به من مختلف الوجوه، بالطبع. بل كان أركادي إيفانوفيتش يود لو يبكي من السعادة، ولكنه ضبط نفسه.

– إلى أين، إلى أين، يا فاسيا؟ لنمر من هنا أقرب!

صاح، وهو يرى فاسيا يعمد إلى الانعطاف نحو فوزنيسينسكي[٥٩].

– اسكت، أركاشا، اسكت....

---

٥٩. منطقة جادة فوزنيسينسكي (جادة مايوروف حالياً) – المكان الذي تدور فيه أحداث الكثير من أعمال الكاتب المتأخرة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

– إنه أقرب حقاً، يا فاسيا.

– أركاشا! هل تعرف – شرع فاسيا يتحدث بشكل مبهم، وبصوت يثلجه الفرح – هل تعرف؟

يطيب لي أن أحمل هدية صغيرة لليزانكا....

– ما هذا؟

– هنا، يا أخ، في العطفة مدام ليرو، مخزن مدهش!

– أوه!

–قلنسوة، يا روحي، قلنسوة. اليوم رأيت قلنسوة صغيرة حلوة. فسألت عن الطراز، فقالوا باسمه: *manon lescaut* (٦٠) أعجوبة! شرائط سيريزية (٦١)، وإذا لم تكن غالية.... أركاشا، حتى ولو كانت غالية.

– أظنك أرفع من جميع الشعراء، يا فاسيا! لنذهب.

ركضا، وبعد دقيقتين دخلا إلى المخزن. استقبلتهما امرأة فرنسية صغيرة سوداء العينين ذات جدائل، بدت في الحال، ومن النظرة الأولى إلى زبونيها، مرحة سعيدة مثلهما، بل أسعد، إذا أمكن القول. وكان فاسيا مستعداً لأن يغطي مدام ليرو بالقُبل لشدة فرحته...

٦٠. مانون ليسكو بطلة رواية بهذا الاسم (١٧٣٣) للكاتب الفرنسي أنطوان فرانسوا بريفو (١٦٩٧ – ١٧٦٣). الناشر.

٦١. من اللفظة الفرنسية *cerise* – بلون الكرز. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

– أركاشـا! – قال بصوت خافت، بعد أن ألقى نظرة اعتيادية على كل ما هو جميل وجليل يقف على أعمدة خشبية صغيرة فوق منضدة المخزن الهائلة – عجائب! أي شيء هذا؟ ما هذا؟ هذه قلنسوة، مثلاً، هـل ترى؟ – همس فاسيا، وهو يشـير إلى قلنسوة حلوة، ولكنها غير القلنسـوة التـي أراد شراءها، لأنه كان يستمع برؤيـة أخرى من بعيد، وثبت عينيه في أخـرى، رائعة، حقيقية، معروضة في الطرف المقابل. وقـد غمرها بنظرته، حتـى كان من الممكن الظن بـأن أحداً سيسرقها منـه، أو أن القلنسـوة نفسهـا، ستطـير مـن مكانها في الهـواء، لغاية واحدة، وهي ألا تقع في يد فاسيا.

– هـذه – قال أركادى إيفانوفيتش، وقـد أشار إلى واحدة – هذه أحسن، في رأيي.

– كيف، يا أركاشا! هذه تأخذ لك تحية تعظيم مني. حقاً سأحترمك خصيصـاً لذوقك – قال فاسيا يداور بصورة مخادعة في وداد قلبه نحو أركاشا – قلنسوتك هذه فتنة، ولكن تعال إلى هنا.

– أين يوجد أحسن منها، يا أخ؟

– انظر إلى هنا!

– هذه؟

قال أركادى في شـك. إلا أن فاسيا انتزعها من الخشبة التي كانت تستقر عليها غير قادر على الصبر أكثر، وبدا وكأنها طارت من مكانها عفويـاً، منشرحة بهـذا المشترى اللطيف بعد انتظـار طويل، وراحت

Telegram: @Arab_Books

الأشرطة والكشاكش والمخرمات تخشخش، وعند ذلك أفلتت صيحة غبطة مفاجئة من صدر أركادى إيفانوفيتش الضخم. وحتى مدام ليرو التي احتفظت بكل ما لها من كياسة لا يعتورها الشك وتفوق في فن الذوق، خلال عملية الاختيار، واكتفت بالصمت تأدباً، أنعمت على فاسيا بابتسامة استحسان تامة، حتى أن كل ما فيها، في النظرة، في الإيماءة، وفي تلك الابتسامة كان يقول: أجل! لقد وُفّقت، وأنت أهل للسعادة التي تنتظرك.

– أهـا، كنت تتغنجين، تتغنجين في عزلتك –صاح فاسيا، محوّلاً حبه كله إلى القلنسوة– اختبأت عن قصد يا محتالة، يا عزيزتي – وقبّلها، أي قبّل الهواء الذي كان يحيط بها، لأنه خاف أن يمس جوهرته.

– مثلما تخفي نفسها المكرمة الحقيقية والفضيلة– أضاف أركادى في غبطة شديدة، وقد أخذ هذه العبارة، للفكاهة، من جريدة ذربة اللسان، كان قد قرأها في الصباح– ما رأيك، يا فاسيا؟

– فيفا، أركاشا! فأنت حاضر البديهة اليوم، وستكسب الحظوة بين النساء، كما يقال، أنا أتنبأ لك. يا مدام ليرو، يا مدام ليرو!

– ماذا تأمر؟

–مدام ليرو؟

نظرت مدام ليرو إلى أركادى إيفانوفيتش، وابتسمت بتلطف.

– أنت لا تتصورين كم أعبدك في هذه اللحظة... اسمحي لي بتقبيلك.

Telegram: @Arab_Books

وقبّل فاسيا صاحبة المخزن.

وكان يجب أن تستجمع كل كياستها في هذه اللحظة لكي لا تفقد احترام نفسها مع هذا الخليع. ولكنني أقر بأنه يجب أن تكون لها أيضاً، إلى جانب ذلك، كل السماحة الفطرية الأصيلة، والظرف الذي استقبلت به مدام ليرو غبطة فاسيا. فقد سامحته، واستطاعت أن تتدارك الموقف بذكاء ومهابة شديدين، وهل كان من الممكن حقاً أن يغضب أحد على فاسيا؟

– كم الثمن، يا مدام ليرو؟

– خمسة روبلات فضية.

أجابت متمالكة نفسها بابتسامة جديدة. قال أركادى إيفانوفيتش مشيراً إلى اختياره:

– وهذه، يا مدام.

– بثمانية روبلات فضية.

– لو تفضلت! لو تفضلت! وسمحت، يا مدام ليرو، أيهما أحسن وأكثر ظرافة وأحلى وأكثر انسجاماً عليك؟

– هذه أترف، ولكن اختيارك *c›est plus coquet*[٦٢]

– إذن، سنأخذها!

---

٦٢. بالفرنسية تعني: أكثر تصابياً.الناشر.

Telegram: @Arab_Books

تناولت مدام ليرو ورقة رقيقة للغاية، ودبستها بدبوس فبدت الورقة والقلنسوة الملفوفة بها وكأنها صارت أخف مما لو كانت بدون القلنسوة. تناول فاسيا كل هذه باحتراس، يكاد يكتم أنفاسه، وانحنى لمدام ليرو بالتحية، وقال لها شيئاً آخر مهذباً جداً، وخرج من المخزن.

– أنا *viveur* [٦٣]، يا أركاشا، وقد ولدت لأكون فيفور!

صاح فاسيا مقهقهاً، مستغرقاً بضحك عصبي خفيف غير مسموع، ملتفاً حول السابلة الذين كان يشك في أنهم جميعاً، أو بدون استثناء، سيحاولون، بالتأكيد، أن يدعكوا قلنسوته النفيسة.

– اسمع، يا أركاشا، اسمع! – شرع يقول بعد دقيقة، وقد رنّ في تركيبة صوته شيء احتفالي ودادي بشكل خارق – أركادى، يا أركادى، كم أنا سعيد، سعيد!...

– فاسنكا! وكم أنا سعيد أيضاً، يا عزيزي!

– لا يا أركاشا، لا. أنا أعرف أن حبك لي لا حدود له، وأنا أعرف ذلك، ولكنك لن تستطيع أن تتحسس واحداً بالمائة مما أشعره في هذه اللحظة. قلبي مفعم، مفعم! أركاشا! أنا لا أستحق هذه السعادة. أنا أحس هذا وأشعر به. جزاء أي شيء هذا – كان يقول بصوت مفعم بالعبرات المخنوقة– أي شيء فعلت، قل لي! انظر كم من الناس، كم من الدموع، كم من النوائب، وكم من الحياة اليومية دون عيد! أما أنا! تحبني مثل تلك الفتاة.. ولكن ستراها بنفسك، بعد حين، وستقدر ذلك القلب النبيل. كنت قد ولدت من مرتبة واطئة، بينما عندي الآن

---

٦٣. بالفرنسية تعني غاوي متع. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

رتبة ودخل مستقل – مرتب. ولدت بعيب في الخلقة، أنا مائل الجنب قليلاً. ولكنها أحبتني، كما أنا. واليوم كان يوليان ماستاكوفيتش رقيقاً جداً، ومهتماً جداً، ومهذباً جداً. وهو نادراً ما يتكلم معي، إلا أنه تقدم مني وقال: « حسناً، يا فاسيا (قسماً بالله دعاني بهذا) هل ستقصف وتمرح بالأعياد؟» (ويضحك هو الآخر).

فأقول له: « كذا وكيت، يا صاحب السعادة، عندي شغل» –ولكنني تشجعت في الحال، فأقول له: «ولربما سأمرح، يا صاحب السعادة» – قلت ذلك، والله. فأعطاني نقوداً في الحال، ثم قال لي كلمتين أخريين. وقد بكيت، يا أخ، وحق الرب طفحت دموعي، وهو أيضاً، قد تأثر، كما يبدو، وربت على كتفي، وقال: « أشعر، يا فاسيا، أشعر دائماً، بما تشعر الآن....»

صمت فاسيا برهة. أشاح أركادى إيفانوفيت وجهه ومسح أيضاً دمعة بجُمع يده. وتابع فاسيا:

– ثم شيء آخر، آخر.... لم أحدثك به قط، يا أركادى..... أركادى! كم تسعدني بصداقتك لي، بدونك ما كنت أعيش في الدنيا، لا، لا، لا تقل شيئاً، أركاشا! أعطني يدك لأصافحها، دعني أشكرك!....

و لم يكمل فاسيا مرة أخرى.

همّ أركادى إيفانوفيتش أن يرتمي على عنق فاسيا تماماً، ولكنهما كانا يجتازان الشارع، وقد صدر قرب أذنيهما نداء تحذير: «الطريق، الطريق» فركض الاثنان إلى الرصيف مذعورين منفعلين. بل كان

Telegram: @Arab_Books

أركادى إيفانوفيتش مسروراً بذلك. وفد فسر فيض امتنان فاسيا له بما في هذه اللحظة من استثناء لا غير. وكان نفسه يحس بالضيق. فقد أحس بأنه حتى الآن لم يفعل لفاسيا غير النزر اليسير! بل خجل من نفسه، حين أخذ فاسيا يشكره على هذا النزر اليسير! ولكن العمر بكامله مل يزال أمامها، وتنفس أركادى إيفانوفيتش أكثر طلاقة....

كفوا عن انتظارهما كلياً وبشكل قاطع! والدليل أنهم كانوا جالسين يحتسون الشاي! حقاً أن العجوز من الناس يكون أحياناً أبعد بصراً من الشباب، وأي شباب! فقد كانت ليزانكا تؤكد بجدية كبيرة على أنه «لن يأتي يا ماما، قلبي يحس بأنه لن يأتي» بينما كانت ماما لا تفتأ تقول إن قلبها، بالعكس، يحس بأنه سيأتي، بالتأكيد، وإنه لن يطيل القعود في بيته، وسيأتي، بالتأكيد، وإنه لن يطيل القعود في بيته، وسيأتي هارعاً، كما ليست له أشغال مكتبية، واليوم عشية رأس السنة! وحين فتحت ليزانكا الباب لم تكن تنتظر على الإطلاق، و لم تصدق عينيها، فقابلتهما متقطعة الأنفاس، خافقة القلب على غرة، مثل قلب طائر اصطيد، وقد توردت وتضرجت كحبة الكرز التي كانت تشبهها تماماً. يا إلهي، أية مفاجأة! وأية «آهة» فرح ندت من شفتيها! طوقت عنق فاسيا، وهتفت «خدّاع! يا روحي!»....ولكن تصوروا كل دهشتها، كل خجلها الفجائي: ووراء فاسيا تماماً، وقف أركادى إيفانوفيتش، وكأنما يود لو يختبئ خلفه، وقد ارتبك قليلاً. ويجب الاعتراف بأنه كان قصير الباع مع النساء، بل وقصير الباع جداً، بل وحدث مرة أن.....ولكن هذا فيما بعد. على أية حال كونوا في موضعه: لا فكاهة في الأمر أبداً. إنه يقف في الرواق، في كالوشه، ومعطفه، وقبعته ذات الأذينتين، وقد أسرع في خلعها،

Telegram: @Arab_Books

والتفّ كلياً، وبشكل شائه، بلفاح أصفر محاك قبيح، بل ومربوط إلى الخلف لمزيد من الأبهة. وكل ذلك يجب أن يفك، ويخلع في أقرب وقت، ويعطي مظهراً أكثر لياقة. إذ ما من إنسان لا يريد أن يبدو في مظهر لياقة. وإلى جانبه فاسيا مزعج صعب تحمله، ولو كان ما يزال على حلاوته وطيبته الشديدة، وبالطبع، ولكنه فاسيا المزعج الغليظ، في آخر الأمر! إنه يصيح: «أقدم لك صديقي أركادى، يا ليزانكا! ما رأيك فيه؟ أحسن صديق لي. عانقيه، قبليه، يا ليزانكا، قبليه مقدماً، وستعرفينه أحسن فيما بعد، وستطمعين بنفسك في تقبيله أكثر....» ماذا إذن؟ طيب، أنا أسأل، ماذا ينبغي أن يفعل أركادى إيفانوفيتش؟ ها هو لم يفكّ غير نصف لفاحه! حقاً أنا أحياناً أخجل من إفراط فاسيا في الابتهاج، وهو، بالطبع، يدل على طيبة القلب. ومع هذا فذلك غير مستحب، وتعوزه اللياقة.

وأخيراً دخل الاثنان. كانت العجوز مسرورة، بشكل لا يوصف، بالتعرف على أركادى إيفانوفيتش، فقد سمعت عنه كثيراً و.... ولكنها لم تكمل ما أرادت أن تقوله. فإن «آهة» الفرح التي رنّت في الغرفة أوقفتها إلى هذا الحد! يا إلهي! كانت ليزانكا واقفة أمام القلنسوة المحلولة فجأة، وقد طوت ذراعيها الصغيرتين بسذاجة، وابتسمت، ابتسمت بشكل.... أوه، يا إلهي، وآ أسفاه لم تكن لدى مدام ليرو قلنسوة أحسن من هذه!

آه، يا ربي، وأين يمكن أن تجدي قلنسوة أحسن من هذه؟ هذا مستحيل! وأين يمكن أن تجدي أحسن منها؟ أنا أتكلم بجد! بل نكران الجميل هذا من المعشوقة يثير في نفسي بعض السخط، بل ويغمني قليلاً. طيب، انظروا، يا سادة، انظروا ماذا يمكن قليلاً. طيب،

Telegram: @Arab_Books

انظروا، يا سادة، انظروا ماذا يمكن أن يكون أحسن من هذه القلنسوة الكيوبيدية[٦٤]! طيب ألقوا نظرة....ولكن لا، لا، قطعاً، غمزاتي كانت عبثاً. فقد وافقوني جميعاً. كانت تلك زلة مؤقتة، ضباباً، حدة شعور، وأنا مستعد لمسامحتهم..... ولكن انظروا، على أية حال.... اعذروني، يا سادة، أنا أتحدث بشأن القلنسوة دائماً، من التيول، خفيفة، لها شريط عريض بلون الكرو، مغطى بالدنتلا، يمتد بين قمة القلنسوة والكشكش، وإلى الخلف شريطان، عريضان، طويلان، سيسقطان أسفل من القفا قليلاً، على الرقبة....ينبغي فقط أن تُلبس القلنسوة بكليتها منسرحة قليلاً على القفا. هاكم، انظروا، طيب، سأسألكم بعد هذا! نعم أرى، إنكم لا تنظرون! لا فرق عندكم، على ما يبدو! أنتم تنظرون إلى جهة أخرى....أنتم تنظرون، إلى دمعتين كبيرتين جداً، مثل لؤلؤتين، فارتا، لمحة واحدة، في عينين سوداوين كالقطران، وارتعشتا، للمحة، على الأهداب الطويلة، وسقطتا، بعد ذلك، على ذلك التيول الشبيه بالهواء، بالأحرى، والذي صُنعت منه تحفة مدام ليرو الفنية....آه، لقد تكدرت مرة أخرى، ذلك لأن هاتين الدمعتين لم تكونا تقريباً بسبب القلنسوة!....لا! أظن أن مثل هذا الشيء يجب أن يهديه المرء ببرود أعصاب. عندئذ فقط يمكن أن تقدر بصورة حقيقية! أنا أعترف، يا سادة أن كل ذلك بسبب القلنسوة!

جلسوا: فاسيا مع ليزانكا، والعجوز مع أركادي إيفانوفيتش. وشرعوا في الحديث. وقد حافظ أركادي إيفانوفيتش على اتزانه كلياً. وأنا أعترف له بحسن اللياقة بسرور. بل كان يصعب عليّ أن أتوقع منه ذلك. بعد كلمتين عن فاسيا، استطاع بشكل رائع أن يتحدث عن

---

٦٤. نسبة إلى كيوبيد إله الحب. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

يوليان ماستاكوفيتش، وعن مكرمته. وقد تحدث بذكاء شديد حتى أن الحديث، في الحقيقة، لم يُستنفد في ساعة واحدة. وكان يجب أن تروا بأي ذكاء وبأي لباقة مسّ أركادى إيفانوفيتش بعض خصائص يوليان ماستاكوفيتش التي كانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بفاسيا. وإزاء ذلك كانت العجوز مفتونة، ومفتونة حقاً. وقد اعترفت بذلك، ودعت فاسيا إلى ناحية عن عمد، وهناك قالت له إن صديقه شاب غاية في الروعة والتهذيب، والأهم من ذلك أنه شاب جدي رزين جداً. وكاد فاسيا أن يغرب في الضحك من النشوة. فقد تذكر كيف قلّبه أركاشا الرزين في السرير لمدة ربع ساعة! وبعد ذلك غمزت العجوز لفاسيا، وقالت له أن يخرج وراءها بهدوء وحذر إلى الغرفة الأخرى. يجب الاعتراف بأنها تصرفت تصرفاً نحو ليزانكا سيئاً بعض الشيء وعن سخاء في القلب، بالطبع، نكثت بها، وارتأت أن تعرض هدية ليزانكا لفاسيا في عيد رأس السنة. وهي محفظة أوراق صغيرة مطرزة بخرز زجاجية صغيرة وبالذهب، وعليها رسم رائع: على إحدى الدفتين رسم أيل طبيعي تماماً يركض بخفة، جميل ويشبه الأصل! وعلى الدفة الثانية صورة جنرال معروف مرسومة بروعة أيضاً، وتشبه الأصل كثيراً. وأنا لا أريد أن أتحدث عن غبطة فاسيا. وفي غضون ذلك لم يذهب الوقت سدى في القاعة. اقتربت ليزانكا من أركادى إيفانوفيتش تماماً، وتناولت يديه، وشكرته على شيء ما، وحدس أركادى إيفانوفيتش، أخيراً، إن هذا الشيء يتعلق بفاسيا الغالي على قلب ليزانكا. بل كانت ليزانكا متأثرة عميق التأثر. فقد سمعت أن أركادى إيفانوفيتش هو صديق خطيبها الحميم، وأنه كان يحبه كثيراً، ويتعهده، ويسدي له النصائح المنقذة في كل خطوة يخطوها، وليس من الممكن ألا تشكره ليزانكا، وليس من الممكن أن تحجم عن إظهار

Telegram: @Arab_Books

الامتنان، وتأمل، أخيراً، في أن يحبها أركادى إيفانوفيتش أيضاً، ولو نصف الحب الذي يضمره لفاسيا. وبعد ذلك راحت تسأل هل يحافظ فاسيا على صحته، وأبدت بعض المخاوف بشأن حدة طبعه الملحوظة، وبشأن معرفة الناس الناقصة وقلة الإلمام بالحياة العملية، وقالت إنها مع الزمن سترعاه بقدسية. وتصونه، وتتعهد مستقبله، وهي تأمل، أخيراً، ليس فقط ألا يتركهما أركادى إيفانوفيتش، بل وأن يعيش معهما. وهتفت بحبور ساذج جداً:

– سنعيش ثلاثتنا كشخص واحد!

ولكن كان يجب الانصراف. وطبيعي أن المرأتين أخذتا تصران على بقائهما، إلا أن فاسيا أعلن أن ذلك غير ممكن تماماً. وأكّد أركادى إيفانوفيتش الشيء نفسه. وطبيعي أن تسألا عن السبب، فاتضح على الفور أن يوليان ماستاكوفيتش كان قد عهد إلى فاسيا بعمل مستعجل ضروري، مريع، يجب أن يقدمه إليه بعد غد صباحاً، والعمل ما يزال ناقصاً لم يتم، بل ومهملاً كلياً. تأوهت الأم حالما سمعت ذلك، ولاح على ليزانكا الخوف، وهلعت، بل وصرفت فاسيا. ولم تضع القبلة الأخيرة بسبب ذلك على الإطلاق. كانت أقصر وأسرع، إلا أنها، بالمقابل، أحرّ وأقوى. وأخيراً افترقوا، وقفل كلا الصديقين عائدين إلى البيت.

وحالما وجد الصديقان نفسيهما في الشارع حتى راح أحدهما يسابق الآخر في البوح له بانطباعاته. وكان هذا ما ينبغي أن يكون بالفعل: أركادى إيفانوفيتش مغرم، مغرم بليزانكا إلى حد الموت! ومن يأتمن على ذلك أفضل مما يأتمن فاسيا السعيد نفسه؟ وهذا ما فعله.

Telegram: @Arab_Books

لم يتورع، واعترف لفاسيا بكل شيء. ضحك فاسيا ضحكاً فظيعاً، واستُرّ سروراً شديداً، بل ولاحظ أن ذلك ليس بالأمر الزائد عن اللزوم، وأنهم سيعيشون الآن صديقين أكثر. قال أركادى إيفانوفيتش: «لقد حزرتني، يا فاسيا نعم!أنا أحبها كما أحبك. وستكون ملاكي، مثلما هي ملاكك، وبذلك ستفيض سعادتكما عليّ، وتدفئني. ستكون وليّة أمري، يا فاسيا، وسعادتي ستكون في يدها. فلتتولَ أمري، مثلما تتولى أمرك. أجل، صداقتي لها هي صداقتي لك. أنتما الآن لا تنفصلان عندي. سوى أنه سيكون لي مخلوقان مثلك بدلاً من مخلوق واحد....» وصمت أركادى من فيض المشاعر. بينما اهتز فاسيا بكلماته حتى أعماق روحه. ذلك لأنه لم يتوقع قط هذه الكلمات من أركادى. وبشكل عام لم يكن أركادى إيفانوفيتش يحسن الكلام، كما لم يكن يحب السرحان مع الأحلام قط. أما الآن فقد انسرح حالاً في أشد الأحلام مرحاً، وأكثرها غضاضة، وأعظمها حبوراً. وعاد يقول: « كم سأصونكما كليكما، وأرعاكما، أولاً سأكون أنا عراب أبنائك كلهم، كلهم بدون استثناء. وثانياً، يا فاسيا، يجب الاهتمام في المستقبل أيضاً. يجب أن نشتري أثاثاً، ويجب أن نستأجر شقة تكون لها ولك ولي حجرات منفصلة. واعلم، يا فاسيا، بأنني سأهرع في الغد لأرى الإعلانات الملصقة على البوابات. ثلاث...لا، غرفتان، ولا حاجة بنا إلى أكثر. وأعتقد أيضاً، يا فاسيا أنني كنت أتكلم هراء اليوم. الفلوس كافية. أي شيء! حالما نظرت في عينيها، حتى قدّرت أن الفلوس كافية. كل شيء لها! أوه، وكم سنعمل! الآن في الإمكان المجازفة، يا فاسيا، ودفع زهاء خمسة وعشرين روبلاً للشقة. الشقة كل شيء، يا أخ! حجرات جيدة...فيها الإنسان مرح، والأحلام بهيجة! وثانياً، ستكون ليزانكا أمينة صندوقنا المشتركة، ولا كوبيك

Telegram: @Arab_Books

زائد! يعني تتصور أنني سأعرج على حانة الآن! من تحسبني، يا فتى؟ لا، قطعاً! ثم تأتي زيادة، نحصل على مكافآت، لأننا سنؤدي الخدمة بشكل معتبر. أوو! سنعمل كما تعمل الثيران في حرث الأرض.... والآن تصوّر – وضعف صوت أركادى إيفانوفيتش من النشوة – فجأة تنزل علينا ثلاثون أو خمسة وعشرون روبلاً غير متوقعة البتة!....وكل مكافأة تتبعها هدية، قد تكون قلنسوة أو لفاحاً أو جورباً! وستحوك لي لفاحاً بالتأكيد، انظر أي لفاح حقير لي، أصفر، كريه، جلب عليّ المصائب اليوم! ثم أنت أيضاً، يا فاسيا.تقدمني إلى ليزانكا والربقة هذه حول رقبتي....ولكن ليس هذا هو الموضوع قطعاً! اسمع سأتكفل أنا بأواني الفضة. لأنني ملزم أمامكما بتقديم هدية. ذلك، شرف، ذلك موضع اعتزاز لنفسي! لن تضيع مكافآتي. يعني يعطونها لسكوروخودف؟ أظنها لا تتخمر في جيب الطويل هذا. سأشتري لكما، يا أخ، ملاعق فضية، وسكاكين جيدة، ليست فضية، ولكنها ممتازة، وصداراً، أقصد صداراً لي، لأنني سأكون شاهد عرسكما! فقط أن تشد عزيمتك، وسأقف أنا بالعصا على رأسك اليوم وغداً، وطوال الليل، وألح عليك بالعمل قائلاً: أكمله، أكمله، يا أخ، بأسرع وقت ممكن! وبعدها إلى السهرة مرة أخرى. وبعدها سنكون سعيدين كلانا، ونلعب لعبة اللوتو!....نقعد في الأماسي ونلعب، كما يطيب للنفس! فوه، اللعنة! كم يضايقني أنني لا أستطيع أن أساعدك. وإلا لأخذت وكتبت عنك كل شيء....أوه، لماذا خطانا غير متشابهين؟»

أجاب فاسيا:

– نعم! نعم! يجب الإسراع. أظنها الساعة الحادية عشرة الآن، ويجب الإسراع....إلى العمل!

Telegram: @Arab_Books

كان فاسيا طوال الوقت إما يبتسم أو يسعى، على نحوما، إلى وقف تدفق عواطفه الودية بملاحظة بهيجة، وباختصار كان يظهر أعظم الحماس، إلا أنه هدأ فجأة، بعد أن قال ذلك، وصمت، وانطلق في الشارع بسير حثيث كالركض. وبدا وكأن فكرة ثقيلة أثلجت فجأة رأسه الملتهب، ولاح وكأن قلبه كله قد انقبض.

وأخذ أركادى إيفانوفيتش يقلق، وأسئلته السريعة لا تكاد تحظى بجواب من فاسيا الذي كان يتملص بكلمة وأخرى، وأحياناً بآهة تعجب غالباً ما تكون مقطوعة الصلة بالموضوع تماماً. وأخيراً صاح، وهو لا يكاد يلحق به: « ماذا دهاك، يا فاسيا؟ معقول إنك قلق إلى هذا الحد؟...» ردّ فاسيا حتى بضيق: « كفى ثرثرة، يا أخ!» فقاطعه أركادى: « لا تضق ذرعاً، يا فاسيا، كفاك، ثم أنني كنت أرى أنك كنت تكتب أكثر بكثير في فترة أقصر.. ماذا ينقصك! عندك موهبة كاملة! على الأقل يمكن استعجال الريشة. فإن مخطوطاتك لا تطبع طبعة حجرية. ستلحق!.... مجرد أنك منفعل الآن، سارح الذهن، فتجد مشقة أكثر في العمل....» لم يكن فاسيا يرد، أو كان يتمتم بشيء في سره، وأسرع الاثنان إلى البيت في هلع شديد.

انكب فاسيا على أوراقه حالاً. نظر أركادى إيفانوفيتش إليه، وهدأ. خلع ملابسه بهدوء، واضطجع على السرير، دون أن يصرف بصره عن فاسيا... استولى عليه رعب.... فخاطب نفسه وهو ينظر إلى وجه فاسيا الممتقع، وإلى عينيه الملتهبتين، وإلى القلق المنبعث من كل حركة له: « ماذا حصل له؟ يداه ترتعشان.... فوه، أنت، حقاً! حبذا، لو نصحته بأن يغفو ساعتين إذن. لأغرق اضطرابه في النوم». وما إن فرغ فاسيا من كتابة ورقة، حتى رفع عينيه، ونظر

Telegram: @Arab_Books

إلى أركادى نظـرة عارضة، وغضّ بصره في الحـال، وأمسك الريشة مرة أخرى.

وفجأة قال أركادى إيفانوفيتش:

– اسمـع، يـا فاسيا. أليس من الأفضل لـك أن تنام قليلاً؟ انظر إلى نفسك أنت محموم تماماً....

نظر فاسيا إلى أركادى بانزعاج، بل وبحنق، و لم يجب.

– اسمع، يا فاسيا، ما هذا الذي تجنيه في حق نفسك؟...

غرق فاسيا في تفكير حالاً. وقال:

– ألا نشرب شيئاً من الشاي، يا أركاشا؟

– كيف هذا؟ و لِمَ؟

– ليمدنا بالقوة. لست نعسان، ولا أني أن أنام! سأظل أكتب طول الوقـت. أما الآن فحبـذا أن أستريح وراء قدح مـن الشاي، وستزول اللحظة المرهقة.

– شاطـر، يـا أخ فاسيا، رائع! هـذا بالذات مـا أردت أن أقترحه عليـك. ولكننـي أتعجب كيـف لم يخطر ذلك في بـالي. ولكن، هل تعرف؟ لن تنهض مافرا من نومتها، ولن تستيقظ مهما يكن من شيء.

– نعم....

– هراء، لا بأس! – صاح أركادى إيفانوفيتش، وقد نط من السرير

Telegram: @Arab_Books

حافي القدمين – سأعد السماور بنفسي. وهل هذا للمرة الأولى عليّ؟...

هرع أركادى إيفانوفيتش إلى المطبخ، وراح ينشغل في السماور. ظل فاسيا يكتب خلال ذلك. ارتدى أركادى إيفانوفيتش ملابسه، وخرج وسار إلى المخبز ليستطيع فاسيا أن يصيب قدراً من الطعام في الليل. وبعد ربع ساعة كان السماور موضوعاً على المنضدة. أخذا يحتسيان الشاي، إلا أن الحديث بينهما لم ينعقد. كان فاسيا شارد الذهن طوال الوقت.

– المسألة – قال أخيراً، وكأنما عدّل فكره – ينبغي الذهاب في الغد للتهنئة....

– لا ينبغي لك على الإطلاق.

قال فاسيا:

– لا، يا أخ، لا يصح.

– سأكتب عنك اسمك لدى الجميع... فماذا تريد أكثر! عليك أن تعمل غداً واليوم حبذا لو تجلس إلى الكتابة حتى الساعة الخامسة، كما كنت أقول لك، وبعدها تأخذ لم غفوة. وإلا أي شيء ستشبه في الغد؟ سأوقظك في الساعة الثامنة تماماً....

قال فاسيا شبه موافق:

– ولكن هل لطيف أنك ستوقع عني؟

Telegram: @Arab_Books

– وما الأفضل من ذلك؟ مثلما يفعل الجميع!...

– حقاً، أنا أخاف...

– مم، مم؟

– لا بأس لدى الآخرين، ولكن يوليان ماستاكوفيتش، فهو يا أركاشا، وليّ نعمتي. وحالما يلحظ أن يداً غير يدي....

– يلحظ! أوه، ما هذا منك، يا فاسيا، حقاً!

كيف يمكن أن يلحظ؟.....ولكن اعلم أنني أوقع باسمك بشكل لا يختلف تماماً، واضع له تذييلاً أيضاً، والله، وكفى، ما هذا منك! ومن سيلحظه؟....

لم يرد فاسيا، واكمل شرب قدحه مسرعاً...

وبعدها هزّ رأسه بارتياب.

– فاسيا، يا عزيزتي! آه، لو نوفق! ولكن ماذا بك، يا فاسيا؟ أنت تخيفني لا غير! أنت تعرف أنني لا آوي إلى فراشي الآن، لا أغفو، يا فاسيا. أرني، هل بقى شيء كثير؟

رمقه فاسيا رمقة جعلت قلبه يتقلّب، ولسانه يرتخي.

– فاسيا! ماذا بك؟ لماذا تنظر هذه النظرة؟

– الحقيقة، يا أركادي،إنني سأذهب غداً لتهنئة يوليان ماستاكوفيتش.

Telegram: @Arab_Books

– تفضل، اذهب!

قال أركادى، وهو ينظر إليه بكل عينيه، في ترقب مضن.

– اسمـع، يا فاسيا، استعجل الريشة. أنا لا أنصحك نصيحة سوء، نعم وحق الرب! كم مرة قال يوليان ماستاكوفيتش نفسه إن الوضوح هـو أكثر ما يعجبـه في ريشتك! ذلـك لأن سكوروبليوخين فقط هو الذي يحب أن يكتب بوضوح وجمال مثلما في كراسة الخط، ليقتر في الورق، بعد ذلك، ويعطيه إلى الأطفال، ليستنسخوها. فإن هذا المحتال لا يستطيع أن يشتري لهم كراسة خط! بينما يوليان ماستاكوفيتش يظل يردد ويطالب: بوضوح، ثم بوضوح، ثم بوضوح! فماذا تريد؟ حقاً، يـا فاسيا، لم أعرف كيف أتكلم معك....أنا أخشى أيضاً، أنت تقتلني بوحشتك.

– لا شيء، لا شيء!

قال فاسيا، وانهد على الكرسي بوهن. فارتعب أركادى.

– هل تريد أن تشرب ماء؟ فاسيا! فاسيا!

– كفـى، كفى – قـال فاسيا عاصـراً يده– لا شيء بـي. سوى أن حزناً ألـمّ بي، يا أركادى. بل أنا نفسي لا أستطيع أن أقول لأي سبب. اسمع، من الأفضل أن تتحدث عن شيء آخر، ولا تذكرني.

– اهـدأ، بحق الرب، اهدأ، يـا فاسيا. ستتم عملك، والله، ستتمه! وحتى إذا لم تتمه، فهل في ذلك مصيبة؟ كأن ذلك جريمة!

Telegram: @Arab_Books

–أركادى – قـال فاسيا، وهو ينظر إلى صديقه بدلالة عميقة، حتى أن هذا ارتعب كثيراً، لأن فاسيا

لم يكـن قط على مثل فزعـه الشديد الآن – لو كنت لوحدي، كما كنت من قبـل....لا! أنا لا أعني هذا. بـل أود أن أقول لك وأئتمنك على كل شيء، كصديق...ولكن لمـاذا أقلقك؟ أنت ترى، يا أركادى هناك أناس أعطوا الكثير، وآخـرون يفعلون القيلي، مثلي. طيب ماذا لو طولبت بالامتنان والإعتراف بالجميل، و لم تستطع الوفاء به؟

– فاسيا! أنا لا أفهمك كلياً!

– أنـا لم أنكر الجميل قط– تابـع فاسيا كلامه بهدوء، وكأنه يناقش نفسـه– ولكـن إذا كنت غير قادر على الإعراب عـن كل ما أشعر به، فمعنـى ذلك...ينجـم عـن ذلك، يـا أركادى، أنني كمـنْ لا يعترف بالجميل في واقع الأمر. وهذا يفتك بي.

– ولكـن ما هذا! معقـول أن كل اعترافـك بالجميل يتوقف على استنساخـك في الموعـد المقـرر؟ فكر فيمـا تقوله، يا فاسيـا! هل من المعقول أن الاعتراف بالجميل ينحصر في هذا؟

صمت فاسيا فجأة، ونظر بكل عينيه إلى أركادى، وكأن محاججته المفاجئـة بددت كل الشكـوك. بل وابتسم، إلا أنـه اتخذ، في الحال، هيئته الساهمـة السابقة. اعتبر أركادى إبتسامته نهاية لكل المخاوف، والقلق الذي ظهر ثانية أقداماً على شيء أفضل، فابتهج ابتهاجاً بالغاً.

قال فاسيا:

Telegram: @Arab_Books

– طيـب، يا أخ أركاشـا، حين تستيقظ، ألقِ نظـرة عليّ، مخافة أن أكون قد غفوت. سيكون ذلك مصيبة، والآن، سأجلس إلى العمل... أركاشا!

– ماذا؟

– لا، لا شيء، مجرد....أردت...

اتخـذ فاسيا مجلسه، وصمت. واستلقى أركادى. ولم يثر هذا ولا ذاك بكلمتـين إلى الذيـن يسكنـون كولومنا. ربمـا كان كلاهما يشعر بالذنـب بعض الشيء، وبأنهمـا لهَوا ومَرحا في وقـت غير مناسب. وبعـد قليـل غفـا أركادى إيفانوفيتش، وهـو دائم الحنـين إلى فاسيا. ولدهشتـه إنه استيقظ في تمام السّاعة الثامنـة صباحاً. كان فاسيا نائماً علـى الكرسي ممتقعاً، منهوكاً، ممسكاً الرّيشة بيده. وقد ذابت الشّمعة تمامـاً. وفي المطبخ كانت مافرا منشغلـة بالسماور. صاح أركادى في هلع:

– فاسيا، فاسيا! متى غفوت؟

فتح فاسيا عينيه، وقفز من كرسيه....قال:

– آه! مع ذلك غفوت!...

وهرع إلى الأوراق في الحال. لا بأس. كل شيء كان بخير. لم تتبقع بقطرات حبر، ولا بذوب الشمع. قال فاسيا:

– أظنني قد غفوت في نحو السّاعة السّادسة. كم كان الجوّ بارداً! في اللّيل! لنحتسي الشّاي، ومرة أخرى سأ.....

Telegram: @Arab_Books

– هل تسند نفسك بشيء من الطّعام؟

– نعم، نعم، لا بأس. الآن لا بأس!.....

– كل عام وأنت بخير، يا أخ فاسيا.

– أهلاً، يا أخ، أهلاً. وأنت بخير أيضاً، يا عزيزي.

وتعانقا. كان ذقن فاسيا يرتعش، وعيناه نديتين. لزم أركادى إيفانفيتش الصّمت. أحسّ بمرارة. كلاهما كان يشرب الشاي متعجلاً...

– أركادى! عزمت على الذهاب بنفسي إلى يوليان ماستاكوفيتش....

– ولكنه لن يلحظ....

– ضميري يكاد يعذبني، يا أخ.

–ولكنك تحبس نفسك من أجله، تقتل نفسك من أجله....كفاية! واعلم، يا أخ، أنني ذاهب إلى هناك...

سأل فاسيا: – إلى أين؟

– إلى آل أرتيميف. أقدم التهاني عن نفسي، وعنك.

– يا عزيزي، يا حلو! حسناً! وأظل أنا هنا. أرى أنك قد أحسنت التفكير.فأنا سأعمل هنا، ولا أزجي الوقت عبثاً! انتظر دقيقة، سأكتب رسالة في الحال.

Telegram: @Arab_Books

– اكتب، يـا أخ، اكتب. عندك وقت، بينمـا أغتسل أنا، وأحلق، وأنظف سترتي الفـراك. آوه، يا أخ فاسيا، سنكون مرتاحين سعيدين. عانقني، يا فاسيا!

– آه، يا أخ، حبذا.....

صدر صوت طفل من السلم:

– هل السيّد شومكوف يسكن هنا؟

– نعم، يا بني، هنا.

قالت مافرا ذلك، وأذنت للضيف بالدخول.

– مـاذا هناك؟ ماذا، مـاذا؟ – صاح فاسيا، ووثـب من الكرسي، واندفع إلى الرواق – بيتنكا، أهذا أنت؟.....

– مرحباً. يشرفني أن أهنئكم بالعام الجديد، يا فاسيلي بتروفيتش – قال طفل حلو المحيا، أسود الشعر أجعد، في نحو العاشرة من العمر – تحييكم أختي، وماما أيضاً، أمرت أختي بأن أقبلكما عوضاً عنها...

رفع فاسيا الرسول الصغـير في الهواء، وطبع على شفتيه الشبيهتين بشفتي ليزانكا تماماً قبلة بطيشة، طويلة، جذلى.

– قبِّلـه، يا أركادى – قـال ذلك، وقدم بيتنكا له، فانتقل بيتنكا في الحال إلى أحضـان أركادى إيفانوفيتش القوية، النهمة، في المعنى التام لهذه الكلمة، دون أن يمس الأرض بقدميه.

Telegram: @Arab_Books

– يا حمامتي، هل تحب أن تشرب الشاي؟

– شكراً جزيلاً. شربنا! اليوم استيقظنا في وقت مبكر. ذهب أهلنا إلى القدّاس. وقفت أختي ساعتين، تعقص شعري، وتدهن، وتغسل، وتخيط بنطالي، لأنني قد مزقته يوم أمس مع ساشا في الشّارع: وأخذنا نلعب بكرات الثلج...

– طيب، وبعد، وبعد!

– طيب، قضت أختي الوقت في تزييني لأذهب إليكما. وبعدها دهنت، ثم غطتني بالقبل نهائياً، وتقول: «انزل إلى فاسيا وهنئه، واسأله هل هما مرتاحان، وهل ناما بهدوء وشيء آخر... سألت عن شيء آخر. نعم! قالت أيضاً هل تم العمل الذي كنت في المساء.... كيف قالت... أها... هذا مكتوب عندي – قال الطفل، وهو يقرأ في الورقة التي أخرجها من جيبه– أها! كنت قلقاً عليه.

– سيتم! سيتم! قل لها سيتم من كل بد، كلام شرف!

– أها، شيء آخر.....آخ! نسيت. أختي كتبت مذكرة وبعثت هدية، ولكنني نسيت!..

– يا ربي!...آخ، يا حبيبي! أين....أين؟ هذه؟ انظر، يا أخ، ماذا تكتب لي. ح...بي....بتي.، عزيزتي! بالأمس رأيت محفظة أوراق لي، لم تكمل بعد، وها هي تقول: أرسل لكما خصلة من شعري، أما المحفظة فستكون لك من كل بد. انظر، يا أخ، انظر!

وعرض على أركادى إيفانوفيتش، وقد هزته شدة الفرح، خصلة

Telegram: @Arab_Books

شعـر كثيف فاحم، ثـم راح يقبلها بهيام، وخبأهـا في جيبه الصدري لتكون أقرب إلى القلب.

وأخيراً قال أركادى إيفانوفيتش بتصميم:

– فاسيا! سأوصي لك على ميدالية لتضع فيها هذا الشعر!

– سيكون عندنا لحم عجل مقلي، وبعده في الغد أمخاخ، وأمي تريد أن تحضر بسكويتاً.... عصيدة الحنطة سنستغني عنها – قال الطفل بعد أن فكر كيف يختم أخباره.

– ياه! أي طفل حلو! – صاح أركادى إيفانوفيتش – يا فاسيا أنت أسعد سكان الأرض الزائلين!

فـرغ الصّبي من شرب الشاي، وتسلّم مذكرة، وألف قبلة، وخرج سعيداً خفيفاً، كما جاء.

– والآن، يـا أخ – قـال أركادى إيفانوفيتش فرحاً – أنت ترى كم لطيـف هذا! جرى كل شيء نحو الأحسـن. لا حزن ولا خوف! إلى الأمـام! أنّه العمل، يا فاسيا، أنهِه! سأعود في السّاعة الثانية. أزورهم، ثم أعرج على يوليان ماستاكوفيتش....

– طيب، مع السلامة، يا أخ، مع السلامة....

آه، يـا ليـت! طيب، وليكـن، اذهـب، اذهب – قـال فاسيا – لن اذهب، يا أخ، إلى يوليان ماستاكوفيتش قطعاً.

– إلى اللقاء!

Telegram: @Arab_Books

– قـف، يا أخ، قـف. قُل لهم.... طيب قُـل كل ما تجد من كلام، وقبِّلها..... وأخبرني، يا أخ، فيما بعد أخبرني بكل شيء...

– بالطبع، بالطبع، معلوم، نعـرف ماذا! هذه السعادة قلبتك قلباً! ذلـك من المفاجأة. أنت لست علـى بعضك منذ اليوم البارح. أنت لم تسترح بعد من انطباعاتك يـوم أمس. طيب حسناً! تمالك نفسك، يا عزيزي فاسيا! إلى اللقاء، إلى اللقاء!

وأخيراً، افترق الصديقـان. طيلة الصباح كان أركادى إيفانوفيتش ساهماً، ولا يفكر إلا في فاسيا.

كان يعرف طبعه الضعيف الإنفعالي. «نعم السعادة هي التي قلبته، لم أكـن مخطئاً! – كان يقول لنفسه – يا ربي! جتى إليّ نقل لوعته. إلى أي حـد بـارع هذا الإنسان في إثـارة المأساة! هذه حمـى! آه، يجب إنقـاذه! يجب إنقـاذه!» – كان أركادى يقـول دون أن يفطن إلى أنه أثار في قلبـه، على ما يبدو، وإلى حد التكـدر، منغصات بيتية صغيرة وتافهة من حيـث الجوهر. وفي الساعة الحادية عشرة فقط استطاع أن يدخل غرفة حاجب يوليـان ماستاكوفيتش، ليضم اسمه المتواضع إلى العمـود الطويل من الشخصيات المهمة التي سجلت أسماءها في غرفة الحاجـب على ورقة مبقعـة مملوءة بالخطوط. ولكن مـا أعظم دهشته حين تراءى أمامه توقيع فاسيا شومكوف بنفسه!

أذهلـه الأمر. وفكر مع نفسه: «ماذا يحصل له؟» وخرج أركادى إيفانوفيتش كسيف الخاطر، وقد كان، إلى وقت قصير، يداعبه الأمل. وبالفعل كانت مصيبة في سبيل الوقوع. ولكن أين؟ ولكن ما هي؟

Telegram: @Arab_Books

وصـل إلى كولومنا والأفكار السوداء تـراوده، وكان شارد الذهن في البدايـة، إلا أنه تكلم قليلاً مع ليزانكا، وخرج والدموع تترقرق في عينيـه، لأنه كان خائفاً على فاسيا حقـاً. انطلق إلى بيته راكضاً، وعلى نيفـا التقى بشومكوف وجهـاً لوجه، كان هذا يركضـ أيضاً. صاح أركادى إيفانوفيتش:

– إلى أين؟

توقف فاسيا، كالمتلبس بجريمة

– أنا، يا أخ، كنت أريد أن أتنزه.

– ولم تتحمل، فسرت نحو كولومنا؟ آه، فاسيا، فاسيا! طيب، لماذا ذهبت إلى يوليان ماستاكوفيتش؟

لم يجب فاسيا، إلا أنه، فيما بعد، هز ذراعه بقنوط، وقال:

– أركادى! أنا لا أعرف ماذا يحصل لي! أنا....

– كفاية، فاسيا، كفاية! فأنا أعرف ما هذا.

اهدأ! أنت ثائـر الأعصاب،ومهزوز منذ اليوم البارح! فكر قليلاً، ولا تنجـرف في هـذا! الجميـع يحبونـك، والجميع يحيطـون بك، وعملك يتقدم، وستنجزه، بكل تأكيد ستنجزه، أنا أعرف أنك تتوهم شيئاً ما، وأن لك مخاوف....

– لا، لا شيء، لا شيء.

Telegram: @Arab_Books

– أنــت تذكر، يا فاسيا، فقد حصــل لك ذلك من قبل. تذكر حين حصلــت على درجــة في الوظيفــة، ولسعادتك وامتنانــك ضاعفت مجهــودك، ولأسبوع فقط أفسدت عملــك. والآن، يحصل لك نفس الشيء.....

– أنــت تذكر، يا فاسيا، فقد حصــل لك ذلك من قبل. تذكر حين حصلــت على درجــة في الوظيفــة، ولسعادتك وامتنانــك ضاعفت مجهــودك، ولأسبوع فقــط أفسدت عملــك. والآن يحصل لك نفس الشيء...

– نعم، نعم، يا أركادى. ولكن الآن شيئاً آخر، مختلفاً تماماً....

– ولكــن، كيف هو مختلف، أرجوك! ربما ليســ العمل مستعجلاً كلياً، بينما أنت تقتل نفسك به....

– لا شيء، لا شيء، مجرد كلام. هيا، لنذهب!

– ولماذا أنت ذاهب إلى البيت، وليس إليهم؟

– لا، يا أخ، أزورهم بهــذا الوجه؟....غيرت فكري. سوى أنني لم أستطــع القعود طويلاً لوحدي وبدونك. والآن أنت معي، وسأقعد للكتابة. لنذهب!

سارا بعض الوقت صامتين. كان فاسيا يحث خطاه.

قال أركادى إيفانوفيتش:

–لماذا لا تسألني عنهم؟

Telegram: @Arab_Books

– آخ، نعم! طيب، يا أركادى، ماذا وراءك؟

– فاسيا، أنت لست على بعضك!

– ولكن لا شيء، لا شيء. حدثني عن كل شيء، يا أركاشا!

قال فاسيا بصوت ضارع، وكأنما يتحاشى المزيد من الإيضاحات. تنهد أركادى إيفانوفيتش. ذُهل ذهولاً شديداً، وهو ينظر إلى فاسيا.

أنعشه الحديث عن الساكنين في كولومنا. بل وأفاض في الكلام. تغديا. وكانت العجوز قد ملأت جيب أركادى إيفانوفيتش بالبسكويت. فكان الصديقان يمرحان، وهما يأكلانه. بعد الغداء وعد فاسيا أن ينال غفوة ليجلس إلى العمل طوال الليل. وقد استلقى بالفعل. في الصباح تلقى أركادى إيفانوفيتش دعوة لشرب الشاي من شخص ما كان من الممكن رفض دعوته. فافترق الصديقان. عزم أركادى على أن يعود في أقرب وقت ممكن، وحتى في الساعة الثامنة، إن أمكن. انقضت ساعات الفراق الثلاث، كثلاث سنوات، بالنسبة له. وأخيراً، انطلق إلى فاسيا. دخل الغرفة فرآها مظلمة تماماً. لم يكن فاسيا في البيت. سأل مافرا، فقالت أنه ظل يكتب طوال الوقت، و لم ينم البتة، ثم راح يذرع الحجرة، وبعد ذلك، وقبل ساعة خرج مسرعاً، قائلاً إنه سيعود بعد نصف ساعة. وقال: «حين يعود أركادى إيفانوفيتش قولي له، أيتها العجوز، أنني ذهبت لأتمشى» – وأعاد هذه الوصية ثلاث مرات، إن لم تكن أربعاً – ختمت مافرا قولها.

وفكر أركادى إيفانوفيتش: « إنه عند آل أرتيمييف!» وهزَّ رأسه.

Telegram: @Arab_Books

وبعد دقيقة وثب، وقد أنعشه أمل. إذ فكر في أن فاسيا قد أتم عمله، وهـذا كل ما في الأمر، لم يصطبر فهـرع إلى هناك. ولكن، لا! عندئذ كان سينتظرني....لألقِ نظرة، ماذا لديه هناك.

أشعـل شمعة، واندفع إلى منضدة فاسيا الكتابية: العمل تقدم، وبدا وكأن نهايتـه ليست بعيدة جـداً. أراد أركادى إيفانوفيتش أن يواصل تحقيقه، إلا أن فاسيا دخل بغتة...

– آ! أنت هنا؟

صاح، وارتعد من الذعر.

صمـت أركادى إيفانوفيتش. خاف أن يسـأل فاسيا. خفض هذا عينيـه، وأخذ يرتـب الأوراق صامتاً أيضاً. وأخـيراً التقت عيونهما. كانـت نظرة فاسيـا متوسلة ضارعة مقهورة إلى حـد جعلت أركادى يجفل، حين التقى بها. ووجف قلبه، وضاق....

– فاسيا، يا أخي، ماذا بك؟ ماذا أنت. – صاح مندفعاً نحوه، ضاماً إيـاه في أحضانـه– تكاشف معي. أنا لا أفهمـك ولا أفهم وحشتك، مـاذا جرى لك، يا معذبي؟ ماذا؟ قل لي كل شيء بلا نقصان؟ لا يمكن أن يكون ذلك فقط من......

انضغـط فاسيا علـى أركادى بشـدة، و لم يستطع أن يقـول شيئاً. تقطعت أنفاسه.

– كفاية، يـا فاسيا، كفاية! طيب، حتى ولـو لم تكمل العمل، أي شيء هذا؟ أنا لا أفهمك، اكشف لي عن عذاباتك. أنت ترى أنني من

Telegram: @Arab_Books

أجلك....آه، يا ربي، يا ربي! – كان يقول ذارعاً. الحجرة، ممسكاً كل ما يقع في يده، وكأنما يبحث، على عجل، عن دواء لفاسيا– غداً سأذهب بنفسي، وبدلاً منك، إلى يوليان ماستاكوفيتش، وسأرجوه، وأتوسل إليه أن يمد الموعد يوماً آخر. سأشرح له كلّ شيء، كل شيء، إذا كان هذا ما يعذبك بهذا الشكل....

– حفظك الرب!

صاح فاسيا، وابيضّ بياض الجدار. وهو لا يكاد يثبت في مكانه.

– فاسيا، فاسيا!....

عاد فاسيا إلى نفسه. كانت شفتاه ترتعشان، أراد أن ينطق بشيء، ولكنه اكتفى بأن ضغط بارتعاش على يد أركادى صامتاً.....كانت يده باردة. وقف أركادى أمامه مفعماً بترقب ملوّع معذّب. وعاد فاسيا فرفع إليه عينيه.

– فاسيا! لك الله، يا فاسيا! لقد مزقت قلبي، يا حبيبي.

انهمر الدمع مدراراً من عيني فاسيا. ارتمى على صدر أركادى. وأنشأ يقول:

– خدعتك، يا أركادى! خدعتك، فسامحني، سامحني! خدعت صداقتك....

– ماذا، يا فاسيا؟ ماذا هناك؟

سأل أركادى في هلع شديد.

Telegram: @Arab_Books

– هذا!....

وبإيماءة يائسة ألقى فاسيا من الصندوق على الطاولة ست كراسات سميكة مثل تلك التي يستنسخها.

– ما هذا؟!

– هذا ما ينبغي عليّ أن أعده حتى اليوم الذي يلي يوم غد. لم أنجز حتى ربع العمل! لا تسأل، لا تسأل..... كيف حصل هذا! – تابع فاسيا قوله، وأنشأ في الحال يتحدث عما كان يعذبه ذلك العذاب– أركادى، يا صديقي! أنا نفسي لا أعرف ماذا حصل لي! كأنني أستيقظ من حلم. ضيعت جزافاً أسابيع ثلاثة بكاملها. كنت..... كنت.... أذهب إليها.... كان قلبي يوجعني، يعذبني المجهول..... فلم أستطع الكتابة. ولكنني لم أفكر في ذلك. الآن فقط، حين تهل السعادة عليّ، وعيت إلى نفسي.

شرع أركادى إيفانوفيتش يقول بحزم:

– فاسيا! فاسيا! سأنقذك! أنا أفهم كل هذا. الأمر ليس ضحكاً سأنقذك! أصغ إليّ، أصغ: سأذهب غداً إلى يوليان ماستاكوفيتش.... لا تهز رأسك، لا، اسمع! سأخبره بكل شيء، كما حصل. اسمح لي أن أفعل ذلك.... سأشرح له... سأقدم على كل شيء! سأخبره أنك كالقتيل، وأنك تتعذب كثيراً.

– هل تدري أنك الآن تقتلني؟

قال فاسيا، وقد انتابت برودة الفزع كيانه كله. شحب أركادى إيفانوفيتش، ولكنه راجع فكره، وضحك في الحال. قال:

Telegram: @Arab_Books

– فقط؟ هذا فقط؟ أرجوك، يا فاسيا، أرجوك! ألا تخجل؟ طيب، اسمع. أرى أنني أكدرك. أنا أفهمك، أنا أعرف ماذا يجري في داخلك. ذلك أننا نعيش سوية منذ خمس سنوات، والحمد لله! أنت طيب، رقيق، ولكنك ضعيف، ضعيف بشكل لا يغتفر. حتى ليزافيتا ميخائيلوفنا لاحظت ذلك. زأنت، بالإضافة إلى ذلك، حالم، وهذا شيء غير لطيف أيضاً، ويمكن أن يُفقد الإنسان صوابه، يا أخ! اسمع، أنا أعرف ماذا تود. تود، مثلاً، لو تسحر يوليان ماستاكوفيتش، حتى يخرج عن الحدود، فيقيم لك، حفلة ساهرة، فرحاً بزواجك، هذا ما أظنه..... طيب، على مهلك،على مهلك! أراك تتعكنن. انظر كيف تكدرت من أجل يوليان ماستاكوفيتش من مجرد كلامي هذا! اتركه فأنا أحترمه بما لا يقل عن احترامك له! لكن لا تجادلني بعد الآن، ولا تمنعني من أن أتصور بأنك تتمنى لو تفرغ الأرض حتى من التعساء، حين تتزوج أنت.....نعم، يا أخ، لا بد أن توافقني على أنك تتمنى لو تهبط فجأة عليّ، أنا صديقك الحميم، مائة ألف روبل من الرأسمال، وأن يتصالح كل الأعداء، بكل صنوفهم على الأرض، فجأة، وبلا سبب ولا مسبب، وأن يتعانق الجميع فرحاً، وسط الشارع، ثم يأتوا إليك في شقتك ضيوفاً عليك، كما أظن. يا صديقي، يا عزيزي، أنا لا أستهزئ. ذلك هو الواقع. فأنت منذ زمان، كنت تصور لي كل هذا بأشكال مختلفة. ولأنك سعيد، فأنت تود لو ينقلب الجميع قاطبة، سعداء دفعة واحدة. فأنت تتألم وتشقى من كونك سعيداً لوحدك! ولهذا فأنت تود الآن بكل ما لديك من قوة أن تكون أهلاً لهذه السعادة، وأن تأتي بمأثرة ما، على ما أظن، لتنقية ضميرك! طيب، أنا أفهم مدى استعدادك لتعذيب نفسك، لأنك بدلاً من أن تظهر، حيثما يجب، غيرتك وبراعتك....وعلى الأرجح، عرفان الجميل،

Telegram: @Arab_Books

كمـا تقول، أهملت مسؤوليتك فجأة. أنت تشعر بمرارة العلقم لو يخطر ببالـك أن يوليان ماستاكوفيتش سيعبس بـل ويغضب، حين يرى أنك لم تحقق الآمال التي عقدها عليك. يؤلمك أن تتصور أنك ستستمع ملاماتٍ ممن تعتبره وليّ نعمتك، وفي لحظة كهذه! حين امتلأ قلبك بالفرح، وحين لا تعـرف على منْ تفيض بعرفانك للجميل. ذلـك هو، أليس صحيحاً؟ أليس كذلك؟

وصمت أركادى إيفانوفيتش، وقد ارتجف صوته، وهو يختم كلامه، وأرسل زفرات.

كان فاسيا ينظر إلى صديقه بحب، وقد أنزلت ابتسامة على شفتيه.

بل وكأن ترقب الأمل بث الحياة في وجهه.

– طيـب، اسمـع الآن – عاد أركادى يقول وقـد حفزه الأمل أكثر– ينبغـي، إذن ألا يغـير يوليـان ماستاكوفيتـش موقفه الودي منـك. أليس كذلـك، يا عزيزي؟ هنـا المسألة؟ إذا كان ذاك فأنـا – قال أركادى، وقد نـط من مكانه – سأضحي بنفسي من أجلك. غـداً سأذهب إلى يوليات ماستاكوفيتش.... لا تعترضني! أنـت، يا فاسيا، تجعل من فعلتك جريمة. بينمـا هو، أقصد يوليان ماستاكوفيتش، شهم، رحيم، وإلى جانب ذلك، فهـو ليس مثلك! فهو، يا أخ فاسيا، يصغى لي ولك ويخرجنا من المحنة. طيب! هل هدأت؟

شدّ فاسيا على يد أركادى، والدموع في عينيه. وقال:

– كفايـة، أركادى، كفاية. المسألة محلولـة. طيب، لم أكمل، فليكن، لم أكمـل، يعنـي لم أكمل. ولا ضرورة لذهابك. سأخـبره أنا بكل شيء، سأذهب بنفسي. هدأت الآن، هدأت تماماً. فقط ألا تذهب.... ثم اسمع.

Telegram: @Arab_Books

– فاسيا، يا عزيزتي! – هتف أركادي إيفانوفيتش فرحاً – كنت أقول كلماتك. أنا مسرور لأنك عدلت عن فككرك، ولململت نفسك. ولكنني سأكون معك مهما يكنِ لك، ومهما يحصل. فتذكر ذلك! أنا أرى أنك تتألم من أن أقول شيئاً ليوليان ماستاكوفيتش. إذن، لن أقول أي شيء. أخبره بنفسك. اسمع، أنت ستذهب غداً......

أولاً، لا تذهب، تجلس هنا لتكتب، هل تفهم؟ عندئذ سأتعرف أنا من هناك أي عمل بين يديك، هل هو عاجل أم لا، وهل يلزم إعداده في موعده المحدد، أم لا، وماذا يمكن أن يحصل إذا أرجئ موعده؟ وبعدها سأهرع إليك....انظر، انظر، هناك أمل. طيب، تصوّر أن العمل غير مستعجل، ويمكن أن نربح. ربما يوليان ماستاكوفيتش لا يتذكر. عندئذ يمكن إنقاذ كل شيء.

هزّ فاسيا رأسه مرتاباً. إلا أنه نظر بامتنان في وجه صديقه.

– طيب، كفاية، كفاية! كم أنا واهن ومتعب – كان يقول متنهداً – أنا نفسي لا أحب أن أفكر في ذلك. طيب، لنتحدث عن شيء آخر! لا أظنني سأكتب الآن. بمجرد أن أتم صفحتين حتى أصل إلى نقطة ما، على الأقل. اسمع....كنت أريد أن أسألك منذ زمان: كيف تعرفني هذه المعرفة الجيدة؟

كانت الدموع تقطر من عيني فاسيا على يدي أركادي.

– لو تعرف، يا فاسيا، إلى أي حد أحبك، لما سألتني هذا السؤال. نعم!

– نعم، نعم، أنا لا أعرف هذا، لأنني.....لأنني لا أعرف لم أحببتني بهذا الشكل! أجل، يا أركادي، هل تعرف أن حبك، حتى

Telegram: @Arab_Books

حبك هذا كان يقتلني؟ هل تعرف كم مرة، وعلى الأخص وأنا أستلقي لأنـام، وأفكر فيك (لأنني حـين أرقد دائماً أفكر فيـك) كنت أغرق بالدمـو ع، وقلبي يرتجف بسبـب، بسبب....طيب. بسبب حبك لي بهـذا القدر، بينما لم أستطع أن أخفف عن قلبـي بشيء، لم أستطع أن أرد لك فضل حبك....

– انظـر إلى نفسـك، يا فاسيـا، أي شخص أنـت.؟ انظر كم أنت منزعـج الآن، – قال أركادى الذي جزعـت روحه في هذه اللحظة، والذي تذكر مشهد البارحة في الشارع.

– كفايـة. أنـت تريد أن أهـدأ، بينما أنـا لم أكن في يـوم ما هادئاً وسعيـداً، كما أنا الآن! هل تعرف.....اسمع كم أود لو أحدثك بكل شـيء، إلا أنني دائماً أخشى أن أغمك.....فأنت دائماً تغتم، وتصرخ فيّ، فارتعب.....انظـر كيف أرتجف، و أنـا لا أعرف السبب. اسمع مـا أريـد أن أقوله لـك. أريد أن أقـول أنني لم أكن أعـرف نفسي من قبل. نعـم! نعم، والآخرين أيضاً عرفت يوم أمس فقط. لم أكن، يا أخ، أشعـر، ولا أقـدر كلياً....قلبي كان جمـاداً.... اسمع، كيف حصل أنـي لم أصنـع خيراً لأي شخـص في الدنيا، لأنني لم أكـن قادراً على صنعـه. وحتى شكلي لا يبعث على الارتيـاح. وكل واحد من الناس صنع لي خيراً! وأنت أول الناس. من غير المعقول أنني لا أرى. ولكني كنت صامتاً، صامتاً!

– كفاية، يا فاسيا!

– كيف هذا، يـا أركاشا! كيف؟! أنا لم أفعـل.... وتقطع صوت فاسيـا والدمـو ع لا تكاد تدعـه يُفصح– بالأمس كنـت أحدثك عن

Telegram: @Arab_Books

يوليـان ماستاكوفيتش. أنت تعرف أنـه دقيق، صارم، بل أصابتك منه ملاحظـات عـدة مرات. بينمـا كان يمزح معي يوم أمسـ ويداعبني، ويفتح لي قلبه الطيب الذي يغلقه أمام الجميع حصافة...

– وأي شـيء في هذا، يا فاسيا؟ لا يدل هـذا إلا على أنك تستحق سعادتك.

– آه، يـا أركاشا! كـم أود لو أتم كل هذا العمـل!....لا، سأقضي على سعادتي! يخامرني هاجس بذلك! ولكن لا، ليس من خلال هذا – أستـدرك فاسيـا لأن أركادى ألقى نظرة جانبية علـى العمل الثقيل العاجل الملقى على الطاولة– هـذا لا شيء، هذا ورق مكتوب...... هراء! هذه قضية محلولة....اليوم، يا أركاشا، كنتُ هناك، عندهـم..... ولكن لم أدخل. كنت أشعر بالضيق، والمرارة! وقفت عند بابهم فقط. كانت تعـزف على البيانو. استمعت إلى عزفها، يـا أركاشا، ولكن – قال منخفضاً صوته – لم أجرؤ على الدخول....

– اسمع، يا فاسيا، ماذا بك؟ لماذا تنظر إليّ بهذا الشكل؟

– ماذا؟ لا شي! حالتي سيئة بعض الشيء. رجلاي ترتجفان، وهذا من قعـودي في الليل للكتابة. نعم! عينـاي في غشاوة خضراء. وهنا، هنا......

وأشار إلى قلبه. وسقط في غيبوبة.

وعندمـا أفاق إلى نفسه، أراد أركادى أن يتخذ تدابير إسعافية. أراد أركادى أن يتخـذ تدابـير إسعافية. أراد أن يرقـده في السرير عنوة و لم

Telegram: @Arab_Books

يوافق فاسيا، مهما حاول. راح يبكي، ويتفجع، ويريد أن يكتب، يريد أن يُنهي حتماً الصفحتين اللتين عزم على إنهائهما. وتركه أركادى يعود إلى أوراقه حتى لا يؤجج أعصابه.

– اسمع – قال فاسيا، وهو يتخذ مجلسه – اسمع، خطرت في بالي فكرة، هناك أمل. وابتسم لأركادى، ووجهه الشاحب بدا، بالفعل، وكأن شعاع الأمل بث فيه الحياة.

– الأمر كالآتي: سآخذ له، بعد غد، العمل غير كامل، وسأكذب فيما يخص الباقي، أقول أنه احترق أو تبلل، أو فُقد... يعني، في النهاية، طيب، لم أكمله. أنا لا أعرف كيف أكذب. سأشرح له بنفسي. هل تعرف ماذا؟ سأشرح له كل شيء. سأقول له كذا وكذا، لم أستطع.... سأخبره بحبي، فهو نفسه قد تزوج قبل فترة قصيرة. وسيفهمني! وسأفعل كل ذلك، باحترام وهدوء، بالطبع. وسيرى دموعي ويتأثر بها....

– بالطبع اذهب إليه، اذهب واشرح له....ولا ضرورة إلى الدموع هنا! و لِمَ؟ حقاً يا فاسيا، لقد أفزعتني تماماً.

– نعم، سأذهب، سأذهب، والآن دعني أكتب، دعني أكتب، يا أركاشا. لن أمس أحداً، دعني أكتب!

ارتمى أركادى على الفراش. لم يكن يصدق بفاسيا، لم يكن يصدق قطعاً. كان فاسيا مقتدراً على كل شيء. ولكنه يطلب الصفح، علام، وكيف؟ ليست هذه المسألة. بل المسألة أن فاسيا لم يقم بالتزاماته،

Telegram: @Arab_Books

فـكان فاسيا يشعر بأنه مذنب إزاء نفسه، يشعر بأنه عقوق أمام القدر، المسألة أن السعادة سحقت فاسيا، وهزّته، فهو يشعر بأنه غير أهل لها، وكان، أخيراً، يبحث لنفسه عن ذريعة إلى أن ينقلب هذا المنقلب، وهو منـذ البارحة حتى الآن لم يفق من المفاجأة. وفكر أركادى إيفانوفيتش مـع نفسه: «هكذا إذن! يجب إنقاذه. يجـب مصالحته مع نفسه. إنه يقـرأ صلاة الجناز على نفسه». وفكـر وفكر وقرر الذهاب إلى يوليان ماستاكوفيتش دون إبطاء، يذهب غداً، ويقص عليه كل شيء.

قعد فاسيا يكتب. واستلقى اركادى إيفانوفيتش المنهك ليتروى في الأمر مرة أخرى، واستيقظ قبيل الفجر.

– أي اللعنة! مرة أخرى!

قـال، وقد نظر إلى فاسيـا. كان هذا قاعداً يكتـب. هرع أركادى إليـه، وطوقه، وأضجعه على الفراش بالقـوة. ابتسم فاسيا، وانغلقت عيناه ضعفاً. وكان يعجز عن الكلام. قال:

– أردت بنفسـي أن أضطجع. عندي فكرة، يـا أركادى. سأنهي العمل. استعجلت الريشة! لم أكن قادراً على الجلوس أكثر. أيقظني في الساعة الثامنة. و لم يتم كلامه، وغفا كالقتيل.

– مافـرا! – همس أركادى إيفانوفيتـش لمافرا، وقد دخلت تحمل الشـاي – طلب أن يوقظ بعد ساعة. لا توقظيـه مهما يكن من شيء! دعيه ينام، ولو عشر ساعات. فاهمة؟

– فاهمة، سيدي!

Telegram: @Arab_Books

– لا تحضري الغداء، ولا تنشغلي بالحطب، ولا تحدثي ضجيجاً، حذار! وإذا سأل عني قولي له أنني خرجت إلى الدائرة. فاهمة؟

– فاهمــة، سيــدي. لينم ما طاب له النوم. ومــاذا يعنيني! يسرني نــوم السيد، واحرص على راحته. ولكن قبل مــدة كسرت قدحاً، فتفضلــت ورحت توبخنــي. بينما القطة الملعونة هــي التي كسرت القــدح، لا أنا، ولكــن غفلت عــن مراقبتها. صحــت بها: هرى، ملعونة!

– تسس! اسكتي، اسكتي!

وخــرج أركادى إيفانوفيتش بمافرا إلى المطبــخ، وطلب المفتاح، وأغلــق به قفل الباب. ثــم ذهب إلى الدائــرة. وفي طريقه فكر عليه أن يمثــل أمام يوليان ماستاكوفيتش، وهل سيكون ذلك سهلاً، أليس فيه جسارة؟ وصــل إلى الدائرة خاشع القلب، واستفسر بتهيب عما إذا كان صاحــب السعــادة موجــوداً، أُجيب لا، ولــن يأتي. وفوراً أراد أركادى إيفانوفيتشــ أن يذهب إليــه في شقته، ولكنه أدرك في اللحظة المناسبة تماماً أن يوليان ماستاكوفيتش لا بد أن يكون مشغولاً في البيــت، إذا لم يــأت إلى الدائــرة. فعدل وبقــى في الدائرة. بدت الساعــات لــه لا تنتهــي. وبطريقة خفيــة استفسر عــن العمل الذي أوكل إلى شومكــوف. لم يكــن أحــد يعــرف شيئاً. كانــوا يعرفون فقــط أن يوليان ماستاكوفيتش تفضل وعهــد إليه بمهمات خاصة لا أحد يعــرف ما هي. وأخيراً دقت الساعــة الثالثة...وهرع أركادى إيفانوفيتشــ ليعــود إلى البيت. في الرواق أوقفه أحــد الكتبة، وقال إن فاسيلــي بتروفيتش شوموكوف جاء، ما بعد الساعة الثانية عشرة.

Telegram: @Arab_Books

وسأل هـل أنت هنا، وهل يوليـان ماستاكوفيتش موجود. وبعد أن سمـع أركادى إيفانوفيتش ذلـك استأجر عربة، ووصـل عليها إلى البيت مأخوذ النفس من الفزع.

كان شومكـوف في البيت. كان يذرع الحجرة في أشد القلق. نظر إلى أركادى إيفانوفيتش فبدا وكأنه استرد طبيعته في الحال، وغيّر فكره، وأسـرع لإخفاء قلقه. جلس إلى أوراقـه بصمت. وبدا وكأنه يتحاشى أسئلة صديقه، ويستثقلها، وفكر في سره بشيء، وقرر أن يكتم ما عزم عليـه، لأن مـن المستحيل الوثـوق بالصداقة أكثر من ذلـك، مما أذهل أركادى وأوقر قلبه بألم ثقيل مبرّح. فجلس على السرير، وفتح الكتاب الوحيـد الـذي في حوزتـه، ولكـن دون أن يصرف بصره عـن فاسيا البائـس. إلا أن فاسيا ظل صامتاً بعناد، يكتب ولا يرفع رأسه. واستمر الحـال على على هذا المنوال بضع ساعـات، وبلغت عذابات أركادى آخـر درجة لها. وأخـيراً، وفي نحو الساعة الحادية عشـرة رفع فاسيا رأسـه، ونظـر إلى أركادى نظرة كامدة جامـدة. كان أركادى ينتظر. مـرّت دقيقتان أو ثلاث. ظل فاسيا صامتاً. صاح أركادى: «فاسيا»!. لم يجـب فاسيا. كرر أركادى: «فاسيا!» ووثب من الفراش: « فاسيا، مـاذا بك؟ ماذا دهاك؟» صاح، وركض نحوه. رفع فاسيا رأسه، وعاد ينظر إليه بتلك النظرة الكامدة الجامدة. وفكر أركادى مع نفسه، وهو يرتجـف بكليته من الفزع: « إنـه في حالة انصعاق!». وأمسك دورق المـاء، ورفع فاسيا قليلاً. وصب الماء علـى رأسه، وبلل صدغيه، وفرك يديه بيديـه. فأفاق فاسيا على نفسه. صاح أركادى: « فاسيا! فاسيا!» وهـو يـذرف الدمع، ويفقـد السيطرة علـى نفسه. «فاسيـا، لا تقتل

Telegram: @Arab_Books

نفسك، تذكر! تذكر!....» ولم يكمل، وعصره في أحضانه بحرارة. سرى في وجه فاسيا كلـه إحساس مضنٍ. مسح فاسيا جبينه، وأمسك رأسه، وكأنما يخشى أن يطير عنه وأخيراً قال:

– لا أدري مـاذا بي! يبدو أنني قـد أضنيت نفسي. طيب، طيب! كفايـة، يـا أركادى، لا تحـزن، كفايـة! – ردد وهو ينظـر إليه نظراته الكامدة المتعبة

– وما الداعي إلى القلق؟ كفاية!

– أنـت، أنـت تهدئني – صـاح أركادى، وقد تقطـع قلبه، وقال أخـيراً – فاسيا، استلق، واغـف قليلاً، ها؟ لا تعـذب نفسك جزافاً! الأفضل أن تجلس إلى العمل بعد ذلك!

كرر فاسيا:

– نعم، نعم! لخاطرك! حسناً، سأستلقي، نعم! كنت أريد أن أنهي العمل، ولكنني عدلت الآن، نعم هل ترى....

سحبه أركادى إلى الفراش، وقال بصلابة:

– اسمـع، يا فاسيا. يجب أن يُحسم هـذا الأمر بشكل نهائي! قل لي: علام رسى فكرك؟

–آخ!

قال فاسيا، ولوح بيده الواهنة، وأدار رأسه إلى الجهة الأخرى.

- كفاك، يا فاسيا، كفاك. احزم أمرك! أنا لا أريد ان أكون قاتلك، ولا أستطيع أن أسكت بعد الآن. أنت لن تغفو، إذا لم تحزم أمرك. أنا أعرف. ردد فاسيا بغموض:

- كما تشاء، كما تشاء!

وفكر أركادى إيفانوفيتش مع نفسه «يستسلم!» وقال:

- تابعني، يا فاسيا، وتذكر ما كنت أقوله: سأنقذك غداً. غداً سأحسم مصيرك! وماذا أقول: مصيرك! لقد أفزعتني كثيراً، يا فاسيا، حتى أنني استعمل كلماتك. وأي مصير يُحسم! مجرد هراء، سفاسف! أنت لا تريد أن تفقد حظوة وحب يوليان ماستاكوفيتش، إذا أردت أن تعلم. نعم! ولكنك لن تفقدهما، وسترى....أنا......

وكان من الممكن أن يتكلم أركادى إيفانوفيتش طويلاً، إلا أن فاسيا قطع عليه كلامه. رفع جسمه عن الفراش، وطوّق رقبة أركادى إيفانوفيتش بكلتا ذراعيه بصمت، وقبله. وقال بصوت واهن:

- كفاية! كفاية! يكفي الكلام في هذا الموضوع!

وأدار رأسه من جديد نحو الجدار.

فكر أركادى مع نفسه: « يا ربي! يا ربي! ماذا دهاه؟ فقد ارتبك تماماً. و لم هذا كله؟ سينهك نفسه».

ونظر أركادى إليه في قنوط.

وفكر أركادى: «لو سقط مريضاً، لكان ذلك أفضل، ربما. فالمرض سيزيل الهموم، وعندئذ يمكن أن يسوي الأمر كله بطريقة ممتازة.

Telegram: @Arab_Books

ولكن ما هذا الكذب من جانبي! آه، يا خالقي..!».

وخـلال ذلك، بدا وكان فاسيا قد غفا، وسُرّ أركادى إيفانوفيتش، وقال لنفسه» أمارة حسنة!)».

وقـرر أن يسهر عليه الليل كله. ولكن فاسيـا نفسه كان مضطرباً. كان يجفـل من لحظة إلى أخـرى، ويتقلب في الفراشـ، ويفتح عينيه لمحـة. وأخيراً غلبـه الأعياء، وغفـا، على ما يبـدو، كالصريع. كانت الساعـة حوالي الثانية صباحـاً. هـوّم أركادى إيفانوفيتش في سنة من النوم على مقعده، متكئاً بمرفقه على الطاولة.

كان نومـه مروّعـاً غريباً. كان يخيـل إليه دائماً أنه غـير نائم، وأن فاسيـا، كالسابـق، مستلـق على السرير. ولكـن يا للغرابة! بـدا له أن فاسيـا يتظاهر، بل ويخدعه، وبعد لحظـة سينهض بهدوء، وهو يراقبه بنصـف عين، وينسلّ وراء منضـدة الكتابة. كان ألم لاذع يغشي قلب أركادى. فكان يشعـر بالتكدر، والأسى والضيـق، وهو يرى فاسيا، الذي لا يثق به، ويخفى عنه ويتكتم. همّ أن يمسكه، ويصيح، ويحمله إلى السرير.....عندها كان فاسيا يصرخ وهو على يديه، فلم يُحمل إلى السريـر غير جثة بلا أنفاس. تفصد جبين أركادى عرقاً بارداً، ووجب قلبـه وجيباً رهيباً. فتـح عينيه، واستيقظ. كان فاسيـا جالساً أمامه إلى المنضدة يكتب.

لم يصـدق أركادى بحواسـه، ونظر إلى الفراش، فلـم يجد فاسيا عليـه. وثـب أركادى مذعوراً، وهو مـا يزال تحت تأثـير أحلامه. لم يتململ فاسيـا، وظل يكتب. وفجـأة لاحظ أركادى بهلـع أن فاسيا يسـير على الورق ريشة ناشفة، ويضع صفحات بيضاء تماماً، ويسرع،

Telegram: @Arab_Books

ويسرع ليملأ الورق وكأنه يقوم بالعمل بأروع وأنجح طريقة! «لا، ليس هذا انصعاقاً!» – فكر أركادي إيفانوفيتش مهتزاً بكل كيانه. «فاسيا، فاسيا! ردّ عليّ!» – صاح وقد أمسكه من كتفه. إلا أن فاسيا صمت، وراح يخط على الورق، بريشة ناشفة.

– وأخيراً، عجّلت الريشة.

قال دون أن يرفع رأسه إلى أركادي. أمسك أركادي يده، وانتزع الريشة.

ندت آهة من صدر فاسيا. أنزل يده، ورفع عينيه إلى أركادي، ثم مرّر يده على جبينه بإحساس متعب ملوّع، وكأنما يريد أن يزيل عنه حملاً ثقيلاً كالرصاص ينوء به كل كيانه، وأرخى رأسه على صدره بهدوء وكأنه استغرق في تفكير.

– فاسيا، فاسيا! – صاح أركادي إيفانوفيتش في قنوط – فاسيا!

بعد دقيقة نظر فاسيا إليه، وعيناه الزرقاوان الوسيعتان مغرورقتان بالدموع، ووجهه الشاحب الوديع يعبر عن عذاب لا حدّ له.... همس بشيء ما.

– ماذا، ماذا؟

صاح أركادي، وانحنى نحوه.

– لأي شيء، لماذا أنا؟ – همس فاسيا – على أي شيء؟ ماذا فعلت؟

– فاسيا! ماذا بك؟ ماذا تخاف، يا فاسيا؟ ماذا؟ – صاح أركادي متفجعاً من اليأس.

Telegram: @Arab_Books

– على أي شيء يتخلون عني إلى الجندية؟ – قال فاسيا وقد نظر إلى عيني صديقه تماماً – على أي شيء؟ ماذا فعلت؟

وقـف شعر أركادى على رأسه. و لم يرد أن يصدق. كان يقف فوقه كالمطعون.

بعـد دقيقة استعـاد وعيه. «هذا مجـرد شيء عابر» – قـال لنفسه، وقد شحب بكليتـه، وراحت شفتاه ترتعشان وتزرقان. هرع ليرتدي ملابســه. أراد أن يخفّ لاستدعاء الطبيـب. وفجأة ناداه فاسيا. أسرع أركادى إليه، واحتضنه مثلما تحتضن أم ينتزعون منها ولدها....

– أركادى، أركادى، لا تقـل لأحـد. اسمع، إنها محنتي فلأتحملها لوحدي....

– ماذا بك؟ ماذا بك؟ أفق على نفسك، فاسيا، أفق على نفسك!

زفر فاسيا، وسالت دموع هادئة على وجنتيه.

– علـى أي شيء يقتلونهـا؟ ما ذنبها، ما ذنبهـا؟ – دمدم بصوت معذّب يزهق النفس – خطيئتي، خطيئتي!....

وصمت لحظة.

– وداعـاً، يـا حلوتي! وداعـاً، يا حلوتـي! – همس هـازاً رأسه المسكين. جفـل أركادى، وعاد إلى وعيـه، وأراد أن ينطلق لاستدعاء الطبيـب – لنذهـب! حـان الوقت! – صـاح فاسيا منجذبـاً بحركة أركادى الأخـيرة – لنذهب يـا أخ، لنذهب. أنا حاضر! ودعني أنت! – وصمـت، ورمق أركادى بنظرة مطعونة مرتابة.

Telegram: @Arab_Books

- فاسيا، لا تأت معي، بحق الرب! انتظرني هنا. سأعود إليك حالاً، على الفور- كان أركادى إيفانوفيتش يقول فاقداً أعصابه هو الآخر، وقد اختطف قبعته ليهرع إلى الطبيب. قعد فاسيا على الفور. كان هادئاً طيّعاً، وفي عينيه وحدهما كان يتألق تصميم مستميت. استدار أركادى، واختطف من الطاولة مطواة مفتوحة، وألقى نظرة أخيرة على صديقه البائس، وغادر الشقة راكضاً.

كانت الساعة الثامنة. وكان النور قد طرد الظلام من الغرفة منذ وقت طويل.

لم يجد أحداً،وقد قضى ساعة كاملة في الركض. جميع الأطباء الذين عرف عناوينهم من البوابين، بعد أن سأل عن محل سكناهم قد غادروا بيوتهم: بعضهم إلى الوظيفة، وبعضهم إلى شؤونه الخاصة. كان ثمة طبيب واحد يستقبل المرضى. ظل يسأل الخادم طويلاً، وبالتفصيل حين أبلغه أن شخصاً يدعى نيفيديفيتش قد جاء: من طرف منْ جاء، ومن هو، وكيف، ولأي غرض، بل وما هي العلامات الفارقة لهذا الزائر المبكر؟ وانتهى إلى الامتناع عن استقباله، فالأشغال كثيرة، وهو لا يستطيع الخروج معه. وإن مثل هذا الصنف من المرضى يجب أن يؤخذ إلى المستشفى.

وعندئذ عاف أركادى كل شيء، وجميع الأطباء في العالم، وقد أمضّ به التعب، وصُعق، ولم يكن يتوقع مثل هذه العاقبة، وعاد أدراجه إلى البيت في أقصى درجة من الهلع على فاسيا. دخل الشقة راكضاً. كانت مافرا تغسل الأرضية، وتكسر الحطب، وتعد العدة لإيقاد الموقد، وكأن شيئاً لم يحدث، دخل الحجرة. فلم يجد أثراً لفاسيا. لقد غادر البيت.

Telegram: @Arab_Books

«إلى أيــن؟ أين، إلى أين هرب التعيس؟» – فكر أركادى وقد ثلّجه الرعــب. أخــذ يســأل مافرا. فهي لم تكــن تعرف شيئــاً، و لم تدر و لم تسمع كيف خــرج، سامحه الرب! انطلق نيفيديفيتش إلى الساكنين في كولومنا.

فقــد عنّ لــه، إنه هنــاك، والله يعلــم السبب. كانــت الساعة نحو العاشرة، حين وصل إلى هناك لم يكونوا في انتظاره، و لم يدركوا، ولك يعرفــوا شيئاً. وقف أمامهم مذعوراً، مهــزوزاً يسأل أين فاسيا؟ كانت قدما العجوز قد رُضّتا، فارتمت على الأريكة. وراحت ليزانكا، وهي ترتجــف من الرعب، تســأل عما حصل. و لم يكن هنــاك مجال لقول، فتملّصــ أركادى إيفانوفيتشــ علــى عجل، واختلــق حكاية لم يكن، بالطبع، يصدق بها، وخرج راكضاً، تاركاً الجميع مصعوقين معذبين. هــرع إلى دائرتــه لكيلا يتأخر على أقل تقديــر، ويجعل العاملين هناك يتخذون التدابير في أسرع وقت في الطريق تصور أن فاسيا عند يوليان ماستاكوفيتش، فقــد كان ذلك أقوى الإحتمالات. وكان أركادى قد فكــر في هذا قبل كل شيء، وقبل أن يفكــر في الساكنين في كولومنا. أراد أن يتوقــف حــين مرّ ببيت صاحــب السعادة، إلا أنــه أسرع فأمر الحــوذي بمواصلــة السير. قــرر أن يجرب فيعرف هــل هناك شيء في الدائــرة، وإذا لم يجد شيئــاً هناك ذهب إلى سعادتــه في آخر المطاف، بصفة المبلغ عن فاسيا. كان يجب أن يبلغ أحداً عن فاسيا!

حتــى وهو في غرفة الاستقبــال أحاط به رفاقه الأصغــر سناً منه، معظمهم بمثــل درجته، وقد راحوا يسألون بصوت واحد: ماذا جرى لفاسيــا؟ وكانوا جميعــاً يقولون في نفس الوقــت أن فاسيا فقد عقله، ووُسوِســ له أنهم يريــدون إرساله إلى الجندية عقابــاً على تقاعسه عن

Telegram: @Arab_Books

إداء عملـه. كان أركادى إيفانوفيتش يـرد على جميـع الجهات، أو، مـن الأحسن أن يقال إنه كان لا يـرد على أحد إطلاقاً محاولاً الدخول إلى الغـرف الداخليـة. في الطريق عـرف أن فاسيـا في مكتب يوليان ماستاكوفيتش، وأن الجميـع ذهبـوا إلى هنـاك، وهنـاك أيضـاً أسبر إيفانوفيتش. توقف قليـلاً. سأله أحـد القدامى إلى أيـن وماذا يريد؟ لم يتبـين وجهه،فغمغـم بشيء عن فاسيا، واتجه قدمـاً إلى المكتب. من الداخـل كان يتردد صـوت يوليان ماستاكوفيتش. سأله شخص عند البـاب: « إلى أيـن ذاهـب؟» وكان أركادى إيفانوفيتش ذاهـلاً عن نفسـه تقريباً، فأراد أن يستدير، إلا أنه رأى من الباب الموارب صديقه المسكـين فاسيـا. فتح البـاب، وانسل بطريقـة مـا إلى الغرفة. كانت تسودها البلبـة والحيرة، لأن يوليان ماستاكوفيتش كان، على ما يبدو، شديـد الانزعاج. كان يقف إلى جانبه كل من له اعتبار أكثر، يتكلمون ولا يبتـون بشـيء قط. وعلى مبعـدة وقف فاسيا. تجمّـد كل شيء في صـدر أركادى حين نظر إليه. كان فاسيا يقف شاحباً، مرفوع الرأس، مصفوف القامـة، وقد الصق ذراعيه على جنبيـه. كان ينظر في عيني يوليـان ماستاكوفيتـش تماماً. لاحظـوا نيفيديفيتـش في الحال، وكان أحدهم يعرف أنـه وفاسيا يسكنان بيتاً واحـداً، فأبلغ بذلك سعادته. قـادوا أركادى إليه. هـمّ أن يرد بشيء عن الأسئلـة المطروحة، إلا أنه نظر إلى يوليان ماستاكوفيتش، فرأى أسفاً حقيقياً مرتسماً على وجهه، فتلجلـج، وصار يجهش كالطفل. بل أقدم على أكثر من ذلك. اندفع، فاختطف يد رئيسه، ورفعها إلى عينيه، غاسلاً إياها بالدموع، حتى أن يوليان ماستاكوفيتش نفسه اضطر أن يسحبها بسرعة، بسرعة، وهزّها في الهـواء، وقـال: « طيب، كفاية، يا أخ، كفايـة. أنا أرى أن لك قلباً طيبـاً». انتحب أركادى، وألقى على الجميع نظرات ضارعة. فقد بدا

Telegram: @Arab_Books

له أن الجميع أخوة لصديقه المسكين فاسيا، وأن الجميع يتعذبون أيضاً، ويبكـون عليه. كان يوليان ماستاكوفيتش يقول: « كيف هذا، كيف حصل له هذا؟ من أي شيء جُنّ؟»».

لم يستطع أركادى إيفانوفيتش إلا أن ينطق:

- من عر....فان الجميل!

استمع الجميع إلى جوابه بحيرة، وبدا الجواب للجميع غريباً لا يُصدق، فكيف يمكن أن يفقد الإنسان عقله من عرفان الجميل؟ فأوضح لهم أركادى إيفانوفيتش بقدر ما يستطيع.

وأخيراً قال يوليان ماستتاكوفيتش:

- يا إلهي، يا للخسارة! فالعمل الذي أوكل له غير مهم، وغير مستعجل على الإطلاق. على أية حال هلك إنسان للاشيء! ما العمل أخرجوه!...- وهنا توجه يوليان ماستاكوفيتش مرة أخرى إلى أركادى إيفانوفيتش،ومرة أخرى راح يستفسر منه. قال مشيراً إلى فاسيا: «رجا أن لا نقول ذلك لفتاة، أهي خطيبته؟»».

أخذ أركادى يوضح، وخلال ذلك بدا فاسيا وكأنما خطر في باله شيء. كأنما تذكر بجهد بالغ شيئاً مهماً ضرورياً يناسب هذا المقام بالذات. كان أحياناً ينقّل عينيه بعذاب، وكأنما كان يأمل بأن أحداً سيذكره بالشيء الذي نسيه. ثبّت بصره في أركادى. وأخيراً، وبشكل مفاجئ، وكأن أملاً لمع في عينيه، وتحرك من مكانه بقدمه اليسرى، وخطا ثلاث خطوات، بأكثر ما استطاع من الخفة، بل وصفق بحذائه

Telegram: @Arab_Books

الأيمن، كما يفعل الجنود، حين يتقدمون من ضابطهم الذي استدعاهم. كان الجميع ينتظرون ماذا سيحصل. قال فاسيا متقطع الكلام:

– عندي عاهة جسدية، يا صاحب السعادة. ضعيف البنية وضئيل، لا أصلح للخدمة.

وهنا شعر كل الذين كانوا في الغرفة وكأن يداً عصرت قلوبهم، وحتى يوليان ماستاكوفيتش، رغم كل ما خلقه من صلابة، سالت الدموع من عينيه. قال ملوحاً ذراعه بيأس: «أخرجوه».

– جبين! [٦٥] – قال فاسيا بصوت خافت، واستدار على عقبيه يساراً، وخرج من الغرفة. وخرج في أثره كل من كان يهتم بمصيره. انحشر أركادي وراء الآخرين. اجلسوا فاسيا في غرفة الاستقبال بانتظار التعليمات والعربة لنقله إلى المستشفى. جلس فاسيا صامتاً، يبدو عليه انشغال البال الشديد. كان يحني رأسه لمن يعرفه من الحاضرين، وكأنما يتوادع معه. كان من لحظة إلى أخرى يتطلع إلى الباب، ويتهيأ حين يُقال له: «حان الوقت». تجمهرت حوله حلقة متلاقة من الناس كانوا جميعاً يهزون رؤوسهم، ويأسفون عليه. أذهلت الكثيرين قصته التي شاعت فجأة. فكان بعضهم يتناقشون، وآخرون يأسفون ويثنون على فاسيا، ويقولون إنه كان شاباً متواضعاً هادئاً، يَعِد بالشيء الكثير، ويروون كيف كان يجاهد ليتعلم محباً للمعرفة، ويسعى إلى تثقيف

٦٥. حين يكون المجند صالحاً للخدمة كان رئيس التجنيد يقول: "جبين"! وعند العكس يقول: "قفا"!. وانطلاقاً من ذلك يحلق الحلاق رأس المجند من جبينه أو قفاه. مثل هذا النظام كان يطبق في التجنيد حتى عام ١٨٦٢. الناشر..

Telegram: @Arab_Books

نفسـه. ولاحظ أحدهم قائلاً: «طلع من وضعـه الواطئ بعصاميته!» وتحدثـوا بحنان عن تعلق سعادته به. وانـبرى بعضهم يشرح لماذا طرأ على عقـل فاسيا بالـذات، ووُسوس له بأنه سيرسـل إلى الجندية، لأنه لم يكمـل عملـه. وذكروا أن المسكـين ترقى قبل وقـت قصير من فئة دافعـي ضريبـة الرؤوس[٦٦] إلى أول درجة من الوظيفـة، وذلك فقط بسبـب توصيـة يوليـان ماستاكوفيتش الـذي استطـاع أن يتوسم فيه الموهبـة والطاعة والوداعة النادرة. وباختصـار كان هناك الكثير جداً من مختلف التفسيرات والآراء. وكان من بين المصعوقين بشكل خاص رجـل قصير القامة جـداً زميل لفاسيـا شومكوف بالخدمـة. لم يكن في مقتبـل العمر تماماً، بـل في حوالي الثلاثين من العمـر. كان شاحباً كنسيج الكتـان، يرتجف بكل جسده، ويبتسم أيضـاً بغرابة، ربما لأن أي عمـل فاضح أو مشهد مريع يثير الرعب، فضلاً عن أنه يدخل شيئاً مـن السرور في نفس المتفـرج الغريب. كان من لحظة إلى أخرى يلتف حول الحلقة المحيطة بشومكوف، ولما كان قصيراً، فقد كان يقف على أطـراف أصابعه، ويتشبث بزر منْ يواجهه أو يعترضه، أي أحد الذين كان له الحق في أن يتشبث به، وكان لا يفتأ يردد أنه يعرف السبب في كل هـذا، وأن هذا ليـس بالأمر السهل، بل مهم بما فيـه الكفاية، ولا يجوز تركـه، ثم كان يقف على أطراف أصابعـه من جديد، ويهمس في أذن المستمـع له، ويعود فيهز رأسه مرة أو مرتين، ويواصل دورانه. وأخيراً انتهى كل شيء: وصل الحارس ومساعد طبيب من المستشفى،

٦٦. كانت ضريبة الرؤوس تحصل من الفلاحين وأهالي المدن. وكانت هذه الفئة إلى جانب دفعها لهذه الضريبة النقدية المعينة يفرض عليها القانون جملة من القيود القانونية. والشخص من فئة دافعي ضريبة الرؤوس ملزم على تأدية الخدمة العسكرية. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

واقتربا من فاسيا، وقالا له: حان وقت الذهاب. وثب وراح وجاء، ثم سار معهما متلفتاً فيما حوله. كان يبحث بعينه عن شخص. «فاسيا! فاسيا!» – صاح أركادي إيفانوفيتش منتحباً. توقف فاسيا، وتسلل أركادي نحوه. ارتمى أحدهما بحضن الآخر للمرة الأخيرة، وتعانقا بقوة...... كان منظرهما يثير الشجن. أي نوع من التعاسة الخرافية كان يدر الدموع من عيونهما؟ عمّ كانا يبكيان؟ أين تكمن البلية؟ و لِمَ كان أحدهما لا يفهم الآخر؟....

– هاك، هاك! خذ! وحافظ عليه – تكلم شومكوف وهو يدس ورقة في يد أركادي – سيأخذونه مني. اجلبه لي فيما بعد.... حافظ....– ولم يتم فاسيا كلامه، فقد نادوه. فنزل الدرج مسرعاً، حانياً رأسه للجميع، مودعاً للجميع. وكان اليأس يرتسم على وجهه. وأخيراً أجلسوه في العربة، وساروا به. أسرع أركادي بفك الورقة. كانت تضم خصلة شعر ليزانكا الأسود الذي لم يكن شومكوف يفارقه. طفرت دموع سخينة من عيني أركادي: «آه، ليزا المسكينة!».

بعد انتهاء الدوام ذهب أركادي إلى الساكنين في كولومنا. ولا حاجة للقول ماذا كان هناك! حتى بيتيا، بيتيا الصغير الذي لم يكن يفهم تماماً ماذا وقع لفاسيا الطيب، انزوى في ركن، وغطى وجهه بيديه الصغيرتين، وراح ينتحب بكل ما في قلبه الطفولي. حين كان أركادي يعود إلى البيت كان المساء قد خيّم تماماً. توقف لحظة حين اقترب من نيفا، وألقى نظرة ثاقبة على طول النهر في المدى البعيد الداخن الصقيعي العكر، الذي تفرّج فجأة بالأرجوان الأخير للشفق الدامي الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في السماء الداكنة. جثم الليل على المدينة واندلقت ملياردات من شرر الجمد الأبري على فسحة

Telegram: @Arab_Books

النيفــا المترامية الأطراف كلها، المتلألئة بالثلــج المتجمد في ضوء أشعة الشمس الأخــيرة. وسادت برودة بدرجة عشريــن تحت الصفر. كان البخار المتجمد يخرج من الخيــول المساقة إلى حد الموت، ومن الناس المتراكضــين. وكان الهــواء المضغوط يهتــز من أقل صــوت. وكانت أعمــدة الدخان، كالعمالقــة، تتصاعد من كل السطــوح على جانبي النهــر، وتحلــق في السمــاء البــاردة، وفي طريقها تنعقد تــارة وتنفك أخــرى، حتى لــكأن المباني الجديدة تبــدو واقفة فوق المبــاني القديمة، والمدينة الجديــدة تتشكل في الهواء.....وأخــيراً، كان هذا العالم كله بكل ساكنيه، الضعفاء منهم والأقوياء، وبكل مساكنهم، مآوى الفقراء منهــا، أو الغــرف المذهبة، متعة أقوياء هذا العــالم، بدا في هذه الساعة الغسقيــة كرؤيا فنطازيــة سحرية، كحلم سيختفي بــدوره في اللحظة التالية، ويتلاشى كالبخار في السماء الداكنة الزرقة. طافت فكرة غريبة في رأســ الميتَّم رفيق فاسيا المسكين. فانتفض، وكأن قلبه امتلأ في تلك اللحظة بدفق ساخن من دم فار فجأة من مدّ إحساس جبار ولكنه غير معــروف له حتى الآن. وبــدا وكأنه الآن فقط فهــم كل هذه الطامة، وعرف لماذا جُن فاسيا المسكين الذي لم يتحمل سعادته. أخذت شفتاه ترتجفــان وعيناه تتوهجان، وشحب، وبدا وكأنه أبصر شيئاً جديداً في هذه اللحظة....

أضحــى مغمومــاً وعقاً، وفقد مرحــه. وصارت الشقــة السابقة كريهة إليه، فانتقل إلى أخرى. لم يكن يرغب في الذهاب إلى الساكنين في كولومنا، بل لم يكن قادراً على ذلك. وبعد عامين التقى ليزانكا في الكنيسة. وكانت قد تزوجــت، ووراءها كانت أمة تسير حاملة طفلاً رضيعــاً. تبادلوا التحيات، وتحاشوا وقتــاً طويلاً الحديث عن الماضي.

Telegram: @Arab_Books

قالــت ليزا إنهــا سعيدة، والحمد لله، وأنها ليســت فقيرة، وأن زوجها رجل طيب تحبه.... ولكن عينيها، خلال الحديث، اغرورقتا بالدموع، وصوتها خفــت، فأشاحت وجهها، وانحنت على درابزينات مدخل الكنيسة لتخفي حزنها عن الناس......

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

حادثة شنيعة

قصة

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

وقعت هذه الحادثة الشنيعة في نفس الزمن الذي بدأت فيه نهضة وطننا المحبوب، وطموح جميع أبنائه المغاوير إلى مصائر وآمال جديدة، بنوع من القوة لا يقهر، وبزخم مثر ساذج. في أمسية شتائية زمهريرية صافية آنذاك، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة، جلس ثلاثة رجال محترمين للغاية في غرفة مريحة، بل ومترفة الأثاث، في بيت رائع من طابقين في بطرسبورغسكيا ستورونا، منهمكين في حديث رصين ممتاز في موضوع ممتع جداً. كان هؤلاء الرجال الثلاثة برتبة جنرال جميعاً. كانوا يجلسون حول منضدة صغيرة، وقدد اقتعد كل واحد منهم كرسيا رائعاً وثيراً، وبين الحديث كانوا يرشفون الشمبانيا بهدوء وراحة. كانت الزجاجة في حوض ثلج فضي صغير موضوع على المنضدة. وخلاصة الأمر أن صاحب البيت المستشار السري(٦٧) ستيبان نيكيفوروفتش نيكيفوروف، الأعزب المزمن في نحو الخامسة والستين من العمر كان يحتفل بانتقاله إلى بيته الجديد الذي اشتراه لتوه، وبعيد ميلاده الذي صادف وقوعه في هذا اليوم، والذي لم يكن يحتفل به قبل هذا الحين. وبالمناسبة لم يكن الاحتفال من نوع الاحتفالات الرائعة إذ لم يكن هناك غير ضيفين، كما رأينا، كلاهما كان زميل نيكيفوروف في الخدمة، ومن مرؤوسيه السابقين، وهما

٦٧. وظيفة من الدرجة الثالثة في سلّم الوظائف في روسيا في العهد القيصري. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

مستشــار الدولة العامل[٦٨] سيميون إيفانوفيتش شيبولينكو، والآخر إيفــان إيليتش برالينسكي، وهو أيضاً مستشــار دولة عامل. وقد جاءا في الساعة التاسعة، فشربا الشاي، ثم تحولا إلى الشراب، وكانا يعرفان أن عليهمــا أن يغــادرا إلى بيتيهما في الساعة الحاديــة عشرة والنصف بالضبــط. فقد كان صاحــب البيت يحب الدقة طــوال عمره. فلنقل كلمتــين عنه. بدأ حياته العملية موظفاً صغــيراً معوزاً، وظل يرزح في الوظيفــة بهدوء طوال خمس وأربعين سنة، وكان يعرف جيداً إلى أين تؤدي بــه الوظيفة. وكان يضيق ذرعاً من التقــاط النجوم من السماء، رغــم أن له اثنتــين[٦٩] منها، ولا يحب على وجــه الخصوص أن يظهر رأيه الشخصي في أي موضوع كان. وإلى جانب ذلك كان نزيهاً، أي لم يضطــر إلى القيام بعمل مخل بالشرف بشــكل خاص. وكان عازباً، لأنــه كان أنانيــاً، كان بعيداً عــن البلادة، إلا أنه لم يكــن يحب إظهار حجــاه، وكان بشكل خاص، لا يحب التسيّــب ولا التحمس معتبراً إيــاه تسيباً روحيــاً، وقبل اختتام حياته غــرق في راحة حلوة كسول، ووحدة نظامية. ورغم أنه كان يزور الذين أعلى مقاماً، إلا أنه كان، نذ شبابه، يضيق من الضيوف في بيته، وفي الآونة الأخيرة إذا لم يعقد لعبة ورق اكتفى بصحبــة ساعة غرفة طعامه، يصغى أمسيات كاملة بهدوء أعصاب إلى تكتكتهــا وراء الغلاف الزجاجي فوق الموقد، وهو يهوّم في مقعــده الوثير. كان في مظهره الخارجــي وجيهاً جداً، حليقاً حتى ليبــدو أصغر من سنه، وكان يحافــظ على صحته جيداً، ويعد بأن يمتد به العمر طويلاً، ويتمسك بآداب السلوك الراقي في غاية من الصرامة.

---

٦٨. درجة من درجات سلم الوظائف المدنية في روسيا القيصرية. المترجم.

٦٩. يقصد بالنجمة هنا النيشان. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

كانـت وظيفته مريحة بمـا فيه الكفاية، إذ كان يحضـر اجتماعات ما، ويوقـع على أوراق. وباختصار كان يعتبر رجـلاً في منتهى الوجاهة. وكان لـه هوى واحـد. أو من الأحسن القول، رغبـة حارة، وهي أن يكون له بيت خاص به، بيت بالذات، مشيد لسكنى سيّد من الأسياد، وليس للإيجار والاستثمار. وقـد تحققت رغبته في آخر الأمر. فوجد بيتـاً من هذا القبيل في بطرسبورغسكيـا ستورونا، واشتراه، وإن كان بعيـداً في الحقيقة، إلا أنه بيت له حديقـة، ورشيق الهندسة إلى جانب ذلـك. وكان صاحبه الجديد يـرى أنه من الأفضل أن يكون أبعد، فهو لم يكن يحب استقبال الضيوف في البيت. أما إذا خرج إلى الوظيفة أو لزيارة أحد، فإن له عربة رائعة ذات مقعدين ولون شوكولاي، وحوذياً يدعـى ميخي، وفرسيت صغيرين ولكنهما قويان جميلان. وكان هذا مـا كسبه هو خلال أربعين عاماً من الإقتصـاد الحريص، فكان القلب يبتهج من كل ذلك. كان ستيبان نيكيفوروفيتش يحس في قرارة نفسه بالرضـى، حتى أنه دعـا ضيفين لعيد ميلاده الـذي كان، في السابق، يحرص على إخفائه عن أقرب معارفه. بل كان له مع أحد الضيفين مرام خاصة. إذ كان ستيبـان نيكيفوروفيتش يشغل بنفسه الطابق العلوي، بينما كان الطابـق السفلي، وهو بنفس الهندسة والترتيب، يحتاج إلى نزيل. فكان يعوّل في ذلك على سيميون إيفانوفيتش شيبولينكو، حتى أنـه في هـذا المساء تطـرق في حديثه إلى هذا الموضـوع مرتين. إلا أن سيميون إيفانوفيتش التزم الصمت في هذا الخصوص. وكان هذا أيضاً رجـلاً شـق لنفسه طريقاً في الحيـاة بعسر وطول زمـن، وكان له شعر أسود وسبلتان، وسحنة مستديمـة الصفرة. كان متزوجاً، وعقا، يلازم بيتـه، ويحافظ على حالة مـن الرعب بين أهلـه، وكان يخدم بثقة في النفـس، ويعرف جيداً أيضـاً إلامَ توصله الوظيفة، ويعرف أحسن من

Telegram: @Arab_Books

ذلـك ما لا توصلـه إليه أبـداً، وكان يتبوأ منصباً جيـداً، ويشغله بقوة وإحـكام. وكان ينظـر إلى الأنظمة الجديدة التي بُـدئ بتطبيقها نظرة لا تخلـو مـن صفراويـة، ولكنـه لم يبـد فزعاً خاصةً منهـا. فقد كان شديـد الثقة بنفسه، فكان يستمع بشيء من الغيـظ الهازئ إلى أقاويل إيفـان إيليتش برالينسكي عـن الموضوعات الجديـدة وبالمناسبة كان الثلاثـة جميعهم قد ثملوا قليلاً حتى أن ستيبـان نيكيفوروفيتش جامل برالينسكي، ودخل معه في جدال خفيف عن الأنظمة الجديدة. ولكن لنقل بعض الكلمات عن صاحـب السعادة برالينسكي، لا سيما وأنه البطل الرئيس في هذه القصة.

منـذ أربعة أشهر فقـط صار مستشار الدولة العامـل إيفان إيليتش برالينسكي يسمـى بصاحب السعادة، وباختصـار كان جنرالاً شاباً. وكان مـن حيـث العمر أكـثر شباباً، في نحـو الثالثـة والأربعين ومن المستحيـل أن يكون أكـثر، وكان في مظهره الخارجـي يبدو، ويحب أن يـدو أكثر شباباً. كان رجـلاً وسيماً طويل القامة، يتأنق في ملبسه، وفي رزانتـه المرهفـة في الملبـس، وكان يـدلي وساماً مهمـاً من رقبته باقتـدار كبير، وقـد استطاع منذ طفولته أن يلم ببعض آداب السلوك في المجتمع الراقي، وكان، وهو العازب، يحلم بعروس غنية، بل ومن مجتمـع النبلاء. وكان يحلم بأشياء كثـيرة أخرى، رغم أنه لم يكن بليداً إلى حـد بعيد. كان في بعض الأحيان يبدو مولعاً كبيراً في الكلام، بل ويحب أن يتخذ وقفات برلمانية. كان من عائلة طيبة، ابن جنرال وابن دلال، وكان في طفولتـه يرتدي المخمل والنسيج الشفاف، وتربى في مؤسسـة أرستقراطيـة، ورغم أنه خرج منها بمعرفة قليلـة، إلا أنه أفلح

Telegram: @Arab_Books

في الوظيفة، ووصــل إلى رتبة جنرال[٧٠]. وكانت رئاسته تعتبره رجلاً كفوءاً، بل وكانــت تعقد عليه الآمــال. إلا أن ستيبان نيكيفوروفيتش الـذي كان رئيســه، والذي بدأ وواصل الخدمــة معه حتى رتبة جنرال تقريباً لم يكن قط يعتبره رجلاً ذا كفاءة عملية كبيرة، و لم يعقد عليه أية آمال. ولكن كان يروق له أن برالينسكي من عائلة طيبة، ويمتلك ثروة، أي بيتــاً كبيراً مؤجــراً يديره وكيل، وله أقارب لا بأس بهم، وفوق كل ذلك يملك لياقة مظهر. وكان ستيبــان نيكيفوروفيتش بينه وبين نفسه يؤاخــذه على الإفــراط في الخيال والاستهانة. أما إيفــان إيليتش نفسه فــكان يشعر أحياناً بأنه يحب ذاته كثيراً، بــل وشديد التأثر. والغريب في الأمــر أن نوبات من التحرج المرضــى كانت تنتابه أحياناً، بل ومن الندامــة الخفيفة على شيء ما. كان أحياناً يعترف بمرارة، وبوخز مبهم في النفســ، بأنه لا يرتفع عالياً، بالقــدر الذي يتصوره. وفي مثل تلك اللحظات كان يوؤل إلى يأس، لا سيما حين كانت تهيج عليه بواسيره، فيصف حياته *une existence manquuee* [٧١] يكف عن الإيمان، بينه وبــين نفســه بالطبع، بكفاءاتــه البرلمانية، وينعت نفســه بالثرثار بمنمق عبارات، ورغم أن كل ذلك كان، بالطبع، يرفع من شأنه كثيراً، إلا أنه لم يكــن يمنعه قط من أن يرفع رأسه ثانية بعــد نصف ساعة، ويتشجع، ويؤكــد لنفســه وبمزيد من العنــاد والتكبر بأنه ما يزال يملــم متسعاً من الوقت بيظهر نفسه، وبأنه سيكون موظفاً رفيع المقام، بل ورجل دولة ستذكــره روسيا طويلاً. بل يتخيل أحياناً نصبــا تذكارية تقام له. ومن هذا كان يتبــين أن إيفان إيليتش كان يطمــح عالياً، رغم عدم وضوح

٧٠. كانت رتبة الجنرال تمنح للموظفين المدنيين أيضاً. المترجم.

٧١. حياة خائبة (بالفرنسية).

Telegram: @Arab_Books

أحلامـه وأمانيه التي كان يخفيها في أعمـاق نفسه بنوع من الخوف. ومـع ذلك فقـد كان رجلاً طيباً، بل وشاعـراً في روحه. وفي الأعوام الأخـيرة صارت لحظات خيبة الأمل المرضية تتناوب عليه أكثر. فكان ينقلـب مهتاج الأعصاب موسوساً، متهيأ لأن يعتبر كل اعتراض إهانة لـه. إلا أن روسيـا الآخذة بالتجدد أعطته فجأة آمـالاً كبيرة أتمتها رتبة الجـنرال التي ترقـى إليها. فقوى قلبه، ورفع رأسـه. وراح فجأة يقول كلاماً بليغاً وبكثرة، ويتكلم في أحدث المواضيع التي استوعبها بسرعة بالغـة وبشكل غير متوقع إلى حد الضراوة. كان يترصد فرص الكلام، ويتنقـل في المدينة، ونجح في أماكن كثيرة في أن يعتبر ليبرالياً متحمساً، ممـا كان يرضى غروره. وفي هذا المسـاء انطلق بشكل خاص، بعد أن احتسـى زهاء أربعة أقداح. كان يريد أن يجعل ستيبان نيكيفوروفيتش يغـير رأيـه في كل شيء، بينمـا لم ير هذا الرجل منـذ زمان، وكان من قبـل يحترمه دائماً، بـل ويطيعه. ولسبب ما اعتـبره رجعياً، وهاجمه بضراوة غير اعتيادية. لم يعترض ستيبان نيكيفوروفيتش تقريباً، واكتفى بالاستماع بمواربة، رغم أن الموضوع كان يثير اهتمامه. واحتدم ايفان ايليتش، وفي حُميا الجدل المتوهّم كان يرشف من قدحه أكثر مما ينبغي. عندئذ تناول ستيبان نيكيفوروفيتش الزجاجة، وأضاف في الحال شيئاً مـن الشمبانيا إلى قدحه، ممـا جعل إيفان إيليتش يتكـدر بغتة ولسبب غـير معروف، لا سيما وأن سيميون إيفانوفيتش شيبولينكو الذي كان يحتقـره بشكل خاص، بل وكان يخشاه، فـوق كل ذلك، لسخريته ولؤمـه اعتصم بالصمـت، خلال ذلك بخبـث، وراح يبتسم أكثر مما ينبغي. «يبدو أنهما يعتبرانني صبياً» خطر ذلك في بال ايفان ايليتش.

-لا، يـا سـادة، آن الأوان، آن منـذ زمـن بعيـد- واصل كلامه

Telegram: @Arab_Books

بحماس – تأخرنا كثيراً، يا سادة، في رأيي، أن الروح الإنسانية في المقام الأول، الروح الإنسانية مع المرؤوسين، مذكرين إياهم بأنهم بشر. الروح الإنسانية تنقذ كل شيء، وتنتشل كل شيء....

– ها، ها، ها، ها!

صدرت من جانب سيميون إيفانوفيتش.

– على أية حال، أنت تكيل لنا اللوم – اعترض ستيبان نيكيفوروفيتش أخيراً، مبتسماً بلطف – اعترف، يا إيفان إيليتش، بأنني حتى الآن، لم أستطع أن أفقه شيئاً مما تفضلت وشرحته. أنت تضع الروح الإنسانية في الصدارة. أهي حب البشر؟

– نعم، على ما أظن، حتى حب البشر. أنا.....

– اسمح لي، يا حضرة. بقدر ما يسعفني تقديري، المسألة ليست في هذا وحده. حب البشر كان دائماً مرعياً. والإصلاحات لا تقتصر على ذلك فقط. فقد ظهرت قضايا فلاحية، قضائية، واقتصادية، وضرائبية، وخلقية إلى غير هذا وذاك...وإلى ما لا نهاية لهذه القضايا، وكل هذه مجتمعة، ملها دفعة واحدة، قد تولد تذبذبات كبيرة.

كما يقال....وهذا كما يقال....وهذا ما نخشاه، وليس مجرد الروح الإنسانية....

فلاحظ سيميون إيفانوفيتش قائلاً:

– نعم، يا سادة، القضية أعمق.

Telegram: @Arab_Books

– افهـم جيـداً، يا سـادة، واسمح لي بـأن أذكر لك، يـا سيميون إيفانوفيتش لن أقبل أبداً بأن أتخلف عنك في عمق تفهم الأشياء – نوّه إيفـان إيليتش بذلك بطريقة لاذعة وحـادة للغاية – ومع ذلك، وعلى أيـة حال، أجد في نفسـي الجرأة على أن أذكر لـك كذلك، يا ستيبان نيكيفوروفيتش، بأنك أيضاً لم تفهمني على الإطلاق.

– لم أفهمك.

– بالمناسبـة أنا بالذات أتمسك وأنشر في كل مكان فكرة أن الروح الإنسانية وبالـذات الروح الإنسانية مـع المرؤوسين، من الموظف إلى كاتب الأوراق، ومن كاتـب الأوراق إلى الخادم البواب، ومن الخادم البـواب إلى الريفـي. وأرى بأن الروح الإنسانية، يمكـن أن تكون إذا صـحّ القول، حجر الزاويـة للاصلاحات المقبلة، ولتجديـد الأشياء، بشكل عام. لماذا؟ لأنه. خذوا هـذا القياس المنطقي: أنا إنساني، إذن، فانا محبوب. الناس تحبني، معناه أنهم يشعرون بالثقة. يشعرون بالثقة، معنـاه يصدقون. يصدقون معناه يحبون.. يعنـي لا، أريد أن أقول إذا كانوا يصدقون فإنهم سيصدقون في الإصلاح أيضاً، يفهمون، إذا صح القول، جوهر الموضوع بالذات، يعني يتعانقون خلقياً، ويسوون كل الموضـوع بشكل ودي، وبشكل أساسي. لمـاذا تضحك، يا سيميون إيفانوفيتش؟ غير مفهوم؟

رفع ستيبان نيكيفوروفيتش حاجبيه صامتاً، وبدت عليه الدهشة.

ذكر سيميون إيفانوفيتش غامزاً بلذع:

– يبـدو أنني أفرطت في الشـراب قليلاً. ولهذت طـرأ خلل على أركادي. في دماغي شيء من الكلل.

Telegram: @Arab_Books

جفل إيفان إيليتش.

وقال ستيبان نيكيفوروفيتش بعد وقفة تأمل خفيفة:

– لا نتحمل.

– ما معنى لا نتحمل هذه؟ – سأل إيفان إيليتش مندهشاً من ملاحظة ستيبان نيكيفوروفيتش المفاجئة والحادة.

– هكذا، لا نتحمل.

قال ستيبان نيكيفوروفيتش، والظاهر أنه لم يرد أن يسترسل في الحديث أكثر، فاعترض إيليتش بشيء من التهكم.

– أتقصد الخمرة الجديدة في زقاق جديدة[٧٢]. طيب، من ناحيتي، أنا أتحمل تبعة نفسي.

في تلك اللحظة دقت الساعة معلنة الحادية عشرة والنصف.

– بعد الجلوس الانصراف – قال سيميون إيفانوفيتش وهو يتهيأ للنهوض من مكانه. إلا أن إيفان إيليتش سبقه. نهض من وراء الطاولة في الحال، وتناول من على الموقد قبعته من فراء السمور. وبدا كالمتكدر.

قال ستيبان نيكيفوروفيتش، وهو يوصل ضيفيه:

– ما رأيك إذن، يا سيميون إيفانوفيتش؟

٧٢. يقصد ما جاء في الإنجيل: تجعلون خمراً جديدة في زقاق جديدة. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

– بخصوص البيت، سأفكر، سأفكر.

– أبلغني حالما تستقر على رأي.

– دائماً حول الأعمال؟

تفضل السيد برالينسكي وقال ببعض المجاملة، عابثاً بقبعته. فقد بدا له أنهما ينسيانه.

رفع ستيبان نيكيفوروفيتش حاجبيه، وصمت إشارة إلى أنه لا يريد أن يؤخر ضيفيه. أسرع سيميون إيفانوفيتش فانحنى مودعاً.

«طيب...... بعد هذا، كما تريدون...... إذا كنتم لا تفهمون مجاملة بسيطة». – قرر السيد برالينسكي مع نفسه، ومدّ يده إلى ستيبان نيكيفوروفيتش باستقلالية ظاهرة.

في الرواق التف إيفان إيليتش بفروته الغالية الخفيفة، محاولاً، لغرض ما، أن يتحاشى النظر إلى فروة سيميون إيفانوفيتش المستهلكة من فراء الراكون. وأخذ الاثنان يهبطان الدرج. قال إيفان إيليتش لسيميون إيفانوفيتش الصامت:

– يبدو أن شيخنا قد تكدر.

– لا، ولِمَ؟

أجاب هذا بهدوء وبرود.

وفكر إيفان إيليتش في سره: «متملق!».

نزلا إلى مدخل البيت. تقدمت من سيميون إيفانوفيتش زلاجته بحصانها الرمادي الضئيل البائس.

Telegram: @Arab_Books

صاح إيفان إيليتش، حين لم يقع بصره على عربته:

– أي شيطان! لا أعرف أين ذهب تريفون بعربتي!

لم تكن العربة في أي مكان. و لم يكن لسائق ستيبان نيكيفوروفيتش أي علم بها. التجـؤوا إلى فارلام، حوذي سيميون إيفانوفيتش، فذكر لهم أن العربة كانت واقفة هنا، والآن غير موجودة.

– حادثـة شنيعة! – قال السيد سيبولينكو – هل تريد أو أوصلك؟
– عـوام أوغاد!– صاح السيد برالينسكي بجنون– رجاني المحتال أن أدعه يذهب إلى زفاف، هنـا في بطرسبورغسكيا ستورونا، عرابة ابنه تتزوج، خطفهـا الشيطان. منعته منعاً باتاً مـن أن يترك مكانه. والآن أراهن على أنه ذهب إلى هناك!

فذكر فارلام:

– بالفعـل، ذهب إلى هنـاك، يا سيدي، ووعـد أن يعود في دقيقة واحدة، ليكون هنا في الوقت المناسب.

– هكذا، إذن! كنت أستشعر ذلك! سأعلمه!

– اجلده حسب الأصول، مرة أو مرتين في المركز، وعندئذ سيلتزم بأوامرك – قال سيميون إيفانوفيتش، وقد تغطى بالدثار.

– أرجوك، لا تتأثر، يا سيميون إيفانوفيتش!

– إذن، لا تريد أن أوصلك.

Telegram: @Arab_Books

- مع السلامة، *merci*[٧٣].

غادر سيمون إيفانوفيتش، وسار إيفان إيليتش على الأرصفة الخشبية، شاعرا بهيجان شديد يجتاح نفسه.

- سأريك الآن، يا محتال! أنا أمشي على رجلي عن عمد، حتى تشعر،، حتى تخاف! ستعود وتعرف أن سيدك سار ماشياً على قدميه.......حقير!

لم يشتم إيفان إيليتش بهذا الشكل قط، ولكنه كان مهتاجاً جداً، فضلاً عن الضجيج في رأسه. كان رجلاً لا يقرب الخمرة، ولهذا فإن الأقداح الخمسة أو الستة أثرت فيه بسرعة. إلا أن الليلة كانت مذهلة، صقيعة، ولكنها هادئة ساكنة الريح. كانت السماء صافية منجمة. وبدر التمام ينشر على الأرض ألقا فضيا كامدا. كان الجو من الروعة بحيث أن إيفان إيليتش كاد ينسى مصيبته، بعد أن قطع حوالي خمسين خطوة. وصار يحس بارتياح ملحوظ. فضلاً عن أن الناس، تحت تأثير الخمرة، يغيرون انطباعاتهم سريعاً. بل وأخذت تروق له البيوت الخشبية الخالية من الجاذبية في الشارع المقفر.

وفكر مع نفسه:

«لطيف أنني مشيت على قدمي. كما أن ذلك سيكون درساً لتريفون، ومتعة لي. حقاً، ينبغي أن أتمشى على طول. وماذا؟ سأجد حوذياً في الشارع العام في الحال. ليلة رائعة! على الأرجح أن الناس الصغار يسكنون هنا، الموظفون،.....التجار، ربما.....هذا ستيبان

---

٧٣. شكراً (بالفرنسية).

Telegram: @Arab_Books

نيكيفوروفيتش! أي رجعيين هم جميعاً، هؤلاء الطراطير الشائخون! بالضبط، الطراطير، *cest le mot*[٧٤]. بالمناسبة إنه ذكي. إنه له ذلك ال *bon sens*[٧٥]، الفهم الرزين العملي للأشياء. ولكن المسنين يظلون مسنين! يفتقرون إلى... ما يمكن أن تسميه! طيب شيء ما ينقصهم..... لا نتحمل! ماذا كان يريد أن يقول بذلك؟ بل واستغرق في تفكير حين كان يقول....إنه، بالمناسبة، لم يفهمني على الإطلاق. ومع ذلك فكيف لم يفهمني؟ أن لا يفهمني أصعب من أن يفهمني. الشيء الرئيسي أنني موقن، موقن بقرارة روحي، الروح الإنسانية.... حب البشر. إعادة الإنسان إلى نفسه.... بعث كرامته، وعندئذ، يا سادة، أشرعوا بالعمل بمادة جاهزة. أظنه واضح! نعم، يا سادة! اسمحوا لي، يا صاحب السعادة. خذوا هذا القياس المنطقي: نلتقي، مثلاً بموظف، بموظف مسكين، مظلوم. «طيب....من أنت؟» يجيب: «موظف». طيب، موظف. وبعدها: «أي موظف أنت؟» يجيب: كذا، وكذا! «في الخدمة؟» «في الخدمة!» - «هل تريد أن تكون سعيداً؟» - «أريد». «ماذا تقتضي السعادة؟» كذا وكذا. «ولماذا؟» لأنه..... وهنا يفهمني الرجل من كلمتين: الرجل من حصتي. الرجل وقع، إذا صح أن يقال، في الشبكة، وأنا أفعل به كل ما يحلو لي، أقصد من أجل خيره. رجل شنيع سيميون إيفانوفيتش ذاك! أي بوز شنيع له... أجلده في المركز. قال ذلك عن قصد. لا، تكذب، اجلد أنت، أما أنا فلا أجلد. سأوثر في تريفون بالكلام، سأوثر فيه بالتقريعات. وعندئذ سيشعر. أما الجَلْد، حم........مسألة لم يُبت بها، حم.......هل

---

٧٤. كلموة موفقة (بالفرنسية).

٧٥. الإدراك السليم (بالفرنسية).

Telegram: @Arab_Books

أذهــب إلى أميرانســ؟ فو، ملعونــة هذه الأواح! – صــاح، حين تعثر فجـأة – وتسمى عاصمة! تنوير! يمكن أن تنكسر القدم. حم، أنا أكره سيميــون إيفانوفيتشــ هذا، بــوز شنيع للغاية. هو الــذي ضحك مني قبـل حين، عندما قلت يتعانقون خلقيــاً. طيب، ليتعانقوا، فما دخلك أنــت في الموضوع؟ لــن أعانقك أنت، أفضــل أن أعانــق ريفياً..... التقــي بريفي، وأتحدث معه. على العموم، كنت سكران، وربما خانني التعبـير. وربما الآن أيضاً، يخوننــي التعبير....حم، لن أشرب أبداً. في المســاء يأخذك الحديث، وفي الغد يركبك الندم. لا بأس، أنا أسير، ولا أترنح....على العموم، جميعهم محتالون!».

بهذا الشكل كانت تجري أفكار إيفان إيليتش متقطعة غير مربوطة، وهو يواصل سيره على الرصيف، أثّر فيه الهواء الطّلق، وهدهده، كما يمكن أن يقال. وكان من الممكن أن يهدأ بعد خمس دقائق أو نحوها، وينعس. ولكن موسيقى بلغت سمعه فجأة، وعلى بعد خطوتين تقريباً مــن الشارع العــام. تلفت. في الجانب الآخر مــن الشارع، وفي بيت خشبي من طابق واحد، متداع تماماً، ولكنه طويل كان يجري احتفال صاخب. الكمانات تصرف، الكنتروباص يصر، والفلوت يفيض زاعقاً بلحن رقصة الكادريل المرح. وتحت النوافذ وقف جمهور معظمه من النســاء في معاطف مبطنة بالقطن، والرؤوســ معصوبة بمناديل، كانوا يجهدون أنفسهم لتلتقط عيونهم شيئاً من خلال خصاص الصفاقات. في الجو مرح، كما يبدو. كان دوي طبطبة الراقصين يصل إلى الجانب الآخر من الشارع. لحظ إيفان إيليتش شرطياً غير بعيد عنه، فتقدم منه.

– بيت من هذا، يا أخ؟

Telegram: @Arab_Books

سألـه، وهو يفك معطفه الفرائي الثمين قليلاً، بالقدر الذي يجعل الشرطي يلحظ النيشان المهم المتدلي من رقبته.

- بيـت الموظف بسلدونيموف، المسجل. - أجاب الشرطي بهيئة استعداد، وقد استطاع أن يلمح الوسام خطفاً.

- بسلدونيموف؟ با! بسلدونيموف! ماذا عنده؟ يتزوج؟

- يتـزوج، يا رفيـع المقام، ابنـة مستشـار اسمـي [٧٦]: المستشار الاسمـي مليكوبتايف.... كان يشتغل في البلديـة. هذا البيت سينتقل إلى العروس، يا سيدي.

- إذن، فهو بيت بسلدونيموف الآن، وليس بيت مليكوبتايف؟

- نعم، بسلدونيموف، يا رفيـع المقام. من قبل كان لمليكوبتايف، والآن لبسلدونيموف.

- حم، أنـا أسألك، يا أخ، أسألك، لأننـي رئيسه. أنا جنرال على الدائرة التي يعمل فيها بسلدونيموف.

- نعم، يا صاحب السعادة.

واتخـذ الشرطي هيئـة استعداد كاملـة. وبدا وكأن إيفـان إيليتش استغرق في تفكير. كان يقف، ويفكر....

أجل، لقـد كان بسلدونيموف، بالفعل، مـن موظفي دائرته ومن

٧٦. وظيفة مدنية من الدرجة التاسعة. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

شعبة الأوراق التي يترأسها بالذات، كان يتذكر ذلك. إنه موظف صغير، لا يتجاوز راتبه الشهري عشرة روبلات. ولمّا كان السيد برالينسكي قد تسلم شعبة الأوراق منذ فترة غير بعيدة، فمن الممكن إلا يتذكر بسلدونيموف بسبب لقبه بالذات. فقد لفت بصره من الوهلة الأولى، حتى أنه أحبّ أن يلقي على حامل هذا اللقب نظرة متفحصة أكثر. والآن مازال يتذكر ذلك الشاب الفتي جداً، ذا الأنف المعكوف الطويل، والشعر الكتاني الملتف، النحيل العود، الفقير الدم من سوء التغذية، بسترته الرسمية المنكرة، وما لا يمكن وصفه حتى من باب اللياقة. وتذكر كيف خطرت له آنذاك فكرة أن يخصص لهذا المسكين روبلات عشرة كعلاوة للعيد. ولكن لما كان وجه هذا المسكين مضجراً جداً، ونظرته غير مستحبة للغاية، بل وتثير الاشمئزاز، فإن الفكرة الطيبة قد تبخرت من تلقاء نفسها، فبقي بسلدونيموف بلا مكافأة. والذي أدهشه أكثر طلب الزواج الذي قدمه بسلدونيموف هذا نفسه قبل أسبوع لا أكثر. وقد تذكر إيفان إيليتش أنه لم يكن لديه الوقت لينشغل بهذا الأمر بتفصيل أكثر، فتقرر أمر الزفاف بسهولة وعجالة، إلا أنه كان يتذكر بدقة أن جهاز عروس بسلونيموف يساوي بيتاً خشبياً، وأربعمائة روبل نقداً. عند ذاك أدهشه هذا الاعتبار، بل وتذكر أنه تهكم تهكماً خفيفاً على التقاء اللقبين بسلدونيموق ومليوكوبتايف. كان يتذكر ذلك جيداً.

وراح يتذكر المزيد والمزيد، ويغرق في التفكير. ومن المعروف أن أفكاراً كاملة تمر أحياناً في رؤوسنا في لمحة واحدة، على شكل أحاسيس، ودون أن تترجم إلى لغة إنسانية، بل إلى لغة أدبية. ولكننا سنحاول أن نترجم كل أحاسيس بطلنا هذا، ونقدم للقارئ زبدة هذه

Telegram: @Arab_Books

الأحاسيس، أي، إذا صح القـول، ما هو أكثر ضرورة وشبهاً بالحقيقة فيهـاز لأن الكثير من أحاسيسنـا، إذا ترجم إلى لغة اعتيادية، بدا وكأنه لا يشبـه الحقيقة على الإطلاق. وهذا هـو السبب في أنها لا تظهر إلى العيـان، بينما هـي موجودة لـدى كل إنسان. وطبيعـي أن أحاسيس وأفـكار إيفـان إيليتش كانت غـير مترابطة إلى حد مـا. وأنتم تعرفون السبب.

طاف في ذهنه:

«طبعاً! نحن نتكلم، ونتكلم دائماً، ولكن حين نصل إلى الموضوع لا نظفر بطائل. فلنستشهد، على الأقل، بسلدونيموف هذا. قبل حين جـاء من القرآن في الكنيسة منفعلاً، آملاً. منتظراً أن يتمتع.....إنه من أهنـأ أيام حياته....الآن منشغـل في الضيوف، يو لم مأدبة، متواضعة، بائسـة، ولكنها مرحـة بهيجة، صادقـة.... ماذا لو عـرف أنني، أنا رئيسه الأول، أقف في هذه اللحظة، قرب بيته، وأستمع إلى موسيقاه! حقـاً، ماذا سيحصل له؟ طيب، ماذا سيحصل له، لو أنني الآن، وعلى حين بغتـة لململت نفسـي، ودخلـت؟ حم....بالطبـع، سيرتعب في البداية، ويصعقه الذهول. كنـت سأعرقل حفلته، وأخرب، ربما، كل شيء.....نعـم هذا ما سيحدث، لـو أن أي جنرال آخر دخل، ولكن ليس أنا. تلك هي المسألة، كل جنرال آخر، ما عداي....

نعـم، ستيبان نيكيفورفيتش! لم تكن تفهمني قبل حين، وهذا مثال جاهز لك.

نعم، يا سادة، نحن جميعاً نصرخ عن الروح الإنسانية، ولكننا غير قادرين على أن نجترح بطولة، مأثرة.

Telegram: @Arab_Books

أية بطولة؟ أية. فكروا في هذا: لو أني، لو أني، في العلاقات الراهنة لجميع أعضاء المجتمع، دخلت، في الساعة الأولى بعد منتصف الليل، إلى حفلة زفاف مرؤوس لي، مسجل، براتب عشرة روبلات، سيكون ذلك انصعاقاً، يسبب دوامة أفكار، اليوم الأخير لبومبي[٧٧] منتهى البلبلة! لا أحد سيفهم هذا. سيموت ستيبان نيكيفوروفيتش ولا يفهمه. فقد قال: لا نتحمل. نعم، ولكن هذا أنتم، أيها المسنون، أخدان الشلل والركود. ولكنني سأتحمل، سأحول اليوم الآخير لبومبي إلى أحلى يوم لمرؤسي، والتصرف المستهجن إلى تصرف طبيعي، أبوي، رفيع، خلقي. كيف؟ هكذا، أصغوا، من فضلكم....

طيب.... ها أنا ذا، لنفرض، أدخل. فتأخذهم الدهشة، ويوقفون الرقصات، وينظرون بوحشية، ويتراجعون. هكذا، يا سادة، ولكنني هنا، أكشف عن طبيعتي. اتجه مباشرة نحو بسلدونيموف المذعور، وأقول له بأرق ابتسامة، وأبسط الكلمات «كذا وكذا، كنت عند صاحب السعادة ستيبان نيكيفوروفيتش، أظن أنك تعرفه هنا، بجوارك...». طيب، وأقص له مغامرتي مع تريفون ببساطة وبطريقة فكهة. ومن تريفون انتقل إلى أني اضطررت أن أسير ماشيا....«ثم وأسمع موسيقى، وأستفسر من الشرطي، وأعرف، يا أخ، أنك تعرّس. فأقول لنفسي: لأعرّج على مرؤوسي، وأنظر كيف يقيم موظفيّ الأفراح و...يعرسون. لا أظنك ستطردني!» تطرد! مثل هذه الكلمة لمرؤوس. كيف يطردني! أظن أنه سيجن، سينطلق بأقصى سرعته

---

٧٧. هنا يذكر بطل الرواية بالمعنى المجازي عنوان لوحة للرسام ك. بريولوف وهي اللوحة التي تعرض سكان المدينة الرومانية القديمة المذعورين الذين يهلكون نتيجة ثوران البركان المفاجئ. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

ليجلب لي كرسياً أجلس عليه، ويرتعش من الإعجاب، بل لا يفهم في الوهلة الأولى!...

طيب، أي شيء يمكن أن يكون أبسط وألطف من هذا التصرف! لماذا دخلت؟ هذا سؤال آخر! هذا، إذا صح القول، الجانب الخلقي من الموضوع. تلك هي العصارة!

حم، فيم كنت أفكر؟ نسيت، أها، نعم!

طيب، بالطبع، سيجلسونني مع أهم ضيف، مع مستشار اسمي، أو قريب لهم، ملازم أول متقاعد، أحمر الأنف.....من أولئك الظرفاء الذين وصفهم غوغول. طيب، وأتعرف، بالطبع، على العروس، وأثني عليها، وأسر الضيوف. أطلب إليهم ألا يستحوا، وأن يمرحوا، ويواصلوا الرقص، وأنكت، وأضحك، وباختصار سأكون لطيفاً، حلو المعشر. أنا دائماً لطيف، حلو المعشر، حين أكون راضياً عن نفسي...حم، ما أزال، على ما يبدو، لا لست سكران..... ولكني قليل....

....وطبيعي، كجنتلمان، سأكون على قدم المساواة معهم، ولن أطلب أبداً أية لفتات خصوصية بشأني.....ولكن المسألة من الناحية الخلقية شيء آخر. سيفهمون، ويقدرون.... سيبعث تصرفي النبل فيهم.....طيب، سأقعد نصف ساعة....وحتى ساعة، وانصرف، قبيل تقديم العشاء، بالطبع، وإلا فإنهم فسيتعنّون كثيراً، ويقلون ويخبزون، وينحنون احتراماً، ولكنني سأكتفي بشرب قدح، وأهنئ، وأعتذر عن العشاء. سأقول: عندي أشغال. وما إن أنطق بـ «أشغال» حتى تصير للجميع وجوه قاسية احتراماً. وبذلك أذكرهم بشكل

Telegram: @Arab_Books

لبـق، بأنني وإياهم لمختلفـون، يا سادة. أرض وسمـاء. ما كنت أريد أن أوحـي لهـم بذلـك، ولكن يجب، مـن الضروري حتـى بالمغزى الخلقـي، مهما قلتم في ذلك. وعلـى أية حال، سأبتسـم على الفور، بل وحتى أضحك، علـى الأرجح. وعندئذ سيبتهج الجميع.... أمزح مـرة أخرى مع العروس. حم.... بل حتـى ألـمّح إلى أنني سأعود بعد تسعـة أشهر بصفة عراب. ها، ها! أغلب الظن ستلد ذلك الحين. فهم يتناسلون كالأرانب. طيب، وسيضحك الجميع، وتمرّ العروس، فأطبع قبلة على جبينها بعاطفة، بـل وأباركها و......في اليوم التالي ستنتشر مأثرتـي في الدائـرة. في اليوم التـالي سأكون صارماً مـرة أخرى، في اليـوم التالي سأكون متشدداً، بل وصلـب العود لا ألين، ولكن عندئذ سيكون الجميع قد عرفوا أي شخص أنا. سيعرفون نفسيتي، سيعرفون جوهـري. «إنه صـارم كرئيس، ولكنه ملاك كإنسـان!». وهكذا قد انتصـرت، اقتنصت بفعل واحد صغير لا يخطر على بالكم. وهـم الآن لي، أنـا الأب، وهـم الأولاد.... طيب، يا صاحـب السعادة، ستيبان نيكيفوروفيتش، هيا، أقدم على هذه الفعلة.....

ثـم هل تعلمـون وتفهمـون أن بسلدونيموف سيذكـر أولاده أن جينرالاً قد شـارك في وليمة عرسه، بل وشرب فيها! ثم سيقص هؤلاء الأولاد لأولادهـم، وهـؤلاء لأحفادهـم كحادثة في غايـة القدسية، بـأن موظفـاً رفيـع المقام، رجـل دولـة، (سأكون كل ذلـك في ذلك الوقـت) شرّفهـم.... إلى آخـره، إلى آخره...... نعـم، سأرفع خلقياً من شـأن الوضيع وأعيد إليـه نفسه.... ويتقاضى عشرة روبلات في الشهـر!...... وإذا ما كررت ذلك خمـس أو عشر مرات أو شيئاً من هذا القبيل كسبت شعبيـة في كل المنطقة.... سأنطبع في قلوب الجميع

Telegram: @Arab_Books

والشيطان وحده يعرف ماذا يمكن أن ينجم من هذه الشعبية!...».

بهـذا الشكل أو بمثله على وجه التقريـب، كان يفكر إيفان إيليتش (ومـا أكثر ما يحدّث الإنسان نفسه أحياناً، يا سادة، لا سيما وإذا كان في حالـة غير طبيعية). وقد خطرت هذه الأفـكار في ذهنه في نصف لحظة، وكان مـن الممكن، بالطبع، أن يقتصر على هذه الأحلام، وبعد أن يخجل ستيبان نيكيفوروفيتش في دخيلة نفسه، يتجه إلى بيته هادئاً، ويـأوي إلى مضجعه. نِعمَ ما سيفعـل! ولكن أس المصيبة أن اللحظة لم تكن طبيعية.

إذ فجـأة، وكأنما عن عمد، وفي تلك اللحظة تراءى في خياله المثار وجها ستيبان نيكيفوروفيتش وسيميون إيفانوفيتش.

- لا نتحمل! - كرر ستيبان نيكيفوروفيتش مبتسماً بتعال.

- ها، ها،ها! - ثناه سيميون إيفانوفيتش بابتسامته السمجة للغاية.

- سـنرى إذن، كيف لا نتحمـل! - قال إيفـان إيليتش بحزم، بل وتوهـج وجهه. فنزل مـن الرصيف بخطى ثابتة، واتجـه عبر الشارع قدماً، إلى بيت مرؤوسه المسجل بسلدونيموف.

سحره النجم. فدخل مسرعاً إلى باب الحديقة المفتوح، ودفع بقدمه بـازدراء جرواً صغـيراً أشعث أبح انطلق تحت قدميـه بنباح أبح ليقوم بواجبـه شكلاً ولكـن دون أن يقصد إخافته. سـار على الممر الخشبي إلى مدخل مغطى طالع في الفناء مثل كشك حراسة، وصعد الدرجات الخشبية الكسيحة الثلاث إلى رواق صغير جداً. وهنا، ورغم أن عقب

شمعــة من الشحم، أو ما يشبه محرقة الخشب كان يشتعل في ركن، إلا أن ذلــك لم يقي إيفــان إيليتش من أن ينزل بقدمــه اليسرى بما فيها من كالوش في صحن غالنتير[٧٨] ترك ليبرد. انحنى إيفان إيليتش، وبعد أن تفحص بفضول، اكتشف أن هناك، إلى جانب هذا الصحن، صحنين من المخــثرات، وإنائين آخرين من المهلبية على ما يبدو. صدمه صحن الغالنتير الذي سحقه، وللحظة غاية في القصر خطرت له أن ينسلّ عائداً في الحال ولكنه اعتبر ذلك تصرفاً وضيعاً جداً. قال لنفسه: لا أحد رأى، ولن يشك أحد فيه. فأسرع في مسح الكالوش ليخفى كل أثر، وتحسس الباب المبطّــن باللباد، وفتحه، ووجد نفســه في حجرة انتظار صغيرة جداً تتكدس وتمــلأ نصفها تماماً المعاطف الثقيلة، والقصيرة، والألبسة والقلنسوات النسائية، واللفاحات والكالوشات. وفي النصف الآخر كان الموسيقيــون وهــم أربعــة مأخوذين من الشــارع، بالطبع، كمان وعازفان للفلوت والكنترباص – يجلسون وراء طاولة خشبية صغيرة غير مصبوغة، في ضوء شمعة شحم واحدة، يزعقون بالحركة الأخيرة للحــن الكادريل أعلى زعيق. ومن الباب المفتوح على القاعة يمكن أن يرى الرائي الراقصين في الغبار ودخان السكائر، والسخام. كان المرح عارماً، على ما يبدو. ترددت قهقهات، وصيحات، وزعقات نسائية. وكان الراقصــون يضربون الأرض بأقدامهم مثــل كوكبة من الخيول. وفــوق هذا الهــرج كله كان يرتفع أمر رجل ربمــا هو منظم الرقصات وقد أطلــق العنان لنفسه تماماً، وفــك أزراره: «الراقصون إلى الأمام، شــون دو دام، توازن؟» إلى غير ذلك وذلك. خلع إيفان إيليتش بشيء

---

٧٨. صحن بارد مختر من السمك واللحم والطيور. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

مـن الارتباك، معطفه الفرائي، وكالوشه، ودخـل الغرفة وقبعته بيده. دون أن يفكر أو يناقش نفسه، بالطبع.

في الدقيقـة الأولى لم يلحظه أحـد. فقد كان الجميع ينهون الرقصة الأخـيرة. وقـف إيفـان إيليتشـ كالمصعوق، غـير قـادر أن ينفذ إلى هـذا الخليط. كانت تلـوح أثواب نسائيـة وراقصـون والسكائر بين أسنانهم..... مـرق لفاح فاتح الزرقة لسيـدة، ولطمه على أنفه. انطلق في أثرها طالب طب متطاير الشعر في بهجة جنونية، ودفعه في طريقه بقوة. كما مرق من أمامه ضابط فارع الطول كالعمود. صرخ شخص بصوت زاعق بشكل غير طبيعي، وهو يدور ويطـبطب مع الآخرين: «إيـخ، بسلدونيموشكا!» كانـت الأرض تحت قدمي إيفـان إيليتش دبقـة، والظاهر أن أرضية الغرفة قد دهنت بالشمع. والقاعة، على أية حـال، ليست صغيرة، كانت تضم من الضيـوف ما يصل إلى الثلاثين عدا.

إلا أن رقصـة الكادريل قد انتهت بعد دقيقة، وبعد ذلك حدث في الحال الشيء الذي طاف في خيال إيفان إيليتش، حين كان يحلم على رصيف الشارع.

طنين وهمي غير اعتيادي بين الضيوف و الراقصين الذين لم يلتقطوا بعـد أنفاسهم، ويمسحوا العرق من وجوههـم وبدأت جميع العيون، وجميـع الوجـوه تتحول صـوب الضيف الذي دخـل. وبعدها أخذ الجميـع في الحال يتقهقرون قليلاً، ويتراجعـون. والذين لم يفطنوا إليه جُذبوا من ثيابهم، ونبّهوا، فالتفتوا، وتراجعوا في الحال مع الآخرين. بقـي إيفان إيليتش واقفـاً في مكانه عند الباب، لم يخط خطوة واحدة

Telegram: @Arab_Books

إلى الأمـام، بينمـا ظلـت الفسحة المفرّغـة بينه وبين الضيـوف تتسع أكـثر فأكـثر، كاشفة عن أرض تناثـر عليها عدد لا يحصـى من أغلفة الحلـوى، والقسائم وأعقاب السكائر. وفجـأة طلع إلى هذه الفسحة شـاب متخوف في سـترة رسمية طويلة، له شعر كتـاني ملتف، وأنف معكـوف. تقدم إلى الأمام، محنـى القامة، ينظر إلى الضيف غير المتوقع تماماً مثلما ينظر كلب إلى صاحبه، حين يدعوه ليعطيه رفسة.

– مرحباً، بسلدونيموف، هل تعرفني؟

قال إيفـان إيليتش، وشعر في تلك اللحظة بأن ما قاله تعوزه اللباقة إلى حد كبير، كما شعر بأنه قد يرتكب في هذه اللحظة حماقة كبرى.

تمتم بسلدونيموف:

– ص..... صاحب السسعادة!...

– نعـم، وهو كذلـك. جئت إليك، يـا أخ مصادفـة ولعلك أنت أيضاً، يمكن أن تتصور ذلك....

ولكـن بسلدونيمـوف، في الظاهر، لم يكـن في وسعه أن يتصور شيئاً، وقف محملقاً بعينيه، في حيرة مريعة.

– لا أظنـك ستطردني.....إذا جاء ضيـف فاستقبله، أردت أم لن تـرد.....– تابع إيفـان إيليتش شاعراً بأنه يرتبـك حتى دب فيه وهن لا يليـق، ويريـد أن يبتسم، ولكنـه لا يستطيع، وقصتـه الساخرة عن ستيبـان نيكيفوروفيتش وتريفون تصبح مستحيلـة أكثر فأكثر. ولكن سلدونيمـوف ظل علـى انصعاقه، وكأنما بتعمـد، واستمر ينظر بهيئة

Telegram: @Arab_Books

بلهـاء تمامـاً. جفل إيفـان إيليتش، وشعـر بأن لحظة أخـرى مثل هذه وتحدث بلبلة لا تصدق.

– إذا كنـت اعترضـت شيئاً.....سأذهب – ومـا كاد يقول ذلك حتى اختلج عرق في طرق شفتيه الأيمن....

إلا أن بسلدونيموف كان قد أفاق من الصدمة....

– تفضلوا، يا صاحب السعادة.....

نتشـرف.....– تمتـم، منحنيـاً بعجالة – شرفونـا بالجلوس....– وقـد تمالك حواسه أكثر، فأشار لـه بيديه الاثنتين إلى أريكة دفعوا عنها المنضدة للرقص.....

طـاب إيفـان إيليتش نفساً، وهبـط على الأريكـة، فهرع أحدهم في الحـال يقرب المنضدة منـه. أدار نظرة سريعة، ولاحـظ أنه الوحيد الجالـس، والآخـرون جميعاً واقفـون. حتى السيدات منهـم. أمارة سيئـة. ولكن الوقت ليس مناسبـاً الآن لتذكيرهم وتشجيعهم. ما زال الضيـوف يتراجعـون، وبسلدونيمـوف وحـده ما يزال يقـف أمامه متلوياً، غير فاهم شيئاً، وأبعد عن الابتسام، باختصار كان الجو مقرفاً. فقد تحمل بطلنـا في تلك اللحظة من الضيم قدراً كبيراً حتى أن زيارته الليليـة الهارون رشيديـة[٧٩]، لمرؤوسه في مقر داره، مـن أجل المبدأ، يمكن أن تعتبر عملاً بطولياً حقاً. ولكن شخصاً ضئيلاً بزغ فجأة قرب بسلدونيمـوف، وراح ينحني محيياً. ولارتياح إيفـان إيليتش الذي لا

٧٩. كان الخليفة العباسي هارون الرشيد يقوم بنزهات ليلية في بغداد يتعرف فيها على حياة رعيته. وقد صار فيما بعد أحد ابطال "الف ليلة وليلة". الناشر.

Telegram: @Arab_Books

يوصف، بل ولحسن حظه أنه عرف فيه أكيم بتروفيتش زوبيكوف رئيس أحد أقسام دائرته، وهو، وإن لم يكن متعرفاً عليه شخصياً إلا أنه كان يعرف أنه موظف كفء وصموت. نهض إيفان إيليتش رأساً، ومدّ لأكيم بتروفيتش يده، كامل يده، وليس إصبعين فقط. فتناولها هذا بكلتا يديه بتبجيل عميق للغاية. وانتصر الجنرال. لقد أنقذ كل شيء.

وبالفعل، لم يعد بسلدونيموف الآن الشخصية الثانية، إذا صح القول، بل الشخصية الثالثة. فقد صار بالإمكان مخاطبة رئيس القسم مباشرة، بعد أن اعتبره، بحكم الضرورة، من المعارف، بل وشخصاً قريباً. وخلال ذلك استطاع بسلدونيموف أن يلتزم الصمت فقط، ويرتعش تبجيلاً. ومعنى ذلك أن أصول اللياقة قد روعيت. بينما كانت الحكاية ضرورية. وقد شعر إيفان إيليتش بذلك، أحس بأن جميع الضيوف ينتظرون شيئاً ما، والجميع قد تجمهروا في كلا البابين، حتى أهل البيت، يكاد يصعد بعضهم فوق بعض ليلقوا نظرة عليه، ويصغوا لما يقوله. ومن المقرف أن رئيس القسم، لحماقته، لم يجلس بعد.

- ما هذا منك! - قال إيفان إيليتش بحراجة، مشيراً إلى مكان على الأريكة بالقرب منه.

- لا مؤاخذة، يا سيدي... أنا جالس هنا....

وجلس اكيم بتروفيتش على مقعد، وضعه له بسلدونيموف على الطائر تقريباً، بينما ظل هو واقفاً بعناد.

– يمكنك أن تتصور هذه المصادفة. – بدأ إيفان إيليتش يقول بصوت مرتعش قليلاً، ولكنه طليق الآن، مخاطباً اكيم بتروفيتش وحده. بل كان يمد ويفصل كلماته، ويشدد على المقاطع، وراح يخفف الألف، وباختصار كان نفسه يشعر ويعي بأنه يتلاعب، إلا أنه لم يعد قادراً على تمالك نفسه، فقد كانت قوة خارجية تسيطر عليه. في تلك اللحظة وعي الكثير جداً، وبشكل معذب.

– يمكنك أن تتصور أنني كنت لتوي عند ستيبان نيكيفوروفيتش نيكيفوروف. ربما سمعت به، مستشار سري. طيب، في تلك اللجنة....

انحنى اكيم بتروفيتش بكل جذعه إلى الأمام احتراماً وكأنه يقول: «كيف لم أسمع، يا سيدي».

– هو الآن جارك. – تابع إيفان إيليتش مخاطباً بسلدونيموف للحظة، للياقة والتبسط في الحديث، إلا أنه أشاح وجهه بسرعة، بعد أن رأى في الحال من عيني بسلدونيموف أن هذا غير مكترث تماماً.

– العجوز، كما تعرفون، كان طوال حياته يتحدث عن شراء بيت لنفسه....فاشتراه. وهو بيت جيد جداً. نعم....واليوم وافق عيد ميلاده أيضاً، ومن قبل لم يحتفل به قط، بل كان يخفيه عنا، ويرفض عن بخل. ها، ها! ولكنه الآن كان فرحاً في بيته، حتى أنه دعاني وسيمون إيفانوفيتش. تعرفون شيبولنكو.

انحنى اكيم بتروفيتش ثانية. انحنى بحماس! وارتاح إيفان إيليتش قليلاً. ولكن خطر في ذهنه أيضاً أن رئيس القسم، ربما، يحدس بأنه،

Telegram: @Arab_Books

في هذه اللحظة، ركيزة ضرورية لصاحب السعادة. وكان ذلك أقرف شيء.

– طيب، وجلسنا ثلاثتنا، وقدمت لنا الشمبانيا، وتحدثنا عن الأعمال... طيب، عن هذا وذلك.....عن القضايا.....بل وتجادلنا......ها، ها!

رفع اكيم بتروفيتش حاجبيه باحترام.

– ولكن المسألة ليست هذه. أودعه أخيراً، فالعجوز دقيق، ينام مبكراً، بسبب الشيخوخة، كما تعلمون. وأخرج.....فلا أرى سائقي تريفون. وأقلق، وأسأل: « أين ذهب تريفون بالعربة؟»

وأكتشف أنه أمّل أن أطيل الجلوس، وذهب إلى زفاف عرابته أو أخته...الله يعلم. هنا، في صوب بطرسبورغسكيا. وبالمناسبة، أخذ العربة معه – وعاد الجنرال ينظر إلى بسلدونيموف لياقة. فانكمش هذا في الحال، ولكن ليس بالقدر الذي يريده الجنرال. دار في ذهنه: « لا عاطفة، لا قلب».

– عجيب! – قال اكيم بتروفيتش الذاهل بعمق. وسرى طنين خافت في الجمع كله.

– يمكن أن تتصوروا وضعي....(ونظر إيفان إيليتش إلى الجميع) وأسير ماشيا، وما من حيلة. وأقول لنفسي. لأصل إلى الشارع العام، وأجد عربة....ها، ها!

– هي، هي، هي! – ردّد اكيم بتروفيتش باحترام، وعاد الطنين

Telegram: @Arab_Books

يسـري في الجميع، ولكن بمرح هذه المـرة. في تلك اللحظة انفجرت زجاجـة المصباح الحائطـي بفرقعة. اندفع شخصـ بهمة لإصلاحها. انتفض بسلدونيموف، ونظر إلى المصباح بحدة، إلا أن الجنرال لم يبد حتى التفاتا، وهدأ كل شيء.

– أسير..... والليلة رائعة، هادئة. وفجأة اسمع موسيقى، وكركبة، ناس يرقصون. استفسرت من الشرطي: بسلدونيموف يعرس. يعني يا أخ، تقيـم حفلات راقصة لكل بطرسبورغسكايـا ستورنا؟ ها، ها – خاطب بسلدونيموف بذلك فجأة.

– هـي، هي، هي! بالضبط.....– أجاب اكيم بتروفيتش. وتململ الضيوف مرة أخرى.

ولكن أحمق الأشياء أن بسلدونيموف، رغم أنه انحنى مرة أخرى، إلا أنه لم يبتسم، كأنما كان من خشب. وفكر إيفان إيليتش مع نفسه: « نعـم، إنه أحمق، يبـدو! كان الأحرى بهذا الحمار أن يبتسم عند هذا، إذن لسار كل شيء سلساً كأنما على زبدة» وعربد الضيق في قلبه.

– وأقـول لنفسي – لأعرج على مرؤوسـي. لا أظنه سيطردني... إذا جـاء ضيف فاستقبله، أردت أم لم ترد. أعذرني، يا أخ، أرجوك. إذ كنت ضايقت بشيء، سأذهب..... لم أجيء إلا لألقي نظرة....

ولكــن حركة بين الجميع سرت شيئاً فشيئـاً. ونظر اكيم بتروفيتش بهيئـة زائـدة الحـلاوة، وكأنـه يقـول «وهـل معقـول أن سعادتـك يضايـق؟» وتململ الضيـوف جميعاً، وأخذوا يبـدون أولى الأمارات عـن الانطلاق. كانت السيدات مازلن جالسـات كلهن تقريباً. وهي

Telegram: @Arab_Books

علامـة إيجابية. وأكثرهن جرأة لوّحـن بالمناديل. وإحداهن، وهي في ثـوب مخملي محكوك قالت شيئاً بصوت عال عن عمد. وأراد الضابط الـذي خاطبتـه أن يجيبها بصوت عـال أيضاً، إلا أنـه تهيب، لأنهما وحدهمـا كانا يتكلمان بصوت عال. كان الرجال ومنهم عدد متزايد مـن الكتبة، وطالبان أو ثلاثة يتبادلون النظرات، وكأنما يحث بعضهم بعضـاً على التحرر من القيود، وسعلوا، بل وأخذوا يخطون خطوتين في جهـات مختلفة. وعلى العموم لم يرتهـب أحداً، سوى أنهم جميعاً كانـوا ينظرون بوحشية وبعداء مضمر إلى الشخص الذي سقط عليهم ليفسـد مرحهـم. استحى الضابط مـن ضعف رجولتـه، فاقترب من المنضدة قليلاً.

سأل إيفان إيليتش بسلدونيموف:

- اسمع، يا أخ، اسمح لي أن أسألك: ما اسمك واسم أبيك؟

- بورفيري بتروف، يا صاحب السعادة.

أجاب هذا جاحظاً عينيه، وكأنه في تفتيش.

- عرفنـي، يا بورفـيري بتروفيتش، على زوجتـك الشابة،...... خذني إليها.....أنا...

وأبـدي الرغبـة في النهوض. إلا أن بسلدونيمـوف انطلـق إلى غرفـة الضيوف بأقصـى سرعته. بالمناسبة، كانـت العروس واقفة عند الباب، ولكنها اختفت حالمـا سمعت الكلام يعنيها. وبعد دقيقة طلع بهـا بسلدونيموف يقودهـا من يدها. تراجع الجميـع يفسحون لهما الطريق. نهض إيفان إيليتش بحفاوة، واتجه إليها بابتسامة دمثة للغاية.

Telegram: @Arab_Books

– سعيد، سعيد جـداً بالتعرف عليك – قال بانحناءة صغيرة، كما يفعلون في المجتمع الراقي – لاسيما في مثل هذا اليوم....

وابتسم ابتسامة مبطنة. وبدا تأثر لطيف على السيدات.

– شارميه[80]

قالت السيدة ذات الثوب المخملي بصوت مسموع تقريباً.

كانت العروس أهلا لبسلدونيموف. كانت فتاة نحيلة، لا تتجاوز السابعة عشرة من العمر، شاحبة، وجهها صغير جداً، وأنفها مستدق. كانـت عيناها الرسعتان المتراكضتان غـير مرتبكتين على الإطلاق، بل علـى العكس، كانتـا تنظران بتفرّس، وبشيء مـن الحنق. والظاهر أن بسلدونيمـوف لم يأخذهـا لجمالها. كانت ترتدي ثوبـاً من الموسلين الأبيض مبطناً بالنسيج الـوردي. كان عنقها نحيفاً، وجسدها ضاوياً يبرز عظامه. لم تستطع أن تجد شيئاً ترد به على تحية الجنرال.

– نعم، زوجتك حلوة جداً – تابع بصوت خافت، وكأنما يخاطب بسلدونيموف وحده، ولكنه تعمـد أيضاً أن تسمعه العروس. غير أن بسلدونيموف لم يرد بشيء هنا أيضاً، بل و لم ينحن في هذه المرة. حتى أن إيفـان إيليتش تخيل أن في عينيه شيئاً بارداً مترصداً، بل ويضمر في ذهنـه شيئاً معيناً خبيث الطوية. ومع ذلك كان يجب أن يثير أحاسيسه مهما يكن من شيء إذ لأجل هذا أتى.

فكر مع نفسه: «يا لهما من زوج وزوجة! بالمناسبة....».

---

٨٠. فاتنة (بالفرنسية).

Telegram: @Arab_Books

وتوجـه إلى العرس مـن جديد، وقـد جلست بالقـرب منه على الأريكـة، إلا أنه مرة أخـرى لم يتلق على اثنين أو ثلاثة من الأسئلة غير «نعم» و «لا»، وحتى هذه في الحقيقة لم يتلقها كاملة.

«علـى الأقـل لو ارتبكـت قليـلاً – فكـر في سـره – إذن لبدأت أمازحهـا. وإلا فإن وضعي لا مخرج لـه». واكيم بتروفيتش هو الآخر صمت، كأنما عن عمد، حماقة منه.

ولكنه شيء لا يعذر، على أية حال.

«أيها السادة، هل اعترضت مباهجكم؟» – خاطب الجميع سوية. بل وأحس بأن راحتي كفيه تعرقان.

– لا، قطعـاً.... لا تقلـق، يا صاحـب السعادة. سنبـدأ حالا، أما الآن..... فنتـبرّد – ردّ الضابـط. نظـرت إليـه العروس بارتياح: لم يكـن الضابط قـد شاخ بعـد، وكان يرتدي بزة إحـدى الفرق. وكنا بسلدونيموف ما يـزال واقفاً في مكانه،، مائلاً إلى الأمام، وبدا طالعا بأنفـه المعكوف أكثر مـن ذي قبل. كان يصغي وينظـر كخادك يقف ومعطف سيده الفرائي في يده ينتزر أن يفرغ سيده من حديث الودا ع. ابتكر إيفان إيليتش هذا التشبيه بنفسه. فقد السيطرة على نفسه، وشعر بحراجـة، بحراجة فظيعة، وبـان الأرض تزيغ من تحـت قدميه، وأنه كمن دخل في مكان دامس الظلام، ولا يستطيع الخروج منه.

وفجأة تراجع الجميع على أعقابهـم، وظهرت امرأة متينة البنيان، متوسطـة القامة، تخطـت سن الشبـاب، بسيطة الثيـاب، رغم أناقة ملبسها، تضع منديلاً كبـيراً على كتفيها مدبساً عند الحنجرة، وتعتمر

Telegram: @Arab_Books

قلنسـوة يبدو أنهـا غير متعودة عليهـا. كانت تحمل صينيـة مستديرة صغـيرة عليها زجاجة شمبانيا مملـوءة، وإن كان قد فتح سدادها، وقد حان فقط. والظاهر أن الزجاجة خصصت لاثنين من الضيوف.

دنت المرأة المسنة من الجنرال تماماً، وقالت منحنية بالتحية:

– لا مؤاخـذة، يا صاحب السعادة. ولكن لمـا كنتم لم تأنفوا منا، وكرمتـم ابنـي بالتفضل والحضـور إلى زفافه أرجـو أن تتكرموا أيضاً وتشربوا في صحة الزوجين الشابين تكرموا، ولا تأنفوا.

أمسـك إيفان إيليتشـ بها كما يمسك بطوق نجـاة. كانت امرأة لم تتقـدم بها السن بعـد، في نحو الخامسـة أو السادسـة والأربعين، لا أكثر. ولكنها كانت تملك وجها روسياً طيباً، مورداً، مفتوحاً، مدوراً، وتبتسم ابتسامة صافية النفس، وتنحني ببساطة، حتى أن إيفان إيليتش استأنس، وبدأ يأمل.

قال، وقد رفع جذعه عن الأريكة:

– أنت وا....لدة اب.......نك؟

– والدتي، يا صاحب السعادة – غتغت بسلدونيموف، ماداً رقبته الطويلة، طالعا بانفه مرة أخرى.

– أها! سعيد جداً، سعيد جداً بالتعرف عليك.

– لا تستنكفوا، يا صاحب السعادة.

– بل وبكل سرور.

Telegram: @Arab_Books

قدمت الصينيــة، وقفز بسلدونيمــوف ليصب النبيــذ. كان إيفان إيليتش ما يزال واقفاً، فتناول القدح. وأنشأ يقول:

- أنــا سعيد، سعيد بشكل خاص، بأن تتــاح لي الفرصة، لأشهد، لأشهد هــذه المناسبة.... باختصــار، كرئيس.... أرجو لك، يا سيدة (خاطب العروس مرة أخرى) ولك، يا صاحبي بورفيري، أرجو لكما الرفاهية التامة والسعادة المديدة.

وشــرب، بتأثــر، القــدح الذي هــو السابــع في هذا المســاء. كان بسلدونيمــوف ينظر في هيئة جدية، بــل وبتجهم. بدأ الجنرال يكرهه بشكل مؤلم.

«وهــذا الفزاعة الطويــل أيضا (ورمق الضابط) جامــد أيضاً. على الأقــل لو هتــف مرحــى...! ولسرت حركــة في الجــو، وأعقبه ثان، وثالث...»

- وأنت أيضــاً، يا أكيم بتروفيتش، اشرب في صحتهما - أضافت الأم المسنة مخاطبة رئيس القسم - أنت رئيس، وهو تابع لك. أرجوك كأم أن تهتــم بابنــي. ثــم لا تنس في المستقبــل أيضاً، يــا عزيزنا، أكيم بتروفيتش، أيها الرجل الطيب.

فكر إيفان إيليتش: « رائعات هــؤلاء العجائز الروسيات! أنعشت الجميع. أنا دائماً أعشق الروح الشعبية...»

في تلك اللحظة جلبت صينية أخرى إلى المائدة. جلبتها خادمة في ثوب مخشخش لم يغسل بعد من القماش القطني، والقبّة تحت تنورتها.

Telegram: @Arab_Books

كانت الصينية من السعة بحيث لا تكاد الفتاة تحيطها بذراعيها، عليها عـدد لا يحصى مـن صحون التفـاح والحلوى، والفواكـه والفالوذة المسكّـرة والمارمالاد، والجوز، وغيرها وغيرهـا. كانت الصينية حتى ذلـك الحـين موضوعة في غرفـة الضيـوف لتقدم لجميـع الضيوف، وللسيدات بوجه خاص. إلا أنها الآن قدمت للجنرال وحده.

- لا تستنكفوا من طعامنا، يا صاحب السعادة كل البيت قدامكم.

كررت الأم، وهي تنحنى.

- عفـواً..... - قـال إيفان إيليتش، بل وتنـاول بارتياح، جوزة وهشمها بأصابعه. فقد عزم على أن يكون شعبياً حتى النهاية.

وخلال ذلك أخذت العروس تقهقه.

- ماذا؟

سأل إيفان إيليتش مبتسماً، فرحاً بإمارة الحياة هذه.

أجابت مطرقة برأسها:

- هذا إيفان كوستنكينيتش يضحكني.

وبالفعـل لحظ الجنرال فتى أشقر الشعر، حسن الطلعة، يختبئ على مقعد من الجانب الآخر من الأريكة، يهمس بشيء لمدام بسلدونيموفا. نهض الفتى، والظاهر أنه كان خجولاً وفتياً جداً.

- كنت أحدثها عن «تفسير الأحلام»، يا صاحب السعادة.

Telegram: @Arab_Books

تمتم الفتى، وكأنه يعتذر.

فسأل إيفان إيليتش متلطفاً:

– عن أي تفسير الأحلام تتكلم؟

– كتاب تفسير أحلام جديد، أدبي[81]. فأقول لها إذا كان المرء قد رأى السيد بانايف في نومه، فمعنى ذلك أنه سيسكب القهوة على قبة الصدر.

«أيــة سذاجة» – فكر إيفان إيليتش وحتى بحنق. وكان الشاب قد احمــرّ كثيراً، وهو يقول ذلــك، إلا أنه كان مسروراً جداً بما حكاه عن السيد بانايف.

ردّ صاحب السعادة:

– نعم، نعم سمعت بذلك.

– لا، هــذه أفضــل – تكلم صــوت آخر قرب إيفــان إيليتش تماماً – عــن قريب سيصدر معجم جديد. ويقــال أن السيد كرايفسكي[82] سيكتب مقالات عن الفيراكي[83].....والأدب الفاضح[84]....

---

٨١. إشارة إلى مؤلف من أدب المحاكاة الساخرة بعنوان "تفسير الأحلام" لمؤلفه الشاعر ن. ف. تشيرينا (١٨٢١–١٨٦٨) هاجم فيه هجمات افترائية رئيسي المجلة الديمقراطية "سفرمينيك" ن. نكراسوف ز وي ز بانايف. الناشر.

٨٢. بدأ في الصدور في عام ١٨٦١ وعلى نفقة الحكومة "القاموس الموسوعي" من وضع علماء وأدباء روس. وقد أخذ آ. أ. كرايفسكي على عاتقه الاشراف العام مما أثار استياء في الصحافة آنذاك لأن كرايفسكي لم يكن غير ناشر ممول لا علاقة له بالعلم والفن. المترجم.

٨٣. الفيراكي ن. د (توفى عام ١٨٦٠) تاجر من تاغانروغ ظهر اسمه في الصحافة عام ١٨٥٩ لأنه كان لبعض الوقت عضو إدارة الجمعية التجارية "رب العمل الريفي". المترجم.

٨٤. الأدب الفاضح تسمية ساخرة للمنشورات الهجائية الطليعية المعاصرة. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

كان المتكلـم شابـاً، ولكنه غير مرتبك الآن، بـل وعلى قدر كاف من الطلاقـة. كان يرتدي قفازين، وصداراً أبيضـ، وقد أمسك قبعته في يـده. لم يكن يرقص، وكان ينظر بتعـال، لأنه كان أحد المساهمين في المجلة الهجائية «غولوفشـكا»[٨٥]، وكان من المؤلفين البارزين في المجلـة وكان طارئاً على الزفـاف، دعاه بسلدونيمـوف إليه كضيف شـرف، إذ كانت له مع بسلدونيموف علاقة رفـع الكلفة، وقد عانى معه الفاقـة في السنة الماضية في «أحد الأركان» في نُزل لسيدة ألمانية. إلا أنـه قـد احتسى الفـودكا، وكان بهذه الغاية قد غـاب غير مرة في حجرة خلفيـة صغيرة منزوية كان الجميع يعرفـون الطريق إليها. وقد نفر منه الجنرال نفوراً شديداً.

— والسبب في كونه مضحكاً — فجأة قاطعه بفرح، الشاب الأشقر الذي تحدث عن قبة الصدر، والذي كان المساهم في المجلة ذو الصدار الأبيضـ ينظر إليـه بكراهية — السبب في كونـه مضحكاً، يا صاحب السعـادة هو أن المؤلـف يدعى أن السيد كرايفسلـى لا يعرف أصول الكتابة، ويرى أن «الأدب الفاضح» يجب أن يكتبه أدب ناضح....

ولكن الشاب المسكين أتم كلامه بعسر. فقد أدرك من عيني الجنرال أن الجـنرال يعرف ذلـك منذ زمان، لأنه بدا كالمرتبـك، والظاهر لأنه كان يعـرف ذلك. وأحس الشاب بخجل غـير معقول. واستطاع أن يتـوارى في أقرب وقـت، وفيما بعد ظـل حزيناً جـداً سائر الوقت. وبالمقابل تقدم الجسـور المساهم في «غولوفشكا» أكثر، وكان ينوي،

٨٥. أي "الجمرة" وهي مجلة هجائية مع صور كاركاتورية كان يحررها وينشرها ما بين ١٨٥٩ – ١٨٧٣ ن. ستيبانوف. وف. كوروتشكين. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

علــى ما يبدو، أن يجلس في مكان أقرب. وبدت هذه الجسارة لإيفان إيليتش محرجة بعض الشيء.

بادر ليتكلم شيئاً:

– نعم! قل لي، من فضلك، يا بورفيري. لماذا سموك بسلدونيموف، وليــس بسيفدونيمــوف[٨٦]؟ لقد كنت دائمــاً أريــد أسألك عن ذاك شخصياً. أظن، أنك بسيفدونيموف؟

قال بسلدونيموف:

– لا أعرف بالضبط، يا صاحب السعادة.

فردّ اكيم بتروفيتش:

– كما يبدو، فقد تحرف اسم ابيه في الأوراق عند التقديم للوظيفة، حتى صار الآن بسلدونيموف. هذا يحصل.

– بالتأ..... كيــد – التقط الجنرال الكلام بحرارة – بالتأ.... كيد. لأنه، واحكمــوا بأنفسكم، بسيفدونيموف مشتقة من الكلمة الأدبية «بسيفدونيم»، ولكن لا معنى لبسلدونيموف، على الإطلاق.

أضاف اكيم بتروفيتش: من باب الحماقة.

– ما معنى من باب الحماقة هنا؟

–العــوام الروس، مــن باب الحماقــة، يحرفون الكلمــات الأدبية

---

٨٦. تعنى بالروسية ذو الاسم المستعار. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

أحيانـاً، فينطقونها على هواهـم. فمثلاً يقولون نيفاليـد، بدلاً من أن يقولوا إينفاليد[٨٧]، وهو الصحيح.

- أوه، نعم......نيفاليد، ها، ها، ها....

- ويقولون مومر أيضاً، يا صاحب السعادة - هذر الضابط الطويل الذي ضجر منذ زمان، وكان يريد أن يبرز بشكل ما.

- ما معنى مومر هذه؟

- مومر بدلاً من نومر[٨٨]، يا صاحب السعادة.

- آه، نعـم، مومر بدلاً من نومـر....أي، نعم، نعم......ها، ها، ها!.... - فقد اضطر إيفان إيليتش أن يقهقه لخاطر الضابط أيضاً.

عدّل الضابط ربطته.

- ويقولون أيضاً نيمو - دخل الحديث المساهم في «غولوفيشكا». إلا أن صاحـب السعادة حـاول أن لا يسمع ذلـك. فليس مكلفاً بأن يقهقه للجميع.

فألحّ المساهم في «غولوفيشكا» بتهيج واضح:

- نيمو بدلا من ميمو[٨٩].

---

٨٧. المشوّه أو المقعد، بالروسية. المترجم.

٨٨. الرقم، العدد، بالروسية. المترجم.

٨٩. عبر، خلال، بالروسية. المترجم.

Telegram: @Arab_Books

نظر إيفان إيليتش إليه بصرامة.

– ما هذا الإلحاح؟ – همس بسلدونيموف للمساهم في الجريدة.

– وماذا في هذا، أنا أتحدث. يعني الكلام ممنوع؟

أخذ هذا يجادل همساً أيضاً، إلا أنه صمت، على أية حال، وخرج من الغرفة بغيظ مكتوم.

انسل قدماً إلى الحجرة الخلفية الجذّابة، حيث وضعت للراقصين منذ بداية الحفلة، منضدة صغيرة مغطاة بمفرش يارسلافي، وصنفان من الفودكا، وسمك رنجة مملح، وكافيار مضغوط، وزجاجة من أقوى النبيذ من قبو النبيذ الوطني. صبّ فودكا لنفسه، والغيظ يعتمل في قلبه، وفجأة دخل الحجرة راكضاً طالب الطب ذو الشعر المنفوش، الراقص الأول، الأخصائي في رقصة الكنكان[٩٠] في حفلة بسلدونيموف الراقصة. وانقضّ على قارورة الخمرة بشراهة نافدة الصبر.

–سيبدؤون حالاً – قال واتخذ مجلسه بعجالة – تعال وتفرج. سأرقص رقصاً منفرداً على يديّ، وبعد العشاء أجازف فأرقص سمكة[٩١]. بل سيكون ذلك مناسباً للزفاف، أو إذا صح القول، لفتة ودية نحو بسلدونيموف..... كليوبطرة سيميونوفنا هذه رائعة، يمكن معها أن تجازف بأداء ما يحلو لك.

---

٩٠. رقصة فرنسية فيها حركات خليعة. المترجم.

٩١. رقصة شعبية وصفها ي. تورغينيف في 'صور قديمة" (١٨٨١): "رقص إيفان بشكل مدهش، ولا سيما "سمكة". تهدر الجوقة نغماً راقصاً، فيخرج الفتى إلى وسط الحلقة، فيأخذ بالدوران، والنط، والطبطبة بالقدمين، ثم كأنه يلبط على الأرض، ويمثل حركة سمكة قذفت من الماء إلى اليابسة...." الناشر.

Telegram: @Arab_Books

– إنه رجعي – أجاب العامل في المجلة، وهو يحتسي القدح.

– منْ رجعي؟

– هنــاك، الشخص الذي وضعوا أمامـه الفاكهة المسكّرة رجعي! هذا ما أقوله لك.

– أنــت تبالغ! – تمتم الطالب، وانطلق خارجاً من الحجرة، بعد أن سمع المدخل إلى الكادريل.

ولّما بقي المساهم في المجلة لوحده، صبّ له مزيداً من الفودكا ليزيد مــن شجاعته واستقلاليته، وشرب، وتمزّز، وإذا بمستشار الدولة العامل إيفان إيليتش قد كســب لنفسه في شخص المساهم في «غولوفيشكا» المــزدرى له عدواً لا أضرى منه، ومنتقمــاً لا أصلب منه قناة، لا سيما بعــد أن شرب قدحين من الفودكا. واأسفــاه! إن إيفان إيليتش لم يكن يفترض شيئاً من هذا القبيل. كما لم يكن يفكر في ظرف كبير الأهمية كان لــه الأثر في كل مواقــف الضيوف اللاحقة من صاحب السعادة. وخلاصة الأمر أن التفسير اللائق، والمفصل أيضاً، الذي قدمه لحضوره زفــاف مرؤوسه لم يطمئن أحــداً في الحقيقة، فاستمــر الضيوف على ارتباكهم. إلا أن كل شيء قد تغيّر، وكأنما بفعل السحر، وهدأ الجميع، وتهيــؤوا للمرح والضحك والزعيق والرقص كما لو أن الضيف غير المتوقــع لم يكن في الغرفة على الإطلاق. وكان السبب في ذلك شائعة سرت فجأة بطريقة غير معروفــة، همساً، خبراً مفاده أن الضيف يبدو أنــه...... تحت تأثير الخمــر. ورغم أن الأمر اتخــذ في الوهلة الأولى طابع الافتراء المنكر للغاية، إلا أنه شيئاً فشيئاً راح يكشف عن صحته، حتــى وضــح كل شيء فجــأة. وفضلاً عــن ذلك شاع فجــأة جو من

Telegram: @Arab_Books

التحـرر الملحوظ. وفي هذه اللحظة بالذات بـدأت رقصة الكادريل، الأخيرة قبل العشاء، والتي كان طالب الطب يستعجل لها كثيراً.

ما كاد إيفان إيليتش يهم بمخاطبة العروس، محاولاً هذه المرة أن ينفذ إليهـا باستعمال طباق فكـه، حتى قفز إليها الضابـط الطويل، وسقط علـى ركبة واحدة. فإذا بهـا تثب من الأريكة في الحال، وترفرف معه لتقـف في صفـوف رقصة الكادريـل. لم يكلف الضابـط نفسه حتى ليعتذر، و لم تتعنَ هي حتى لتلقي، لدى خروجها، نظرة على الجنرال، بل كانت تبدو مسرورة من خلاصها.

وفكـر إيفان إيليتش: «على العموم هذا من حقها، في الواقع. كما أنهم لا يعرفون أصول اللياقة».

«حم...وأنـت، يـا أخ بورفـيري، لا تتكلـف معـي» – خاطب بسلدونيمـوف بذلـك – «ربما لديك شـيء مـا هناك....إيعازات.. أو شـيء آخر....أرجـوك، لا تستـح». وأضاف في سـره: « هل هو يحرسني، أم ماذا؟».

وبـدأ أن يكره بسلدونيموف برقبته الطويلة، وعينيه المتفرستين به. وباختصار كان كل ذلـك ليس كما يجب، ليس كما يجب كلياً، غير أن إيفان إيليتش ما زال أبعد عن أن يعترف بذلك.

بدأت رقصة الكادريل.

– هل تأمر، يا صاحب السعادة؟

سـأل اكيم بتروفيتش، وهو يمسك الزجاجة بيده في احترام، متهيئاً ليصب في قدح صاحب السعادة.

Telegram: @Arab_Books

– أنا.....أنا في الحقيقة، لا أدري، إذا.....

إلا أن أكيم بتروفيتش صبّ الشمبانيا، ووجهه يشع تبجيلاً. وبعد أن ملأ القدح، صبّ لنفسه أيضاً، وكأنما اختلاساً، كأنما بطريقة متلصصة، وهو ينكمش ويتلوى، وقد ترك مقدار إصبع كامل لم يملأه فرقا بينه وبين صاحب السعادة، ليكون ذلك أكثر احتراماً. كان مثل امرأة في حالة الطلق، في جلسته تلك قرب رئيسه الأقرب. عن أي شيء يمكن أن يتكلم؟ على كل حال، ما دام قد أتيح له الشرف لمجالسة صاحب السعادة رئيسه، فلا بد أن يسلّيه، بل هو ملزم بذلك. وصارت الشمبانيا مخرجاً، بل أن صاحب السعادة كان لطيفاً بالنسبة له أن أكيم بتروفيتش صب الشمبانيا، لا من أجل الشمبانيا، فقد كانت دافئة، ومقززة للغاية، بل لأن ذلك يريح خلقياً.

وفكر إيفان إيليتش مع نفسه: «العجوز نفسه يحب أن يشرب، ولا يجسر أن يشرب بدوني. لا يحق لي أن أوقفه....ثم من المضحك أن تبقى الزجاجة بيننا كما هي».

وشرب رشفة. كان ذلك، على أية حال، أحسن من الجلوس دون شيء.

– جئت إلى هنا – بدأ يقول بتوقف وتشديد على المقاطع – أنا هنا، إذا صح القول، بالمصادفة، وبالطبع، قد يرى آخرون.....، أن من غير اللائق بي.....إذا صح القول.....أن أكون في مثل هذا.... اللقاء.

صمت أكيم بتروفيتش يصغي بفضول متهيب.

Telegram: @Arab_Books

– ولكنني آمل أن تفهم، لماذا جئت إلى هنا....

فأنا في واقع الأمر لم أجيء لأشرب الخمرة. ها،ها!

أراد أكيم بتروفيتش أن يقهقه في أثر صاحب السعادة، إلا أنه أحجم، على أية حال، ومرة أخرى لم يجب بشيء يُسرى عنه.

– أنا هنا....للتشجيع، إذا صح القول....

من أجل، إذا صح القول، هدف خلقي، إذا صح القول – تابع إيفان إيليتش متضايقاً من بلاده اكيم بتروفيتش، ولكنه صمت هو الآخر فجأة. فقد رأى اكيم بتروفيتش المسكين يخجل حتى أطرق ببصره، وكأنه ملوم بشيء. أسرع الجنرال بشيء من الارتباك فشرب رشفة أخرى من قدحه، أما أكيم بتروفيتش فقد اختطف الزجاجة، وصبّ من جديد، وكأن كل أمله في النجاة متوقف على ذلك.

«ولكن إمكانياتك قليلة» – فكر إيفان إيليتش، وهو ينظر بحدة إلى اكيم بتروفيتش المسكين. واستشعر هذا نظرة الجنرال الصارمة عليه، فعزم على أن يصمت نهائياً، ولا يرفع بصره. وهكذا جلسا وأحدهما مقابل الآخر زهاء دقيقتين، دقيقتين موجعتين لأكيم بتروفيتش.

فلنقل كلمتين عن أكيم بتروفيتش. كان رجلاً وديعاً كدجاجة، من الطراز القديم جداً، تربى على التذلل، ومع ذلك فهو رجل طيب، بل ونبيل. كان من الروس البطرسبورغيين، أي أن أباه وأبا أبيه ولدا ونشآ وخدما في بطرسبورغ، ولم يغادراها قط. وهؤلاء نمط خاص من الروس، لا يكاد يكون لديهم أي مفهوم عن روسيا، ولا يقلقون

Telegram: @Arab_Books

على شـيء. كل اهتمامهم محصور في بطرسبورغ، وفي مكان عملهم بشكل رئيسي. كل اهتماماتهم منصبة على لعبة الورق برهان كوبيك واحد، وعلـى الحوانيت، والراتـب الشهري. وهـم لا يعرفون أية عادة روسيـة، ولا أية أغنية روسية غير أغنيـة «السراج»، وحتى هذه لمجرد أنهـا تعزف على أورغـن الشارع. وبالمناسبة هنـاك علامتان مهمتان ثابتتان يمكنكم بهما أن تميّزوا في الحال بين الروسي الحقيقي والروسي البطرسبورغـي. العلامة الأولى هي أن جميع الروس البطرسبورغيين، جميعهم بـلا استثنـاء، لا يقولون أبـداً «الوقائـع البطرسبورغية» بل «الوقائـع الأكاديمية»[٩٢]. والعلامة الثانيـة، المهمة على حد سواء، هي أن الروسـي البطرسبورغـي لن يستعمل أبداً كلمـة «فطور» بل يقول «فريشتيـك»[٩٣] مشدداً بشـكل خاص على صوت «فـري». أنكم بهاتـين العلامتين الأساسيتين الفارقتـين تستطيعون أن تميزوهم دائماً، وباختصـار، إنه نمط وديع، تلاشى نهائياً في الأعوام الخمسة والثلاثين الأخـيرة. وعلى العموم لم يكن أكيم بتروفيتش أبله على الإطلاق. فلو سألـه الجنرال عن شيء مناسب له، لردّ، ولواصل الحديث، وإلا فليس من اللائق بمرؤوس أن يرد على أسئلة من هذا القبيل، رغم

أن اكيم بتروفيتـش كان يتحرّق فضولاً ليعرف بتفصيل أكثر نيات صاحب السعادة الحالية.

وخـلال ذلـك كان إيفـان إيليتش يغـرق في التفكـير وفي دوامة الأفـكار أكثر فأكثر، وفي سرحـان فكره كان يرشف من قدحه بشكل

---

٩٢. "الوقائع" البطرسبورغية – صحيفة يومية رخصت أكاديمية العلوم بإصدارها منذ عام ١٧٢٨. الناشر.

٩٣. تشويه من الكلمة الألمانية التي تعني "الفطور". المترجم.

Telegram: @Arab_Books

لا يُلحظ، ولكن باطراد. وكان أكيم بتروفيتش يسدّ ما فرغ من قدحه في الحال، وبهمة مـا بعدها من همة. لزم الاثنان الصمت. وبدا إيفان إيليتش يراقب الرقصات، وسرعان ما جذبت انتباهه قليلاً. إلا أن ظرفاً وقع فجأة، فأثار حتى دهشته.

كانـت الرقصـات مرحة بالفعل. كانـوا يرقصـون ببساطة قلب، بالضبـط، ليمرحوا، بـل وليعبثوا. وكان البارعـون في الرقص قليلين جـداً، إلا أن الذيـن تنقصهم البراعة كانوا يضربـون الأرض بأقدامهم بقوة، فكان من الممكـن أن تحسبهم بارعين. وبرز الضابط أولاً، كان يحـب أداء الحركات بشكل خاص، حين يبقـى وحده، وكأنه يرقص منفرداً. وعندها كان ينعوج بشكل مذهل، لا سيما، حين كان ينتصب بكل قامته كالعمود تماماً، ثم يميل إلى جنب فجأة، حتى لتظن أنه سيقع، ولكنـه في الخطوة التالية يميل فجأة إلى الجانب المعاكس، بنفس الزاوية الحادة مـع الأرض. كان يحتفظ بتعبير وجهه في جدية بالغة، ويرقص في ثقـة تامة بـأن الجميع مندهشون منه. راقص آخر غفى في الحركة الثانيـة قرب مراقصتـه، بعد أن عبّ الخمـرة قبل أن تبـدأ الكادريل، فكان على مراقصته أن تمضي بالرقصة وحدها. وكان المسجل الشاب الـذي يراقص السيدة ذات اللفاح الأزرق يقـوم بلعبة واحدة في كل الحـركات، وفي كل رقصات الكادريل الخمسـة التي رقصها في هذه السهرة، وهي أن يبتعد عن مراقصته قليلاً، ويلقف طرف لفاحها، وعند مبادلـة المواقع مع الطرف المقابل، يلحق فيطبع على هذا الطرف نحواً مـن عشرين قبلا. وكانت السيدة، قدّامه، تنسـاب وكأنها لم تلحظه. وطالب الطب أدى، بالفعل، رقصة انفرادية وقدماه إلى الأعلى، وأثار الحماس العارم، والطبطبة، وهتافات الارتيـاح. وباختصار كان جو

Telegram: @Arab_Books

الطلاقة غامراً. وبدأ إيفان إيليتش يبتسم، وقد أثرت الخمرة فيه، إلا أن ارتياباً مراً بدأ يتسلل إلى نفسه شيئاً فشيئاً. بالطبع، كان يهوى المرح والانطلاق كثيراً. كان يريد هذا الانطلاق، ويتوسله في قرارة نفسه، حين كان الجميع يتراجعون عنه، أما الآن، فقد صار هذا الانطلاق يخرج عن الحدود. إحدى السيدات، مثلاً، وهي في ثوب مخملي أزرق محكوك، مشتري من رابع مستهلك دبّست ثوبها هذا بدبوس في الحركة السادسة، فبدت وكأنها في بنطال. إنها كليوبطرة سيميونوفنا بعينها، تلك التي كان من الممكن أن يُجازف معها بكل شيء، حسب تعبير مراقصها طالب الطب. ولا حاجة للكلام عن طالب الطب هذا. فوكين[٩٤] بعينه. كيف هذا؟ كانوا يتراجعون من قبل، وإذا بهم قد انعتقوا الآن بهذه السرعة! ربما لا ضير في ذلك، ولكن هذا التحوّل كان غريباً على نحو ما. كان ينبئ بشيء ما. كأنهم نسوا تماماً أن هناك شخصاً يدعى إيفان إيليتش. وطبيعي أنه أول من قهقه، بل وجازف فصفق. وجاراه اكيم بتروفيتش فقهقه بصوت خافت احتراماً، وإن كان باستمتاع ظاهر، ودون أن يرتاب بأن الدودة الأولى بدأت تقرض قلب صاحب السعادة. – أنت ترقص بشكل رائع، أيها الشاب.

– اضطر إيفان إيليتش أن يقول لطالب الطب الذي مرّ به، وقد انتهت رقصة الكادريل لتوها.

استدار طالب الطب نحوه بزاوية حادة، ورسم على وجهه تقطيبة، وقرّبه من صاحب السعادة قرباً غير لائق، وصاح بكل صوته صيحة الديك. كان ذلك أكثر من اللازم. نهض إيفان إيليتش

٩٤. المقصود هنا، على ما يبدو، أحد "أبطال رقصة الكانكان" الذي اشتهر " في بطرسبورغ كلها بضربات قدميه بعضهما ببعض". الناشر.

Telegram: @Arab_Books

مـن وراء الطاولة. ورغم ذلك سرت موجة من القهقهة التي لا تكبح، لأن صيحـة الديك كانت طبيعية بشكل مذهل، والتقطيبة كلها كانت مفاجـأة، فقد وقف إيفان إيليتش في حيرة من أمره، وفي هذه اللحظة طلع بسلدونيموف فجأة، وانحنى، وراح يرجوه ليتفضل إلى العشاء. وفي أثره جاءت أمه أيضاً.

وقالت وهي تنحني:

– مولانا، يا صاحب السعادة. شرفونا، ولا تنفروا من بؤسنا.

– أنا....أنا، لا أعـرف حقاً.....– شرع إيفان إيليتش يقول – لم أجيء لهذا....كنت أريد أن أنصرف.....

وبالفعـل كان يمسك قبعته في يـده. وفضلاً عن ذلك، فقد كان قد عاهـد نفسه، في هذه اللحظة، على أن يغـادر بالتأكيد، وعلى الفور، ومهمـا يكن من شيء لن يبقى هنا....ولكنـه بقي. وبعد دقيقة ترأس الموكب إلى المائـدة. كان بسلدونيموف وأمه يسيران أمامه، يفسحان لـه الطريق. أجلسوه في أرفع مكان، ومرة أخـرى ظهرت أمام أوانيه زجاجـة شمبانيا لم تمس بعد، وكانـت هناك مشهيات: رنجة وفودكا. مـدّ يده، وصبّ لنفسـه قدحاً جسيماً من الفـودكا، وشرب. لم يكن قـد ذاق الفودكا من قبـل. فشعر وكأنه يتدحرج مـن جبل، ويهوى، ويهوى، ويهوى، ويهوى، ولا بد من أن يمسك نفسه، يتشبث بشيء، ولكن لا سبيل إلى ذلك أبداً.

وبالفعل، راح وضعه يزداد شـذوذاً أكثر فأكثر. وفضلاً عن ذلك، فقـد كان القدر يلعب إحدى سخرياته معه. والله يعلم ماذا حصل معه

Telegram: @Arab_Books

خـلال نحو مـن ساعة. عندمـا كان يدخل البيـت كان يبسط ذراعيه ليحتضن الإنسانية كلها، وكل مرؤوسيه. وها قد مرّت ساعة أو نحوها، وإذا بـه قد أحس وعرف بكل آلام قلبه أنه يكره بسلدونيموف ويلعنه وزوجته وعرسـه. وبالإضافة إلى ذلك رأى مـن وجه بسلدونيموف وعينيه أنه هـو أيضاً يبادله الكراهية، وأنه ينظـر إليه وهو يكاد يقول: «أغرب عـن وجهي، أيها الملعون! ماسك بخناقي!...». وقد قرأ كل ذلك في نظرته منذ وقت طويل.

وبالطبـع كان إيفـان إيليتش حتى الآن، وهـو جالس وراء المائدة، يفضل أن تقطع يـده على أن يعترف بصدق، حتى بينه وبين نفسه، لا علـى مسمع من الناس، بان كل ذلك حصل بالضبط، وبالفعل. إلا أن اللحظـة لم تحن تماماً، مـا يزال هناك شيء من التـوازن الخلقي. ولكن القلـب، القلب..... كان يئن! كان يتحرق شوقاً إلى الحرية، إلى الهواء الطلق، إلى الراحة. إلا أن إيفان إيليتش كان رجلاً طيباً أكثر من اللازم.

فقد كان يعرف، يعرف حق المعرفة، أن وقت انصرافه قد حان منذ وقت طويل، لا وقت انصرافه فقط، بل ونجاته أيضاً. أن كل شيء صار فجـأة ليس كما يجـب، تحوّل تحولاً يختلف تمامـاً عما كان يحلم به، وهو يسير على الرصيف، قبل حين.

«ولكن لماذا جئت؟ هل معقول أنني جئت إلى هنا لآكل وأشرب؟» – كان يسـأل نفسه، وهو يتمـزز بالرنجة. بل كان ينقلـب إلى الضد. كانت تعتمـل في نفسه لحظات من السخرية مـن عمله البطولي هذا. صار لا يفهم هو الآخر لماذا دخل هذا البيت حقاً؟

ولكـن كيف كان سينصـرف؟ لقد كان مـن المستحيل أن ينصرف

Telegram: @Arab_Books

دون أن يكمل ما جاء من أجله. «ماذا سيقول الناس؟ سيقولون أنني أحن إلى الأماكن غير اللائقة. سيحصل هذا، بالتأكيد، إذا لم أكمل. مثلاً، ماذا سيقول في الغد ستيبان نيكيفوروفيتش، سيميون إيفانوفيتش، ماذا سيقولون في قسم للأوراق، أو عند آل شيمبيل، أو عند آل شوبين؟

(لأن الخبر سيشيع في كل مكان). لا، يجب أن أنصرف بحيث يفهم الجميع سبب في مجيئي، يجب كشف الغاية الخلقية منه – وخلال ذلك ظلت اللحظة الحاسمة مستعصية – بل هم لا يحترمونني – تابع تفكيره – مم يضحكون؟ تحللوا جداً، فكأنهم فقدوا الإحساس..... نعم، منذ زمان وأنا أشك في أن يكون للجيل الجديد إحساس! يجب أن أبقى، مهما يكن من شيء!....إنهم كانوا يرقصون، والآن يجتمعون حول المائدة. سأتحدث عن القضايا، عن الإصلاحات، عن عظمة روسيا....سأسيطر على انتباههم! نعم! ربما لم يضع أي شيء على الإطلاق.....ربما هذا ما يحصل في الواقع دائماً. ولكن من أين أبدأ لأستولي على اهتمامهم؟ أية طريقة تناول اختار؟ رأسي ذاهل، ذاهل تماماً... ماذا يريدون، ماذا يطلبون؟.....أراهم هناك يتبادلون الضحكات....ربما مني، يا إلهي! ولكن ما الذي أريد....لماذا أنا هنا، ولماذا لا أخرج، ما الذي أسعى إليه؟....» كانت هذه الأفكار تتوارد عليه، وكان خجل، خجل عميق لا يطاق، ينفذ إلى قلبه ويمزقه أكثر فأكثر.

ولكن اللحظات تتابعت إحداها تلو الأخرى.

بعد دقيقتين تماماً من جلوسه إلى المائدة تملكت كل كيانه فكرة

Telegram: @Arab_Books

رهيبــة. فقد شعر فجأة بأنه سكران إلى حــد فظيع، أي ليس كما كان مــن قبل، بل سكران كليــاً. وكان السبب في ذلك قدح الفودكا الذي احتساه عقب الشمبانيا، فأحدث تأثيره العاجل. وأحس، ولمس بكل كيانه أنه يضعف تماماً. وقد أضاق إليه، بالطبع، غير قليل من الشجاعة. إلا أن الوعي لم يزايله وكان يصرخ به «قبيح، قبيح جداً، بل وغير لائق مطلقــاً»! وبالطبع لم تستطع الأفكار المخمــورة الرجراجة أن تتوقف على أيــة نقطة. ظهر فيه فجأة طرفان محسوسان حتى لديه نفسه: كان في أحدهمــا الشجاعة والرغبة في الانتصــار وتحطيم العراقيل، والثقة المستميتة في أنه ما يزال قادراً على الوصول إلى هدفه. والطرف الثاني كان يتبدى في الجزع المعذّب في النفس، ونخَر في القلب «ماذا سيقول الناس؟ بم سينتهي هذا؟ ماذا سيكون غدا، غدا، غداً!».

مــن قبــل كان يشعــر شعــوراً مبهمــاً بــأن لــه الآن أعــداء بــين الضيوف. «ذلك لأنني كنت الأرجح سكران من قبل»

– كان يفكــر بشك معذب. وأي رعب تملكه حين وثق الآن فعلياً وبأمارة دامغة بأن المائدة تضم بالفعل أعداء له، وما من شك في ذلك.

وفكر: « على أي شيء! على أي شيء!».

كانت هــذه المائدة تضم زهاء ثلاثين ضيفــاً، كان بعضهم سكران كليــاً. والبعض الآخر يتصرف باستخفاف وباستقلالية فظة، ويصرخ، ويقــول كل شيء بصوت عال، ويرفع الأنخــاب قبل أوانها، ويتراشق مــع السيدات بكرات الخبــز. وأحدهم، وهو شخص دميم في سترة فراك متسخة، سقط من مقعده حالما جلس إلى المائدة، وبقي على حاله حتى نهايــة العشاء. وآخر ألحّ على أن يرتقــى المائدة، ويرفع نخباً من

Telegram: @Arab_Books

فوقهـا، إلا أن الضابط جذبه من ذيل سترتـه، وأخمد حماسه المبتسر. كان العشـاء عادياً جـداً، رغم أنهـم استأجروا له طباخـاً، هو أحدد أقنـان جنرال ما. كان هناك غالنتير، ولسـان مع البطاطس، وكفتة مع البازليـاء، وأخيراً جلبـوا وزة، وقبيل الختام مهلبيـة. ومن المشروبات كانـت هناك بيرة وفـودكا ونبيذ. وكانت زجاجـة شمبانيا موضوعة أمام الجنرال وحده. ممـا اضطر إلى أن يصب لأكيم بتروفيتش الذي لم يكـن يجرأ على أن يأخذ المبادرة بيده علـى مائدة العشاء. وكانت قد أعـدت للضيوف الآخرين الخمرة المـرة أو ما اتفق ليشربوا الأنخاب. والمائـدة نفسها كانت مؤلفة من عدة مناضـد صفّت إحداهما جنب الأخـرى، كان من بينها طاولة لعب. وكانت مفروشة بمفارش عديدة مـن بينها مفرش يارسلافي ملوّن. كان جنـب كل رجل تجلس سيدة. لم تـرد أم بسلدونيمـوف أن تجلس إلى المائدة، كانـت تروح وتجيء وتصـدر الأوامر. وإلى جانـب ذلك طلعت امـرأة خبيثة لم تظهر من قبـل ترتدي ثوبـاً حريرياً أحمـر، وقلنسوة عالية وقد شـدّت فكيها. وتبـيّن أنها أم العروس، قبلت، أخيراً، أن تترك الحجرة الخلفية للعشاء. وحتى هذا الحـين لم تكن قد خرجت بسبب عداوتها المستحكمة مع أم بسلدونيمـوف. ولكننا سنتحـدث عن ذلك فيما بعد. نظرت هذه المـرأة إلى الجنرال بغيظ،، بل وبسخرية، والظاهـر أنها لم ترد أن تقدّم إليـه. وتبدّت هذه المخلوقة لإيفـان إيليتش مريبـة إلى أقصى حد. إلا أن هنـاك آخرين، إلى جانبهم، كانوا مريبين أيضاً، ويوحون بالتوجس غير الإرادي والقلق. بل وبدوا متواطئين فيما بينهم ضد إيفان إيليتش بالذات. أو على الأقل هذا ما كان يبدو له، فكان طوال العشاء، يزداد اعتقاداً بذلك أكثر فأكثر. وكان الخبث يتمثل، بشكل خاص، في سيد ملتـح، رسام حر، حتى أنه نظر إلى إيفـان إيليتش غير مرة، ثم استدار

Telegram: @Arab_Books

نحـو جـاره، وراح يهمس له بشـيء. وآخر مـن الدارسين كان، في الحقيقـة، سكران للغايـة، إلا أنه مريب على أية حـال، حسب بعض الدلائل.... كمـا أن الأمل ضعيف في طالب الطـب. وحتى الضابط نفسه غـير موثـوق تمامـاً. إلا أن المساهم في «غولوفيشـكا» بشكل خاص كان يشـع كراهية مرئية: كان يرتخي على مقعده، وينظر بأنفة واستعلاء، ويصهل مستقلاً بنفسه! ورغم أن سائر الضيوف لم يكونوا يلقـون أي التفات ملحوظ إلى الذي لم يساهم في «غولوفيشكا» بغير أربعة أبيات، وصار بسببها ليبرالياً، غير أنهم لم يكونوا يحبونه، ولكن حـين وقعت كرة خبز فجأة قرب إيفان إيليتش، كانت موجهة نحوه، فيما يبدو، صار إيفان إيليتش مستعداً إلى أن يراهن بقطع رأسه على أن المذنب في هذه المرة ليس إلا المساهم في «غولوفيشكا».

وكل ذلك قد أثر فيه، بالطبع، تأثيراً شجياً. كما أن ملاحظة أخرى كانـت مقلقة بشكل خاص. فقد تيقّن إيفان إيليتش كلياً بأنه في سبيل أن يتعسـر عليـه النطق بالكلمات ويتفكك، حتـى كان يريد أن يتكلم كثـيراً، ولكـن لسانه لا يتحرك. لأنـه صار فجأة كأنـه يتسى، والمهم أنه صـار بلا علة ولا سبب يصهل ويضحـك حين لا داعي للضحك مطلقـاً. وقد زالت هذه الحال بسرعة، بعـد قدح الشمبانيا الذي صبه إيفان إيليتش، ولكن لم يشته أن يشربه، ثم شربه عن سهو تماماً. وفجأة، وبعـد هذا القدح كان على وشك أن يبكي. فقـد شعر بأنه يسقط في حساسيـة غـير طبيعيـة للغاية. وعاد مـن جديد يحـب الجميع، حتى بسلدونيمـوف، حتى المساهم في «غولوفيشـكا». أحب مرة أخرى أن يعانقهم جميعـاً، وأن ينسى كل شيء، ويتصالح. والأكثر من ذلك أن يقص عليهم كل شيء بصراحة، كل شيء، أي أن هناك رجلاً طيباً،

Telegram: @Arab_Books

ماجداً، له سجايا عظيمة. يقص عليهم كيف سيكون نافعاً للوطن، وكيف يستطيع أن يضحك الجنس النسائي، والأهم أي تقدمي هو، مستعد إنسانياً أن ينزل إلى الجميع، إلى أوطأ الناس، وأخيراً، وفي الختام، يحدثهم بصراحة عن كل الدواعي التي دفعته إلى أن يجيء إلى بسلدونيموف غير مدعو، وأن يشرب معه زجاجتين من الشمبانيا، ويسعده بحضوره.

«الحقيقة، والحقيقة الوضاءة قبل كل شيء، الصراحة! سأصل إليهم بالصراحة. وسيصدقون بي. أرى بوضوح. أنهم ينظرون إليّ حتى بعداء، ولكن حين أكشف لهم كل شيء، سأستولي عليهم بشكل قاهر. سيملأون أقداحهم، ويشربون في صحتي بصياح. والضابط، أنا واثق من ذلك، سيكسر قدحه على مهمازه، بل وربما سيهتف هتاف النصر: هوراً! وحتى لو طرأ على أذهانهم أن يتلاقفوني، على عادة سلاح الفرسان، فلا أمانع في ذلك، بل وسيكون ذلك لطيفاً للغاية. وسأقبّل العروس من جبينها. إنها حبيبة إلى القلب. كما أن أكيم بتروفيتش رجل طيب أيضاً. وبسلدونيموف سيصلح نفسه فيما بعد. ينقصه ذلك اللمعان الراقي، إذا صح القول.....ورغم أن هذا الجيل الجديد كله تعوزه، بالطبع، تلك الرهافة القلبية، إلا أنني..... إلا أنني سأحدثهم عن أهمية روسيا الحديثة في أعداد الدول الأوروبية الأخرى. وسأتطرق إلى مسألة الفلاحين، وعندها.....سيحبونني جميعاً، وسأخرج مكللاً بالمجد!.»

هذه الأماني كانت، بالطبع، لطيفة جداً، ولكن غير اللطيف أن إيفان إيليتش قد اكتشف في نفسه فجأة وسط كل هذه الآمال الوردية، قابلية غير متوقعة، وهي بالذات أن يبصق. وعلى أقل تقدير أخذ

Telegram: @Arab_Books

اللعــاب فجأة يخرج مــن فمه خارج سيطرته تماماً. وقد لاحظ ذلك علــى أكيم بتروفيتش، فقــد نثر اللعاب على خده، فلــم يجرؤ هذا أن يمسحه على الفور احتراماً له. تناول إيفان إيليتش فوطة، وإذا به يمسحه لــه بنفسه. ولكن ذلك بدا لــه فجأة، بدا له هو، شيئاً سخيفاً جداً، ولا يقره أي تصــرف سليم، فصمــت، وأخذ يندهش. واكيــم بتروفيتش جالســ كالمسمــوط، رغم أنه قد شــرب. فطن إيفــان إيليتش الآن إلى أنــه منذ ربع ساعــة تقريباً وهو يحدثه عن موضــوع غاية في الطرافة، إلا أن اكيم بتروفيتشــ بدا، وهو يصغي له، كالمرتبك، بل وكالخائف. كمــا أن بسلدونيموف الــذي كان جالساً على بعد مقعد منه مدّ رقبته نحــوه، ومال برأسه جانباً، وراح يصغى بهيئــة غير مريحة تماماً. كان كمن يحرسه بالفعل. ألقــى ببصره إلى الضيوف، فرأى الكثيرين منهم ينظرون إليه مباشرة، ويقهقهون. ولكن أغرب الأشياء كلها أنه مع هذا كلــه لم يرتبك مطلقاً، بل علــى العكس، رشف مرة أخرى من قدحه، وراح يتحدث فجأة على مسمع من الجميع.

- لقــد قلت من قبلّ - بــدأ يقول بأعلى صوت ممكن، - لقد قلت من قبل، يــا سادة، والآن قلت لأكيم بتروفيتشــ أن روسيا، نعم،.... روسيــا، بالذات،.....باختصــار، أنتــم تفهمــون ما أريــد أن أ.... قو......ل........روسيا، في اعتقــادي العميق جداً، تمر باللـ..ر... وح الإنسانية....

- الرر.....وح الإنسانية! - ترددت في طرف المائدة الأخرى.

- الرو....الرو!

- وح - وح!

Telegram: @Arab_Books

توقف إيفان إيليتش. نهض بسلدونيموف من مقعده، وأخذ يجيل ببصره ليرى مَن الذي صاح بذلك. هزّ اكيم بتروفيتش رأسه خلسة، وكأنه يخجل الضيوف. وقد لاحظ إيفان إيليتش ذلك بوضوح شديد، إلا أنه سكت على مضض.

- الروح الإنسانية! - تابع بعناد - وقبل حين.....قبل حين فقط، كنت أقول لستيبان نيكي....كي....فو.....ورفيتش..... نعم.....

صاح صوت عال من الطرف الآخر من المائدة:

- يا صاحب السعادة!

- ماذا تأمر؟

أجاب إيفان إيليتش وقد قوطع، محاولاً أن يرى من الذي صاح.

- لا شيء مطلقاً، يا صاحب السعادة، سرحت.

تابعوا، يا صاحب السعادة! تا.....بـ.......عوا! - تردد الصوت مرة أخرى.

وانتفض إيفان إيليتش.

- تجديد تلك الأشياء بعينها، إذا صح القول....

صاح الصوت مرة أخرى:

- يا صاحب السعادة!

- ماذا تريد؟

- مرحبا!

Telegram: @Arab_Books

في هــذه المرة لم يتحمــل إيفــان إيليتش. قطع كلامــه، واتجه نحو المسيء والمخل بالنظام. كان ذلــك تلميذاً ما زال يافعاً جداً، ومخموراً جداً، ومثـيراً لشك عظيم. وكان يصرخ منذ وقــت طويل، بل وكسر قدحــاً وصحنــين، مؤكــداً أن هذا مــا يحصل في الزفــاف، على حد زعمه. وفي اللحظــة، التي التفت فيها إيفان إيليتش إليه، راح الضابط يقرّع هذا الصخاب تقريعاً شديداً:

– لماذا ترفع عقيرتك؟ الأحرى أن تطرد!

– لا أعنيكــم، يا صاحــب السعادة، لا أعنيكــم! تابعوا! – صاح التلميــذ السكــران، وهو ينهــار على الكرســي – تابعوا، أنــا سامع، و....و ،،،،ومرتاح جداً! مومتاز، مومتاز!

همس بسلدونيموف:

– الغلام سكران!

– أرى أنه سكران ولكن.....

– كنــت قبل لحظة أروى حكاية طريفة، يا صاحب السعادة– قال الضابط – عن ملازم في وحدتنا، كان يتكلم بهذا الشكل بالضبط مع رئيسنــا، وهو الآن يقلده. كان يشفــع كل كلمة للرئيس ب «مومتاز، مومتاز!» وقد طردوه من الخدمة قبل عشر سنين عقاباً على ذلك.

– من الملازم هذا؟

– مــن وحدتنا، يا صاحب السعــادة. وقد تخبّل من المومتاز هذه.

Telegram: @Arab_Books

في البداية كانوا يحاولون إخجاله بوسيلة التسامح، وبعد ذلك وضعوه رهن الاعتقال.... كان الرئيس يحاول أن يخجله بطريقة أبوية، بينما كان هذا يرد عليه «مومتاز، مومتاز!» والغريب أنه كان ضابطاً بادي الرجولة، مديد القامة، أرادوا أن يقدموه للمحكمة، ولكنهم فطنوا إلى أنه مخبول.

– يعني.... تلميذ، لست متشدداً كثيراً إذا تواقح التلميذ.... من جانبي أنا مستعد إلى أن أصفح....

– كانت هناك أدلة طبية، يا صاحب السعادة.

– كيف! شر......ر.....رّحوه؟

– لا، يا سيدي، فقد كان حياً تماماً.

سرت موجة ضحك عالية تكاد تكون جماعية بين الضيوف الذين كانوا من قبل يراعون أصول اللياقة. واحتدم إيفان إيليتش غيظاً.

– يا سادة، يا سادة! – صاح، وهو لا يكاد يتلعثم في الوهلة الأولى – أنا أعرف حق المعرفة أن الحي لا يشرّح. كنت أظن أنه لم يكن حياً في جنونه.... أقصد مات..... يعني أريد أن أقول.... أنكم لا تحبونني.... بينما أنا أحبكم جميعاً.... نعم واحب بور.... بورفيري.... أنا أحط من قدري، حين أتكلم بهذا الشكل....

وفي هذه اللحظة تطايرت من فم إيفان إيليتش كمية كبيرة من اللعاب، وتناثرت عل المفرش في مكان بارز تماماً. هرع بسلدونيموف ليمسحها بالفوطة. إن هذه البلية الأخيرة حطمته كلياً.

Telegram: @Arab_Books

صاح بقنوط:

- أيها السادة، هذا جاوز الحد!

عاد بسلدونيموف يهمس:

- سكران، يا صاحب السعادة.

- بورفيري! أنا أرى أنك.....الجميع. نعم! أقول أنني آمل...... نعم، أتحدى الجميع بان تقولوا: بأي شيء أحط من قدري؟

وكاد إيفان إيليتش أن يبكي.

- لا مؤاخذة، يا صاحب السعادة!

- بورفيري! أنا أخاطبك....قل لي، إذا كنت قد جئت.... نعم.....نعم.....إلى العرس، فقد كانت لي غاية. كنت أريد أن أرفعك خلقياً..... كنت أريد أن تشعر.....أخاطبكم جميعاً: هل أنا محتقر جداً في أنظاركم أم لا؟

صمت القبور. تلك هي المسألة، صمت القبور، وفي سؤال صريح كهذا. وطاف في ذهن صاحب السعادة: « طيب، لماذا لا يصيحون على الأقل في هذه اللحظة!» إلا أن الضيوف اكتفوا بتبادل النظرات. وكان اكيم بتروفيتش لا بالحي ولا بالميت، وبسلدونيموف الذي صعقه الرعب، فقد كان يكرر في سره سؤالاً فظيعاً كان يدور في خاطره منذ زمان:

- «ماذ سأجازي على كل ذلك في الغد؟»

Telegram: @Arab_Books

كان المساهـم في «غولوفيشكا» علـى قدر كبير من السكر، إلا أنه كان يجلسـ غارقـاً في صمت جهم، فـإذا به يخاطب إيفـان إيليتش فجأة، ويرد نيابة عن الجميع، وقد لمعت عيناه:

– أجـل، يا سيدي – صاح بصوت راعـد – أجل، يا سيدي، لقد حططت من نفسك، أجل أنت رجعي....رج....عي!

– اضبـط نفسـك، أيها الشاب. واعرف مع مـنْ تتكلم، إذا صح القول! – صاح إيفان إيليتش بضراوة، وقد نطّ من مكانه ثانية.

– معك، وثانياً لسـت شاباً...أنت جئت إلى هنا تتزلف، وتنشد شعبية.

صاح إيفان إيليتش:

– بسلدونيموف، ما هذا!

غـير أن بسلدونيموف وثب في فزع شديد، حتى وقف كالعمود، لا يعـرف تماماً مـاذا يفعل. كما تجمّـد الضيـوف في أماكنهم. صفق الرسام والتلميذ، وصاحا: مرحى، مرحى!

واستمر المساهـم يصرخ بضراوة لا تكبح:

– نعـم، جئـت لتتبجج بالـروح الإنسانية! أفسـدت على الجميع أنسـهم. شربت الشمبانيا، ولم تفكر في أنها غالية جداً بالنسبة لموظف راتبه الشهـري عشرة روبلات. أنا أشك في أنك مـن أولئك الرؤساء الذين يشتهون زوجات مرؤوسيهـم الفتيّات! وبالإضافة إلى ذلك أنا

Telegram: @Arab_Books

موقن أنك تؤيد جباية الضرائب الفاحشة من الأهالي.....نعم، نعم، نعم!

– بسلدونيموف، بسلدونيموف!

– صاح إيفان إيليتش مادا إليه يديه. وقد شعر بأن كل كلمة جديدة ينطقها المساهم خنجر جديد ينفذ إلى قلبه.

– الآن، يا صاحب السعادة، أرجو ألا تقلقوا!

– صاح بسلدونيموف بحيوية، ووثب نحو المساهم، وأمسكه من تلابيبه، وأخرجه من وراء المائدة. حتى كان من غير المتوقع من بسلدونيموف الهزيل أن تكون له مثل هذه القوة الجسدية. إلا أن المساهم كان سكران جداً، وبسلدونيموف صاحيا تماماً. وبعد ذلك ضربه بجمع يده على ظهره عدة ضربات، ودفعه إلى الباب.

كان المساهم يصيح:

– أوغاد جميعكم! غداً سأتفكه عليكم جميعاً في «غولوفيشكا»!....

قفز الجميع من أماكنهم.

– يا صاحب السعادة، يا صاحب السعادة!

– هتف بسلدونيموف وأمه، وبعض الضيوف، متجمهرين قرب الجنرال – اهدؤوا، يا صاحب السعادة!

Telegram: @Arab_Books

- لا، لا! - كان الجنرال يصيح - أنا محطم...

أنا جئت هنا.... أردت أن أكون عراباً، إذا صح القول. وإذا بي، إذا بي!

وانهد على المقعد، وكأنه فقد الوعي، وقد وضع كلتا يديه على المائدة، وأرخى عليهما رأسه، على صحن مهلبية تماماً. ولا حاجة إلى وصف الرعب الذي تملك الجميع. وبعد دقيقة نهض، يريد الانصراف، على ما يبدو، وترنح، وتعثر برجل المقعد، وسقط بكل جسمه على الأرض، وراح يشخر....

وهذا ما يحصل لمن لا يشربون الخمرة، حين يصادف أن يشربوها. إنهم يحتفظون بوعيهم إلى آخر مرحلة، إلى آخر لحظة، وبعدها يسقطون كالصرعي. بسلدونيموف شعر رأسه، وجمد على هذه الحال. أخذ الضيوف يتفرقون مسرعين، وكل واحد منهم يفسر ما حدث على طريقته الخاصة. وكانت الساعة قد قاربت الساعة الثالثة صباحاً.

والشيء المهم أن ظروف بسلدونيموف كانت أسوأ بكثير مما كان يمكن تصورها، رغم كل ما في وضعه الراهن من قتام. فلندع إيفان إيليتش منطرحاً على الأرض، وبسلدونيموف واقفا فوقه جاذباً شعر رأسه في يأس، ونقطع سياق القصة التي ابتكرناها، لنقول بعض الكلمات التوضيحية عن بورفيري بتروفيتش بسلدونيموف نفسه.

قبل ما لا يزيد عن شهر من زواجه كان على شفا الهلاك المحقق.... وكان قد قدم من إحدى الولايات، حيث كان أبوه في حينه يخدم في

Telegram: @Arab_Books

وظيفة ما، وتوفي وهو رهن المحاكمة، وقبل خمسة أشهر من الزواج، حين حصل على وظيفة براتب عشرة روبلات، بعد سنة قضاها بالضنك المهلك كان كمن بُعث حياً جسداً وروحاً. ولكن سرعان ما تردّت به الظروف من جديد. عائلة بسلدونيموف لم يبق منها في الدنيا غير اثنين هو وأمه التي هجرت الولاية بعد وفاة زوجها. وكانت الأم والابن يهلكان وحدهما في الصقيع. ويتناولان أطعمة مشكوك فيها. وقد مرّت أيام كان بسلدونيموف يخرج فيها إلى فونتانكا ومعه قدح يرتوي من هذا النهر. وبعد أن حصل على عمل استأجر مع أمه ركنا في مكان ما. وأخذت الأم تغسل ثياب الناس، بينما ظل هو يلتزم التقتير أربعة أشهر ليشتري له حذاء ومعطفاً. وكم من الضيم كابد في قسم الأوراق. كان الرؤساء يتقدمون منه، ويسألونه: هل مضى عليه زمان طويل دون أن يذهب إلى الحمام؟ وكان يشاع عنه أن البق يتكاثر أعشاشاً تحت ياقة سترته الرسمية. إلا أن بسلدونيموف كان يملك طبعاً صلداً. كان في مظهره الخارجي وديعاً هادئاً، ولم يكسب من التعليم إلا أقلّه، ولا يكاد يصدر عنه أي كلام. لا أعرف على وجه الدقة هل كان يفكر، ويضع الخطط والمشاريع، وهل كان يحلم بشيء ما؟ ولكن، بالمقابل، تكونت في نفسه عزيمة فطرية صلدة لا واعية في أن يجد مخرجاً من وضعه البائس. كانت فيه مثابرة النمل. حطموا بيت نمل، وستجدونه في الحال يبدأ بإنشائه من جديد، حطموه مرة أخرى، وسيبدأ مرة أخرى، وهكذا دواليك دون كلل. إنه مخلوق بنّاء بيتي. كان يبدو من جبينه أنه سيشق طريقه، ويبني عشاً، بل ويدخر شيئاً، ربما. وأمه وحدها كانت تحبه في كل الدنيا، وتحبه أقصى الحب. كانت امرأة صلبة شغولة لا يداخلها التعب، وطيبة، إلى جانب ذلك. وكان من الممكن أن يمضيا في حياتهما تلك خمس سنوات أخرى أو

Telegram: @Arab_Books

ربما ستاً حتى تتغير الظروف لو لم يلتقيا بالمستشار الأسمى المتقاعد مليكوبيتاييف، أمين الصندوق السابق الذي كان يعمل في الولاية في وقت ما، واستقر في الآونة الأخيرة مع عائلته في بطرسبورغ. وكان يعرف بسلدونيموف وكان مديناً لأبيه بشيء ما. وكانت له نقود بالطبع، ولكنها غير كثيرة، لا أحد يعرف كم هي في الواقع، لا زوجته، ولا ابنته الكبيرة، ولا أقاربه. كانت له ابنتان، وبما أنه كان عنجهياً، سكيراً، وطاغياً في البيت، ومريضاً في الوقت ذاته، فقد طرأ في ذهنه أن يزوج إحدى بنتيه إلى بسلدونيموف قائلاً: «أنا أعرفه، وأبوه كان إنساناً طيباً، سيكون ابنه إنساناً طيباً أيضاً»، وكان مليكوبيتاييف يفعل ما يريده، وإذا قال شيئاً فعل. لقد كان عنجهياً شديد الغرابة. كان يقضي معظم وقته جالساً على مقعد، و لم يعد قادراً على استخدام رجليه نتيجة مرض، ولكن ذلك، على أية حال، لم يمنعه من شرب الفودكا. كان يقضي أياماً كاملة يشرب ويشتم. كان إنساناً خبيثاً وبحاجة ماسة إلى إنسان يعذبه باستمرار. ولهذا الغرض أسكن عنده بعض قريباته البعيدات: أخته المريضة الشكسة، وأختي زوجته وهما خبيثتان وثرثارتان أيضاً، وبعد ذلك أسكن عمته العجوز التي انكسر أحد أضلاعها في حادثة. كما آوى امرأة ألمانية متروّسة، بسبب موهبتها في أن تروي له حكايات من «ألف ليلة وليلة». وكانت كل متعته تكمن في مناكدة هاته المعالات التعيسات، وشتمهن في كل لحظة أشنع شتيمة، رغم أنهن بمن فيهن زوجته التي ولدت وأسنانها توجعها، لم يقدرن على أن يتفوهن بكلمة أمامه. كان يثير الشجار بينهن، ويختلق ويولد الأقاويل والمشاحنات، ليضحك بعدها ويسترّ، وهو يراهن واحداهن تكاد تمزق الأخرى. وقد استر كثيراً حين انتقلت عنده، في آخر الأمر، بنته الكبيرة مع أبنائها الثلاثة الصغار المرضى بعد

Telegram: @Arab_Books

أن ترملت من زوجها الضابط الذي قضت معه عشر سنين في الفقر. كان العجوز لا يطيق أطفالها، إلا أنه كان راضياً جداً لأن ظهورهم قد زاد المادة التي كان من الممكن أن يجري عليها تجاربه اليومية. كل هذا الحشد من النساء الخبيثات، والأطفال المرضى مع معذبهم ينحشر في بيت خشبي في بطرسبورغسكايا ستورونا، ولا ينال كفايته من الطعام، لأن العجوز كان بخيلاً، ويقتر في الفلوس، رغم أنه لم يبخل على نفسه في الفودكا، كما لا ينال كفايته من النوم، لأن العجوز كان يعاني من الأرق، ويطالب بالترفيه. وباختصار كان الجميع يعيشون في فاقة، ويلعنون قدرهم. وفي هذه الفترة وقع بصر مليكوبيتايف على بسلدونيموف. وقد بهره أنفه الطويل ومظهره الوديع. وآنذاك كانت ابنته الصغيرة النحيفة الدميمة قد أتمت السابعة عشرة. ورغم أنها كانت تذهب إلى مدرسة ما ألمانية، إلا أنها لم تخرج منها بغير معرفة الألفباء، وبعدها كبرت مصابة بالضعف، ضاوية العود تحت وطأة عكازة أبيها المُقعد السكير في ضجيج الأقاويل البيتية والإشاعات والوشايات. ولم تكن لها صديقات قط، ولا عقل. وكانت تود منذ زمان لو تتزوج. كانت بحضور الناس صموتاً لا تنبس بكلمة، وفي البيت قرب ماما والمعالات خبيثة واخزة كالدبوس. وكانت تحب بشكل خاص القرص وتوجيه الضربات لأطفال أختها، وتشي بهم على سرقتهم السكر والخبز، حتى كان بينها وبين أختها الكبيرة شحناء دائمية لا تخمد. والعجوز نفسه عرضها على بسلدونيموف. وقد طلب هذا بعض الوقت للتفكير، رغم ما كان يكابد من فاقة. وفكر في الأمر طويلاً مع أمه. ولكن، كان قد سجل باسم العروس بيت، ولو خشبي، ولو بيت حقير من طابق واحد، ولكنه بيت له قيمة على أية حال. وفضلاً عن ذلك عُرضت معها أربعمائة روبل ومن أين له

Telegram: @Arab_Books

أن يجمع مثل هذه الثروة؟ وكان الطاغي السكير يصرخ: «هل تعرفنّ لماذا أقبل رجلا في بيتي؟ أولاً لأنكن جميعاً نسوان، وقد ضجرت أن أعيش بين النسوان فقط. كما أريد أن يرقص بسلدونيموف على مزماري، لأنني أنا صاحب الفضل عليه. وأنا أقبله، ثانياً، لانكن جميعاً لا تريدن ذلك، وتحقدن. فأنا أفعل ذلك نكاية بكن. ما قلته سأفعله! أنا أنت، يا بورفيركا، فاضربها، حين تتزوجها، تسكنها سبعة عفاريت منذ مولدها. فاخرجها كلها منها. سأعد لك عصا....»

صمت بسلدونيموف، إلا أنه عقد عزمه. أخذوه إلى البيت مع أمه قبل الزفاف، وغسلوهما، وكسوهما، وأعطيا لهما النقود للزفاف. ولعل ما حدا بالعجوز إلى أن يشملهما برعايته هو بالضبط لأن عائلته كانت مغتاظة منهما. وراقت له العجوز أم بسلدونيموف حتى أنه امتنع عن مضايقتها. وعلى أية حال، أجبر بسلدونيموف نفسه، قبل أسبوع من الزفاف، على أن يرقص رقصة قوزاقية أمامه. وقال بعد انتهاء الرقصة: «والآن كفى. كنت أريد فقط أن أرى هل ستنسى نفسك أمامي؟». وقد أعطاه من النقود ما يكفي للزفاف فقط دون زيادة أو نقصان، ودعا جميع أقاربه ومعارفه. ولم يكن من طرف بسلدونيموف غير المساهم في «غولوفيشكا» واكيم بتروفيتش، ضيف الشرف. كان بسلدونيموف يعرف جيداً أن العروس تنفر منه، وأنها كانت تود لو تتزوج الضابط، وليس هو. إلا أنه اصطبر على كل شيء، حسب الاتفاق بينه وبين أمه. كان العجوز طوال نهار الزفاف وأمسيته كلها يتفوه بالشتائم المفذعة ويسكر. وكانت العائلة كلها، قد لجأت، بمناسبة الزفاف، إلى الحجرات الخلفية وتكدست هناك إلى حد الاختناق. وكانت الغرف الأمامية قد خصصت للرقص

Telegram: @Arab_Books

والعشـاء. وأخيراً، حين غفا العجـوز، سكران للغاية، في نحو الحادية عشرة مسـاء، قـررت أم العروس التي حنقت بشـكل خاص في هذا اليـوم على أم بسلدونيمـوف أن تستعيض حنقهـا باللطف، وتخرج إلى الرقصـ والعشـاء. وقد قلب ظهـور إيفان إيليتشـ كل شيء رأساً علـى عقب. ارتبكـت مليكوبيتايفا الأم، وتكـدرت، وراحت تشتم علـى أنهـا لم تُبلّغ بدعوة الجـنرال مسبقاً. أكدوا لها أنـه جاء من تلقاء نفسه، غير مدعو، ولكنها كانت من الحماقة بحيث لم ترد أن تصدق. ولـزم أن تقـدم شمبانيـا. و لم يكن عنـد أم بسلدونيمـوف غير روبل واحـد، بينما لم يكن لـدى بسلدونيموف أي فلسـ، فاقتضى التذلل لأم مليكوبيتايـف الحقود، وطلب النقود منها لشراء زجاجة ثم أخرى فيمـا بعد. صوّروا لها مـا ستكون العلاقات عليـه ومستقبل الوظيفة وحاولـوا إخجالها. حتى قبلت أخـيراً أن تعطى النقود من جيبها، إلا أنها جرّعـت بسلدونيموف كأس المرار والخل، حتى كان يهرع، غير مـرة، إلى الحجـرة الصغيرة التي أعد فيها مخدع الـزواج، ويجر شعره صامتـاً، ويلقي رأسه على السرير المعد لملـذات الفردوس، وكيانه كله يرتعش من الغيـظ العاجز. أجل! لم يعرف إيفـان إيليتش الثمن الذي دفعـوه لقاء زجاجتـي الشمبانيا اللتـين شربهما في هـذا المساء. وأي رعـب ولوعة تملكا بسلدونيموف، بـل وأي قنوط، حين آلت الأمور مع إيفان إيليتش هذا المآل. مرة أخرى كانت تواجهه المصاعب، ولربما ليلـة كاملة من العويل والدموع من جانـب العروس، والتقريعات من جانـب أقاربها البلـه. وكان رأسه، من غير ذلـك، يوجعه، والسخام والعتمـة، من غير ذلـك، يغشيان على بصره. بينمـا إيفان إيليتش كان يحتاج إلى غوث، وإلى طبيـب أو عربة في الساعة الثالثة ليلاً لتأخذه إلى البيـت، وإلى عربة من كل بـد، لأن من غير الممكن أن تؤخذ مثل هذه

Telegram: @Arab_Books

الشخصيــة إلى البيت في عجلة صغـيرة وهو في هذا الوضع. ومن أين يأخذ النقود ليستأجر عربة خاصة؟ أعلنت السيدة مليكوبيتايفا أنها لا تملك أي فلس معها. وهي التي اغتاظت واحتدمت لأن الجنرال لم يقل لهــا كلمتين مع بعض، بــل و لم يلق عليها نظرة خلال العشاء. ولربما لم يكــن معها أي فلس، بالفعل. فمن أيــن النقود؟ وما العمل؟ نعم، كان هناك ما يدعو إلى جر الشعر.

وخــلال ذلــك، نُقــل إيفــان إيليتش، بشــكل مؤقــت، إلى أريكة جلديــة صغيرة كانــت في حجرة الطعام نفسها. بينمــا رفعت الأشياء عــن المناضد، وفُرقت، انطلــق بسلدونيموف في كل الأنحاء ليقترض الفلوس، بل حاول أن يقترضها من الخـدم، الا أنها لم تكن عند أحد منهــم. بــل وجازف وطلبها مــن اكيم بتروفيتش الــذي لبث أكثر من الآخرين. إلا أن هذا، رغم طيبته، اعتراه ذهول شديد، بل وفزع حين سمع بذكر الفلوس، حتى أنه تفوه بأتفه ما يمكن أن يقال. تمتم:

- بــكل سـرور في المــرة القادمــة. ولكننــي الآن....أعتــذر.... حقاً......

وتناول قبعته، وانصـرف إلى بيته في أسرع وقت. والشاب الطيب القلــب وحده، الذي كان يتحدث عــن تفسير الأحلام أبدى جدواه، علــى نحو ما، ولكــن بعد فوات الفرصــة. وكان قد بقــى أطول من الآخرين أيضــاً، مبدياً اهتمامه القلبي في بلايــا بسلدونيموف. أخيراً قــرر بسلدونيموف وأمــه والشــاب، بإجماع الآراء، عــدم استدعاء الطبيــب، وفضلوا احضار عربة، ونقل المريض إلى بيته، وحاولوا، قبل مجيء العربــة، ان يجربوا عليــه بعض العلاجات البيتيــة، مثل ترطيب

Telegram: @Arab_Books

صدغيـه ورأسه بالماء البارد، ووضع الثلج على يافوخه، إلى غير ذلك. وقـد تعهدت أم بسلدونيمـوف بذلك. وانطلق الشـاب ليبحث عن عربـة. ولما لم تكن في بطرسبورغسكايـا ستورونا حتى عجلة صغيرة في مثـل تلك الساعة، فقد توجه إلى حظائـر العربات في مكان بعيد، وأيقظ الحوذيـة. راحوا يماسكون ويقولـون أن خمسة روبلات قليلة علـى أجرة العربـة في مثل هذه الساعـة. ولكنهم وافقـوا على ثلاثة روبـلات أخيراً. ولكن حـين وصل الشاب مع العربـة المستأجرة إلى بيـت بسلدونيموف، وقد قاربت الساعـة الرابعة على الانتهاء، كانوا قـد غيروا قرارهم منذ وقت طويل. فقد تبين أن المرض قد اشتد بإيفان إيليتشـ الذي ما يزال فاقد الوعي حتـى صار يئن ويتقلب، وصار من المستحيـل تماماً، بل ومن المجازفة نقله وحمله إلى البيت، وهو في مثل هـذه الحال. كان بسلدونيموف يقول وقد خار: « ماذا بعد سيحصل مـن هذا؟» فما العمـل إذن؟ برز سـؤال جديد: إذا أُبقـي المريض في البيـت، فإلى أين ينقـل، وأين يُرقد؟ لم يكن في البيت كله غير سريرين: سرير هائل لشخصين كان العجوز مليكوبيتايف وزوجته ينامان عليه، والآخـر اشـترى حديثاً، مـن خشب الجـوز المقلّد، لشخصـين أيضاً مخصص للعروسين. وكان جميع قاطني البيـت الآخرين، أو، الأحسن أن يقـال، قاطنات البيـت ينمن على الأرض صفوفـاً، وأكثرهن على حشايـا بسيطة من الريشـ بعضها مشقق ومنتن الرائحـة، أي لا يليق تمامـاً، وكانت على عدد أهل البيت تماماً. حتى هذا كان متعذراً. فأين يُرقـد المريض؟ ربما ستتيسر حشية من مثل هـذه الحشايا، فقد كان من الممكـن سحبهـا من تحت واحدة علـى أقل تقدير، ولكـن أين وعلى أي شـيء ستفرش؟ واتضـح أن من الممكن فرشها في القاعة، لأن هذه مفصولـة عن كلّ العائلة، وكان لها مخرج خاص. ولكن على أي شيء

Telegram: @Arab_Books

تفرش؟ هل من المعقول على الكراسي؟ فالمعروف أن تلامذة المدارس الداخلية فقط يمكن أن يفرش لهم عل المقاعد، حين يأتون إلى بيوتهم لينامو ا ليلة السبت على الأحد، أما لشخصية من مثل إيفان إيليتش، فإن ذلك سيكون بعيداً جداً عن الاحترام وماذا سيقول هو غداً، حين يرى نفسه على مقاعد؟ لم يرد بسلدونيموف حتى أن يصغى لذلك. لم يبق إلا حل واحد، وهو أن ينقل إلى سرير العرس. وسرير العرس هذا، كما قلنا، قد أقيم في حجرة صغيرة تلاصق غرفة الطعام. كان على السرير فرشة مشتراة حديثاً لم تدشن بعد تسع لشخصين، وبياضات الفراش، وأربع وسائد من الشيت الوردي لبّست عليها أغطية من الموسلين. وكان الغطاء من الأطلس الوردي له رسوم بارزة. وقد تدلت من حلقة مذهبة في الأعلى ستائر من الموسلين. وباختصار كان كل شيء كما ينبغي، وكان الضيوف الذين انسلوا إلى غرة النوم اثنوا على هندامها. والعروس، رغم أنها لم تكن تطيق بسلدونيموف، هرعت إلى هناك عدة مرات خلسة، طوال الأمسية. وما أعظم سخطها وحنقها، حين عرفت أنهم يريدون أن ينقلوا إلى فراش عرسها المريض المصاب بعلة كالحمى! ووقفت أمها معها، وراحت تشتم، وتتوعد بأن تشتكي لزوجها في الغد. إلا أن بسلدونيموف أظهر خلقه، وأصرّ. ونقلوا إيفان إيليتش، وفرشوا للعروسين على مقاعد في القاعة. ولولت العروس، وكانت مستعدة للقرص، ولكنها لن تجرؤ على شق عصا الطاعة، فقد كان لأبيها عكازة تعرفها جيداً، وكانت تعلم أن بابا سيطلب في الغد بلاغاً مفصلاً عن هذا وذاك. ولترضيتها نقلوا إلى القاعة الغطاء الوردي ومخدة بغطاء الوسلين. وفي تلك اللحظة وصل الشاب ومعه العربة. وفزع فزعاً شديداً حين علم أن العربة لم تعد لازمة. وكان عليه أن يتحمل دفع الأجرة، بينما

Telegram: @Arab_Books

في حياتـه كلها لم يكـن يملك عشرة كوبيكات. أعلـن بسلدونيموف إفلاسه التام. حاولوا استمالة الحوذي، إلا أنه أخذ يصيح، بل ويضرب علـى درفة الشباك. وأنا لا أعرف بالتفصيل ما حدث بعد ذلك. يبدو أن الشـاب توجـه أسيراً على هذه العربة إلى حـي «الرمال» في شارع الميـلاد الرابع، حيث كان يأمل بأن يوقظ طالبـاً كان ينام عند معارفه، ويحـاول أن يعرف هل عنده نقود؟ كانـت الساعة في نحو الخامسة، حين تـرك العروسان وحدهما، وأغلق باب القاعة عليهما. وبقيت أم بسلدونيمـوف عند سرير المنكوب طوال الليل. انكمشت على بساط صغير فرش على الأرض، وتغطت بفروة، ولكنها لم تستطع أن تنام، لأنهـا كانـت مضطـرة إلى أن تنهض بين لحظة وأخـرى. فقد أصيب إيفان إيليتش باضطراب شديد في المعدة. وبسلدونيموفا امرأة شجاعة أريحية النفس، خلعت له ملابسه بنفسها، وكل ثيابه، وراحت ترعاه، كمـا ترعى ابنها، وظلت طوال الليل تخخرج بالوعاء اللازم من غرفة النوم عبر الممر، وتعود به ثانية. ومع ذلك فإن مصائب هذه الليلة أبعد عن أن تكون قد انتهت.

وقبل أن تمر عشر دقائق علـى خلوة العروسين بأنفسهما في القاعة المغلقة حتى ارتفع صياح يمزق القلب، ليس صياح فرح، بل من النوع المشؤوم للغاية. وتبع ذلك ضجيج وقرقعة مثل سقوط كراسي، وبلمح البصر وبشكل مباغت اندفعت إلى الغرفة التي ما زالت مظلمة جمهرة مـن النسـاء المولولات المذعـورات، وهن على درجـات متفاوتة من خلـع الثياب. وكن أم العروس، وأختهـا الكبيرة، التي تركت أطفالها المرضـى في هذا الحين، وعماتهـا الثلاث، من بينهـن حتى تلك التي انكسـر ضلعهـا. وطباخة أيضاً، بـل وطلعت مع الأخريـات الألمانية

المعالـة، راوية الحكايات التي سحبت مـن تحتها حشية الريش الخاصة بهـا، وهي أحسن حشية في البيـت، وكل ما تملك، لتقدم للعروسين. كل هـؤلاء النسـوة المحترمـات والحصيفـات كن منذ ربـع ساعة قد انسللن من المطبخ، عـبر الممر، على أطراف أصابعهن، ورحن يرهفن أسماعهـن من غرفـة الانتظار إلى مـا يصدر من الأصـوات، يلهبهن فضـول غير مفسّر على الإطلاق. وفي غضون ذلـك أوقد أحد شمعة بسرعـة، وتبدي للجميع مشهد غير متوقـع. كانت الكراسي لا تسند حشيـة الريشـ العريضة إلا مـن الجانبين، و لم تتحمل ثقـلاً مضاعفاً، فسقطت الحشية بينهـا على الأرض. تأوهت العروس من الحنق، وقد نفذت الإهانة إلى صميم قلبها هذه المرة. كان بسلدونيموف المطعون خلقيـاً يقف كالمجرم الذي ضبط متلبسـاً بجريمته. لم يحاول حتى أن يدافـع عن تصرفه. ترددت الآهـات والزعيق من كل جانب. وجاءت علـى الضجيج أم بلسدونيموف بتقريعات غريبة غير محقة في معظمها على غرار: «أي زوج أنت، يا عم، بعد الذي حصل؟ أي نفع لك، يا أخ، بعـد هذا العار والشنار؟» إلى غـير ذلك، وأخيراً، أمسكت ابنتها مـن يدها، وخرجـت بها من زوجهـا إلى غرفتها، وقـد أخذت على عاتقها المسؤولية امام الأب الرهيب حين سيطالب بالجواب في الغد. وخرج الجميع معها وهم يتأوهون ويهزون رؤوسهم استغراباً و لم يبق مع بسلدونيموف غير أمه، فحاولت أن تسري عنه، إلا أنه أبعدها عنه في الحال.

لم يكن بحاجـة إلى تسرية. انسل إلى الأريكة، وجلس عليها غارقاً في تفكـير شديد العبوس، لأنه كان حافياً، وبأقل مـا يلزم من الثياب الداخلية. كانت الأفكار تتقاطع وتتضارب في رأسه. أحياناً، وبشكل

Telegram: @Arab_Books

آلي كان يطوف ببصره في هذه الغرفة، حيث كان الراقصون يعربدون إلى وقت قريب جداً، وحيث كان يتصاعد دخان السيكائر في الهواء. وما زالت أعقاب السيكائر والأوراق التي تلف بها الحلويات مرمية على الأرض المبللة الوسخة. وكانت أنقاض فراش العرس والكراسي المقلوبة شاهدة على بطلان أفضل وأصدق الآمال والأماني الدنيوية. بقي على جلسته هذه زهاء ساعة. كانت تخطر في رأسه أفكار تتزايد في إرهاقها من مثل: ماذا ينتظره الآن في الوظيفة؟ وكان يدرك بشكل معذب ان عليه أن يغير مكان عمله مهما يكن من شيء، فإن البقاء في وظيفته الراهنة مستحيل، وبالذات بسبب ما حدث في هذا المساء. وقد خطر في باله مليكوبيتايف الذي من المرجح أن يجبره في الغد على أن يرقص رقصة القوزاق مرة أخرى، لكي يختبر وداعته. وفكر أيضاً في أن مليكوبيتايف، رغم أنه أعطى خمسين روبلا لمصاريف يوم الزفف، وقد انقت إلى حد الكوبيك، إلا أنه لم يفكر في إعطاء الأربعمائة روبل بائنة، بل حتى لم يذكرها. كما أن البيت نفسه لم يسجل بعد بشكل رسمي. كما فكر في زوجته التي هجرته في أحرج لحظة في حياته، وفي الضابط الطويل الذي ركع أمامها على ركبة واحدة. استطاع أن يلحظ ذلك. وفكر في العفاريت السبعة التي تسكن زوجته، حسب شهادة والدها نفسه، وفي العصا التي أعدت لطرد العفاريت....وبالطبع، كان يشعر بأنه قادر على تحمل الكثير، ولكن القدر سرّب، أخيراً، مفاجآت مثيرة، حتى كان من الممكن، في نهاية الأمر، الشك في قدرته.

ظل بسلدونيموف غارقاً في مثل هذا التفكير الحزين. وخلال ذلك كان عقب الشمعة على وشك أن ينطفئ. كان ضوؤها الراعش

Telegram: @Arab_Books

الساقط على بسلدونيموف من جنب يعكسه بشكل ضخم على الجدار بعنقه الممتد، وأنفه المعكوف، وبخصلتي شعره الناتئتين على جبينه وقفاه. وأخيراً، حين كانت طراوة الصباح تهفهف، نهض راعشاً خدر النفس، واتجه إلى الحشية المطروحة بين الكراسي، ودون أن يعدل شيئاً، ولا يطفئ عقب الشمعة، بل ودون أن يضع وسادة تحت رأسه، صعد عليها يحبو على الأربع وغفا غاطاً بنوم ثقيل، ربما كنوم الذين حكموا بالجلد أمام الناس في الغد.

ومن الناحية الأخرى لا شيء يمكن أن يقارن بليلة العذاب تلك التي قضاها إيفان إيليتش برالينسكي في فراش عرس البائس بسلدونيموف! لفترة من الوقت لم يزايله الصداع والقيء، والنوبات المزعجة الأخرى لحظة واحدة. لقد كانت هذه عذابات جهنم. وكان الوعي، على ضآلة رفيفه في رأسه، يصوّر له هوى عميقة من الرعب، وصوروا كالحة مقززة، حتى كان من الأفضل لو بقي فاقد الوعي تماماً. وعلى أية حال كان كل شيء ما يزال مضطرباً في رأسه. كان، مثلاً، يتعرف على أم بسلدونيموف ويسمع تلقيناتها الخالية من الحنق، من مثل «اصبر، يا عزيزي، اصبر، يا مولاي، مَن صبر ظفر»، كان يتعرف عليها ولكن لا يستطيع أن يقدم لنفسه تعليلاً منطقياً لوجودها بالقرب منه. وتراءت له رؤى مقززة. وأكثر ما تراءى له سيمون إيفانوفيتش، ولكن، حين كان يمعن النظر، كان يلحظ أن ذلك ليس سيمون إيفانوفيتش أبداً، بل أنف بسلدونيموف. كما انخطف أمامه الرسام المتحرر، والضابط، والعجوز المشدودة الفك. بل أكثر ما شغل فكره حلقة ذهبية معلقة فوق رأسه أدخلت فيها الستائر.. كان يميزها بوضوح في ضوء السراج الباهت الذي كان يضيء الغرفة، ظل

Telegram: @Arab_Books

طوال الوقت يحاول أن يحدس في ذهنه: لأي غرض هذه الحلقة؟ و لم هي هنا، وماذا تعني؟ سأل العجوز عن ذلك عدة مرات، ولكنه كان يقول، على ما يبدو، غير ما كان يريد النطق به، كما أن هذه لم تكن تفهمه على ما يبدو، مهما حاول أن يشرح لها. وأخيراً، قبيل الصباح، زالت النوبات، فغفا. غط في نوم عميق، دون أحلام. نام حوالي ساعة، وحين استيقظ، كان في وعيه التام تقريباً، شاعراً بصداع لا يطاق، وفي فمه، على لسانه الذي تحوّل إلى قطعة جوخ، طعم مقزز للغاية. رفع جسمه عن السرير، وأجال بصره، وغرق في تفكير. كان يرتعش على الجدار الضوء الشاحب للنهار الذي بدأ، متسللاً من خلال شقوق درف النافذة. كانت الساعة حوالي السابعة. ولكن حين وعي إيفان إيليتش وتذكر فجأة كل ما حصل في المساء، كل المغامرات على العشاء، مأثرته الخائبة، وخطبته على المائدة، حين تصور دفعة واحدة، وبجلاء غاية في الفظاعة، ما يمكن أن ينشأ عن ذلك الآن، وكل ما سيقوله الناس عنه الآن وما يفكرون فيه، عندما جال ببصره، ورأى، أخيراً، إلى أي حال من الكرب والقبح أوصل فراش عرس مرؤوسه، استولى على قلبه فجأة خجل مميت وعذابات مبرحة، حتى أنه أرسل صيحة، وغطى وجهه بيديه، وانهبد على الوسادة في قنوط شديد. وبعد دقيقة غادر الفراش بشرعة، فرأى ملابسه على مقعد قريب وقد طويت بعناية، ونظفت. اختطفها، وراح يدس جسمه فيها بسرعة مستعجلاً متلفتاً، خائفاً من شيء ما خوفاً شديداً. وعلى مقربة أيضاً كان معطفه الفرائي، وقبعته، والقفازان الأصفران المحشوران في القبعة، كلها موضوعة على مقعد آخر. كان يريد أن ينسل بهدوء. إلا أن الباب فتح فجأة، ودخلت أم بسلدونيموف العجوز تحمل طشتاً فخارياً، وإبريقاً لغسل الأيدي. وقد تدلت فوطة من على كتفها.

Telegram: @Arab_Books

وضعت الإبريـق، وأعلنت بدون مقدمات طويلـة أن عليه أن يغتسل من كل بد.

– يجب أن تغتسل، يا حضرة، ولا يجوز بغير ذلك....

وفي تلـك اللحظة أدرك إيفان إيليتش لو أن في الدنيا مخلوقاً واحداً يمكن ألا يخجل منه الآن، ولا يخافه فهو هذه العجوز بالذات. اغتسل. وفيما بعد صار يتذكر لفـترة طويلة وضمن لحظات حياته الصعبة كل ظـروف استيقاظه هذه، والطشت الفخـاري والإبريق الخزفي المملوء بالمـاء البارد الذي ما تزال قطع الجليد تطوف فيه، والصابونة البيضوية الشـكل في غلافها الـوردي، والحـروف المنقوشة عليهـا، والمشتراة للعروسـين، على ما يبدو، بحوالي خمسـة عشر كوبيكا، ولكن كتب لإيفـان إيليتش أن يدشنها، والعجـوز والفوطة الدمشقية على كتفها. أنعشه الماء البارد. نشّف نفسه، ودون أن يتفوه بكلمة، ودون أن يشكر حتـى أخته ملاك الرحمـة اختطف قبعته، وألقى علـى كتفيه المعطف الفرائـي التي قدمتـه لـه أم بسلدونيموف، وسار عـبر الممر، وخلال المطبخ الذي كانت القطة تموء فيه الآن، وحيث شيعته الطباخة ببصرها في فضـول نهم، وقد رفعت جسمها مـن فرشتها، وخرج راكضاً إلى الفنـاء، إلى الشـارع، واندفع نحو عربة مـارة. كان الصباح صقيعياً، والضبـاب الثلجي الضارب إلى الصفرة ما يـزال يفترش البيوت وكل الأشيـاء. رفع إيفان إيليتشـ ياقة معطفه. فقـد كان يتصور كل الناس ينظرون إليه، والجميع يعرفونه، والجميع يدركون.....

ثمانية أيام لم يخرج فيها من بيته، ولم يذهب إلى الوظيفة. كان فيها مريضاً، مريضاً بشكل معذب، معنوياً أكثر منه جسدياً. في هذه الأيام الثمانيـة عانى جهنم كاملة، ولربما سُجلت على حساب آخرته. مرّت

Telegram: @Arab_Books

لحظات كان يفكر فيها بالانقطاع إلى الرهبنة. حصلت هذه اللحظات حقاً، وحتى مخيلته نشطت بشكل خاص في هذا الاتجاه فكتم يتصور ترتيلاً غامضاً، وتابوتاً مكشوفاً، عيشة في صومعة معزولة، وغابات، وكهوفاً. ولكن حين كان يفيق على نفسه كان يعترف في الحال تقريباً أن كل ذلك سخافة فظيعة للغاية، ومبالغة، فيخجل من هذه السخافة. وبعد ذلك بدأت النوبات الروحية التي كانت تعني *existence manquee*[٩٥] وبعدها كان الخجل ينفجر في روحه، ويستولي عليه دفعة واحدة، ويحرق ويدمر كل شيء. فكان يرتعص متخيلاً مشاهد مختلفة. ماذا سيقولون عنه، ماذا يظنون فيه، وكيف سيدخل الدائرة، وأي همس سيطارده عاماً بطوله، عشرة أعوام، العمر كله. وسيتوارث الخلف حادثته. بل كان الخور ينتابه أخيراً، فيكون مستعداً إلى أن يذهب إلى سيمون إيفانوفيتش على الفور، ويسأله الصفح، ويرجو صداقته. بل لم يحاول أن يبرر نفسه، ويضع اللوم عليها كلياً. لم يجد لنفسه تبريرات، ويخجل منها.

وفكر حتى في أن يستقيل في الحال، وأن ينذر نفسه لشرف الإنسانية ببساطة وانقطاع. وعلى أية حال كان يتحتم عليه تغيير جميع المعارف لمجرد أن يستأصل كل ذكرى عن نفسه. وبعد ذلك كان يخطر له أن هذه أيضاً أفكار سخيفة، وما يزال في الإمكان تصحيح ما فات بزيادة الشدة مع المرؤوسين. عند ذاك كان يأخذ بالأمل ويتشجع. وأخيراً، وبعد مرور ثمانية أيام من الشكوك والعذاب صار يشعر بأنه لم يعد قادراً على تحمل المجهول أكثر مما تحمل، وفي صباح باهر قرر الذهاب إلى الدائرة.

---

٩٥. وجوده الخائب (بالفرنسية).

Telegram: @Arab_Books

مـن قبل، حين كان معتكفاً في بيته في وحشة تخيّل مع نفسه ألف مـرة كيف سيدخـل إلى دائرته. وكان يؤكد لنفسه بفـزع أنه سيسمع خلفـه لا محالة همساً مبطناً، ويرى وجوهـاً مبطنة، ويتلقى ابتسامات مبطنة. وكم كانت دهشته عظيمة حين لم يحصل أي شيء من هذا في الواقع. فقد استقبل باحترام، وقوبل بانحناءات. وكان الجميع جادين، كان الجميع مشغولين. وملأ الحبور قلبه، حين وصل إلى مكتبه.

أقبل على العمل في الحال وبشكل جدي، واستمع إلى بعض القارير والإيضاحات، واتخذ قـرارات. وشعر بأنه في حياته كلها لم يحاجج ولم يقـرر بذكاء وكفاءة، كما حاجج وقرر في هذا الصباح. ورأى أنه موضم ارتياح، واهتمام، ويعامل باحترام وان أرهف متسقط للعثرات ما كان من الممكن أن يلحظ شيئاً. لقد سارت الأمور بروعة.

وأخـيراً ظهر اكيم بتروفيتش أيضاً يحمـل أوراقاً. وبظهوره أحس إيفـان إيليتشـ كأن شيئاً وخز صميم قلبه ولكـن للحظة فقط. اشتغل مع اكيم بتروفيتش، وتحـدث باعتبار، وأشار له كيف يجب أن يفعل، وشـرح له. لحظ فقط وكأنما يتحاشى أن ينظر طويلاً إلى اكيم بروفيتش أو، مـن الأفضـل القول، ان اكيـم بتروفيتش كان يخـاف النظر إليه. ولكن ها هو اكيم بتوفيتش قد فرغ، واخذ يجمع الأوراق.

– هنـاك التماسـ آخـر – قال بأكثر مـا يكون من الجفـاف – من الموظـف بسلدونيموف يرجو فيه أن ينقـل إلى المؤسسة.....صاحب السعـادة سيميـون إيفانوفيتش شيبولنكو وعـده بتوفير عمل له. وهو يطلب مساعدتكم الكريمة، يا صاحب السعادة.

– أها، يعني ينتقل.

Telegram: @Arab_Books

قال إيفان إيليتش وشعر بـأن ثقلاً هائلاً ينزاح عن قلبه. ألقى نظرة على اكيم بتروفيتش، وفي هذه اللحظات التقت نظراتهما.

– ليكن، أنا من جانبي.....سأستخدم – أجاب إيفان إيليتش – أنا حاضر.

كان اكيـم بتروفيتش يريد، على ما يبدو، الانصراف بسرعة. إلا أن إيفان إيليتشـ عزم، في فيض النبل، أن يفصح عن نفسه بالكامل. فقد هبط عليه الوحي مرة أخرى، على ما يبدو.

– أخـبره – قـال مثبتاً في أكيـم بتروفيتش نظـرة صاحية ومفعمة بالدلالـة العميقة – أخبر بسلدونيمـوف بأنني لا أكن له ضغينة، نعم، لا أكن! بل، بالعكس، أنا مستعد إلى أن أنسى كل ما حدث، أن أنسى كل شيء، كل شيء....

إلا أن إيفان إيليتش توقف في كلامه فجأة، وهو ينظر في ذهول إلى تصـرف اكيم بتروفيتش الغريب، فإن هذا الإنسان الحصيف قد انقلب فجأة، ولسبب غير معروف، إلى أحمق فأفظع ما تكون الحماقة. فبدلاً من أن يسمع حتى نهاية الكلام، احمرّ فجأة إلى أقصى البلاهة، وراح ينحني بعجالة بل وبغير احتشام انحناءات قصيرة، ويتراجع في الوقت ذاتـه إلى الباب. وكانت هيئته كلها تنم عن الرغبة في أن يغور في بطن الأرض أو، من الأفضل القول، أن يصل إلى مكتبه في أقرب وقت. ولما بقي إيفان إيليتش وحده، نهض من مقعده مرتبكاً. نظر في المرآة دون أن يلحظ وجهه.

– لا، الشـدة، والشدة وحدهـا، ثم الشدة! – همس في سره دون

Telegram: @Arab_Books

وعـــي تقريباً، وفجـــأة اصطبغ وجهـــه بحمرة قوية. فقـــد أحس فجأة بخجـــل ووقـــر شديدين لم يشعـــر بمثلها حتى في أشـــد لحظات مرضه ضيقاً، ذلك المرض الذي استمر ثمانية أيام وقال في سره: « لم أتحمل» وجلس على كرسيه خائر القوى.

Telegram: @Arab_Books

الوديعة

قصة خيالية

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

من المؤلف

أرجو المعذرة من قرائي على أني أقدم، في هذه المرة، قصة خالصة، بدلاً من «اليوميات»[٩٦] بشكلهـا المعتاد، لأنني، في الواقع، انشغلت بهذه القصة معظم الشهر. وعلى أية حال، أرجو لطف القراء.

والآن عن القصة ذاتها. لقد وضعت لها عنوان «قصة خيالية»، مع أنني أعتبرها حقيقية إلى حـد كبير، ولكنها، في حقيقة الحال، تشتمل علـى ما هو خيـالي أيضـاً، وفي شكلها بالذات، ممـا يلزمني الايضاح مسبقاً.

والواقـع أنها ليسـت قصة، ولا مذكرات. تمثلـوا زوجاً ترقد على طاولـة في بيته زوجته المنتحرة التي ألقـت نفسها من النافذة قبل بضع ساعـات. فهو في بلبلة، لم يستطع بعـد أن يجمع أفكاره. إنه يسير في الحجـرات، ويحاول أن ينفذ بفكـره إلى ما حدث، أن «يركز ذهنه». فضلاً عـن ذلك فإن هذا الموسوس المزمن هو مـن الذين يتكلمون مع أنفسهـم. وهـو الآن يتكلم مع نفسـه، ويروي القضيـة، ويوضحها لنفسـه. إنه، رغم كلامه المتماسك في الظاهر يناقض نفسه عدة مرات

---

٩٦. يقصد بها " يوميات كاتب" التي كان ينشرها شهرياً في مجلة "غراجدانين"، ابتداء من عام ١٨٧٣. وكان يستخدم فيها الأسلوب "الإشهارى" بشكل عام، ما عدا بعض الأعمال الفنية من صور قلمية، وقصص، وذكريات، ومنها هذه القصة والقصة الأخرى" حلم رجل مضحك" المنشورة في هذه المجموعة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

سواء في المنطـق أو في المشاعر. فهو يبرر نفسه تارة، ويتهمها أخرى، وينهمـك في إيضاحـات جانبية. وهنا نجـد فظاظة الفكـر والقلب، وهنـا نجد الشعـور العميق أيضـاً. وشيئاً فشيئاً يوضـح القضية لنفسه بالفعل، و«يركز ذهنه». وتقضى به جملة من الذكريات التي يستدعيها إلى الحقيقـة في الختام. والحقيقـة تسمو بعقله وقلبـه بشكل لا يقهر. وفي الخاتمـة تتغير حتـى لهجة القصة، إذا ما قورنـت ببدايتها المشتتة. وتتكشـف الحقيقة لهذا البائس بقدر كاف مـن الوضوح والتحديد، بالنسبة له، على أقل تقدير.

هذا هو الموضوع. ومجرى القصـة، بالطبع، يستمر عدة ساعات، تتخللـه توقفات وانقطاعات، وفي شكل غـير متجانس. فتارة يتكلم مـع نفسه، وتارة كمن يخاطب مستمعاً غير منظور، حكماً. وهذا ما يحـدث في الواقع دائماً. ولو استطاع أحد أن يتنصت ويسجل كل ما يقولـه بطريقة الاختزال، لكان أقل صقـلاً وتعديلاً مما هو لدى الآن، ولكـن النسق السايكولوجي بقدر ما يتراءى لي، كان سيظل كما هو. إن ذلـك التسجيل المتخيل بطريقـة الاختزال(كما لو عدلت فيما بعد التسجيـل)، هو ما اسميه في القصة بالخيـالي. إنه يشبه، على نحو ما، مـا طـرق في الفن غير مرة ومثـال على ذلك هوغـو في رائعته «اليوم الأخير من حياة محكوم بالإعـدام»، فقد استخدم نفس الطريقة تقريباً رغم أنـه لم يستعن بطريقة الاختزال، ولكنه جوز لنفسه قدراً أكبر من مجانبة الحقيقة، مفترضاً بأن المحكوم بالإعدام يستطيع(ويملك الوقت) ليسجـل مذكراته لا في يومه الأخير فحسب، بل وفي ساعته الأخيرة، وحتى في دقيقته الأخيرة. ولكن لو لم يجز لنفسه هذا التخيل لما حقق هـذا العمل ذاته، العمل الأكثر واقعيـة والأكثر صدقاً من كل الأعمال التي كتبها.

Telegram: @Arab_Books

الفصل الأول

من هي ومن أنا

.....هـا هي ما تزال هنـا، ما يزال كل شـيء في موضعه. اقترب وأنظـر من لحظة إلى أخـرى. غدا سيحملونها كيـف سأبقى وحيداً؟ هـي الآن على الطاولة في القاعة. صفوا طاولتين من طاولات اللعب. والتابوت سيكـون غداً، أبيض، أبيض، من الحريـر الفاخر. ولكن لا أعنى هذا...أظل أتمشـى، وأريد أن أوضح، لنفسي المسألة منذ ست ساعـات، وأنا ما أزال أريد أن أوضـح، ولا أركز فكري. ذلك لأنني لأتمشـى وأتمشـى، طوال الوقت...هـذا ما كان. أريد فقـط أن أقصه بانتظـام. (بانتظـام!). يا سادة، أنـا أبعد عن أكون أديبـاً، وأنتم ترون ذلـك، وليكـن، سأقص، حسب ما أفهم. وذلك هـو الذعر بعينه فأنا أفهم كل شيء.

إذا أردتم أن تعرفـوا، أي إذا أخذنـا القصة منذ بدايتها، نقول دون لـف أو دوران، إنهـا كانت تأتي إليّ لترهن الأشيـاء لتدفع ثمن إعلان في «الغولـس»[٩٧] تقول فيه: مربيـة مستعدة إلى السفـر، وإلى إعطاء الدروس الخصوصية في البيت إلى غير هـذا وذاك. كان ذلك في أول

٩٧. جريدة يومية"سياسية أدبية" ذات اتجاه ليبرالي كانت تصدر في بطرسبورغ من عام ١٨٦٣ إلى عام ١٨٨٤ يرأس تحريرها أ.أ. كرايفسكي. وكانت "غولس" تتعقب نشاط دوستويفسكي باهتمام ونشرت عدة مقالات نقدية عن نشاطه. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

الأمر، و لم أكن أميزها عن الآخرين، بالطبع. كانت تأتي مثل غيرها، وعلـى نفس المنوال. وفيما بعد أخذت أميزها. كانت دقيقة الملامح، شقراء الشعر، ما بين المتوسطة والطويلة، مرتخية معي دائماً، وكأنها تخجـل (أظـن أنهـا كانت مع جميـع الغربـاء أيضاً بهـذا الشكل، وطبيعـي أنها لم تكـن تفرق بيني وبين هـذا وذاك، أقصـد كإنسان وليس كصاحب رهونـات). وما أن تتسلم الفلوس، حتى تستدير في الحـال، وتنصرف. كل ذلك في صمت. بينما الآخرون يجادلون كثيراً، ويماسكون ليأخذوا نقوداً أكثر، أما هي فتقنع بما يعطي لها.... يبـدو لي أنني أخلط...أهـا، قبل كل شيء، بهرتنـي أشياؤها. أقراط فضيـة مذهبة، مدالية صغـيرة رخيصة مما يُدلى مـن الرقبة – أشياء لا تساوى غير عشرين كوبيـكا. وكانت تعرف بنفسها انها لا تساوي غير عشرة كوبيكات، ولكن كنت أرى من وجهها أنها نفيسة بالنسبة لهـا، وهي بالفعل كل ما تبقى لها مـن ماما وبابا وهذا ما عرفته فيما بعد.

مـرة واحدة فقط أبحت لنفسي الاستهزاء مـن أشيائها. أقصد أنا لا أبيـح لنفسي ذلك أبداً. لهجتي مع الجمهور دائماً مهذبة: كلمات قليلـة، وتأدب، وجـد «جدية، وجديـة وجدية». ولكنهـا أباحت لنفسها فجـأة أن تجلب فضلات (أي، بالمعنـى الدقيق) صداراً قديماً مـن فراء الأرنـب، و لم أتحمـل، فقلت لها شيئـاً فيه غمـز. وإذا بها تتوهج يا أخ! وعيناها الزرقاوان، الواسعتان، المستغرقتان في التفكير تشتعـلان فوراً. ولكن لم تصدر منها أيـة كلمة. أخذت «فضلاتها» وخرجت. وهنا لاحظتها بشكل خاص، لأول مرة، وظننت بها ظناً مـن هذا النوع، أقصد، بالضبط، ظنـاً من نوع خاص. نعم، وأتذكر

Telegram: @Arab_Books

الانطبـاع أيضـاً، أقصـد، الانطبـاع الرئيسي، ذروة كل شـيء، إذا سمحتـم وعرفتم، وأعني به بالضبط أنها شابة، وفي منتهى الشباب، في الرابعة عشرة كما يبدو بينما كان عمرها آنذاك ستة عشرة الا ثلاثة أشهـر. وبالمناسبة ليس هذا ما أريد أن أقوله، وليست هذه الذروة في ذلك على الإطلاق. وفي اليوم التالي جاءت مرة أخرى. عرفت فيما بعد أنها ذهبت بذلك الصدار إلى دوبرونرافوف، وإلى موزر. ولكن هـذان لا يقبلان غير الذهب، فلم يريدا حتى أن يتكلما معها. وكنت من قبل قد قبلت منها مدالية صدفية لرأس امرأة (تافهة جداً) ودهشت حين فكرت في الأمر فيما بعد. أنا أيضاً لا أقبل غير الذهب والفضة، بينما تساهلت معهـا في المدالية الصدفية. وهذا تفكيري الثاني فيها، آنذاك. أنا أذكر. في تلك المرة، أقصد لدى رجوعها من موزر، جلبت مبسـم سيكارة من الكهرمان، وهـو شيء، لا بأس فيه، فهو طريف، ولكنه هو الآخر لا يساوي شيئاً، على أية حال، نحن لا نتعامل إلا في الذهـب. ولأنها جاءت بعد سورة يوم أمس، فقد استقبلتها بصرامة. والصرامـة عندي تعني الجفـاف. ومع ذلك فلم أضبـط نفسي، وأنا أعطيهـا الروبلين، فقلت بشيء مـن الانزعاج، على ما يبدو،: «هذا لأجـل خاطرك فقط. موزر لا يقبل هذا منك». وشددت على لأجل خاطرك بشـكل خاص، بشيء مـن الإشارة بالـذات. كنت خبيثاً. توهجـت مرة أخرى، بعد أن سمعت لأجل خاطرك. ولكنها لم تحر جواباً، و لم ترم الفلوس. تقبلتها الفقيرة ليتكم رأيتم توهجها! فهمت أنني وخزتهـا. وحين خرجت سألت نفسي علـى غرة: اسمع، هل معقـول أن الانتصار عليها يستحـق روبلين؟ ها، ها، ها! أتذكر أنني رددت هـذا السـؤال بالذات مرتين «هل يستحـق؟ هل يستحق؟». ومع نفسـي حسمته بالإيجاب، وأنا أضحـك. وغلبني مرح شديد

Telegram: @Arab_Books

آنـذاك. ولكن ذلك لم يكن شعوراً دنيئاً. كانت لي غاية، قصد. كنت أريـد أن أختبرهـا، لأن أفـكاراً بخصوصها صارت تحـوم في رأسي فجأة. وكان هذا تفكيري الثالث الخاص فيها.

....طيـب، ومنذ ذلك الحين بدأ كل شـيء. طبيعي أنني سعيت، في الحـال، إلى أن أتقصـى كل الظـروف مـن وراء ظهرها وانتظرت مجيئهـا بلهفة خاصـة. لأنني كنت أتحسـس انها ستأتـي عن قريب. وحـين جـاءت دخلت معهـا في حديث أنيـس بأدب غـير اعتيادي للغايـة. فإن تربيتـي ليست سيئة، ولي آدابي. حـم. وعندئذ حدست أنها طيبة ووديعـة. والطيبون والوديعـون لا يقاومون طويلاً، ورغم أنهم لا يحسنون أبداً التملص من الحديث. يجيبون بتقتير، ولكنهم يجيبـون على أية حال، وكلمـا طال الحديث صار أكـثر، فقط أن لا تكلـوا أنتم، إذا طاب لكم. وطبيعـي أنها لم توضح لي شيئاً حينذاك. وفيما بعد عرفت فيما يخص «الغولس» وعن كل شيء. كانت آنذاك تنشـر الإعلانات بآخـر إمكانيات لها. في البدايـة باستعلاء، بالطبع، وهـي تكتب «مربية توافق على السفـر. الشروط ترسل في ظروف» وبعد ذلك «توافق على كل شيء: أن تعلم، وأن تكون مرافقة، وتدير شؤون البيـت، وترعى المريض، وتجيد الخياطة» إلى غير ذلك وذلك، ممـا هو معروف! وطبيعـي أن كل ذلك كان يضـاف إلى الإعلان في مختلف طبعاته، وفي النهاية، حين يئست كتبت «بدون مرتـب، للعيش فقط».ولكنهـا لم تجد وظيفة! عندئذ عزمت علـى أن اختبرها للمرة الأخـيرة. أخطف نسخـة اليوم مـن «الغولس» وأريهـا الإعلان: « امرأة شابة، يتيمة الوالدين تبحث عن عمل كمربية للأطفال الصغار،

Telegram: @Arab_Books

يستحسن أن يكون لدى أرمل متقدم في السن. تستطيع أن تساعد في شؤون البيت».

– انظري، نشر هذا في الصباح، وفي المساء وجدت عملاً، على الأرجح. هكذا يجب أن يكون الإعلان!.

توهجت مرة أخرى، وتوقدت عيناها، استدارت، وخرجت في الحال. ارتحت كثيراً. بالمناسبة، كنت آنذاك واثقاً في كل شيء، و لم أخف. لا أحد سيقبل المبسم. الا أن مباسمها قد نفدت أيضاً. وهذا ما حصل، في اليوم الثالث تأتي شاحبة منفعلة. أدركت أن شيئاً قد حصل في بيتها، وقد حصل بالفعل. سأشرح في الحال ماذا حصل، ولكنني أحب الآن أن أتذكر فقط كيف ظهرت لها غندوراً فجأة، وكبرت في عينيها. تولدت مثل هذه النية عندي فجأة. خلاصة الأمر أنها جلبت هذه الإيقونة (عزمت أن تجلبها)....أوه، استمعوا، استمعوا! نحن في صلب الموضوع الآن، بينما كنت أخلط طوال الوقت...المسألة أنني أود أن أتذكر كل ذلك، بكل صغيرة فيه، بكل تفصيلة. طوال الوقت أريد أ أركز ذهني، ولا أستطيع، بينما هذه التفاصيل، التفاصيل...

أيقونة الأم العذراء. العذراء والابن، بيتية عائلية، عتيقة، والأطار فضي مذهب. تساوي، طيب، تساوي حوالي ستة روبلات. وأحس أن الأيقونة عزيزة عليها. ترهنها برمتها، دون أن تفك الإطار. فأقول لها: من الأفضل أن تفكي الإطار. وخذي الأيقونة لك، على العموم ليس من المستحسن....

– أحقاً محظور عليك؟

Telegram: @Arab_Books

- لا، ليس محظوراً، ولكن ربما تحتاجين...

- طيب، فك الإطار...

- حسناً، لا أفكه، ولكنني سأضع الإيقونة كلها في دولاب الأيقونات هنا - قلت بعد تفكير - مع الأيقونات الأخرى تحت السراج (السراج عندي مشتعل منذ أن فتحت مكتبي) وهذه عشرة روبلات، دون لف أو دوران.

- لا حاجة لي إلى عشرة روبلات. أعطني خمسة سأستردها من كل بد.

- لا تريدين عشرة؟ الأيقونة تساوي ذلك.

أضفت، بعد أن لاحظت أن عينيها قد لمعتا مرة أخرى. صمتت. جلبت لها خمسة روبلات.

- لا تأنفي من أحد. لقد مررت أنا نفسي في مثل هذه الضائقات، بل أسوأ وإذا كنت ترينني الآن أمارس هذا العمل....فإن ذلك بعد كل ما تحملته....

- تنتقم من المجتمع؟ ها؟

قاطعتني فجأة بسخرية لاذعة على نحو كاف، ومنطوية في الوقت ذاته، على الكثير البراءة (أقصد العمومية لأنها آنذاك، لم تكن تميزني عن الآخرين مطلقاً، فكان قولها مبرءاً من الضغن تقريباً). وفكرت مع نفسي: «أها! هكذا أنت، طبعك يتكشف في اتجاه آخر».

Telegram: @Arab_Books

قلت لها في الحال بشيء من المزاح والسرية:

- «أنا جزء من ذلك الجزء من الكل، الذي يريد أن يأتي الشر، ولكنه يصنع الخير...»[٩٨]

نظرت إليّ سريعاً، وبفضول كبير فيه أيضاً الكثير من الطفولة:

- على مهلك....ما هذه الفكرة؟ من أين هي؟ لقد سمعتها في مكان...

- لا تجهدي ذهنك، في هذه الجمل يقدم ميفيستوفيل نفسه لفاوست. هل قرأت فاوست؟

- ليس.....بعناية.

- يعني لم تقرئيه قط. يجب أن تقرئيه. بالمناسبة أرى على شفتيك افترار السخرية مرة أخرى. أرجوك، لا تتصوريني من قلة الذوق، بحيث أردت أن أقدم نفسي كميفيستوفيل تجميلاً لدوري كصاحب رهونات. صاحب الرهونات يبقى صاحب رهونات. نحن نعرف.

- أنت غريب جداً. لم أرد قط أن أقول لك شيئاً من هذا......

- أرادت أن تقول: « لم أكن أتوقع أن تكون رجلاً مثقفاً». ولكنها لم تقل ذلك، رغم أنني كنت أعرف ماذا دار في ذهنها. وقعت من نفسها موقعاً حسناً. قلت ملاحظاً:

---

٩٨. في المشهد الثالث من تراجيديا غوته «فاوست» يعلن ميفيستول «انا جزيئه من القوة الراغبة في الشر ابدا، الخالقة لما هو خير فقط..» . الناشر.

Telegram: @Arab_Books

– في كل مجـال يمكـن أن يصنع الخـير. أنا لا أتحـدث عن نفسي، بالطبع. لنقل أنني لا أفعل غير السوء، ولكن...

–بالطبـع يمكن أن يصنـع الخير في كل مـكان – قالت وهي تلقى عليّ نظرة سريعة نافذة– في كل مكان بالضبط – أضافت ذلك فجأة. أوه، أنـا أذكر كل هذه اللحظات، أذكرها! كمـا أحب أن أضيف ان هذا الشباب، هذا الشباب الحبيب إلى القلب، حين يريد أن يقول شيئاً ذكيـاً نافذاً، يبدو على وجهه فجأة وبكثـير من سلامة النية والسذاجة مـا معناه: «أنا أقول لـك الآن شيئاً ذكياً نافذاً» وليس عن غرور، كما يفعـل من على غرارنا، فيرى المـرء، على طول، أنها تقدر بنفسها هذه الأشياء كلها تقديراً عظيماً، وتثق، وتحترم وتفكر في أنكم، أنتم أيضاً، تحترمـون كل هذه الأشياء كما تحترمها هـي بالضبط. يا لها من سلامة نية! وبذلك يكون النصر. ما أكثر ما كان فيها من فتنة!

أتذكر، و لم أنس شيئاً! حين خرجت عزمت أمري.

في ذلك اليـوم قمت بآخر التحريات، فعرفت عنهـا سائر الأشياء مـن أسرار حياتها الراهنة، وكنت قـد عرفت عن أسرار حياتها الماضية كليـاً من لوكيريا التي كانت تخدم عندهم آنـذاك، والتي رشوتها قبل بضعـة أيام من هذا التاريخ. وكانت هـذه الأسرار من الفظاعة بحيث لا أفهـم كيف كان من الممكن أن تضحك، كما فعلت قبل حين، وأن تستفسر عـن كلمات ميفيستوفيل، وهي التـي عانت بنفسها من مثل تلـك الفظاعـة. ولكنه الشباب! وهـذا بالذات ما فكـرت فيه آنذاك بخصوصها باعتزاز وفرح، فإن في ذلك شهامة أيضاً.

وكان لسان حالها يقول: ولو أنا على حافة الانطفاء، إلا أن كلمات

Telegram: @Arab_Books

غوتــة العظيمة تتألق. والشباب دائماً أريحي، ولو قطرة من الأريحية، ولو بطريق ملتــو. وأنا أقصدها، أقصدها وحدهــا. والشيء الرئيسي أننــي نظرت إليها آنذاك وكأنهــا لي، و لم أشك في جبروتي. إنها فكرة شهوانية للغاية حين لا يراودكم شك.

ولكــن ماذا بي. لئن مضيــت على هذا المنوال، فمتــى سأركز كل شيء؟ أسرع، أسرع. ليس هذا المطلوب على الإطلاق يا ربي!

٢

عرض زواج

«خباياهــا» التي عرفتها أوضحها باختصار: توفي أبوها وأمها منذ زمــان، قبل ثلاثة أعوام من هذا التاريــخ وبقيت مع عمتيها المختلتين. أعني، قليــل في حقهما أن توصفا بالمختلتــين. إحداهما أرملة، كثيرة العيــال، ستة أطفال أحدهم أصغر من الآخــر، والثانية عانس عجوز، بغيضة. كلتاهما بغيضة. وأبوها كان موظفاً، ولكنه من الكتبة، حصل على لقــب نبيل بشخصه لا بالوراثة. وباختصــار: كل شيء يناسبني. ظهــرت وكأنني قادم إليهم من عــا لم رفيع أنا الآخر ملازم ثان متقاعد لفــوج لامع، ونبيل بالوراثــة، ومستقل إلى غير ذلــك. أما بخصوص مكتــب الرهونات، فإن العمتين ما كان في وسعهما أن تنظرا إلى ذلك إلا باحــترام كانت هي قد قضت ثلاث سنوات تعيش في عبودية لدى عمتيها، ولكنها صمدت للامتحان، على أية حال – لحت أن تصمد، تمكنــت أن تطلع من تحت عمــل يومي لا شفقة فيــه. وكان هذا يعني

Telegram: @Arab_Books

شيئاً من الطموح من جانبها إلى ما هو سام ونبيل! لأجل أي شيء أردت أن أتزوجها؟ بالمناسبة، لا تكترثوا بي، هذا فيما بعد.... ليس هذا بيت القصيد! كانت تعلم أطفال عمتها، وتخيط الثياب، وفي الختام ليس هذا فقط، بل كانت تغسل الأرض وهي مصدورة. بل وكانت العمتان في الحقيقة تعمدان إلى ضربها، وتعيرانها على لقمة الخبز، وانتهى الأمر بهما إلى أن تنويا بيعها. تفو! لا أحب الكلام عن هذه القذارة من التفاصيل. خبرتني بكل هذه التفاصيل فيما بعد. طوال سنة كاملة لاحظ كل ذلك حانوتي بدين جار لهن، ليس حانوتياً بسيطاً، بل يملك محلين للبقالة. وكان قد أسلم زوجتيه إلى الهلاك، وكان يبحث عن ثالثة. فوقعت في عينه فكان يقول: «وديعة، نشأت في عوز. أنا أتزوج. من أجل اليتامى». وبالفعل كان له يتامى. خطبها، وراح يتآمر مع العمتين. وكان في الخمسين من العمر، فضلاً عن ذلك. وهي في حالة ذعر. وفي هذه الفترة بالذات أخذت تتردد عليّ للإعلان في «الغولس». وأخيراً، صارت تتوسل إلى عمتيها أن تمهلاها. أقل قطرة من الوقت لتفكر. أعطتاها هذه القطرة ولكن قطرة واحدة، ولم تعطياها قطرة ثانية، كانتا تقرصانها قائلتين «نحن لا نعرف ماذا نأكلن ونطعم فما زائداً». عرفت كل ذلك، وفي ذلك اليوم بعد الذي حدث في الصباح عزمت أمري. وحين جاء التاجر في المساء، وجلب من دكانه رطل حلويات يساوي نصف روبل، وهي جالسة معه، استدعيت لوكريا من المطبخ، وامرتها بأن تذهب إليها، وتهمس لها بأنني عند الباب الخارجي، وأريد أن أقول لها شيئاً مستعجلاً للغاية. بقيت راضياً عن نفسي. على العموم كنت طوال اليوم شديد الرضى.

Telegram: @Arab_Books

وعنـد الباب الخارجـي وبحضور لوكيريـا أوضحت لها، وهي المندهشة من استدعائي لها، بأني سعيد ولي الشرف.....ثانياً، ولكي لا تندهش من أسلوبي هذا، باستدعائها إلى الباب الخارجي أضفت: «أنا رجل صريـح، درست ظروف المسألة». و لم أكذب في قولي أنا صريـح. ولكن دعكـم من هذا. لم أتكلم بشـكل معتبر فقط مظهراً أنني رجـل ذو تربية، بل وبشكل متفرد. وهذا هو الشيء الرئيسي. وهل من الخطيئة حقاً الإفصاح عن النفس؟ أريد أن أتأمل في نفسي، وأتأمل فيها. يجب أن أقول مع وضد، وأقول وحتى فيما بعد كنت أتذكـر هذا باستمتاع، رغم ما فيه مـن حماقة: أعلنت عندئذ، وبلا أي تلجلـج، بأنني أولاً لست على قدر مميز من الموهبة، ولست على قدر مميز مـن الذكاء. بل ولعلي لست على قدر مميز من الطيبة، مجرد أنـاني رخيص.بمـا فيه الكفاية (أتذكـر هذا التعبير الـذي دبجته وأنا في الطريـق، ورضيـت به) ومن المحتمل جداً جـداً أن انطوى على الكثير من السماجة في نواح أخرى. قلت كل ذلك بافتخار من نوع خاصـ، من المعروف كيف يقال مثل هذه الأشياء وكان لي، بالطبع، من الذوق بحيث لم أعلن عن مكارمي أيضاً، بعد أن أعلنت نقائصي بشهامة، و لم أقل «وبمقابل ذلك لي كذا وكذا، وكيت وكيت» رأيت أنهـا ما تـزال تتوجس توجسـاً هائلاً، ولكنني لم أخفـف شيئاً، بل بالعكس شددت عن عمد، بعد أن رأيت توجسها، فقلت بصراحة: سنكون في شبع ولكن لا حُلل ولا مسارح ولا حفلات راقصة، إلا فيما بعد، حـين أبلغ أهدافي. وهذه اللهجة الحـادة جذبتني بشكل حاسـم. وأضفت، على الماشي أيضاً قدر الإمـكان، بأنني إذا كنت أزاول هـذه الشغلـة، أقصـد الرهونات، فـإن لي، بالفعل، مثل هذا الهـدف وذلك الاعتبـار. على مهلكم، يا سادة، طـوال حياتي، أنا

Telegram: @Arab_Books

أول مـن يكره مكتـب الرهونات هذا، ورغـم أن من المضحك في واقع الأمـر، التحدث مع النفس بهذه العبـارات الغامضة، إلا أنني كنت «أنتقم مـن المجتمع» بالفعل، بالفعـل، بالفعل! على هذا فان غمزهـا في الصبـاح بأنني «أنتقم» لم يكن منصفـاً. أقصد، لو قلت لها بصريح العبـارة «نعم، أنا أنتقم مـن المجتمع»، لضحكت، كما ضحكـت قبل حـين في الصبـاح، ولطلع الأمر مضحـكاً عن حق وحقيـق. ولكن تبين أن في الإمكان أسر الخيـال بتلميح غير مباشر، بعد أن أطلق العبـارة الغامضة. وفضلاً عن ذلك لم أكن أخشى شيئاً في ذلـك الحين. إذ كنـت أعـرف أن الحانوتي البديـن أدنس مني، وأنني، وأنا عند الباب الخارجي، كنت محرراً. كنت أفهم ذلك.أوه، الإنسان يفهم الحقارات بشكل جيد جداً. ولكن هل هي حقارات؟ وكيف تحكم عن الإنسان هنا؟ هل معقول أنني لم أكن أحبها، حتى آنذاك؟

على مهلكـم، آنذاك لم أذكر لها، بالطبـع، ولا نصف كلمة عن المعـروف. بل بالعكس، نعم، بالعكـس، قلت «سأظل أنا مديناً لك بمعـروف، ولسـت أنت». يعني عـبرت لها عن ذلـك بالكلمات، ولم أتحمـل، ولربما بدا ذلك حماقة، لأننـي لاحظت افترارة خاطفة علـى وجهها، ولكننـي ككل ربحـت بالتأكيد. علـى مهلكم، إذا كنـت أتذكر كل هذه القـذارة فلا بد أن أتذكـر الوضاعة الأخيرة. كنت أقف، وقـد جال في رأسي: أنت مديد القامة، ممشوق مهذب و...و....أخـيراً، وأنـا أقول بلا تبجح، لست بـلا جاذبية. هذا ما طـاف في ذهني. وطبيعـي أنها، وهي عند البـاب الخارجي، قالت لي: نعـم، ولكن....ولكن يجب أن أضيف أنها، وهي عند الباب

Telegram: @Arab_Books

الخارجي، فكرت طويلاً قبل أن تقول: نعم. فكرت، واستغرقت في التفكير، حتى أنني سألتها: «إذن، ماذا؟»، بل و لم أحتمل وسألت بالعبارة المهذبة: «إذن، ماذا ترين؟».

– انتظر، أنا أفكر.

وكان وجهها من الجدية، بحيث كان من الممكن آنذاك قراءة ما فيه! ولكنني شعرت بالإساءة. فأفكر مع نفسي: «هل معقول أنها تتخير بيني وبين التاجر؟» عند ذلك لم أكن قد فهمت! عند ذاك لم أكن أفهم أي شيء، أي شيء! وحتى اليوم لم أفهم أي شيء! أتذكر أن لوكيريا لحقت بي حين كنت قد خرجت، وأوقفتني في الطريق، وقالت بعجلة: «جازاك الله، يا سيد، على أنك تخطب آنستنا العزيزة، فقط أن لا تقول لها ذلك، فهي أنوف».

طيب، أنوف! أها، أنا نفسي أحب الأنوفات. فهن صالحات بشكل خاص، حينما حسناً، حينما لا تشك في تسلطك عليهن. ها؟ يا لك من رجل حقير بلا براعة! آه كم كنت مرتاحاً! هل تعرفون كان من الممكن أن تخطر لها، حين كانت واقفة عند الباب الخارجي، ساهمة لتقول لي: نعم، فشعرت بالإهانة هل تعرفون كان من الممكن أن تخطر لها حتى هذه الفكرة: «أليس من الأفضل إذا كانت التعاسة هنا وهناك، أن أختار الأسوأ، أعني، الحانوتي البدين، وليضربني السكير حتى الموت!» ها؟ ماذا ترون؟ هل كان من الممكن أن تخطر هذه الفكرة؟

نعم، والآن أيضاً لا أفهم، الآن أيضاً لا أفهم شيئاً. وقبل لحظة قلت: من الممكن أن تكون لها هذه الفكرة: أختار من التعاستين أسوأهما،

Telegram: @Arab_Books

يعنـي التاجر؟ ومن كان الأسوأ عندها آنـذاك: أنا أم التاجر؟ التاجر أم صاحـب الرهونـات الذي يستشهـد بغوته؟ هذا موضـع سؤال! أي سؤال؟ لا تفهم ذلك؟ الجواب مطروح على الطاولة، وتقول: سؤال! ولكـن أبصق عليّ! لسـت أنا بيـت القصيد.....بالمناسبة ماذا يعنيني الآن، إذا كنـت أو لا أكون بيت القصيد؟ هـذا ما لا أستطيع البت فيه مطلقاً. الأفضل أن أعود إلى الاستلقاء. رأسي يوجعني.....

٣

أكثر الناس إحساناً، ولكنه لا يصدق

لم أغـف. ثم أن نبضـاً يدق في مكان من رأسـي. أود لو أمثل كل هذا، كل هذه القذارة. أوه، قذارة! أوه، من أية قذارة انتشلتها! وكان يجـب أن تفهم ذلك، وتقدر فعلتي! طابت لي أيضاً أفكار مختلفة، من مثـل، إن عمري واحد وأربعون، بينما هي لم تتجاوز السادسة عشرة. سحرني هذا، هذا الإحساس بالفارق، هذا لذيذ جداً، لذيذ جداً.

أردت مثلاً أن يكون الزفاف *a› l›panglaise*[٩٩] أي نحن الاثنان فقط، ومعنا شاهدان لا غير، أحدهما لوكيريا ومن بعد إلى عربة القطار رأساً، علـى الأقل، إلى موسكو، مثلاً (حيث صـادف أن طرأ لي فيها شـأن من الشـؤون) ننزل في فنـدق، لحوالي أسبوعـين. مانعت، ولم تـأذن، فاضطررت إلى أن أذهب إلى العمتـين لتقديم فروض الاحترام بمثابـة الوالدين اللذين آخذ منهما منهمـا. تنازلت. وقمت بالواجب.

٩٩. على الطريقة الإنجليزية (بالفرنسية). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

بل وأهديت لكل من هاتين العجماوين مائة روبل، ووعدتهما باكثر دون أن أخبرها عن ذلك حتى لا أزعجها بوضاعة الحال. وعلى الفور صارت العمتان في ملمس الحرير. وجرى جدال أيضاً حول جهاز العروس. لم يكن تملك أي شيء، في المعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولكنها لم تطلب شيئاً أيضاً. إلا أنني نجحت في الإثبات لها على أنه لا يجوز أن لا يكون لديها أي شيء، وقمت أنا بتوفير الجهاز، ومن سيقوم بتوفير الجهاز غيري؟ ولكن بصقة عليّ. وعلى أية حال استطعت أن أنقل لها عند ذاك أفكاري المختلفة، لتكون معلومة لديها على أقل تقدير. بل ولربما استعجلت. والشيء الرئيسي أنها منذ البداية، رغم تماسكها، اندفعت نحوي بحب، وكانت تستقبلني بغبطة حين كنت أجيء في الأمسيات، وتقص بتأتأتها (تأتأة براءة ساحرة!) كل طفولتها، وصباها الباكر، وعن بيت الأبوة، وعن أبيها وأمها. ولكنني سكبت على كل هذه النشوة ماءً بارداً في الحال وهذه كانت فكرتي. كنت أقابل الغبطة بالصمت، المحب، بالطبع.....ومع ذلك فقد رأت بسرعة أننا مختلفان، وأنني لغز. بينما أنا، وهذا مهم، كنت أسعى لأن أبدو كلغز! فأنا، ارتكبت هذه الحماقة كلها، ربما، لأحوك لغزاً حولي! أولاَ: الصرامة. وبهذه الصرمة أخذتها إلى البيت. وباختصار أقمت نظاماً كاملاً آنذاك، ولو كنت راضياً. أوه، لقد تكون من تلقاء نفسه دون أي عناء. ولكن كان لا بد من ذلك، فقد كان عليّ أن أقيم هذا النظام لاعتبار قاهر. يعني من غير المعقول أن أكذب على نفسي! كان النظام حقيقياً. لا، اسمعوا، إذا كنتم ستتأملون في إنسان، تأملوا فيه وأنتم تعرفون أمره.....اسمعوا!

كيف البدء بذلك، إنه لأمر صعب جداً. حالما تبدأ بتبرير نفسك

Telegram: @Arab_Books

حتى تواجهك الصعوبة. المسألة أن الشباب يحتقر الفلوس، مثلاً، بينما أنا انغمست في الفلوس وضعت كل ثقلي على الفلوس، وقد انغمست إلى حد أنها أخذت تصمت أكثر فأكثر. كانت تفتح عينيها الوسيعتين وتستمع، وتنظر، وتصمت.... الشباب، كما تعرفون، شهم، أقصد الشباب الجيد، شهم ومندفع، ولكنه قليل الاحتمال، حالما لا يروقه شيء، حتى يزدريه. بينما كنت أريد البحبوحة، أريد أن أغرس البحبوحة في قلبها تماماً، أغرسها في نظرتها القلبية. أليس كذلك؟ آخذ مثلاً وضيعاً. كيف كان لي، مثلاً، أن أوضح مكتب الرهونات، إلى شخص من مثلها؟ طبيعي أنني لم أتكلم على المكشوف. وإلا فكأنني سأعتذر عن مكتب الرهونات، بل عملت، إذا صح القول، باعتزاز. وتحدثت صامتاً تقريباً. فأنا أستاذ في التحدث صامتاً، طوال حياتي كنت أتحدث صامتاً، وعايشت نفسي في مآس كاملة صامتاً. آه، لقد كنت أيضاً تعيساً! كنت منبوذاً من الجميع، منبوذاً ومنسياً، ولا أحد، لا أحد يعرف ذلك! وفجأة راحت بنت السادسة عشرة هذه تلتقط التفاصيل عني من الناس، الأوغاد بعد هذا، وظنت أنها تعرف كل شيء، بينما بقي السر المصون في صدر هذا الرجل وحده! ظللت صامتاً طوال الوقت، على الأخص، على الأخص معها، ظللت صامتاً حتى يوم أمس. ولماذا صمت؟ كإنسان أنوف. كنت أريد أن تعرف بنفسها، وبدوني، ولكن لا عن طريق القصص الدنيئة، بل أن تحدس ذلك الرجل بنفسها، وتنفذ إليه! أردت الاحترام التام، وأنا استقبلها في بيتي. أردت أن تقف أمامي بالدعاء، على ما كابدت من عذاب. وكنت مستحقاً ذلك. أوه كنت دائماً أنوفا، كنت دائماً أريد كل شيء أو لا شيء! لأنني لست قنوعاً بالنصف في السعادة، بل كنت أريد كل شيء، ولهذا السبب بالذات تصرفت ذلك التصرف آنذاك قائلاً

لنفسي: «دعها تحدس بنفسها، وتقدر!»، لأنني ولا بد أن توافقوا على ذلك، لأنني إذا شرعت بأن أوضح لها، وألمح، وأداور، وأطلب الاحترام، فكأني أسأل صدقة، سواء بسواء...... على أية حال..... على أية حال، لماذ أتحدث عن هذا!

حماقة وحماقة، وحماقة، وحماقة! آنذاك أوضحت لها صراحة، وبلا شفقة (وانا أشدد على بلا شفقة) أوضحت لها بكلمتين اثنتين بأن شهام الشباب روعة، ولكن لا تساوي فلساً واحداً. ولماذا لا تساوي؟ لأن الشباب ينالها برخص، قبل أن يجرب الحياة، أو كما قال القائل: «انطباعات العيشة الأولى»[١٠٠]. ولنرك في العمل أيها الشباب اللامع! الشهامة الرخيصة سهلة دائماً، حتى التضحية بالحياة، وهذا رخيص، لأنه مجرد فوران الدم، وفيض في القوى[١٠١] والنفس تهوى الجمال بهيام! لا، عليك بمأثرة صعبة من الشهامة، هادئة، وبلا ضوضاء، ولا بهرج، يجابهك فيها افتراء، وحيث الكثير من التضحية، لا قطرة من المجد، وحيث يتصورط الجميع وغداً، أيها الشاب اللامع، بينما أنت أشرف الناس على الأرض. هيا، حاول هذه المأثرة، لا، أنت سترفض! بينما أنا طوال حياتي أقوم بهذا، اضطلع بهذه المأثرة. في البداية راحت تجادل، وبعد ذلك أخذت تلوذ بالصمت، بل الصمت المطبق، عيناها فقط مفتوحتان على سعتها، وهي تسمع، عيناها الوسيعتان، النافذتان و........و، بالإضافة إلى ذلك، رأيت فجأة ابتسامة مرتابة صموتاً، غير مريحة. غفر الله لهذه الابتسامة، لقد أخذتها إلى البيت، على أية حال. الحقيقة أيضاً، لم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه....

---

١٠٠. من قصيدة لبوشكين بعنوان "الطاغوت" (١٨٢٣). الناشر.

١٠١. من قصيدة للشاعر الروسي ليرمنتوف. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

٤

مشاريع ومشاريع

من كان البادئ منا آنذاك؟

لا أحد. بدأ من تلقـاء نفسه منذ الخطوة الأولى. قلت أنني أخذتها إلى البيـت بالصرامة، ومع ذلـك فقد لنت منذ الخطـوة الأولى. وهي ما تـزال عروساً شرحت لهـا أن تتكفـل باستقبال الرهائـن، وإعطاء الفلوس، و لم تقـل شيئاً عندئـذ (لاخطوا هـذا). وفضـلاً عن ذلك انكبـت على العمل بحماس ولكن الشقـة، والأثاث وكل شيء بقي، علـى حاله، بالطبع. الشقة غرفتان إحداهما قاعة كبيرة، أحيطت فيها الخزانـة بسيـاج، والثانية، كبـيرة أيضاً، هي غرفتنـا العامة وهي غرفة النوم أيضاً. وأثاثي شحيح، وحتى أثاث العمتين أحسن منه. ودولاب الأيقونات عندي بسـراج، وهو في القاعة، حيث توجد الخزانة، وفي غرفتـي دولاب فيه بعض الكتب، وصندوق صغير، والمفاتيح عندي، وهنـاك أيضاً سرير، ومناضد ومقاعد. قلـت لها وهي ما تزال عروساً أن روبـلاً لا أكثر مخصص في اليوم لإعالتنـا، أقصد لطعامنا، أنا وهي، ولوكيريـا التي استهويتـا لتعمل عندنا، لأنني «بحاجـة إلى ثلاثين ألفاً في ثلاث سنوات، وبغير هـذه الطريقة لا نستطيع أن نجمع الفلوس». و لم تعترض، ولكنني بنفسي زدت الإعالة ثلاثين كوبيكا. وبخصوص المسـرح أيضـاً، قلـت للعروس لن تكـون هناك مسـارح، ومع ذلك اقترحـت الذهاب إلى المسرح مرة في الشهـر، وفي مكان معتبر أيضاً، كرسيـان في القاعة. ذهبنا سوية، ثـلاث مرات، وشاهدنا «في السعي

Telegram: @Arab_Books

إلى السعــادة» و «الطيور الصداحــة»[١٠٢]، كما يبدو لي، (أوه، بصقة عليها، بصقة!) كنا نخرج صامتين، ونعود صامتين. فلماذا، لماذا لزمنا الصمت منذ البداية؟ في البداية لم يكن بيننا خصام، ومع ذلك صمت إلا أنهــا كانت، أنذاك، تحدجني بنظــرة مختلسة، على ما أذكر، وما إن لاحظت ذلك، حتــى شددت من صمتي. حقاً، أنــا الذي اعتصمت بالصمت، لا هي.

من ناحيتها كانــت هناك سورات مرة أو مرتــين، تندفع لمعانقتي، ولكن لمــا كانت هذه سورات معتلة هستيريــة، بينما كنت بحاجة إلى سعــادة متينة، واحترام من جانبها، فقــد استقبلتها ببرود. وكنت على حق في ذلك: ففي كل مرة تحصل فيها سورات يتبعها خصام في اليوم التالي.

أقصــد لم يكن خصاماً، بل صمتاً، على أية حال، يرافقه من جانبها مظهر أكثر تحدياً فأكثر. «تمرد واستقلال» هذا ما كان، ولكنها لم تكن تحسنه. نعم، إن ذلك الوجه الوديع صار يكتسي جسارة متزايدة. ربما تصدقــون أنني صرت عندها غثاً، أنا درســت ذلك. أما خروجها عن أطوارها بسورات فلم يكن في ذلك شك. طيب، كيف صارت تتذمر فجــأة مــن بؤسنا، وهي التي خرجــت من مثل هذه القــذارة والفقر، وبعد أن كانت تعمل في غسل الأرض! لم يكن بؤساً بل كان اقتصاداً،

١٠٢. الأولى دراما ب.ي. اليوركيفيتش (توفى عام ١٨٨٤) قدمت للمسرح في الفترة التي كان دوستويفسكي يعمل فيها على "الوديعة" وبهذه الطريقة، يؤرخ دوستويفسكي حسب عاداته الأحداث، ويشدد على معاصرة الحدث، وبالتالي، القضايا المطروحة في عمله. والثانية أوبريت للملحن الفرنسي ج. افينباخ (١٨١٩ – ١٨٨٠) بعنوان "بريكولا" قدمت لأول مرة في روسيا في مسرح الكسندرنسكي في بطرسبورغ بعنوان "الطيور الصداحة" عام ١٨٧٠. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

لعلمكم. وما هو ضروري سواء في الملبس مثلاً، وفي النظافة، فهو في فخامة. من قبل أيضاً كنت دائماً أحلم بأن تفتن النظافة في الرجل زوجته. وعلى أية حال لم تكن تتذمر من البؤس، بل من تقتيري المزعوم في الإنفاق. تفكر: «عنده أهداف، يريد أن يبدي صلابة خلق». فجأة امتنعت عن الذهاب إلى المسرح من تلقاء نفسها: وثنية السخرية تصير أقوى فأقوى... وأشدد من صمتي، أشدد من صمتي.

ألا أبرر نفسي؟ الشيء الرئيسي هنا هو مكتب الرهونات، اسمحوا لي: كنت أعرف أن امرأة، وفي السادسة عشرة أيضاً، لا تستطيع إلا أن تخضع للرجل كلياً. لا توجد في النساء أصالة. تلك بديهية، وما تزال حتى الآن بديهية، بالنسبة لي! وما هو ذلك المسجى في القاعة: الحقيقة هي الحقيقة، وهنا ميل[١٠٣] نفسه عاجز عن أن يفعل شيئاً! والمرأة العاشقة، أوه، المرأة العاشقة، تعبد بعمى حتى عيوب الكائن المعشوق ورذائله. إنه نفسه لن يجد لرذائله المبررات التي تجدها له. إن ذلك أريحية، ولكنه ليس أصالة. المرأة قتلتها الأصالة وحدها. فلماذا، وأكرر، لماذا تشيرون لي إلى الطاولة هناك؟ وهل ذلك المسجي على الطاولة أصالة حقاً؟ أوف!

اسمعوا، كنت موقناً من حبها آنذاك. ذلك لأنها ارتمت على رقبتي آنذاك. يعني كانت تحبني، بالأحرى، كانت تود لو تحبني. نعم، هذا ما كان. كانت تود لو تحبني، تبحث عن ذلك الحب. والشيء الرئيسي هو أنه لم تكن هناك أية رذائل لتضطر أن تجد المبررات لها. أنتم تقولون: صاحب رهونات. الجميع يقولون ذلك. وماذا في صاحب الرهونات؟

---

١٠٣. هو الفيلسوف والاقتصادي الإنجليزي جون ستيوارت ميل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) الناشر.

Telegram: @Arab_Books

يعني هناك أسباب جعلت من أشهم الناس صاحب رهونات. لعلمكم، يـا سادة، هنـاك أفكار.....أقصد، لعلمكم، إذا كانـت أية فكرة تطلق ويفصـح عنها بالكلمات فان ذلك سيكون حماقة فظيعة، سيكون عيباً علـى الناطق نفسـه. ولأي سبب؟ لا سبب. لأننا جميعـاً وساخة، ولا نحتمـل الحقيقـة، أو لا أدري ماذا. قلـت الآن «أشهـم الناس». ذلك مضحك، وفي الوقت ذاته، هذا ما كان. لأن ذلك حقيقة، أعني أصدق أصـدق حقيقة! نعم، كان لي الحـق في أن أريد أن أتكفل نفسي آنذاك، وأفتـح هذا المكتب: « لقـد أنكرتمـوني، أيها النـاس، أقصد طردتموني بصمـت مزدر. رددتم علـى اندفاعي اللهـوف نحوكم بإسـاءة لطول حياتـي. فقد كنت إذن محقاً في أن أحتجـز عنكم بحائط، وأجمع هذه الثلاثـين ألف روبل، وأختم حياتي في مكان ما في القرم، على الساحل الجنوبـي، في الجبـال، في بساتين الكـروم، في ضيعتي المشـتراة بهذه الثلاثين ألفـاً، والأهم، بعيداً عنكم جميعاً، ولكـن دون حقد عليكم، وفي ذاتـي مثلي، ومعي المـرأة الحبيبة إلى قلبي، والعائلـة، إذا كتب الله ذلك، أساعـد الفلاحين المجاورين». لطيف، بالطبع، أن أتحدث بذلك إلى نفسـي الآن، وإلا فأي شـيء سيكون أكثر حماقة مما لو أعلنت ذلك جهـاراً؟ وهذا هو السبب في جلوسنا صامتين. فمـاذا كان بوسعها أن تفهم: ستة عشر ربيعاً، أول الصبا، ماذا كان في مستطاعها أن تفهم من مبرراتـي، عذاباتي؟ هنا التصلّب، والجهل بالحياة، والمعتقدات الصبوية الرخيصـة، وعنى الدجاج «للقلـوب الجميلة»، والشـيء الرئيسي هنا مكتب الرهونات، وكفى! (هل هو معقول أنني كنت وحشاً في مكتب الرهونات، هل معقول أنها لم تر كيف كنت أسألك، وهل كنت آخذ شيئاً زائداً؟)! أوه، ما أفظـع الحقيقة على الأرض! هذه الفتنة، هذه الوديعة، هـذه السماء - كانت طاغية روحـي القاهرة، ومعذبتي! سأكذب على

Telegram: @Arab_Books

نفسي، إذاً لا أقول ذلك. تظنون أنني لم أكن أحبها؟ من يستطيع أن يقول أنني لم أكن أحبها؟ تلك هي السخرية، هنا سخرية القدر والطبيعة الخبيثة! نحن ملعونون، حياة الناس ملعونة عموماً!(حياتي بشكل خاص). أنا أفهم الآن بأنني أخطأت في شيء! شيء هنا لم يكن كما يجب. كان كل شيء صافياً، خطتي صافية كالسماء: « صارم وأبي، ولا أحتاج إلى أية مواساة خلقية من أحد، أتعذب صامتاً». وهذا ما كان، لم أكذب! «سترى بنفسها فيما بعد أن هذه كانت شهامة، ولكنها لم تستطع أن تلحظ، وحين ستجدس هذا يوماً ما، ستثمنه عشرة أضعاف، وتنهار راكعة، ضامة يديها في الدعاء». تلك هي الخطة. ولكنني نسيت أو أغفلت شيئاً هنا. لم أستطع أن أقوم بشيء ما. ولكن كفى، كفى، ممن أطلب المغفرة الآن؟ انتهى يعني انتهى. كن أكثر جرأة، أيها الرجل كن فخوراً! لست ملوماً!

أنا أقول الحقيقة، ولا أخاف أن أقف أمام الحقيقة وجهاً لوجه: هي الملومة، هي الملومة!

٥

الوديعة تتمرد

بدأت المشاحنات حيث ارتأت، فجأة، أن تعطي الفلوس حسب هواها، وتقدر الأشياء، أعلى من قيمتها، بل تكرمت مرتين أو نحوهما، ودخلت في نقاش معي في هذا الموضوع. لم أوافق. وهنا ظهرت عجوز هي زوجة نقيب.

Telegram: @Arab_Books

جاءت العجوز زوجة ضابط برتبة نقيب تحمل ميدالية مما يعلق في الصدر هي هدية زوجها الراحل، تذكار كما هو ملحوظ. قررت لها ثلاثين روبلاً. أخذت تتأوه شاكية، وترجو أن نحفظ لها الرهن، ونحن نحفظه بالطبع. ولكنها، باختصار، تأتي بعد حوالي خمسة أيام، وتطلب أن تستبدل الميدالية بسوار لا يساوي حتى ثمانية روبلات، وطبيعي أنني رفضت. ولربما خمنت عندئذ شيئاً من عيني زوجتي، فجاءت بغيابي، فبادلتها بهذه الميدالية.

عرفت بذلك في نفس اليوم، وأخذت أتكلم معها بسكينة، ولكن بحزم وتحكيم العقل. كانت جالسة على الفراش، تنظر إلى الأرض، وتشحط طرف قدمها اليمنى على البساط (عادتها المشهورة)، وابتسامة خبيثة على شفتيها. عندئذ لم أرفع صوتي قط، وأعلنت بهدوء أن الفلوس فلوسي، وأن لي الحق في أن أنظر إلى الحياة بعيني أنا، وأنني حين دعوتها إلى بيتي، لم أخف عنها شيئاً.

وثبت فجأة، وراحت تهتز بكل كيانها وماذا تتصورون – فجأة أخذت تضرب الأرض بقدميها حنقاً عليّ. كان ذلك وحشية، كان ذلك نوبة، كان ذلك وحشية ونوبة. صعقت من الذهول، لم أكن أنتظر مثل هذه الفورة قط. ولكن لم أفقد أعصابي، بل و لم أُبدِ حركة، وعدت ثانية أعلن بصراحة بصوت هادئ كالسابق: منذ الآن سأحرمها من المشاركة في أشغالي. قهقهت في وجهي، وخرجت من الشقة.

قوام الأمر أنها لم تكن تملك الحق في الخروج من الشقة. منذ أن خطبتها اتفقنا على ألا تخرج إلى أي مكان بدوني. في المساء عادت. لم أنطق بكلمة.

Telegram: @Arab_Books

في اليوم التالي خرجت أيضاً في الصباح، وبعد غد أيضاً. أغلقت المكتب، وذهبت إلى العمتين. وكنت قد قطعت صلتي بهما منذ الزفاف، لا تزورانني، ولا أزورهما. وتبين الآن أنها لم تكن عندهما. استمعتا إليّ بفضول، وضحكتا مني في وجهي قائلتين: « هذا ما تستحقه». ولكنني كنت أتوقع ضحكهما. ورشوت العمة الصغيرة العانس، بمائة روبل، في التو والبقعة، وأعطيتها خمسة وعشرين روبلاً مقدماً. بعد يومين تأتي العمة إلي، وتقول: « المتورط في الأمر هو الضابط يفيموفيتش الملازم ورفيقك السابق في الفوج». اندهشت جداً. إن يفيموفيتش هذا ألحق بي الأذى في الفوج أكثر من أي شخص آخر، وقبل شهر جاء إلى المكتب بحجة الرهونات مرة أو اثنتين، وأتذكر أن عديم الحياء هذا أخذ يضحك مع زوجتي عنجها، تقدمت منه، وقلت ألا يتجاسر، ويأتي إليّ، متذكراً علاقاتنا. ولكن لم يدر في خلدي قط حتى التفكير بشيء وضيع، بل ظننت أنها مجرد سفاهة. وإذا العمة تعلن الآن أن موعداً غرامياً قد ضرب له عندها، وأن المدبرة لكل هذه الأمور هي يوليا سامسونفنا، أحد معارف العمتين في السابق، وهي أرملة، وزوجة عقيد أيضاً. وتقول العمة: «الآن عقيلتك تتردد عليها».

لن أطيل عليكم هذا الموضوع. لم يكلفني ذلك أكثر من ثلاثمائة روبل وخلال يومين اتفقنا على أن أقف في حجرة مجاورة، وراء باب، مغلق، وأستمع إلى أول *rendez – vous* (١٠٤) بين زوجتي ويفيموفيتش. وفي الترقب حصل لي معها في العشية، مشهد قصير ولكنه جد مهم بالنسبة لي.

---

١٠٤. لقاء غرامي (بالفرنسية). الناشر.

Telegram: @Arab_Books

عادت قبيل المساء، وجلست على الفراش، تنظر إليّ باستهزاء، وتضرب البساط بقدمها. وفجأة، وأنا أنظر إليها، طافت في رأسي فكرة، وهي أنها في الشهر الأخير كله، أو، بالأحرى، خلال الأسبوعين الأخيرين، لم تكن على طبعها مطلقاً، بل ويمكن القول، على الضد من طبعها: كانت مخلوقاً معاركةً، مهاجماً، لا أستطيع أن أقول عديم الحياء، بل مضطرباً، يبحث بنفسه عن الشغب الذي يطمح فيه. إلا أن الوداعة كانت تعيق هذا المخلوق الداعي إلى الشغب. حين تأخذ مثل هذه العربدة، وإن خرجت عن الحد، فمن الواضح دائماً أنها لا تحطم إلا نفسها، ولا تطارد إلا نفسها، ولا شبيل إلى أن تكون البادئة في كبح نفسها بما لها من طهارة وحياء. ومن هنا يتجاوز هؤلاء الحد أحياناً أكثر من اللازم، حتى لا تصدق بعقلك المتتبع. بينما النفس المتعودة على الفسوق، على العكس من ذلك، تلين دائماً، وترتكب الأرذل من ذلك، ولكن في قالب النظام والحشمة بحيث يكون لها ادعاء التفوق عليكم.

– هل صحيح أنك طردت من الفوج لأنك جبنت و لم تخرج إلى مبارزة؟

سألت فجأة، وراحت عيناها تتألقان.

– صحيح. طلبوا إلي أن أترك الفوج بناء على قرار الضباط، رغم أنني قدمت استقالتي قبل هذا.

– طردوك كجبان؟

– نعم، حكموا علي كجبان. ولكنني امتنعت عن المبارزة لا عن

Telegram: @Arab_Books

جبن، ولكن عن رغبة مني في عدم الإذعان إلى قرار تسلكي، والدعوة إلى مبارزة في حين لم أجد أنا نفسي إساءة في الأمر. لعلمك – لم أتحمل حتى هنا – القيام بعمل مناهض للتسلط، وتحمل كل التبعات كان يعني إبداء شجاعة تفوق بكثير تلك التي من المطلوب إبداؤها في المبارزة.

لم أتحمل، وأطلقت هذه العبارة، وكأنني أبرر نفسي، وهذا ما كانت تريده بالذات، هذا الاستصغار الجديد لنفسي. فأنشأت تضحك في خبث.

– وهل صحيح أنك ظللت ثلاثة أعوام بعد ذلك تتسكع في شوارع بطرسبورغ كالمتشرد، وتسأل عشرة كوبيكات حسنة، وتنام تحت مناضد البليارد؟

– ونمت أيضاً في سينايا وفي دار فيازمسكي[١٠٥] أجل حقاً، كان في حياتي، بعد الفوج، الكثير من العار والسقوط، ولكنه ليس سقوطاً خلقياً، لأنني أنا نفسي أول من كره تصرفاتي، حتى في ذلك الحين. كان ذلك سقوطاً لإرادتي وعقلي فقط، و لم يكن إلا بسبب اليأس من وضعي. ولكن ذلك انقضى....

– أوه، والآن أنت شخصية، مالي!

يعني أن ذلك تلميح بمكتب الرهونات. ولكنني استطعت أن

١٠٥. كانت دار فيازمسكي أحد مراكز "الترفيه" الرئيسية للفئات السفلى في العاصمة في ساحة "سينايا" القديمة – بؤرة الحانات والخمارات والأوكار الأخرى. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

أضبط نفسي. عرفت أنها تتعطش لإيضاحات مهينة لي، و لم أقدم لها. وفي تلك الأثناء دق راهن الجرس، فخرجت إلى القاعة للقياه. وبعد ساعة، حين لبست ثيابها فجأة لتخرج، توقفت أمامي وقالت:

- وعلى أية حال لم تقل لي شيئاً عن هذا قبل الزفاف؟

لم أجب، فخرجت.

•

وهكذا، وقفت، في اليوم التالي وراء الباب في تلك الحجرة، واستمعت كيف كان يتقرر مصيري، وكان في جيبي مسدس. كانت في ملابسها الجيدة، جالسة إلى المائدة. ويفيموفيتش يتثنى أمامها. طيب، حصل ما (أنا أقول ذلك شرفاً لي) حصل بالضبط، ما كنت أستشعره مسبقاً، وأتشوفه، رغم أنني لم أكن أعي بأنني أستشعر هذا واتشوفه. ولا أدري هل أعبر بشكل مفهوم.

وهذا الذي حصل. استمعت ساعة كاملة، وشهدت ساعة كاملة مبارزة امرأة غاية في النبل والسمو، مع بهيمة دنيوية فاسقة بليدة، مع زلحفة. وفكرت أنا المذهول، من أين تعرف هذه الساذجة، هذه الوديعة، هذه القليلة الكلام، كل هذا؟ أن أنبه مؤلف لكوميديا أرستقراطية ما كان في وسعه أن يخلق مثل هذا المشهد من السخريات والقهقهة الساذجة للغاية، وازدراء الفضيلة المقدس للرذيلة. وما أكثر ما كان في كلماتها، في ألفاظها الصغيرة من بريق، وأية حذاقة في أجوبتها السريعة، وأي صدق في استنكارها! وفي الوقت ذاته ما أكثر ما فيها صباوة وما يقرب من السذاجة. كانت تضحك في وجهه من مكاشفاته في الحب، من إيماءاته، من عروضه. وهو الذي جاء مشمراً ذراعه لمراده، غير متوقع مقاومة، فانهار في بادئ الأمر. كان من

Telegram: @Arab_Books

الممكن أن أظن أن ذلك مجرد غنج من جانبها - «غنج مخلوق سريع البديهة، وإن كان خليعاً ليظهر نفسه أغلى». ولكن، لا، فالحقيقة أخذت تتألق، كالشمس، وكان من المستحيل الشك. ولكراهيتها لي فقط، لكراهيتها المصطنعة ذات السورات استطاعت، وهي العديمة التجربة، أن تقدم على تدبير هذا اللقاء، ولكن حين وصل الأمر إلى المراد منه، فتحت عينيها في الحال. مجرد أن هذا المخلوق اندفع ليهينني بأي شيء كان، ولكنه، وقد أقدم على هذه القذارة، لم يتحمل فوضى. وهل كان في وسع يفيموفيتش أو مَن تشاؤون من البهائم الأرستقراطية أن يفتنها، وهي الطاهرة النقية ذات المثال؟ بالعكس، لم يثر فيها إلا الضحك. وصعدت الحقيقة كلها من روحها، وأثار الحنق في قلبها السخرية. وأكرر أن هذا المضحك قبيل الخاتمة ارتخى تماماً، وقعد جهم الأسارير، لا يكاد يرد، حتى أنني صرت أخشى أن يكون قد تجاسر وأهانها بانتقام وضيع. وأكرر مرة أخرى: شرفاً لي أن أكون قد استمعت لهذا المشهد بلا اندهاش تقريباً، وكأنني التقيت شيئاً مألوفاً لي. كأنني ذهبت لألتقيه. ذهبت غير مصدق بشيء، غير مصدق بأي اتهام، رغم أنني وضعت المسدس في جيبي. هذه حقيقة! وهل كان في وسعي حقاً أن أتصورها بغير هذه الصورة؟ لأي شيء إذن أحببتها، ولأي شيء قدرتها، ولأي شيء تزوجتها؟ بالطبع، كنت موقناً كثيراً بمقدار كراهيتها لي آنذاك، ولكن كنت موقناً أيضاً بمقدار طهارتها. أوقفت المشهد فجأة، حين فتحت الباب. وثب يفيموفيتش، فتناولت يدها، ودعوتها لأن تخرج معي. تدارك يفيموفيتش الموقف، وانفجر في ضحك رنان:

- أوه، أنا لا أعارض حقوق الزواج المقدسة، خذها! خذها!

Telegram: @Arab_Books

واعلم – صاح في أثري – لا يجوز لشخص معتبر أن يدخل في مبارزة معك، ومع ذلك فأنا في خدمتك، احتراماً لعقيلتك... إذا كنت نفسك تجازف...

– اسمعي!

أوقفتها للحظة على العتبة.

وبعد ذلك لا كلمة واحدة طوال الطريق إلى البيت. قدتها من يدها، و لم تمانع. بل على العكس، كانت ذاهلة جداً، ولكن إلى حين وصولنا إلى البيت فقط. لمّا وصلت إلى البيت، جلست على مقعد، وثبتت فيّ بصرها. كانت ممتقعة للغاية، ورغم أن شفتيها انطبقتا في الحال انطباقة سخرية، إلا أنها كانت تنظر الآن بتحدٍ منتصر صارم، وتبدو وكأنها قد أيقنت في اللحظات الأولى عن جدٍ بأنني سأقتلها بالمسدس. إلا أنني أخرجت المسدس من جيبي صامتاً، ووضعته على الطاولة. نظرت إليّ وإلى المسدس (لاحظوا أن هذا المسدس كان معروفاً لها. وكنت قد اقتنيته، وعبأته منذ افتتاح المكتب. حين فتحت المكتب قررت ألا أتخذ كلاباً، ولا خادماً قوياً للحماية، مثلما يفعل موزر، مثلاً. طباختي هي التي تفتح الباب للزبائن، ولكن الذين يزاولون شغلتنا يستحيل عليهم أن يحرموا أنفسهم من الحماية الذاتية للطوارئ، فاتخذت مسدساً محشواً. ومنذ اليوم الأول الذي دخلت فيه بيتي اهتمت كثيراً بالمسدس، وراحت تستفسر، فأوضحت لها حتى تركيبه ونظام عمله، وفضلاً عن ذلك، أقنعتها مرة بأن تطلق النار على هدف. لاحظوا كل ذلك. استلقيت على السرير، وقد خلعت بعض ثيابي، دون أن أعير التفاتاً إلى نظرتها الهلعة. كنت خائر القوى

Telegram: @Arab_Books

جداً، وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة. ظلت جالسة على نفس المكان، زهاء ساعة أخرى، دون حراك. وبعد ذلك أطفأت الشمعة، واستلقت بملابسها أيضاً على الأريكة، عند الحائط. لأول مرة لم تنم معي. لاحظوا ذلك أيضاً.

٦

ذكرى مرعبة

والآن هذه الذكرى المرعبة....

استيقظت صباحاً، بعد الساعة السابعة، على ما أظن، وكان جو الحجرة مستضاء كلياً تقريباً. استيقظت بوعي كامل دفعة واحدة، وفتحت عيني فجأة. كانت واقفة عند الطاولة، تمسك المسدس في يدها. لم تر أنني استيقظت، وأشاهد. فجأة أرى أنها تتحرك نحوي، والمسدس في يدها. أغمضت عيني سريعاً، وتظاهرت بأنني أغط في نوم عميق.

وصلت إلى الفراش، ووقفت فوقي. سمعت كل شيء، رغم أن سكون الأموات قد أطبق ولكني كنت أسمع هذا السكون. وهنا حصلت حركة متشنجة، وإذا بي لا أحتمل، فافتح عيني رغم إرادتي. كانت تنظر في عيني مباشرة، والمسدس صار عند صدغي تماماً. التقت عيوننا، ولكن لم ينظر أحدنا للآخر أكثر من لمحة. عدت فأغمضت عيني عنوة، وفي تلك اللمحة عزمت بكل ما في نفسي من قوة على أن لا أتململ بعد الآن، وأن لا أفتح عيني، مهما يكن في انتظاري.

Telegram: @Arab_Books

يحدث في الواقع أن الإنسان النائم بشكل عميق يفتح عينيه فجأة، بل ويرفع رأسه للحظة، ويجيل بصره في الغرفة، ثم يضع رأسه على المخدة، بعد لحظة، ودون وعي منه، ويغفو دون أن يتذكر شيئاً. حين التقت نظراتنا، وأحسست بالمسدس على صدغي، عدت فأغمضت عيني فجأة، ولم أتململ، كالنائم في نوم عميق حتى هيأت لها أن تفترض كلياً بأنني نائم بالفعل، وأنني لم أر شيئاً، والأكثر من ذلك من غير المحتمل كلياً أن يغمض المرء عينيه في مثل هذه اللحظة ثانية إذا كان قد رأى ما رأيت أنا.

نعم، من غير المحتمل. ولكنها من الممكن أيضاً أن تكون قد حدست الحقيقة على أية حال، وقد خطر ذلك في فكري فجأة، بنفس اللحظة أيضاً. أوه، ما أعنفها من الأفكار والأحاسيس انطلقت في أقل من لحظة في فكري. عاش جبروت الفكر الإنساني! وفي مثل هذه الحال (وقد أحسست ذلك) وإذا كانت قد حدست الحقيقة، وتعرف أنني غير نائم، فقد سحقتها باستعدادي لتقبل الموت، وقد ترتعش الآن يدها. وقد يحطم الانطباع الخارق الجديد تصميمها السابق. يقال أن الواقف على مرتفع يبدو وكأن قوة تجذبه إلى الأسفل، إلى الهاوية. وأظن أن الكثير من حالات الانتحار والقتل قد حصل، لأن المسدس كان في اليد. هنا أيضاً هاوية، هنا أيضاً انحدار بخمس وأربعين درجة، والانزلاق عليه لا مناص منه، وثمة شيء يدعوكم بشكل لا يقهر إلى إطلاق الزناد. ولكن الوعي بأنني رأيت كل شيء، وأعرف وأنتظر الموت منها صامتاً، استطاع أن يبقيها على المنحدر.

استمر السكون، وفجأة أحسست بملمس الحديد البارد على صدغي، على شعري. أنتم تسألون: هل كان أملي في الخلاص قوياً؟

Telegram: @Arab_Books

أجيبكم، كما أمام الرب: لم يكن لي أيّ أمل، ما عدا واحداً بالمائة فقط من الحظ. فلماذا إذن، كنت أتقبل الموت؟ فأسأل: وأية حياة لي ستكون بعد أن رفع مخلوقي المعبود المسدس عليّ. وفضلاً عن ذلك كنت أعرف بمل قوة كياني أن صراعاً يجري بيننا في تلك اللحظة، مبارزة رهيبة على الحياة والموت، مبارزة الرجل الذي جبُن بالأمس، وطرده رفاقه على جبنه. كنت أعرف ذلك، وكانت هي أيضاً تعرف ذلك، شرط أن تكون قد حدست الحقيقة، وهي أنني غير نائم.

ربما لم يكن هذا أيضاً، ربما لم أفكر في هذا أيضاً آنذاك، ولكن كل هذا كا يجب أن يكون، ولو بدون تفكير، لأنني لم أفعل سوى أن أفكر في ذلك فيما بعد، في كل ساعة من حياتي.

ألا أنكم تطرحون سؤالاً آخر: ولكن لماذا لم تنقذها من الجريمة النكراء؟ أوه، ألف مرة طرحت على نفسي هذا السؤال فيما بعد، كلما تذكرت تلك اللحظة والبرودة تسري في ظهري. إلا أن روحي آنذاك كانت في قنوط قاتم. كنت أهلك، كنت أنا نفسي أهلك، فكيف كان في مقدوري أن أنقذ إنساناً؟ وما أدراكم هل كنت أريد أن أنقذ إنساناً آنذاك؟ وما أدراكم ماذا كان من الممكن أن أشعر آنذاك؟

ومع ذلك فالوعي كان يغلي. كانت الثواني تمر، والسكون سكون الموت، وهي ما تزال واقفة فوقي، وفجأة ارتعدت من الأمل! فتحت عيني سريعاً. لم تكن في الغرفة. نهضتُ من الفراش. لقد انتصرت، واندحرت هي إلى الأبد!

خرجت إلى السماور. كان السماور يهيأ في الغرفة الأولى دائماً، وكانت هي تصب الشاي في كل مرة. جلست إلى الطاولة صامتاً،

Telegram: @Arab_Books

وتناولت قدح الشاي منها. بعد حوالي خمس دقائق رمقتها بنظرة. كانت شاحبة بشكل فظيع، أكثر شحوباً من يوم أمس، وكانت تنظر إليّ. وفجأة، فجأة، وهي ترى أنني أنظر إليها، ابتسمت ابتسامة شاحبة، من شفتين شاحبتين، وفي عينيها سؤال متهيب. لا يعني ما تزال تشك وتسأل نفسها: «يعرف أم لا يعرف؟ رأى أم لم ير؟». حوّلت نظري عنها بعدم اكتراث. بعد الشاي أغلقت المكتب، وخرجت إلى السوق، واشتريت سريراً حديدياً وحاجزاً له. وعدت إلى البيت، وأمرت بأن يوضع السرير في القاعة، ويحجب بالحاجز. كان هذا السرير لها، ولكنني لم أقل لها أية كلمة، ومن خلال هذا السرير، فهمت، دون كلام، أنني «رأيت كل شيء، وأعرف كل شيء». و لم تبق أية شكوك الآن. ولليل وضعت المسدس على الطاولة، كعادتي دائماً. في الليل أوت إلى هذا السرير صامتة. لقد فُسخ الزواج، «مدحورة، غير مغفور لها.» في الليل اعتراها هذيان، وعند الصباح حمى. ولزمت الفراش ستة أسابيع.

Telegram: @Arab_Books

الفصل الثاني

١

حلم الإباء

وبسرعة صرّحت لوكيريا بأنها لن تبقى معي، وأنها ستغادر حالما تدفن السيدة. صلّيت راكعاً على ركبتي خمس دقائق، ولكن أردت أن أصلي ساعة، غير أنني أفكر وأفكر، وأفكاري موجهة كلها، ورأسي يوجعني، - وأية صلاة في مثل هذه الظروف؟ - وأنا ارتكبت الخطيئة! والغريب أيضاً أن النوم لا يراودني. والمرء دائماً يريد أن ينام عند الفاجعة الكبيرة، والكبيرة جداً، وبعد النوبات الأولى الشديدة للغاية. يقال إن المحكومين بالإعدام ينامون ليلتهم الأخيرة نوماً عميقاً بشكل استثنائي. وهذا ما ينبغي، هذا ما تمليه الطبيعة، وإلا لما تحملت قوى الإنسان.....استلقيت على الأريكة، ولكن لم أغفُ......

......أسابيع المرض الستة كنا نرعاها آنذاك ليلاً ونهاراً.

- أنا ولوكيريا، وممرضة متعلمة استأجرتها من المستشفى. لم أبخل بالفلوس، بل كنت أحب أن أصرف عليها. استدعيت شريدر طبيباً لها، ودفعت له عشرة روبلات لكل زيارة. وحين عادت إلى وعيها، أخذت أقلل من ظهوري أمام عينيها. على العموم ماذا أصف؟

Telegram: @Arab_Books

– حين غادرت الفراش تماماً، جلست في هدوء وصمت في غرفتي، وراء طاولة خاصة، اشتريتها لها أيضاً في ذلك الوقت.....

أجل، صحيح أننا كنا نلزم الصمت التام، أقصد بل، أخذنا نتكلم فيما بعد، ولو كان كلاماً اعتيادياً لا غير. تقصدت، بالطبع، ألا أفيض في الحديث، ولكنني لاحظت بشكل جيد جداً أنها تبدو كالمسرورة في ألا تقول كلمة زائدة. وبدا لي ذلك طبيعياً تماماً من جانبها. كنت أقول لنفسي: «إنها اهتاجت بشكل جاوز الحد، واندحرت بشكل جاوز الحد، فيجب، بالطبع، أن أدعها تنسي، وتتعود». وعلى هذا النحو لزمنا الصمت، ولكنني كنت في كل دقيقة أتهيأ للمستقبل مع نفسي. وكنت أظن أنها تفعل الشيء نفسه، وكان من الشائق جداً لي أن أحدس في أي شيء بالذات تفكر هي الآن مع نفسها؟

وأقول أيضاً، لا أحد، بالطبع، يدري كم تحملت، وأنا أتوجع عليها في مرضها. ولكن كنت أتوجع في داخلي، وقد حبست توجعاتي في صدري حتى عن لوكيريا. لم أكن أتصور، ولا حتى أن أخمن بأنها ستموت دون أن تعرف كل شيء. وحين اجتازت الخطر، وصارت عافيتها تعود إليها، أتذكر، أنني اطمأننت بسرعة وعلى نحو كبير. وفضلاً عن ذلك قررت تأجيل مستقبلنا أطول مدة ممكنة، وترك كل شيء الآن في وضعه الحالي. أجل، عندئذ حصل لي شيء غريب وفريد، ولا يمكن نعته بغير ذلك: انتصرت، وكان الوعي بذلك وحده يكفيني تماماً. وعلى هذا المنوال انقضى الشتاء. آه، لقد كنت مرتاحاً بشكل لا مثيل له، وذلك طوال الشتاء.

انظروا: كان في حياتي ظرف خارجي رهيب واحد كان

Telegram: @Arab_Books

يسحقني، في كل يوم، في كل ساعة، حتى ذلك الحين، أقصد حتى النكبة بزوجتي، وهو بالضبط خسران السمعة، وذلك الخروج من الفوج. بكلمتين اثنتين: كان هناك ظلم طاغ ضدي. حقاً إن الرفاق لك يكونوا يحبونني بسبب طبعي الصعب، ولربما، بسبب طبعي المضحك، رغم أنه غالباً ما يحدث أن السامي عندكم الحرز الحريز المبجّل من جانبكم يضحك، في الوقت ذاته، جمهرة رفاقكم لسبب ما. نعم، لم أكن محبوباً قط، حتى حين كنت في المدرسة. لم أكن محبوباً دائماً وفي كل مكان. وحتى لوكيريا لا تستطيع أن تحبني. ورغم أن حادث الفوج كان نتيجة عدم الود نحوي، إلا أنه كان يحمل طابع المصادفة بدون شك. فضلاً عن ذلك فليس هناك شيء أكثر إهانة وأكثر إغاظة من أن أضيع سمعتي بسبب حادث من الممكن تجنبه، بسبب تراكم منحوس لظروف كان من الممكن أن تمر كما تمر السحب. شيء مهين بالنسبة لكائن مثقف. كان الحادث كالآتي:

في الاستراحة ما بين فصل وفصل في المسرح خرجت إلى المشرب. وإذا بضابط سلاح الفرسان أ– ف، يدخل ويقول بصوت عال لزميلين له وإمام الضباط والجمهور الذي كان هناك أن نقيب فوجنا بيزومتسف أثار ضجة في الممر منذ برهة، و«يبدو أنه سكران». لم ينعقد الحديث، كما كان هناك خطأ، إذ لم يكن النقيب بيزومتسف سكران، ولم يثر أية ضجة معينة. صار ضباط سلاح الفرسان يتحدثون عن شيء آخر، وبذلك انتهى الأمر. إلا أن هذه الحكاية تسربت إلى فوجنا في الغد، وصاروا يقولون عندنا في الحال أنني الوحيد الذي كنت في المشرب من بين الرفاق، وانني لو أوقف أ– ف بالفات تظر، حين تجاسر ضابط سلاح الفرسان فذكر النقيب

Telegram: @Arab_Books

بيزومتسف. ولكن بأي عرف؟ إذا كان يحمل ضغينة لبيزومتسف، فإن المسألة شخصية، فلماذا أدخل نفسي؟ ومع ذلك أخذ الضباط يجدون في هذه القضية شيئاً غير شخصي، بل يمس الفوج، ولما كنت الوحيد من ضباط فوجنا هناك، فإن ذلك يثبت لجميع الضباط والجمهور الذي كان موجوداً في المشرب على أن في فوجنا ضباطاً لا يهمهم كثيراً شرفهم ولا شرف فوجهم. وما كان من الممكن أن أوافق على هذا الحكم. اعلموني بأنه ما يزال في الإمكان تلافي كل شيء، إذا كنت أريد حتى وبهذه الصورة المتأخرة، أن أعلن موقفي رسمياً مع أ - ف. ولم أرد ذلك. ولّما كنت هائج الأعصاب، فقد رفضت بإباء. وبعدها قدمت استقالتي في الحال. وتلك عي الحكاية كلها. خرجت أبيّاً، ولكن محطم النفس، منهار الإرادة والعقل. وفي هذه الفترة بالذات علمت أن زوج أختي في موسكو بذّر ثروتنا الصغيرة، وحصتي القليلة منها، حصتي الضئيلة، وهكذا بقيت مفلساً وبلا عمل. كان في إمكاني أن أشتغل في خدمة خاصة، ولكن لم أفعل. فبعد البزة اللامعة ما كان في الإمكان أن أنخرط في مكان ما، في السكة الحديد. وذلك هو العيب بعينه، والعار بعينه، والسكوت بعينه، وكلما كان أسوأ كان أحسن، وهذا ما اخترته. تلك ثلاث سنوات من الذكريات القاتمة، بل ودار فيازيمسكي. قبل عام ونصف توفيت في موسكو عجوز غنية، هي أمي بالمعمودية، وبدون توقع تركت لي في وصيتها سوية مع الآخرين ثلاثة آلاف. فكرت في الأمر، وعندئذ قررت مصيري. عزمت على فتح مكتب الرهونات دون أن أطلب من الناس مغفرة: نقود، ثم ركن آوى إليه والحياة الجديدة بعيداً عن الذكريات الماضية - هذه هي الخطة. ومع ذلك فإن الماضي الكئيب، وسمعة شرفي المنهارة كانا يرهقانني كل ساعة،

Telegram: @Arab_Books

كل دقيقية. ولكنني تزوجت في تلك الآونة. مصادفة أم؟ لست أدري. ولكنني فكرت، وأنا أجيء بها إلى البيت، في أنني أجيء بصديق، فقد كنت بحاجة شديدة إلى صديق. ولكنني رأيب بجلاء أن الصديق يجب أن يُضرّ، يصنع صنعاً، بل ويُغلب غلباً. فهل كان في وسعي أن أوضح شيئاً بتلك العجالة لابنة السادسة عشرة، المتحاملة هذه؟ فمثلاً كيف كان في وسعي أن أقنعها بدون المساعدة العارضة التي قدمتها كارثة المسدس الرهيبة بأنني لست جباناً، وبان اتهامي في الفوج بالجبن ليس منصفاً؟ ولكن الكارثة جاءت في محلها. فقد انتقمت بصمودي أمام المسدس لكل ماضيّ الكالح. رغم أن أحداً لم يعرفف بذلك، إلا أنها عرفت هي، وكان هذا كل شيء بالنسبة لي، لأنها نفسها كانت كل شيء بالنسبة لي، كل أمل مستقبلي في أحلامي! كانت الشخص الوحيد الذي أعددته بنفسي، وما كنت بحاجة إلى شخص آخر، وها هي قد عرفت كل شيء. عرفت، على أقل تقدير، انها تعجلت الانضمام إلى أعدائي عن غير وجه حق. هذه الفكرة تملكت إعجابي. في عينيها ما كان من الممكن أن أكون وغداً الآن، بل إنساناً غريب الأطوار لا غير، ولكن هذه الفكرة، بعد كل الذي حدث لم أعد أكرهه كلياً. غرابة الأطوار ليست رذيلة، بل بالعكس، تجذب الشخصية النسائية أحياناً. باختصار باعدت الخاتمة عن قصد، فإن ما حدث كان كافياً جداً لتهدئتي وكان يستخلص الكثير جداً من المشاهد والمادة لأحلامي. وفي ذلك السماجة، في نني حالم. المادة كافية بالنسبة لي أما هي فلتكتف بما هو كوجود، كما كنت أظن.

وعلى هذا المنوال انقضى الشتاء، في انتظار شيء ما. كنت أحب

Telegram: @Arab_Books

اختلاس النظر إليها، حين كانت تجلس، أحياناً، وراء منضدتها. كانت تمارس عملاً، تشتغل بالبياضات، وفي الأمسيات كانت تطالع أحياناً الكتب التي كانت تأخذها من دولابي. إن اختيار الكتب الموجودة في الدولاب كان يجب أن يكون أيضاً شاهداً لصالحي. لم تكن تخرج تقريباً إلى أي مكان. وقبيل حلول المساء، بعد العشاء، كنت أخرج بها كل يوم للنزهة، كنا نقوم بالتريّض، ولكن ليس بصمت تام، كما من قبل. كنت أجاهد بالذات لنبدو غير صامتين، بل نتكلم بوئام، ولكن، كما قلت سابقاً، عملنا نحن الاثنين على أن لا نفيض في الحديث. كنت أنا أفعل ذلك عن عمد، «لأعطيها الوقت» كما ظننت. ومن الغريب، طبعاً، ألا أفكر ولا مرة واحدة، طوال الشتاء، في أنني أهوى اختلاس النظر إليها، بينما لم التقط أية نظرة موجهة لي طوال الشتاء. فكرت أن ذلك عن استحياء. وبالإضافة إلى ذلك كانت تتخذ هيئة الوادعة المستحية، والعجز والمرض. لا، من الأفضل الانتظار، «وستتقرب إليك نفسها على حين غرة...».

تملكت هذه الفكرة إعجابي بشكل لا يقهر. وأضيف شيئاً واحداً: أحياناً كنت كمن يحرق نفسه متعمداً، وبالفعل أدفع روحي وعقلي إلى حد الاستياء منها، على ما يبدو. واستمرت هذه الحال بعض الوقت. ولكن كراهيتي ما كان من الممكن قط أن تنضج وتستحكم في روحي. نعم، أنا نفسي كنت أشعر بأن ذلك يبدو مجرد لعبة. ولكنني آنذاك ما كان من الممكن أن أرى فيها مجرمة، رغم أنني فسخت الزواج عن طريق اشتراء السرير والحاجز له. وليس ذلك لأنني كنت أنظر إلى جريمتها بعدم اكتراث، بل لأنني كنت أنوي الصفح عنها تماماً، منذ اليوم الأول، حتى قبل أن أشتري السرير.

Telegram: @Arab_Books

وباختصار، هذه غرابة أطوار من جانبي، لأنني صارم خلقياً. بالعكس من ذلك كانت في عينيّ مندحرة، ومهانة، ومسحوقة إلى حد جعلني أشفق عليها بعذاب أحياناً، إلا أن فكرة إهانتها كانت تروق جداً لي أحياناً، رغم كل ذلك. فكرة هذا الفارق بيننا كانت تروق لي.....

في ذلك الشتاء حدث أن قمت ببعض الأعمال الخيّرة متعمداً. عفوت عن ديني وقدمت الفلوس لامرأة مسكينة بدون رهن. و لم أقل، لم أقل شيئاً عن ذلك، وعلى العموم لم أقم بذلك قط لكي تعرف هي، إلا أن المرأة جاءت من تلقاء نفسها لتشكر، وكادت تركع على ركبتيها. وبهذه الطريقة انكشف الأمر، كان يبدو لي أنها ارتاحت، حين عرفت بخصوص المرأة.

ولكن الربيع قد تقدم، وكان نيسان في منتصفه، وأنزلنا النوافذ الشتائية المزدوجة، وصارت الشمس تضيء بأشعتها الساطعة غرفتينا الصامتتين. إلا أن نقاباً كان ينسدل أمامي، ويعمي عقلي. نقاب مشؤوم رهيب! كيف حصل أن سقط كل ذلك من عيني فجأة، وأبصرت فجأة، وأدركت كل شيء. هل كان ذلك مصادفة، أن يكون النهار موقّتاً، وأن تحرق أشعة الشمس الفكرة والحدس في عقلي المتراخي. لا، لم تكن هناك فكرة، ولا حدس. بل نبض هاجس كان من قبل مشلولاً، واهتز وانبعث، وأضاء كل روحي الخاملة، وإبائي الإبليسي. عندها قفزت من مكاني فجأة. نعم، لقد حصل ذلك فجأة وبشكل مباغت. حصل ذلك قبيل المساء، في الساعة الخامسة، بعد الغداء.

Telegram: @Arab_Books

٢

سقط النقاب فجأة

لأقل كلمتين قبل هذا. منذ شهر لاحظت عليها سهوماً غريباً، ليس صمتاً، بل سهوماً. وقد لاحظت هذا أيضاً فجأة. كانت، عندئذ، جالسة إلى عملها، محنية الرأس على الخياطة، فلم تكن ترى أنني أنظر إليها. وفجأة أذهلني أيضاً أنها أضحت نحيفة هزيلة، ووجهها شاحب، وشفتاها مبيضتان. كل ذلك سوية مع سهومها صعقني دفعة واحدة، وبشكل لا حد له. وكنت من قبل قد سمعت سعالاً جافاً خافتاً، في الليالي بشكل خاص، نهضت في الحال، وذهبت لاستدعاء شريدر دون أن أقول لها شيئاً.

جاء شريدر في اليوم التالي. وقد اندهشتْ كثيراً، وراحت تنقل بصرها بيني وبينه.

– ولكنني في صحة.

قالت، وابتسمت ابتسامة مقتضبة غير محددة. لم يفحصها شريدر بشكل جيد (هؤلاء المطببون مهملون أحياناً باستعلاء)، قال لي فقط، في الغرفة المجاورة، إن ذلك من عقابيل المرض، ومن المستحسن السفر إلى البحر مع حلول الربيع، أو الانتقال إلى بيت ريفي خارج المدينة، إذا تعذر السفر. وباختصار لم يقل أكثر من أن فيها ضعفاً، أو شيئاً من هذا القبيل. وحين غادر شريدر قالت لي فجأة، وهي تنظر إليّ تلك النظرة الجدية للغاية:

Telegram: @Arab_Books

– أنا في صحة تامة.

إلا أنها احمرّت بغتة، بعد أن قالت ذلك، من الخجل، في الظاهر. كان ذلك خجلاً، في الظاهر. آها، الآن أفهم: كانت تخجل من أنني، وأنا زوجها، أهتم بها وكأنني ما أزال زوجاً حقيقياً. ولكنني لم أفهم عندئذ، واعتبرت الاحمرار وداعة (نقاب!).

وبعد شهر من هذا، في الساعة الخامسة، في نيسان، في يوم مشمس ساطع، كنت جالساً قرب الخزنة، أسجل الحسابات. وفجأة أسمعها.....تغني.....بخفوت.....في غرفتنا، وهي وراء الطاولة، أثناء العمل. هذه البدعة الجديدة خلّفت في نفسي انطباعاً عاصفاً، وأنا لحد الآن لا أفهمه. حتى ذلك الحين لم أسمعها مغنية، على الإطلاق تقريباً، إلا في الأيام الأولى، حين جئت بها إلى البيت، وحين ما زلنا نستطيع أن نمرح ونعبث، ونحن نطلق النار من المسدس إلى الهدف. آنذاك كان صوتها ما يزال قوياً رناناً بما فيه الكفاية، ولو أنه متعكر، ولكنه لطيف بشكل رائع، وينم عن صحة. أما الآن، فقد كانت الأغنية هزيلة جداً، وليست شجية (كانت أغنية عاطفية)، ولكن بدا وكأن في الصوت شيئاً مثلوماً محطماً، كأن الصوت لا يستطيع أن يستقيم، كأن الأغنية نفسها سقيمة. كانت تغني بصوت خافت، وفجأة استقام الصوت، وانقطع في الحال، ذلك الصوت الخافت المسكين انقطع بشكل يرثى له. سعلت ما في صدرها، وعادت تغني بهدوء هادئ، قطرة قطرة...

الناس تضحك من انفعالاتي، ولكن لا أحد يفهم أبداً لماذا كنت أنفعل! لا، إن ذلك لم يكن يعد رثاء لها، بل شيئاً آخر مختلفاً تماماً. في

Telegram: @Arab_Books

البداية، في الدقائق الأولى، على الأقل، نشأت حيرة فجأة، واندهاش رهيب، رهيب وغريب ومعتل، وانتقامي تقريباً: « تغني في وجودي أيضاً! فهل نسيتني؟»».

بقيت في مكاني مصعوقاً كلياً، ثم نهضت فجأة، وتناولت قبعتي، وخرجت، وكأنني لا أعي. على الأقل لا أعرف لماذا وإلى أين. أخذت لوكيريا تلبسني المعطف.

- إنها تغني؟

قلت للوكيريا بدون إرادتي. لم تفهم هذه، ونظرت إليّ وهي ماضية في عدم فهمها. بالمنابة كنت غير مفهوم بالفعل.

-إنها تغني لأول مرة؟

- لا، تغني في غيابك أحياناً. - ردّت لوكيريا. وأتذكر كل شيء. هبطت السلم، وخرجت إلى الشارع، وسرت إلى حيث لا أدري. وصلت إلى العطفة، وأخذت أنظر إلى هناك. كان الناس يمرون، ويدفعونني، و لم أشعر بذلك. ناديت على حوذى، واستأجرته ليذهب بي إلى جسر بوليتسيسكي لسبب لا أعرفه. ولكنني عدلت فجأة، وأعطيته عشرين كوبيكا.

- هذه لأنني أزعجتك.

قلت ضاحكاً بلا معنى، ولكن بهجة أطلت على قلبي فجأة.

عدت إلى بيتي، مسرعاً خطاي. ولكن النغم المثلوم البائس، الذي

Telegram: @Arab_Books

انقطع عاد يرن في روحي ثانية. احتبست أنفاسي. لقد سقط، سقط النقاب من عيني. فإذا كانت قد غنت بحضوري، فقد نسيتني، — هذا ما كان واضحاً ورهيباً. هذا ما شعر به قلبي. ولكن الغبطة ظلت تشع في روحي، وتتغلب على الرعب.

إيه، يا سخرية القدر! لم يكن في نفسي غير هذه الغبطة، وما كان من الممكن أن يكون، طوال الشتاء، ولكن أنا نفسي، أين كنت طوال الشتاء؟ هل كنت مع نفسي؟ ركضت على السلم بسرعة شديدة، ودخلت ربما على استحياء. أتذكر فقط أن الأرض كلها بدت وكأنها تتماوج، وأنا كمن يعوم على نهر. دخلت إلى الحجرة، وكانت هي جالسة في مكانها السابق، تخيط، حانية رأسها، ولكنها كفت عن الغناء. ألقت عليّ نظرة سريعة ولا اهتمام فيها، ولكنها لم تكن نظرة، بل لمحة، اعتيادية وغير مكترثة، حين يدخل أحد الغرفة.

تقدمت منها رأساً، وجلست على كرسي لصقها، كالمخبول. نظرت إليّ بسرعة، كالمذعورة، تناولت يدها، ولا أتذكر ما قلت لها، أقصد ما أردت أن أقول، لأنني لم أستطع حتى أن أتكلم بشكل صحيح. تقطع صوتي، ولم يُسمع. ثم إنني لم أكن أعرف ماذا أقول، فلهثت أنفاسي لا غير.

— لنتحدث.....تعرفين.....قولي شيئاً! — فجأة تأتأت بشيء أبله. أوه، هل كنت فارغاً لذلك؟ ارتعدت مرة أخرى، وتراجعت في فزع شديد، وهي تتطلع إلى وجهي، ولكن اندهاشاً صارماً تراءى في عينيها فجأة. أجل، اندهاش، وصارم أيضاً. تطلعت إليّ

بعينيها الوسيعتين. إن تلك الصرامة، ذلك الاندهاش الصارم، قد هشماني تماماً. «ما تزال تريد حباً؟ حباً؟». كأن هذا الاندهاش كان ينطق بذلك، رغم أنها كانت صامتة. ولكن كنت أقرأ كل شيء، كل شيء. اهتزّ كل شيء فيّ، فتهاويت على قدميها. أجل، سقطت على قدميها. وثبت بسلرعة، ولكنني أمسكتها من كلتا يديها بقوة خارقة.

كنت أعي كل يأسي تماماً. نعم، أعيه! ولكن هل تصدقونني لو قلت لكم أن الغبطة كانت تتأجج في قلبي بشكل لا يكبح، حتى ظننت أنني سأموت. قبّلت قدميها في نشوة وسعادة. أجل، في سعادة لا حدّ لها ولا نهاية، وذلك مع إدراكي لكامل يأسي الخالي من كل رجاء! كنت أبكي، وأقول شيئاً، ولكن لم أكن قادراً على أن أقول. وانزاح الذعر والاندهاش ليحل محله تفكير مفهوم، وتساؤل فوق العادة، فنظرت إليّ بغرابة، بل وبوحشية، أرادت أن تفهم شيئاً بأقرب وقت، وابتسمت. أحست بخجل مريع من تقبيلي لقدميها، فأبعدتهما عني، ولكنني عدت فقبلت الأرض التي كانت قدمها تقف عليها. رأت ذلك، وراحت تضحك فجأة من الخجل (تعرفون حين يضحك الناس من الخجل). وجاءت الهستيريا، وقد رأيتها، كانت يداها ترتعشان، و لم أفكر في ذلك، وظللت أتمتم لها أنني أحبها، وأنني لن أنهض «دعيني أقبل ثوبك....فسأصلي لك طول عمري...». لا أعرف، لا أتذكر، فجأة أخذت تعول، وتهتز، وحلت نوبة الهستيريا الرهيبة. لقد أفزعتها.

نقلتها إلى السرير. وحين انتهت النوبة، جلست على السرير،

Telegram: @Arab_Books

وأمسكت يديّ بهيئة منْ أضني كلياً، ورجتني أن أهدأ. «كفاك، لا تعذب نفسك، اهدأ!». وطفقت تبكي مرة أخرى. لم أبتعد عنها طوال ذلك المساء. ظللت أقول لها سأسافر معها إلى بولون[١٠٦] لتستحم في البحر، سنسافر حالاً، خلال أسبوعين، وإن لها صوتاً مثلوماً، سمعته قبل حين، وإنني سأغلق المكتب، أبيعه لدوبرونرافوف، وأبدأ كل شيء من جديد، والأهم السفر إلى بولون، بولون! استمعت، وظلت على خوفها! وظل خوفها يزداد أكثر فأكثر. ولكن ليس هذا المهم بالنسبة لي، بل رغبتي التي كانت تزداد شدة وتشبثاً في أن أتمدد مرة أخرى عند قدميها، وأقبل مرة أخرى، أقبل الأرض التي تقف عليها قدماها، وأصلي لها «ولا أرجو منك شيئاً آخر - كنت أكرر كل لحظة - لا تردى عليّ بشيء، ولا تلتفتي إليّ مطلقاً، دعيني فقط أن أنظر إليك من زاوية، واجعليني شيئاً لك، كلباً صغيراً...». كانت تبكي.

- ظننت أنك ستتركني على حالي! - أفلت منها فجأة دون إرادتها، حتى لمن الممكن ألا تكون قد فطنت إلى ما قالته، وفي نفس الوقت كان هذا، بالنسبة لي، أهمّ وأنحس كلمة لها، أكثرها فهماً، بالنسبة لي، في ذلك المساء، وكأنما طعنت قلبي بسكين! شرحت لي هذه الجملة كل شيء، كل شيء، ولكن الوديعة طوال ما كانت بالقرب مني، أمام بصري، كنت آمل بشكل لا يكبح، وكنت سعيداً إلى حد رهيب. آه، لقد أضنيتها بفظاعة في ذلك المساء،

---

١٠٦. بولون سور مير: ميناء فرنسي على ساحل المانش مشهور أيضاً كمنتجع بحري. كان دوستويفسكي فيه حزيران - تموز ١٨٦٢ في طريقه إلى إنجلترا والعودة منها، وبهذا تفسر إشارته إلى بولون في "الوديعة". الناشر.

Telegram: @Arab_Books

وكنت أفهم ذلك، ولكن كنت أفكر بلا انقطاع في أنني سأغير كل شيء في هذه اللحظة. وأخيراً، ومع قدوم الليل، خارت قواها تماماً، فأقنعتها بأن تغفو، وغفت في الحال في نوم عميق. انتظرت هذياناً، وقد كان بالفعل، ولكنه أخف هذيان. كنت أنهض في الليل كل دقيقة تقريباً، وأتقدم منها بحذر وفي خفّي البيتي لأنظر إليها. تفجعت عليها، وأنا أنظر إليها، إلى هذه المخلوقة العليلة على السرير البائس، الحديدي، الذي كنت قد اشتريته في حينه بثلاثة روبلات. ركعت على ركبتي، ولكن لم أجرؤ على تقبيل قدميها، وهي نائمة (دون رغبتها!). كنت أركع لأصلي للرب، ثم أعود فأثب من جديد. وكانت لوكيريا تتطلّع إليّ، وتخرج من المطبخ طوال الوقت. خرجت إليها، وقلت لها أن تأوي إلى فراشها، وفي الغد سنبدأ «بشيء مختلف تماماً».

وكنت أؤمن بذلك بعمى وجنزن وشراهة. آه، كانت الغبطة، الغبطة تغمرني: كنت أنتظر يوم غد فقط. والشيء الرئيسي أنني لم أكن أصدق بأية فاجعة ستحل، رغم أعراضها. لم يكن الإدراك قد عاد إليّ كلياً، رغك سقوط النقاب، وظل غائباً وقتاً طويلاً جداً، أوه، حتى اليوم، حتى اليوم ذاته!! ثم كيف كان يمكن أن يعود آنذاك. فقد كانت ما تزال حيّة، وكانت هنا، أمامي، وأنا أمامها: «ستستيقظ غداً، وسأقول لها كل ذلك، وتدرك كل ذلك». ذلك هو تفكيري، آنذاك، ببساطة ووضوح، ومن هنا جاءت الغبطة! والشيء الرئيسي هنا، هو الرحلة إلى بولون. لا أدري لماذا كنت أظن أن بولون هي كل شيء، وفي بولون يتركز كل شيء. «إلى بولون، إلى بولون!» وانتظرت الصباح بجنون.

٣

لفهم الغاية

ولكن كل هذا كان قبل بضعة فقط، خمسة أيام، قبل خمسة أيام فقط. في يوم الثلاثاء الماضي! أوه، لو كانت هناك فسحة قليلة أخرى من الوقت، لو كانت قد انتظرت هنيهة، لبددت الغمة! ألم تهدأ حقاً؟ في اليوم التالي استمعت إليّ مبتسمة، رغم ارتباكها.... المهم أن الارتباك أو الخجل كانا طوال تلك المدة، طوال الخمسة أيام. كانت خائفة أيضاً، خائفة كثيراً. أنا لن أجادل، لن أعترض كالمعتوه: لقد كان رعباً، ولكن كيف كان يمكن ألا تخاف؟ ذلك لأننا صرنا غريبين منذ زمان، انفصم أحدنا عن الآخر، وفجأة يحدث كل هذا.... ولكنني لم ألتفت إلى رعبها. كان شيء جديد يشع!.... الحقيقة، الحقيقة التي لا يعتريها الشك، أنني ارتكبت خطأ. بل ولربما أخطاء كثيرة. حالما استيقظت في اليوم التالي، حتى منذ الصباح (كان ذلك في يوم الأربعاء) أقدمت على خطأ، على الفور. جعلتها صديقتي فجأة. استعجلت، جداً، جداً، ولكن الاعتراف كان لازماً، ضرورياً. بل أكثر من الاعتراف! بل لم أخف حتى ما كنت أخفيه عن نفسي طوال حياتي. أعلنت بصراحة أنني طوال الشتاء لم أكف قط عن الوثوق بأنها تحبني. أوضحت لها أن مكتب الرهونات لم يكن إلا سقوط إرادتي وعقلي وفكرتي الشخصية عن إيلام النفس وإطراء الذات. وأفهمتها أنني في حادثة المشرب قد جبنت بالفعل، من جراء طبعي، من جراء الوسوسة. بهرني الموقف،

Telegram: @Arab_Books

بهرني المشرب، بهرني كيف أخرج بغتة، وهل سيبدو ذلك حماقة... وفيما بعد لم أرد أن أعترف، وعذّبت الجميع، وعذبتها هي أيضاً بذلك، وتزوجتها، لأعذبها بذلك. وبشكل عام كنت أتحدث معظم الوقت وكأنني في هذيان حمى. هي التي أمسكت يدي، ورجتني أن أكف: « أنت تبالغ....أنت تعذب نفسك» ومرة أخرى بدأت الدموع، ومرة أخرى أوشكت نوبة أن تحل!

كانت ترجوني طوال الوقت ألا أتحدث ولا أتذكر شيئاً من هذا.

لم أنظر إلى رجائها، أو قلّ ما نظرت إليه: الربيع، بولون! وهناك الشمس، هناك شمسنا الجديدة. كنت لا أتحدث إلا في هذا! أغلقت مكتب الرهوناتا، وسلّمت الأمر إلى دوبرونرافوف. واقترحت عليها، فجأة، بأن نوزع كل شيء للمساكين، ما عدا الآلاف الثلاثة التي حصلت عليها من أمي بالمعمودية، والتي كان من الممكن أن نسافر لها إلى بولون، نعود بعد ذلك، ونبدأ حياة عمل جديدة. وهذا ما عزمنا عليه، لأنها لم تقل شيئاً....ابتسمت فقط. ويبدو أنها ابتسمت مجاملة، بالأحرى، حتى لا تغمني. فقد رأيتها متضايقة مني، ولا تظنوا أنني من البلاهة والأنانية بحيث لم أر هذا الضيق عليها. كنت أرى كل شيء، كل شيء حتى آخر الدقائق، كنت أرى وأعرف أحسن من الجميع. لقد كانت كل استماتتي ظاهرة للعيان!

حكيت لها كل شيء عني وعنها. وعن لوكيريا أيضاً. كنت أقول لها أنني بكيت....آوه، كنت أحوّر بالكلام، بل وأجاهد أن أتحاشى كلياً ذكر بعض الأشياء. بل وانتعشت، مرة أو مرتين، أنا أتذكر، أتذكر!

Telegram: @Arab_Books

لماذا تقولون كنت تنظر، ولا ترى شيئاً؟ ولو لم يحدث هذا، لبُعث كل شيء حياً. ذلك لأنها كانت تحكي لي، منذ يومين، حين تطرق الحديث إلى المطالعة، وإلى ما قرأته في ذلك الشتاء، كانت تحكي، وتضحك، حين تذكرت ذلك المشهد حين يلتقي جيل بلاز مع رئيس أساقفة غرناطة[١٠٧]. وأي ضحك طفولي عذب، مثل ضحكها من قبل عندما كانت عروساً، (لمحة! لمحة!) وكم كنت مسروراً! بهرني ذلك بشكل فظيع، وبخصوص رئيس الأساقفة، بالمناسبة. يعني كان لها من طمأنينة النفس والسعادة، بحيث استطاعت أن تضحك من هذه الدُرة، حين كانت جالسة في الشتاء. يعني أخذت تهدأ تماماً، وأخذت تصدق تماماً، بأنني تركتها على حالها...« ظننت أنك ستتركني ملى حالي». هذا ما نطقت به آنذاك، يوم الثلاثاء! أوه، إنه تفكير بنت في العاشرة! كانت تصدق، تصدق، بأن كل شيء سيبقى على حاله حقاً: هي وراء منضدتها، وأنا وراء منضدتي، وكلانا على هذه الحال، حتى سن الستين. وفجأة أدنو منها، أنا الزوج، والزوج بحاجة إلى حب! آه، يا للالتباس، يا لعماي!

كان خطأ أيضاً أن أنظر إليها بغبطة، بل كان يجب أن أضبط مشاعري، وإلا فإن الغبطة قد أرعبتها. ولكنني قد ضبطت مشاعري، بالفعل، فلم أقبل قدميها مرة أخرى. لم أُبدِ أية إشارة إلى أنني....طيب، إلى أنني زوج،، آه، لم يكن ذلك في ذهني، كنت أصلي فقط! ولكن كان من المستحيل السكوت تماماً، من

---

١٠٧. من رواية الكاتب الفرنسي أ. د. ليساج (١٦٦٨ – ١٧٤٧) " تاريخ جيل بلاز دو سانت ليان "، وكان دوستويفسكي يقدرها كثيراً. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

المستحيل الكف تماماً عن الكلام! أعلنت لها فجأة أنني أتلذذ بحديثها، وأعتبرها أثقف وأكثر تطوراً مني بما لا يقاس، بما لا يقاس. احمرّت كثيراً، وارتبكت، وقالت: أنت تبالغ. وهنا، لحماقتي، لم أضبط نفسي، وقلت لها كم كنت مغتبطاً، وأنا أستمع إلى مبارزتها، حين كنت واقفاً وراء الباب، مبارزة البريئة مع تلك البهيمة، وكيف تلذذت بعقلها، ولمعان بديهيتها، إلى جانب تلك البساطة الطفولية. وبدا وكأنها ارتعدت بكل كيانها، وتأتأت مرة أخرى بأنني أبالغ، ولكن وجهها كله قد اربدّ فجأة، فغطته بيديها، وأجهشت باكية.....وهنا لم أتحمل. ارتميت مرة أخرى أمامها، وأخذت مرة أخرى أقبّل قدميها، ومرة أخرى انتهى ذلك بنوبة، كتلك التي كانت يوم الثلاثاء. حدث ذلك يوم أمس، مساء، وفي صباح اليوم التالي...

صباح اليوم التالي؟! معتوه، هذا الصباح كان اليوم، قبل حين، قبل حين فقط!

اسمعوا، واستوعبوا: حين نزلنا، قبل حين، إلى السماور (هذا بعد نوبة يوم أمس) بهرتني، هي نفسها، بهدوئها، هذا ما حصل! بينما كنت أنا، طوال الليل، أرتعد من الفزع على ما حدث بالأمس. ولكنها تقترب مني فجأة، وتقف قبالتي تماماً، وتطوي ذراعيها (قبل حين، قبل حين!) فتقول لي أنها مجرمة، وأنها تعرف ذاك، وأن جريمتها عذبتها طوال الشتاء، وتعذبها الآن أيضاً.....وأنها تقدر كثيراً شهامتي......«سأكون زوجتك الوفية، سأحترمك...». وهنا وثبت من مكاني، وطوقتها كالمجنون! قبلتها، قبلت وجهها،

Telegram: @Arab_Books

وشفتيها، كما يفعل الزوج، لأول مرة، بعد فراق طويل. وبعد ذلك، قبل حين فقط، خرجت، لساعتين لا غير....جوازا سفرنا...أوه، يا ربي! فقط لو رجعت قبل خمس دقائق، قبل خمس دقائق، قبل خمس دقائق لا أكثر؟.....وهذا الحشد عند بابنا الخارجي، تلك النظرات نحوي....

أوه، يا إلهي! تقول لوكيريا (لن أترك لوكيريا الآن مهما كلف الأمر، فهي تعرف كل شيء، كانت معنا طوال الشتاء، وستقص عليّ كل شيء) تقول عندما خرجت أنا من البيت، وقبل مجيئي بحوالي عشرين دقيقة، دخلت هي فجأة غرفة السيدة، غرفتنا، لتطلب شيئاً، لا أتذكر، فرأت أيقونتها (نفس أيقونة العذراء تلك) قد أُخرجت من مكانها، وهي أمامها على الطاولة، وبدت السيدة، وكأنها قد فرغت من الصلاة لتوها. قالت لوكيريا: «ماذا بك، يا سيدتي؟» - «لا شيء، يا لوكيريا، أخرجي، قفي، لوكيريا». دنت منها وقبلتها. وقالت لها لوكيريا: «هل أنت سعيدة، يا سيدتي؟» - «نعم، يا لوكيريا». - «كان على السيد أن يأتي إليك، منذ زمان، ليسألك الصفح، يا سيدتي... حمداً للرب، على أنكما تصالحتما». فتقول: «طيب، يا لوكيريا، اذهبي،لوكيريا». وابتسمت بشكل، بشكل فيه غرابة شديدة، حتى أن لوكيريا عادت بعد زهاء عشر دقائق، لتتفقدها: «إنها تقف قرب الحائط، عند النافذة تماماً، وقد وضعتْ يدها على الحائط، وألقت على يدها رأسها، وتقف على هذا النحو تفكر. تقف مستغرقة بالتفكير، حتى أنها لم تفطن إليّ وأنا أقف وأنظر إليها من تلك الغرفة. وأرى وكأنها تبتسم، تقف

Telegram: @Arab_Books

مفكرة تبتسم. نظرت إليها، واستدارت بهدوء، وخرجت، وأنا أفكر مع نفسي، وإذا بي أسمع فجأة: فتحوا النافذة. ذهبت في الحال لأقول: «برودة، يا سيدتي، أخشى أن تصابي ببرد». وإذا بي أراها واقفة على النافذة، بكل قامتها، والنافذة مفتوحة، وظهرها إليّ، والإيقونة في يدها. وهنا هبط قلبي، وأصرخ: «سيدتي، سيدتي!» سمعت صوتي، وتحركت لتستدير نحوي، ولكنها لم تستدر، ضاغطة الأيقونة إلى صدرها و رمت نفسها من النافذة أتذكر فقط أنني حين دخلت الباب الخارجي، كانت ما تزال دافئة، والشيء المهم أنهم جميعاً ينظرون إليّ. في بادئ الأمر صاح الناس، ثم سكتوا فجأة، وإذا بهم يتنحون أمامي و...وهي منطرحة ومعها الأيقونة. أتذكر، بشكل مبهم، كيف دنوت منها صامتاً، ونظرت اليها طويلاً، والناس التفوا حولي، ويقولون شيئاً.لوكيريا كانت هنا، ولكنني لم أرها. وتقول الآن انها كانت تتكلم معي. أتذكر فقط ذلك الرجل من أهل المدينة. ظل يصرخ «حفنة من الدم خرجت من حلقها، حفنة، حفنة!......» وأراني الدم على الحجر. يظهر أنني مسست الدم بإصبعي، فتلطخت إصبعي، وأعاين الإصبع (أتذكر هذا)، بينما الرجل ما يزال يصرخ «حفنة، حفنة!»

ولكن ما هذه الحفنة؟

زعقت به بكل قوتي، ويقال أنني رفعت يديّ وارتميت عليه...

أوه، وحشية، وحشية! التباس! شيء لا يشبه الحقيقة! شيء مستحيل!

Telegram: @Arab_Books

٤

لم أتأخر غير خمس دقائق

أليس كذلك حقاً؟ أهذا ما يشبه الحقيقة حقاً؟ وهل في الإمكان حقاً القول بأن ذلك ممكن؟ لماذا، لأي شيء ماتت هذه المرأة؟

أوه، صدقوني، أنا أفهم. ولكن لأي شيء ماتت. ذلك سؤال، على أية حال. فزعت من حبي، وساءلت نفسها عن جد: هل تتقبل أم لا تتقبل. و لم تتحمل السؤال، وفضلت أن تموت. أعرف، ولا حاجة إلى دواخ الرأس: أغدقت الوعود كثيرة، وفزعت من أنها لا تستطيع الوفاء بها. ذلك واضح. هنا بعض الظروف المريعة للغاية.

فلأي شيء ماتت، إذن؟ ما يزال السال قائماً، على أية حال. السؤال يدق، السؤال يدق في دماغي. كان من الممكن أن أتركها على حالها، إذا كانت راغبة في أن تبقى على حالها. و لم تكن تصدق بذلك. تلك هي المسألة! لا، لا، أنا أكذب. ليست هذه المسألة على الإطلاق. بل لمجرد أنها كان يجب أن تحبني بنزاهة، أن تحبني تمام الحب، لا كما لو كانت ستحب التاجر. ولما كانت أطهر وأنقى من أن توافق على مثل هذا الحب الذي يجب أن يوهب للتاجر لم ترد أن تخدعني. لم ترد أن تخدعني بنصف حب، بربع حب، وبدعوى أنه حب. فيا لنزاهتها هذه! أردت أن أغرس في نفسها رحابة القلب. هل تذكرون؟ تفكير غريب

إني لأتعجب كثيراً: هل كانت تحترمني؟ لا أدري، هل كانت

Telegram: @Arab_Books

تحترمني؟ لا أدري، هل كانت تحتقرني أم لا؟ لا أظن أنها كانت تحتقرني. عجيب جداً لماذا لم يخطر في بالي مرة واحدة، وخلال الشتاء كله، أنها تحتقرني؟ كنت على درجة عالية من الثقة بعكس ذلك، حتى لحظة إن رمقتني باندهاش صارم. وصارم بالذات. عندها أدركت في الحال أنها تحتقرني. أدركت إلى الأبد، وبلا نقض! آه، لا بأس لو احتقرتني، ولو العمر كله، ولكن كان يجب أن تعيش، أن تعيش! قبل حين كانت تمشي، وتتكلم. لا أفهم أبداً كيف رمت نفسها من النافذة! وماذا كان في وسعي أن أتصور حتى قبل خمس دقائق؟ استدعيت لوكيريا. الآن لن أترك لوكيريا مهما حدث من شيء، مهما حدث!

آه، كان في إمكاننا أن نتفاهم أيضاً. مجرد أن أحدنا فقدَ التعود على الآخر بشكل مريع، خلال الشتاء، ولكن هل كان من غير الممكن حقاً التعوّد من جديد؟ لماذا، لماذا ما كان في ميسورنا أن نجمع الشمل، ونبدأ حياة جديدة مرة أخرى؟ أنا أريحي، وهي أيضاً، وهذه نقطة التقاء! بضع كلمات أخرى ويومان لا أكثر ومن الممكن أن تفهم كل شيء.

المهم، والمغيظ أن كل هذا مصادفة بسيطة وهمجية ومبتذلة. تلك هي الإغاظة! لم أتاخر غير خمس دقائق، غير خمس دقائق. فلو جئت قبل خمس دقائق، مرّت اللحظة عابرة، مثل غيمة، ولما خطرت قط على بالها فيما بعد. ولانتهت بأن فهمت كل شيء. أما الآن، فالغرفتان خاليتان مرة أخرى، وأنا وحيد مرة أخرى. هذا بندول الساعة يدق، ولا يكترث لشيء، ولا يشفق على شيء. لا أحد هنا. ذلك هو المغيظ في الأمر!

Telegram: @Arab_Books

أتمشى، وأتمشى. أنا أعرف، أعرف، ولا حاجة إلى تلقيني. يضحكككم أنني أتشكى من المصادفة، ومن الدقائق الخمس؟ ولكن هذا هو الوضوح بعينه! فكروا في شيء واحد، وهو انها لم تترك حتى مذكرة، كأن تقول: «لا أتهم أحداً في موتي» مثلما يترك الجميع. من غير المعقول أنها لم تستطع أن تفكر في أن من المحتمل أن يزعجوا حتى لو ككيريا. كأن يقولوا: «كنت وحدك معها، فأنت التي دفعتها إذن». ولراحوا وجاؤوا بها، على أقل تقدير، ولدون ذنب، لو لم ير أربعة أشخاص من نافذة في الملحق ومن الفناء كيف كانت واقفة، والأيقونة في يدها، وكيف ألقت بنفسها دون تدخل أحد. ولكن ذلك أيضاً مصادفة، أن يكون ثمة أناس واقفون، فيروا الحادث. لا، إن هذا كله برهة، مجرد برهة فالتة. مباغتة وفنطازيا! ماذا تعني الصلاة قدام أيقونة؟ لا يعني ذلك الشعور بدنو الموت. كل هذا لم يستمر إلا برهة، ربما لا أكثر من عشر دقائق أو نحوها، وكل شيء قد تقرر، بالذات، حين كانت واقفة قرب الجدار، وقد ألقت رأسها على يدها، وراحت تبتسم. خطرت فكرة في رأسها، ودارت، ولم تستطع الصمود أمامها.

هذا التباس واضح، ولكم أن تفكروا ما تفكرون فيه. كان من الممكن أن تعيش معي فترة أخرى. وماذا لو كان ذلك فقر الدم؟ من مجرد فقر الدم، من نفاد الطاقة على الحياة؟ أنهكت في الشتاء، هذا هو.....

تأخرت!!!

ما أنحفها، وهي في التابوت، وكم تدبب أنفها! ورموشها تستقر

Telegram: @Arab_Books

كالسهام. سقطت دون أن تكسر شيئاً، ولا تحطم شيئاً! ليس سوى تلك «الحفنة من الدم»، يعني ملعقة متوسطة. ارتجاج داخلي. فكرة غريبة، ماذا لو كان في الإمكان عدم دفنها؟ لأنه، حين سيحملونها، عندئذ... لا، من المستحيل تقريباً أن يحملوها. آه، أنا أعرف لا بد أن يحملوهـا، وأنا لست مجنوناً، ولا أهذي على الإطلاق، بل بالعكس، لم يتألق عقلي هذا التألق قط، ولكن كيف أن يخلو البيت من إنسان، وتعود الغرفتان، كما كانتا، وأنا وحدي مع الرهونات. هذيان، هذيان، هذا هو الهذيان! أنهكتها، تلك هي المسألة!

ما حاجتي إلى قوانينكم؟ ما شأني بعاداتكم، وأخلاقياتكم، وحياتكم، ودولتكم، ومعتقدكم؟ ليحاكمني قاضيكم، ليقدموني إلى المحكمة، إلى محكمتكم العلنية، وسأعلن بأنني لن أعترف بأي شيء. وسيصرخ القاضي «أسكت، أيها الضابط!» وسأصرخ به: «من أين لك الآن القوة على الانصياع إليها؟ ولماذا حطم الجمود الظلامي أعز شيء؟ وما حاجتي الآن بقوانينكم؟ سأنقطع». أواه، كل شيء سواء لديّ!

عمياء، عمياء! ميتة لا تسمع! أنت لا تعرفين بأي جنة كنت سأحجزك. والجنة كانت في روحي، كنت سأغرزها حولك! ولكن ما كنت ستحبينني، وليكن، فما العمل؟ كل شيء سيكون عندئذ على حاله، كل شيء سيبقى على حاله. وعندئذ ستقصين لي كصديق، وسنبتهج ونضحك، وأحدنا ينظر في عيني الآخر فرحاً. ولعشنا بهذا الشكل. ولو كنت ستحبين شخصاً آخر، وليكن، وليكن. عندئذ يمكنك أن تسيري معه، ولنظرت أنا إليكما من الجانب الآخر من الشارع...

Telegram: @Arab_Books

أوه، ليكن كل شيء، فقط أن تفتحي عينيك ولو مرة واحدة! لمحة واحــدة، لمحة واحــدة فقط! ترمقينني فيها، مثلمــا رمقتني قبل حين، حين كنت واقفة أمامي، وأنت تقسمين على أن تبقى زوجة وفية!

أوه، من نظرة واحدة كنت ستفهمين كل شيء!

الجمــود! أوه، أيتها الطبيعة! الناس وحيــدون على الأرض. ذلك هــو المغيظ في الأمــر. ويصرخ العملاق الروسي «هــل من إنسان حيّ في الميدان؟». وأصرخ أنا أيضاً، لا العملاق، ولا أحد يلتفت. يقولون الشمــس تحيي الكــون. وحين تطلع الشمس انظروا إليهــا: أحقاً إنها ليست ميتة؟ كل شيء ميت، والأموات في كل مكان. الناس وحدهم فقط، وحولهم صمت.

تلــك هي الأرض! «أيهــا الناس، أحبوا بعضكــم بعضاً». من قال هذا؟ نصيحة منْ هذه؟ البندول يدق دون مشاركة وجدانية، وبشكل مكــروه، الساعةَ الثانية ليــلاً. وحذاؤها الصغير عند السرير، وكأنه في انتظارها... لا، عن جد، حين سيحملونها غداً ماذا سأكون؟

Telegram: @Arab_Books

حلم رجل مضحك

قصة خيالية

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

١

أنـا رجل مضحك. والآن يسمونني بالمجنون. ولو لم أظل عندهم مضحـكاً، كما كنت من قبـل، لكان في ذلك ترقيـة في الوظيفة. إلا أننـي لم أعد أغضب الآن. هـم الآن جميعاً لطفاء عندي، وحتى حين يضحكون مني أحس بلطفهم أكثر لسبب ما، وكنت سأضحك معهم أنـا أيضاً، لا من نفسي، بل حبـاً بهم، لولا الكآبة التي أحس بها، وأنا أنظـر إليهم. الكآبة لأنهم لا يعرفون الحقيقـة، بينما أنا أعرفها. آه، ما أقسـى أن تعـرف الحقيقة لوحدك! ولكنهـم لا يفهمون ذلك، لا، لا يفهمونه.

من قبل كنت أغتم كثـيراً لأنني كنت أبدو مضحكاً. لم أكن أبدو، بـل كنت كذلـك. كنت دائماً مضحـكاً، وأنا أعـرف ذلك، ربما من ساعـة مولدي. ولعلي منذ سبع سنوات عرفت أنني مضحك.ومن ثم درسـت في المدرسـة، وبعدها في الجامعة. والحق يقـال كلما درست أكـثر، ازددت علمـاً بأنني مضحـك. حتى أن كل علمـي الجامعي، بالنسبة لي، ما كان يتكون أخيراً وبمقدار تعمقي فيه، إلا ليثبت ويوضح لي بأننـي مضحـك. وجـرى الأمر في الحيـاة، كما جـرى في العلم. وبمرور الأعوام كان ينمـو ويترسخ في نفسي الوعي ذاته بأن مظهري مضحـك من جميع النواحي. الجميـع كانو يضحكون مني، وفي كل الأوقـات. ولكـن لا أحد منهم كان يعرف ولا يحدس بأنه، إذا كان هنـاك شخص في الدنيا يعرف أكثر من غيره بأنني مضحك، فإن ذلك ـ

Telegram: @Arab_Books

الشخص هو أنا. والذي كان يكدرني أكثر من أي شيء آخر هو أنهم لا يعرفون ذلك. غير أن اللوم يقع عليّ في هذا. فقد كنت أنوفا دائماً، لم أرغب قط، وفي كل الأحوال، أن اعترف بذلك لأحد. ونمت هذه الأنفة في بمرور السنين. ولو حدث أن أبحث لنفسي الأعتراف أمام أي شخص كان، بأنني مضحك، لهشمت راسي بالمسدس، في نفس ذلك المساء. آه، كم عانيت في مراهقتي وأنا أخاف من أن ينفد صبري ذات مرة، فأجد نفسي أعترف لرفاقي، على نحو ما، ولكن منذ أن صرت شاباً، ورغم ازدياد وعيي عاماً بعد عام بصفتي الفظيعة، إلا أنني أضحيت، لسبب ما، أكثر اطمئناناً بعض الشيء. وأقول لسبب ما بالذات، لأنني لحد الآن لا أستطيع تحديد السبب. ربما لأن ضيقاً رهيباً كان ينمو في نفسي، لظرف كان أعلى مني كلية وبلا حدود. وأقصد بذلك اعتقاداً تلبسني وهو أن كل شيء سواء أينما كان في الدنيا. وكنت أتوجس ذلك كثيراً منذ زمان، ولكن اعتقادي التام به ظهر على نحو مفاجئ في العام الأخير. فجأة أخذت أحس بأنه سواء لديّ أكان العالم موجوداً أو غير موجود، أو إذا لم يكن أي شيء في أي مكان. فقد صرت ألمس وأشعر بكل كياني بأنه لم يكن أي شيء حولي. في بادئ الأمر كنت أتصور دائماً بأنه كان هنام الكثير من قبل، على أية حال، ولكنني حدست فيما بعد بأنه من قبل أيضاً لم يكن ثمة أي شيء، بل كان ذلك مجرد تصور لسبب ما. وشيئاً فشيئاً أيقنت بأنه لن يكون هناك شيء أبداً. وعندئذ كففت فجأة عن أن أغضب على الناس، وصرت تقريباً لا ألحظهم. حقاً إن ذلك كان يظهر حتى في أبسط التوافه. فقد كان يحدث، مثلاً، أن أكون مستطرقاً في شارع، فأصطدم بأناس. وليس ذلك عن استغراق في تفكير، إذ لم يكن لي ما أفكر فيه. آنذاك كففت عن التفكير تماماً فقد كان كل شيء سواء لدي.

Telegram: @Arab_Books

حبــذا لو كنت أحــل مسائل، أف لم أحل مسألة واحــدة، وما أكثرها عددا؟ ولكن صار كل شيء سواء لديّ. والمسائل كانت تنأى وتنأى.

حسناً، وبعد هذا عرفــت الحقيقة. عرفت الحقيقة في تشرين الثاني الماضي، وفي الثالث منــه بالضبط، ومنذ ذلك الحيت أتذكر كل لحظة مــن لحظاتي. كان ذلك في مساء جهم، أكثر ما يمكن أن يكون للمساء من جهامة. آنذاك كنت عائداً إلى بيتي في الحادية عشرة مساء، وبالذات كنــت أفكر في أن من المستحيل أن يوجد وقت أكثر منه جهامة. حتى من الناحيــة العضوية. كان المطر ينهمر طوال النهار، وحتى هذا المطر كان أكثر الأمطار برودة وجهامة، بل ومطراً رهيباً، وأنا لأتذكر ذلك، له نزعة عدائية نحو الناس، وفي تلك الساعة، في الحادية عشرة توقف فجــأة، وحلــت رطوبة رهيبة، أكثر رطوبة وبرداً ممــا عندما كان المطر يهطــل، ومن هــذا كله كان يتصاعد بخار مــن كل حجر في الشارع، ومن كل زقاق، إذا نظرت فيه، في أعماقه من الشارع من مسافة أبعد. وفجــأة خيــل إليّ أن غاز الإنــارة إذا ما انطفــأ في كل مكان فإن ذلك سيكون أبهــج، لأن القلب بوجود الغاز يشعر بكآبــة أشد، لأن الغاز يضيء كل هذا. وكنت في ذلك اليوم لم أتناول غداء تقريباً، ومنذ بداية المســاء جلست عند مهندس كان معه صديقان يجالسانه أيضاً. ظللت طوال الوقت صامتاً، وصاروا يضجرون مني على ما يبدو. فقد كانوا يتحدثون عن شيء مثير، بل واحتدموا فجأة. ولكن

كان سواء لديهم كل شيء، وقد لاحظت ذلك، و لم يكن احتدامهم يعنــي شيئاً. وفجأة وجدت نفسي أفصحت لهم عن ذلك قائلاً: «أيها الســادة ســواء لديكــم كل شيء، على أيــة حال». و لم يتكــدروا، بل ضحكــوا مني جميعاً. وذلك لأنني قلت دون أي ملامة، بل بمجرد لأن

Telegram: @Arab_Books

كل شيء كان سواء لدي. وقد عرفوا أن كل شيء سواء لدى، فأخذتهم البهجة.

عندمـا فكرت في الغاز، وأنا في الشارع، ألقيت نظرة إلى السماء. كانت داكنة بفظاعة، ولكن كان من الممكن أن تتبين، بوضوح، غيوم مهلهلة، وبينها بقع سـوداء لا قرار لها. وفجأة لحظت في إحدى هذه البقـع نجيمة، ورحت أمعن النظر فيها. ذلك لأن هذه النجيمة أوحت لي بفكـرة: قـررت في هذه الليلـة أن أقتل نفسـي. وكنت قد عزمت علـى ذلك عزماً صلباً قبل شهرين، ورغم شدة فقري اشتريت مسدساً رائعـاً، وعبأته في نفس اليوم. ولكن شهرين مضيا، وهو ما يزال يرقد في الصندوق. ولكنني كنت إلى حد من تساوي الأشياء لديّ، بحيث كنـت أريد، أخيراً، أن ألتقط لحظة تخـف حالة تساوي الأشياء لدي، ولا أعـرف لمـاذا. وعلـى هذا النحو كنـت في كل ليلـة خلال هذين الشهريـن أفكر، وأنـا عائد إلى البيت، في أن أطلـق النار على نفسي. وظللـت انتظر الفرصـة السانحة. وها هي النجيمـة أوحت إليّ الآن بالفكـرة، فقـررت أن ذلك سيتم في هذه الليلـة بالتأكيد. فلم أوحت النجيمة لي بهذه الفكرة؟ لا أدري.

وفجـأة أمسكتنـي هذه الفتـاة من مرفقـي، بينما كنـت أنظر إلى السماء. كان الشارع خالياً، لا أحد فيه تقريباً. وفي البعيد كان حوذي ينام على عربته الصغيرة. وكانت الفتاة في نحو الثامنة تعتصب منديلاً صغـيراً، وليس عليها إلا ثوب خفيـف، وقد أصابها لبلل تماماً، ولكن حذاءهـا الممزق المبلل علق في ذاكرتي بشـكل خاص، والآن ما أزال أتذكـره. خطف بصـري على وجه الخصوص. فجـأة راحت تجذبني من مرفقـي، وتدعوني. لم تكن تبكي، ولكنها كانت تصيح متلجلجة

Telegram: @Arab_Books

بكلمات لم تكن تستطيع النطق بها جيداً، لأن كل كيانها كان يرتعش ارتعاشــ القشعريرة الخفيف. كانت مذعورة مــن شيء ما، تصرخ في يأســ: « مامــا! ماما! » أدرت إليهــا وجهي، ولكن لم أقــل أية كلمة، وتابعت سيري، إلا أنها ظلت تركض وتجذبني، وكان في صوتها تلك الرنــة التي تعنى اليأس عنــد الأطفال المرعوبين جــداً. أنا أعرف تلك الرنــة. ورغم أن الفتاة لم تكن تكمل نطق الكلمات، إلا أنني أدركت أن أمها تحتضر في مكان ما، أو أن شيئاً قد حصل لهما هناك، فخرجت هارعــة تدعو إنساناً ما، تجد شيئــاً يساعد أمها. ولكنني لم أتبعها، بل، علــى العكس، راودتني فجأة فكرة أن أطردها. في البداية قلت لها أن تبحث عن شرطي. إلا أنها طوت ذراعيها فجأة، وراحت تركض جنباً ناشجــة لاهثــة و لم تتركني. عندئذ ضربت برجلــي مهدداً، وصرخت بها. فمــا كان منها إلا أن صاحت: «سيد، سيــد!..» ولكنها تركتني فجأة، وركضت مندفعة عبر الشارع، فقد كان هناك عابر سبيل آخر، والظاهر أنها عافتني مندفعة إليه.

صعــدت إلى الطابــق الخامســ، حيــث أعيشــ في غرفــة في شقة مستأجرة. وغرفتي بائسة وصغيرة، وشباكها نصف دائرة مثل شبابيك العليــات. فيهــا أريكة غطاؤها مــن المشمع، ومنضــدة، عليها كتب، وكرسيــان، ومقعد مريــح قديم شائــخ، لكنه من الطــراز الفولتيري. جلست، وأشعلــت شمعة، ورحت أفكر. وعلــى مقربة، في الحجرة المجاورة المفصولة بحاجز كان الهــرج مستمراً. هذا هو اليوم الثالث وهــو مستمر عندهم. كان ساكن الغرفــة ضابطاً متقاعداً برتبة نقيب، وكان عنــده ضيــوف، حوالي ستــة أشخاص فاسدين كانــوا يشربون

Telegram: @Arab_Books

الفـودكا، ويلعبون بشدة ورقاً قديمة لعبة شتوس[١٠٨]. في الليلة الماضية حـدث عندهم عراك، وأنا أعرف أن اثنـين منهم ظل أحدهم يجذب الآخر من شعره وقتاً طويلاً. أرادت صاحبة البيت أن تتشكى، ولكنها تخاف الضابطط خوفاً شديداً. وأما الساكنون الآخرون في الحجرات الباقيـة فليسـوا إلا سيدة قصيرة القامة نحيلة هـي من زوجات ضباط الأقاليـم، جـاءت ومعها ثلاث أطفـال صغار تمرضـوا في حجراتنا. والسيـدة وأطفالها يخافون النقيب إلى حد فقدان الوعي، وهم طوال الليل يرتجفون ويرسمـون علامة الصليب. بل إن نوبة أَلَمّت بأصغرهم من الرعب. إن هـذا الضابط، حسب علمي، سيوقف المارة ذات مرة في شـارع نيفسكي، ويطلـب صدقة لفقر. لا يقبلـه أحد في وظيفة، ولكـن الغريـب في الأمر (من أجل هـذا أذكر ذلـك) إن هذا النقيب منـذ أن سكن عندنا منذ شهر كامل، لم يثر إزعاجي في شيء. وبالطبع عزفت عن التعارف منذ البداية، كما أنه ضجر مني منذ الوهلة الأولى، ولكن سواء لديّ مهما تصايحـوا وراء الحاجز، ومهما حصل عندهم هناك. فأنا أقعد طوال الليل ولا أسمعهم، في الحقيقة، من كثرة نسياني لهم. فأنا في كل ليلة لا أنام حتى مطلع الفجر، وها هو عام قد انقضى على ذلـك. أجلس، طوال الليل، على المقعـد الوثير إلى المنضدة، ولا أفعـل شيئـاً. والكتب لا أطالعهـا إلا في النهار. أقعد، بـل ولا أفكر، وإذا مـا راودتني أفكار، ألقيتها أدراج الريـاح. وتحترق الشمعة كلها أثناء الليل. جلسـت إلى المنضدة هادئاً، وأخرجت المسدس، ووضعته أمامي. أتذكر أنني حيث وضعته سألت نفسي «هكذا إذن؟» فأجبت نفسـي بإثبات تام: «هكذا». أقصـد أن أطلق النار على نفسي. كنت

---

١٠٨. لعبة ورق قديمة. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

أعـرف أنني في هذه الليلـة سأطلق النار على نفسـي، على الأرجح، ولكنني لم أكن أعرف كم سأظل جالساً إلى الطاولة حتى تلك اللحظة. وبالطبع، كنت سأطلق النار على نفسي، لو لم تكن تلك الفتاة.

٢

لأقـل لكـم: رغم أن كل شيء كان سواء لديّ، إلا أنني كنت أحس بـالألم، مثـلاً. إذا ما ضربنـي أحد شعرت بألم. وهـذا ما كان يحدث بالضبـط مـن الناحية الخلقية. فإذا مـا حصل شيء بائس، أحسست بالشفقة، تماماً، مثلما كنت قبل أن يصير كل شيء في الحياة سواء لدي. وهكذا شعـرت بالشفقة، قبل حين، وإذا كان طفلاً ساعدته بالتأكيد. فلمـاذا لم أساعد الفتاة؟ لمجرد فكرة سنحـت لي آنذاك. عندما كانت تجذبنـي وتدعوني برزغ أمامي سؤال فجـأة، و لم أستطع ان أحله. كان السؤال تافهـاً ولكنني اغتظت. اغتظت بسبب هذا الاستنتاج، وهو، إذا كنـت قد عزمت على أن أقضي علـى نفسي في هذه الليلة، فمعنى ذلـك لا بد أن يكون كل شيء في العالم سواء لدي، أكثر من أي وقت مضـى. فلماذا شعرت فجـأة أن الأمر ليس سواء لـديّ، وبل أشفقت علـى الفتاة؟ أتذكر أنني أشفقت عليها كثـيراً، بل وانتابني ألم غريب، حتى ولا يصدق مطلقاً في وضعي الراهن. حقاً إنني لا أحسن التعبير، على نحو أفضل، عن إحساسي العابر آنذاك، ولكن الإحساس استمر معي، وأنا في البيت، حين جلست إلى المنضدة، وكنت ثائر الأعصاب جـداً، وهي حالة لم أكن عليها منذ زمن طويـل. توالت الأفكار عليّ

Telegram: @Arab_Books

فكــرة وراء فكرة. وتمثلت بوضوح أنني إذا كنــت إنساناً، فأنا لم أصر بعد صفراً، وما دمت لم أتحول إلى صفر، فإنني أحيا، وبالتالي، أستطيع أن أعــاني، وأن أغضــب، وأن أحس بالخجل مــن تصرفاتي. وليكن. ولكــن إذا كنت سأقتل نفسي، بعد ساعتــين، مثلاً، فما تهمني الفتاة، وما شــأني، عندئذ، بالخجل، وبكل ما في الدنيــا؟ سأتحول إلى صفر، وإلى صفــر مطلق. فهل من المعقول أن الوعي بأنني بعد قليل لن يكون لي وجود، ومعنى ذلك لن يكون لأي شيء وجود، ما كان من الممكن أن يكون له أدنى تأثير لا في شعور الشفقة على الفتاة، ولا في الشعور بالخجل بعد ارتكاب الوضاعة ولهذا السبب ضربت الأرض بقدمي، وصرخــت على الطفلة بصــوت وحشي وكأنني أقــول: «لست فقط لا أشعــر بالشفقــة، ولكنني، إذ أرتكب وضاعــة لا إنسانية، فأنا قادر عليهــا الآن لأن كل شيء سينطفئ بعد ساعتين». هل تصدقونني بأنني لهذا السبب صرخت؟ وأنا الآن أكاد أكون موقناً في ذلك. لقد أصبح واضحــاً لي تمامــاً أن الحياة والعــالم كليهما يعتمــدان الآن عليّ. ومن الممكــن القول حتى بأن العــالم الآن لم يخلــق إلا لي وحدي. سأطلق النار على نفسي، وسيزول العالم، على الأقل، بالنسبة لي. ناهيكم عن القول بأن من المكن فعلاً أن لا يكون لأحد شيء من بعدي، وأن العالم كلــه، حالما ينطفئ وعيي، سينطفئ علــى الفور، كطيف، كشيء ملك لوعيــي وحده، ويتلاشى، ربما لأن هذا العالم كله، وكل هؤلاء الناس، ليســوا إلا أنــا وحدي. أتذكر، وأنا قاعد أفكــر، أنني كنت أحول كل هــذه الأسئلة الجديدة المتزاحمة واحــدة وراء أخرى، إلى ناحية مختلفة تمامــاً، وأخرج بشيء جديد كليــاً. فمثلاً، تمثلت لي فجأة فكرة غريبة، وهــي أنني لو كنت أعيشــ على القمر أو المريــخ، وقمت هناك بفعلة هــي أكثر ما يمكــن أن أتخيله من العار والشنــار، وعنفت عليها هناك

Telegram: @Arab_Books

وثُلبت، بشكل لا يمكن أن يحس به المرء ولا يمكن أن يتصوره إلا في حلم، في كابوس، وإذا ما وجدت نفسي على الأرض، فيما بعد، وبقيت أحتفظ بالوعي بما فعلت في الكوكب الآخر، وكنت أعرف، في الوقت ذاته، بأنني لن أعود إلى هناك، مهما يكن من شيء. فهل سيهمني شيء. أم لا، حين أرفع بصري وأرى القمر؟ هل سأحس بالخجل على تلك الفعلة أم لا. كانت الأسئلة تافهة وزائدة، ما دام المسدس ملقى أمامي، وقد كنت أعرف بكل كياني، إن ذلك سيكون على الأرجح ولكن الأسئلة، أججت مشاعري، وأثارت جنوني. فكأنني صرت غير قادر على أن أموت، وأنا لم أحل مسبقاً شيئاً ما. وباختصار لقد أنقذتني هذه الفتاة، لأنني بهذه الأسئلة أرجأت الطلقة. وخلال ذلك صار كل شيء يخلد إلى الهدوء في حجرة النقيب. فرغوا من لعب الورق، وأخذوا يتهيأون للنوم، ولكنهم الآن كانوا يدمدمون، ويتمون شتائمهم بكسل. وفي هذه اللحظة أخذتني الغفوة فجأة، وأنا على المقعد راء المنضدة وهو شيء لم يحصل لي من قبل قط. غفوت على غفلة مني تماماً. والأحلام، كالعادة، شيء غريب للغاية: في بعضه يتراءى بوضوح مريع، بتفصيل محكم الدقائق كما في قطعة مجوهرات، ولكنك تتخطى بعضه الآخر، وكأنك لم تلحظه قط: فمثلاً أنت تتخطى المكان والزمان. يبدو أن الرغبة هي التي تدعو الأحلام لا العقل، القلب لا الرأس. ولكن ما أكثر ما كان عقلي يبتكر أحياناً في الحلم من أشياء غاية في الدهاء! فضلاً عن أن أشياء خارقة تماماً تحصل له في الحلم. إن أخي، على سبيل المثال، توفي قبل خمسة أعوام. وأنا احياناً أراه في الحلم. أراه يشارك في أعمالي، ونحن منسجمان جداً، ومع ذلك فأنا أعرف وأتذكر، طوال الحلم، أن أخي مات ودفن. فكيف لا أستغرب من أنه، وهو الميت، يقف إلى

Telegram: @Arab_Books

جانبي، على أية حال، وينشغل معي؟ لماذا يسمح عقلي تماماً هذا كله؟ ولكن كفاية. لانتقـل إلى حلمي. أجل، حلمت بهذا الحلم ذات مرة، حلمـي في الثالث من تشرين الثاني! إنهـم يناكدونني الآن بأن ذلك لم يكن غير حلـم. ولكن هل من المعقول سيّان عندي أكان حلماً أو غير حلـم، إذا كان هذا الحلم بشرني بالحقيقة؟ لأن المرء، إذا كان قد عرف الحقيقة مرة ورآها، فسيعـرف أنها الحقيقة ولا شيء غيرها، ولا يمكن أن يكـون، سواء في المنـام أو اليقظة. طيب، وليكـن حلماً، وليكن، ولكن هذه الحياة التي تمجدونها كثيراً، أردت أن أطفئها بانتحار، بينما حلمي، حلمي، أوه، بشرني، بحياة جديدة عظيمة متجددة، قوية!

فاسمعوا!

٣

قلت إنني غفوت على غفلة، بل وكأنني مستمر في التفكير في تلك الأمور. وفجأة حلمت بأنني أتناول المسدس. وأصوه، وأنا قاعد، إلى قلبـي مباشرة، لا إلى رأسـي، بل إلى قلبي. وكنت من قبل قد عزمت أم أطلـق النار حتماً على رأسي، وعلى الصـدغ الأيمن بالذات. صوبت على الصدر، وتريثت ثانية أو ثانيتين، وإذا بشمعتين والمنضدة والجدار أمامي أخذت تتحرك فجأة، وتتمايل. فأسرعت وأطلقت.

في الحلـم تجدون أنفسكم تسقطـون أحياناً من مرتفع، أو تحلمون بـأن أحداً يذبحكم أو يضربكم، ولكنكم لن تشعروا بالألم أبداً إلا إذا

Telegram: @Arab_Books

آذيتـم أنفسكم بالسرير بالفعل. وعندئذ ستشعرون بألم، ودائماً تقريباً تستيقظون على هذا الألم. وهذا ما حصل لي في حلمي. لم أشعر بألم، ولكنني تصورت بـأن كل شيء فيّ قد اهتـز بالرصاصة، وسكن كل شـيء فجـأة، وصار كل شيء حـولي مظلماً بشكل رهيـب. وكأنني عميـت، وتخـدرت، وها أنا منطـرح ممدد على شـيء صلب لا أرى شيئاً، ولا أستطيع أن أقوم بأقل حركة. وحولي يسير الناس ويصيحون، والنقيـب يتكلم بصوت عـالي النبرة، وصاحبة البيـت تزعق، وفجأة انقطـاع آخر، ثم هاهم يحملونني في تابوت مغلق. وأشعر كيف يهتز التابـوت، وأفكر في ذلك، وفجأة وللمـرة الأولى تصعقني فكرة أنني قـد مت، مت كليـاً، أنا أعرف ذلـك، ولا أشك فيـه، ولا أرى، ولا أتحـرك، ومع ذلك فأنا أشعر وأفكر. ولكن بعـد قليل استسلم لذلك، وكشيء مألوف، كما في الحلم، أتقبل الواقع بلا جدال.

ويدفنونني في الأرض. وينصرف الجميع، وأنا وحيد، وحيد كلياً. ولا أتحـرك. من قبـل دائماً، عندما أتخيل في يقظتـي كيف سأدفن في القـبر، كنت على وجـه الخصوص أقـرن القبر بإحساس واحد، هو إحساس الرطوبـة والبرد. والآن أيضـاً شعرت ببرد شديـد، لا سيما بأطراف أصابع رجلي، ولكن لم أشعر بأي شيء آخر.

كنت منطرحاً، والغريب أنني لم أكن أنتظر شيئاً، متقبلاً دون جدال أن الميـت لا ينتظر شيئاً. ولكن كانت عناك رطوبة. ولا أعرف كم مر من الوقت: ساعة أو بضعة أيام أو عدة أيام. ولكن فجأة، سقطت على عيني اليسرى المغمضة قطرة ماء شحت من خلال غطاء التابوت، وبعد دقيقـة تبعتها أخرى، ثم ثالثة بعـد دقيقة، وهكذا دواليك، كل دقيقة.

Telegram: @Arab_Books

واحتــدم في قلبي غيظ عميق، وفجأة شعرت فيه بألم عضوي. فكرت «هــذا جرحي. هــذه الطلقة، الرصاصة هنــاك..» بينما ظلت القطرة تنــزل كل دقيقة على عينــي المغمضة مباشرة. وفجــأة ناديت صاحب القــدرة على كل ما حصل معــي، لم أناده بلساني، لأنني كنت جامداً، بل بكل كياني.

– لتكن من تكون، ولكن إذا أنت موجود، وإذا موجود شيء أكثر حكمــة مما يحصل الآن، فاصدع به ليكون هنا أيضاً. وإذا كنت تنتقم منــي على انتحاري غير الحكيم بقبح وتفاهــة العيشة فيما بعد، فاعلم أن أي عذاب سيصيبني في أي وقت لا يقارن بالازدراء الذي سأحسه صامتاً، حتى على امتداد ملايين السنين في العذاب!..

ناديــت، وصمت. واستمــر الصمت العميق دقيقــة كاملة تقريباً، بــل وسقطت قطرة أخــرى، ولكنني عرفت، عرفــت وآمنت بشكل لا يحــد ولا يتزعزع بــأن كل شيء سيتغير الآن حتمــاً. وها هو قبري قــد انشق. أعنــي لا أعرف هل حُفر أن نُبش، ولكــن مخلوقاً مظلماً لا أعرفــه حملنــي، فوجدنا أنفسنــا في الفضاء. وفجأة عــاد إلى بصري. كان الليــل في أعماقه، والظــلام لم يكن له مثيل قط في أي وقت كان. انطلقنا في الفضاء بعيداً عن الأرض. لم أسأل من كان يحملني عن أي شــيء، انتظرت وكنت فخوراً. كنت أطمئن نفسي بأنني غير خائف، وجمــدت اعجاباً بفكــرة أنني غير خائف. لا أتذكــر قد استغرقنا من الوقت ونحن منطلقان، ولا أستطيع أن أتصور. كان كل شيء يتم كما يتــم دائماً في الحلم، حــين نتجاوز المكان والزمــان، وقوانين الوجود والعقــل، ولا نتوقف إلا عند النقاط التي يحلم بها القلب. أتذكر أنني

Telegram: @Arab_Books

لمحت فجأة نجيمة في الظلام. (أهذه هي الشعرى؟» – سألت، وقد نفذ صبري فجأة، لأنني لم أكن أريد أن أسأل عن شيء. «لا، هذه نفس النجمة التي رأيتها بين الغيوم، وأنت عائد إلى البيت». أجابني المخلوق الذي يحملني. وعرفت أن له وجه إنسان، على ما يبدو. والغريب في الأمر أنني لم أحب هذا المخلوق، بل وشعرت بنفور عميق. كنت أتوقع عدماً تاماً، ولذلك أطلقت النار على قلبي، بينما أنا الآن في يدي مخلوق، ليس إنسانياً بالطبع، ولكنه موجود، كائن. «أها. يعني توجد حياة وراء القبر أيضاً!» فكرت مع نفسي بذلك بالاستخفاف الغريب في الحلم، ولكن جوهر قلبي ظل معي بكل عمقه. وفكرت: «إذا وجب أن أكون من جديد، وأعيش مرة أخرى حسب إرادة كائن ما لا تُرد، فإنني لا أريد أن أُقهر وأُهان!» وقلت لرفيق سفري فجأة: «أنت تعرف أنني أخاف منك، ولهذا تحتقرني». قلت نافد الصبر من السؤال المهين الذي كان ينطوي عليه هذا الاعتراف، وقد أحسست بمهانتي في قلبي كوخز الدبوس. لم يجب على سؤالي، ولكنني شعرت فجأة بأنه لا يحتقرني، ولا يهزأ بي، بل ولا يشفق على حالي، وإن لسفرنا غاية مجهولة سرية تخصني لوحدي. أخذ الرعب يزداد في قلبي. كان شيء أبكم، ولكنه معذب، يأتيني من رفيق سفري الصامت، وكأنما كان يخترقني. انطلقا في رحاب مظلمة غير معروفة. ومنذ وقت بعيد لم أعد أرى أبراج النجوم المعروفة لبصري. وكنت أعرف أن في الرحاب السماوية نجوماً لا تصل أشعتها إلى الأرض إلا في آلاف وملايين السنين. فلربما اجتزنا هذه الرحاب بالفعل. انتظرت شيئاً في لهفة رهيبة كانت تعذب قلبي. وفجأة هزني شعور مألوف آسر إلى درجة رفيعة: فجأة رأيت شمسنا! كنت أعرف أن من غير

Telegram: @Arab_Books

الممكن أن تكون شمسنا التي خلقت أرضنا، وأننا بعيدان عن شمسنا مسافة لا نهائية، ولكنني، لسبب غير معروف، عرفت بكل كياني أن هذه شمس شبيهة بشمسنا تماماً، تكرار وتوأم. وتردد الشعور الحلو الجذاب فرحة نشوى في روحي. فإن أُخت قوة النور الذي أولدتني غمرت قلبي، وبعثته حياً، فأحسست بالحياة، بالحياة السالفة لأول مرة بعد دفني.

صرخت:

– إذا كانت هذه شمساً، وإذا كانت كشمسنا تماماً، فأين الأرض، إذن؟ – وأشار رفيق سفري إلى نجيمة كانت تلمع في الظلام لمعان الزمرد. وانطلقنا نحوها قدماً.

– هل معقول أن مثل هذه المكررات في الكون ممكنة، هل معقول أن هذا قانون الطبيعة؟.. وإذا كانت تلك التي هناك أرضاً، فهل من المعقول أنها أرض مثل أرضنا.... مثلها تماماً، تعيسة، بائسة، ولكنها عزيزة، ومحبوبة أبداً، وتخلق نحوها نفس الحب المعذّب الذي تخلقه أرضنا نحوها حتى في أكثر أبنائها عقوقاً لها؟...– صحت يهزني الحب القاهر الجذل نحو تلك الأرض الحبيبة السالفة التي غادرتها. وظهر أمامي وجه تلك الفتاة التي آذيتها.

– سترى كل شيء – أجاب رفيق سفري، وقد ترددت رنة حزن في جملته. ولكننا اقتربنا من الكوكب بسرعة. وقد راح يكبر أمام بصري، حتى ميّزت المحيط، وحدود أوروبا، وفجأة التهب في قلبي شعور غريب من الغيرة العظيمة المقدسة. «كيف يمكن أن يكون مثل

Telegram: @Arab_Books

هذا التكرار ولأي شيء؟ أنا أحب، ولا أقدر أن أحب إلا تلك الأرض التــي غادرتها، والتــي تخلف عليها نثار من دمي، حــين أطفأت، أنا العــاق، حياتي بطلقــة سددتها إلى قلبي. ولكنني مــا توقفت قط عن حــب تلــك الأرض، حتــى في تلك الليلــة التي غادرتهــا، بل ولربما صرت أحبها بعذاب أشد من أي وقت آخر. هل هناك عذاب في هذه الأرض الجديدة؟ نحن على أرضنا تلك لا نستطيع أن نحب عن حق إلا بعــذاب، ومن خلال العذاب فقط! وبغير هذه الطريقة لا نقدر أن نحــب، ولا نعرف حباً غير هذا الحب. أنا أريد عذابات لكي أحب. أنا أريــد، وأتعطش، في هــذه اللحظة إلى أن أقبــل، والدموع تفيض من عيوني، تلك الأرض وحدها، الأرض التي تركتها، ولا أريد، ولا أتقبل حياة على أية أرض غيرها!...»

إلا أن رفيــق سفري كان قد تركني، وفجأة، وكأنما على غفلة مني تمامــاً، صــرت على هذه الأرضــ الأخرى، في الضــوء الساطع لنهار مشمســ ساحر كالفردوس. كنت أقف، علــى ما يبدو، على واحدة مــن تلك الجزر التــي تكوّن على أرضنــا الأرخبيل اليونــاني[١٠٩]، أو في بقعــة على الساحل القاري مجاورة لهــذا الأرخبيل. أوه! كان كل شــيء تماماً، كما عندنا، ولكن كان يبدو وكأن كل ما حولي كان يشع بألــق عيد، بألق فوز عظيم مقدس تحقــق في آخر المطاف. كان البحر الزمردي الرقيق يترقرق على السواحل بهدوء، ويلثمها بحب واضح مرئــي واع تقريباً. وكانت الأشجار الجميلة السامقة تقف بكل ترف زهرها، وكانت أوراقها التي لا حصر لها، وأنا واثق من ذلك، تحتفي

١٠٩. مجموعة من الجزر في بحر إيجه لها طقس دافئ ونبات شبه استوائي. الناشر.

Telegram: @Arab_Books

بـي بحفيفها الهادئ الحنـون، وكأنها كانت تبـوح بكلمات حب. وكان العشـب الغض يتوهـج بزهور ساطعة اللـون، شذية. والطيور تطـير في الهواء أسراباً، ودون أن تخاف مني، تحط على كتفي، وعلى يدي، وترفـرف فرحة بأجنحتها الصغيرة الحلـوة الهفهافة. وأخيراً، رأيت وتعرفت على أناس هذه الأرض السعيدة. جاءوا إليّ بأنفسهم، وأحاطـوا بي، وقبّلـوني. أطفال الشمـس، أطفـال شمسهم ما كان أروعهم!

لم أرَ قط، علـى أرضنا، جمالاً في الإنســان كهذا الجمال. سوى أنكـم قد تجدون في أطفالنـا، وفي بواكير أعمارهـم، مسحة منفردة ولو ضعيفة مـن هذا الجمال. كانت عيون هؤلاء الناس السعداء تلمع ببريـق صـاف، ووجوههم تشـع ذكاء، ووعيـاً مقرونـاً بالطمأنينة، ولكـن هـذه الوجوه كانت مرحـة، وفرح الطفولة يـرن في كلمات النـاس وأصواتهم. أوه، لقد فهمـت كل شيء، كل شيء حالاً، ومنذ النظـرة الأولى إلى وجوههم! لقد كانت تلك أرضاً لم تدنسها خطيئة السقـوط الأولى، يعيش عليها أناس لم يأثمـوا، يعيشون في مثل تلك الجنـة التي عاش فيها كما تقـول أساطير الإنسانيـة كلها، آدم وحواء الخاطئـان، بفرق واحد، وهو أن كل هذه الأرض هنا جنة واحدة في كل بقاعهـا. تزاحم هؤلاء الناس علـيّ يضحكون فرحين. وتلاطفوا معـي، وأخذوني إلى بيوتهم، وكل واحد منهم كان يريد أن يطمئنني. أوه، إنهم لم يسألوني عن شيء، ولكنهم بدوا لي وكأنهم كانوا يعرفون كل شـيء، فكان يريـدون أن يزيحوا مسحة العـذاب من وجهي في أقرب وقت.

Telegram: @Arab_Books

٤

تلــك هي الحكايــة، كما ترون. طيــب، وإن كان ذلك مجرد حلم! ولكــن الإحساس بحب هلاء الناس الوسيمين البريئين بقى في داخلي في اليقظــة إلى الأبد، وأنــا أشعر أن حبهم ينصب علــيّ الآن أيضاً من هنــاك. لقد رأيتهم بنفسي، وعرفتهــم، وأيقنت، وأحببتهم، وتعذبت من أجلهم فيما بعد. أوه، لقد أدركت في الحال، حتى آنذاك، إنني في الكثير من الجوانب لا أفهمهم على الإطلاق. فقد ظهر لي، أن التقدمي الروسي العصــري، والبطرسبورغي المنفّر، ان من المُعجز، مثلاً، أنهم، وهــم العارفون أشياء كثــيرة جداً، لا يمتلكون علومنــا. ولكن سرعان ما فهمــت أن معرفتهم قــد تكونت وتشبّعت بمؤثــرات تختلف عما عندنــا على الأرض، وأن مطامحهم أيضاً كانت مختلفــة تماماً. إنهم لم يرغبوا شيئاً، وكانوا مطمئنين، و لم يكونوا يسعون إلى تفهم الحياة على نحــو ما نحن نسعــى إلى تفهمها، إن حياتهم مملــوءة. ولكن معرفتهم كانت أعمق وأرفع ممــا في علومنا، لأن علمنا يبحث عن تفسير لماهية الحيــاة، ويسعى هــو فهمها ليعلم الآخريــن أن يعيشــوا، بينما هم قد عرفوا، بــدون علم، كيف ينبغي أن يعيشوا، وقــد أدركت هذا أيضاً، ولكننــي لم أستطع أن أفهم معرفتهم. كانوا يشيرون لي إلى أشجارهم، و لم أستطــع أن أفهم تلك الدرجة من الحب التي كانوا ينظرون بها إلى الأشجــار. كأنهم كانوا يتكلمون مــع كائنات تشبههم. واعلموا أنني ربما لا أكون على خطأ، إذا قلت أنهم كانوا يتكلمون معها! أجل، لقد

Telegram: @Arab_Books

وجدوا لغتها، وأنا واثق، من أن تلك الأشجار كانت تفهمهم. وبهذا الشكل كانوا ينظرون إلى الطبيعة كلها - إلى الحيوانات التي كانت تعيش معهم بسلام، لم تكن تهاجمهم، بل تحبهم ظافرات بحبهم. وكانوا يشيرون لي إلى النجوم، وكانوا يتكلمون معي عنها شيئاً لم أستطع أن أفهمه، ولكنني واثق من أنهم كانوا كالمرتبطين بشيء مع نجوم السماء، لا بالفكر فقط، بل بطريقة حية. أوه، إن أولئك الناس لم يكونوا يسعون إلى أن أفهمهم فقد كانوا يحبونني بدون ذلك، ولكنني، بالمقابل، عرفت أنهم أيضاً لن يفهموني أبداً، ولهذا السبب لم أتحدث لهم تقريباً عن أرضنا بل قبّلت فقط، وبحضورهم، الأرض التي كانوا يعيشون عليها، وبدون كلمات أغرمت بهم، وقد عرفوا ذلك، وتركوني أغرم بهم، دون أن يخجلوا من غرامي بهم، لأنهم أنفسهم كانوا يحبون كثيراً. و لم يتعذبوا عليّ، حين كنت، والدموع في عيني، أقبّل أقدامهم أحياناً، وأنا أعرف في قلبي مسروراً، بأية قوة حب يردون عليّ. أحياناً كنت أسأل نفسي في اندهاش: كيف استطاعوا طوال الوقت ألا يهينوا شخصاً، مثلي، و لم يثيروا قط في شخص، مثلي، شعور الغيرة والحسد؟ وكثيراً ما كنت أسأل نفسي، كيف استطعت، أنا المتباهي الكذّاب، ألا أحدثهم عن معارفي التي ليس لهم أي مفهوم عنها، بالطبع، و لم أرغب في أن أثير دهشتهم بها أو، على الأقل من باب الحب بحوهم لا غير؟ كانوا نشيطين، مرحين كالأطفال. كانوا يطوفون في أدغالهم وغاباتهم الجميلة، ويغنون الأغاني البديعة، ويتغذون بغذاء خفيف، بثمار أشجارهم، بعسل غاباتهم، وبحليب حيواناتهم التي كانت تحبهم ومن أجل طعامهم ومن أجل ملبسهم كانوا لا يكدحون كثيراً، بل وبسهولة. كان بينهم حب، والأطفال يولدون، ولكنني لم ألحظ فيهم قط عرامة

Telegram: @Arab_Books

تلك الشهوانية الفظة التي تعتري الجميع تقريباً في أرضنا، الجميع وأي إنسان، وتكون بمثابة المصدر الوحيد لجميع آثام إنسانيتنا تقريباً. كانوا يفرحون بالأطفال الذين يولدون لهم، كشركاء جدد لنعيمهم لم تكن بينهم حزازات، ولم تكن غيرة، بل ولم يكونوا يعرفون ماذا تعني هذه. كان أطفالهم أطفال الجميع، لأن الجميع كانوا يؤلفون أسرة واحدة. لم تكن لهم أمراض البتة تقريباً، ولو كان عندهم موت. إلا أن عجائزهم كانوا يموتون بهدوء، وكأنما تأخذهم سِنة من نوم، محاطين بمودعيهم، مباركين إياهم، مبتسمين لهم، وهم مشيّعون بالبسمات المشرقة. وفي هذا المقام لم أر تفجعاً ولا دموعاً، بل لم أر غير الحب البالغ كأنما هو نشوة الفرح، ولكنها نشوة مزح هادئة معوّضة تأملية. وكان من المكن الظن بأنهم كانوا على تماس أيضاً مع موتاهم حتى بعد موتهم، وأن الشمل الأرضي لم ينقطع بالموت. ولم يكونوا يفهمونني تقريباً، حين كنت أسألهم عن الحياة الخالدة، ولكنهم كانوا، على ما يبدو، موقنين بها يقيناً لا حد له، بحيث لم يكن ذلك يشكل عندهم مسألة. لم تكن عندهم معابد، ولكن كان لهم اتحاد لازم حيّ موصول مع كلية الكون. لم تكن لديهم عقيدة، ولكن كان لهم، بالمقابل، معرفة أكيدة، بحيث حين كانت تفعمهم مسرة أرضية نحو حدود الطبيعة الأرضية، تحصل لهم، للأحياء والموتى منهم، تماسات أوسع مع كلية الكون. وكانوا ينتظرون هذه اللحظة بفرح، ولكن دون أن يتعجلوا، ولا يعانوا شوقاً إليها، ولكن كأنهم يمتلكونها في هواجس قلوبهم، التي يتناقلونها فيما بينهم. وفي الأماسي، وهم يأوون للنوم، كانوا يحبون تنظيم جوقات غناء ذات إيقاع وانسجام. وفي هذه الأغاني كانوا يعبرون عن جميع المشاعر التي زودهم النهار الراحل بها، ويمجدونه مودعين إياه. كانوا يمجدون الطبيعة، والأرض، والبحر والغابات. وكانوا يحبون تأليف

Telegram: @Arab_Books

الأغاني بعضهم عن بعضهـم، ويثنون بعضهم على بعض، كالأطفال، وكانت هذه أبسط الأغـاني، إلا أنها كانت تنبع من القلب، وتنفذ إلى القلب. ولكن ليس في الأغاني وحدها، بل وحيلتهم كلها، كما يبدو، يقضونهـا في استمتاع بعضهم برؤية بعض لا غـير. وكان هذا تعشقاً متكامـلاً شاملاً. والأغاني الأخرى الاحتفاليـة المتهللة لم أكن أفهمها كلياً تقريباً. لم أستطع قط، وأنا أفهم كلماتها، أن أنفذ إلى كل معانيها. فظلـت كالمستعصية علـى عقلي، ومع ذلك فإن قلبـي كأنما كان ينفذ إليهـا تلقائيـاً، وأكثر فأكثر. غالباً ما كنت أقـول لهم إن كل هذا كنت أتوجس به منذ زمان طويـل، وإن كل هذا الفـرح والمجد كان يبدو لي، وأنـا ما أزال على أرضنا، حنيناً داعيـاً كان يصل أحياناً إلى كرب لا يحتمـل، وأننـي كنت أستشعـر بهم جميعاً، وبمجدهـم في أحلام قلبـي، وأماني عقلي، وأنني غالباً ما كنت لا أستطيع أن أنظر في أرضنا إلى الشمـس الغاربـة بدون دموع.... كانت حسـرة تنطوي دائماً في كراهيتـي لأناس أرضنا: لماذا لا أستطيع أن أبغضهم بدون أن أحبهم، ولمـاذا لا أستطيـع أن لا أسامحهـم، بينما في حبي لهـم حسرة؟ لماذا لا أستطيـع أن أحبهم، وأنا أبغضهـم؟ كان يستمعون لِيّ، فرأيت أنهم لم يستطيعـوا أن يتصوروا ما أقوله، ولكـن لم أتأسف على أنني حدثتهم عـن هذا: لقد عرفت أنهم يفهمون كل قوة حسرتي على أولئك الذين هجرتهـم. أجل، حـين حدقـوا فيّ بنظرتهم الحلـوة المشبّعة بالحب، وحـين شعرت أن قلبي ظل عندهم بريئاً وصادقـاً جداً، مثل قلوبهم، فلم آسف على أنني لا أفهمهم. وشهقت من الإحساس بامتلاء الحياة، فصليت لهم صامتاً.

آه، إن الجميع الآن يضحكون أمام عيني، ويؤكدون لي أن من

Telegram: @Arab_Books

المستحيل أن يرى الحالم في نومه كل هذه التفاصيل التي أنقلها الآن، وأنني في حلمي رأيت أو توجست إحساساً واحداً تولد في قلبي في هذيان حمى، أما التفاصيل فقد الفتها بنفسي، حين استيقظت. ولما كشفت لهم أن من الممكن أن يكون هذا قد حدث في الواقع – أوه، يا إلهي، أي ضحك أثاروا حولي، وأمام بصري، وأي فكاهة وفرت لهم! نعم، بالطبع، لقد استولى عليّ فقط الإحساس بهذا الحلم، وهو وحده الذي تسرب سليماً إلى دم قلبي الجريح، ولكن، بالمقابل كانت الصور والأشكال الواقعية لحلمي، أي تلك التي رأيتها، بالفعل، أبان حلمي بالذات، كانت مشخّصة بانسجام شديد، وكانت جد فاتنة رائعة، وجد حقيقية إلى حد أنني، حين استيقظت، كنت، بالطبع، غير قادر على تجسيدها بكلماتنا الهزيلة، ومعنى ذلك ربما كانت قد بهتت في عقلي، ومعنى ذلك ربما كانت قد بهتت في عقلي، ومعنى ذلك، من الممكن فعلاً أن أكون وبلا وعي مني مضطراً إلى أن أؤلف التفاصيل فيما بعد، وقد شوهتها، بالطبع، لا سيما في غمار رغبتي الحارة في أن أقص ولو بعضاً منها، في أقرب وقت ممكن. ولكن، بالمقابل، كيف لي أن لا أصدق بأن كل ذلك قد وقع بالفعل؟ ربما كان أفضل وأشرق وأبهج ألف مرة مما أقصه؟ وليكن حلماً، ولكن كل ذلك ما كان من الممكن ألا يقع. سأقول لكم سراً: كل ذلك، ربما، لم يكن حلماً على الإطلاق! لأن ما وقع بعد ذلك كان شيئاً حقيقياً إلى حد الرهبة، وإنه ما كان من الممكن أن يتراءى في حلم. وليكن قلبي هو الذي خلق حلمي، ولكن هل من المعقول أن قلبي وحده يقدر أن يخلق تلك الحقيقة الرهيبة التي حصلت لي فيما بعد؟ كيف كان من الممكن أن أختلقها وحدي، أو يحلم بها قلبي؟ هل من المعقول أن يرتفع قلبي الضئيل، وعقلي الهوائي التافه إلى هذا الاكتشاف للحقيقة؟ أوه،

Telegram: @Arab_Books

حكموا بأنفسكم. كنت أخفي حقيقة لحد الآن، ولكنني سأقول هذه الحقيقة الآن. وخلاصة الأمر أنني......أفسدتهم جميعاً!

٥

نعم، نعم، انتهى الأمر بأن أفسدتهم جميعاً! كيف أمكن أن يتحقق ذلك لست أدري، ولكن أتذكر بوضوح. طار الحلم عبر آلاف السنين، ولم يبق فيّ غير الإحساس بكل واحد. أعرف فقط أنني كنت سبب خطيئة السقوط. كالدودة الشعرية الكريهة مثل جرثومة الطاعونة التي تعدى دولا بكاملها، عديت أنا أيضاً بنفسي، تلك الأرض السعيدة الطاهرة من قبل مجيئي. لقد تعلموا الكذب، فأحبوا الكذب، وعرفوا جمال الكذب. أوه، ربما بدأ ذلك بدون قصد سيء، بمزحة، بدلع، بلعبة الحب، وفي واقع الأمر، ربما من جرثومة، ولكن جرثومة الكذب هذه نفذت إلى قلوبهم، وأعجبتهم. وبعد ذلك ولدت القسوة....آه، لا أدري، لا أتذكر، ولكن بعد قليل، بعد قليل جداً من الوقت تناثر أول دم. اندهشوا، وارتعبوا، وراحوا يتفرقون وتتفكك روابطهم. ظهرت اتحادات، ولكن بعضها ضد الآخر. وبدأت تأنيبات وتقريعات. وعرفوا العيب، ورُفع العيب إلى مستوى الفضيلة. وولد مفهوم الشرف، وارتفعت لكل اتحاد رايته. وأخذوا يعذبون الحيوانات، فابتعدت الحيوانات عنهم إلى الغابات، وصارت أعداء لهم. ونشأ نضال من أجل الانفكاك، من أجل الانفراد، من أجل الشخصية، من أجل هذا لي، وهذا لك. وأخذوا يتكلمون بلغات

Telegram: @Arab_Books

مختلفة. وعرفوا الفجيعة، وأحبوا الفجيعة، وتعطشوا إلى العذابات، وصاروا يقولون إن الحقيقة لا تنال إلا بالعذاب وعند ذاك ظهر عندهم العلم. وعندما صاروا خبثاء، أخذوا يتحدثون عن الأخوة، والروح الإنسانية، وفهموا هذه الأفكار. وعندما صاروا مجرمين، ابتكروا العدالة، ورسموا لأنفسهم مواثيق كاملة ليحافظوا عليها، ولتأمين المواثيق نصبوا المقصلة. وما كادوا يدركون قليلاً مما فقدوه، لم يرغبوا حتى في أن يصدقوا بأنهم كانوا أبرياء وسعداء في وقت من الأوقات. وهزئوا حتى من احتمال سعادتهم السالفة تلك، وسموها حلماً. و لم يستطيعوا حتى أن يتصوروها في أشكال وصور، ولكن الشيء الغريب والعجيب أنهم بعد أن فقدوا كل إيمان في السعادة السابقة، وسموها أسطورة، تملكتهم رغبة عارمة في أن يكونوا أبرياء وسعداء من جديد، مرة أخرى، حتى أنهم تهاووا أمام رغبات قلوبهم، الأطفال، وعبدوا هذه الرغبة، وأشادوا المعابد، وصاروا يصلون لفكرتهم، «رغبت» هم، وهم، في الوقت ذاته، مؤمنون تماماً باستحالة تحقيقها، واستعصاء وجودها، ولكنهم عابدون إياها، راكعون لها، والدموع في عيونهم. ومع ذلك، فلو أمكن أن يكون هناك احتمال فقط في أن يعودوا إلى تلك الحالة السعيدة البريئة التي ضيعوها، لو أن أحداً أظهرها لهم فجأة، وسألهم: هل ترغبون في العودة إليها؟ لرفضوا، في أغلب الاحتمال. وكانوا يجاوبون: « ولنكن كاذبين، خبثاء، ظالمين، فنحن نعرف ذلك، ونبكي على ذلك، نعذب أنفسنا بأنفسنا من جراء ذلك، ونعاقب أنفسنا ربما حتى أكثر مما سيفعل ذلك القاضي الرؤوف الذي سيحاكمنا، والذي لا نعرف اسمه. ولكن عندنا علم، ومن خلاله سنجد الحقيقة مرة أخرى، ولكننا سنتقبلها عندئذ بوعي. المعرفة أسمى من العاطفة، ووعي الحياة أسمى من الحياة. والعلم يعطينا

Telegram: @Arab_Books

الحكمة، والحكمة تكشف القوانين، ومعرفة قوانين السعادة أسمى من السعادة. هذا ما كانوا يقولونه، وبعد هذه الكلمات أحب كل امرئ نفسه أكثر من الآخرين، وما كان في الإمكان أن يفعلوا غير ذلك. صار كل واحد منهم عظيم الغيرة على شخصيته، حتى أنه كان يجاهد بكل قوته لمجرد أن يهينها ويستصغرها في الآخرين. وفي هذا تصوّر حياته. وظهرت العبودية، بل وظهرت العبودية التطوعية. فإن الضعفاء رضخوا من تلقاء أنفسهم إلى الأقوياء لمجرد أن هؤلاء كانوا يساعدونهم على سحق الأضعف منهم، وظهر أهل التقوى الذين كانوا يأتون إلى هؤلاء الناس دامعي العيون، ويحدثونهم عن كبريائهم، عن ضياع الحدود والوئام، وعن فقدانهم للحياء.

فكانوا يسخرون منهم، أو يرجمونهم بالحجارة. وأُريق الدم التقي على عتبات المعابد. وبالمقابل أخذ بالظهور أناس بدأوا يفكرون: كيف يمكن أن نتحد من جديد بحيث يظل كل امرئ يحب نفسه أكثر من الآخرين وفي نفس الوقت لا يعيق أحداً آخر، ليعيش الجميع سوية، بهذه الطريقة، وكأنهم في مجتمع منسجم. واندلعت حروب كاملة من جراء هذه الفكرة. فقد كان جميع المتحاربين يؤمنون إيماناً قوياً في ذات الوقت بأن العلم والحكمة وشعور الحفاظ على النفس سيجبر الإنسان، أخيراً، على الاتحاد في مجتمع منسجم قائم على العقل، ولهذا ومن أجل التعجيل في الأمر، في الوقت الراهن، كان «الحكماء» يسعون بأن يقضوا، في أقرب وقت ممكن على «الجهلاء» وغير الفهمين لفكرتهم، حتى لا يعيقوا انتصارها. إلا أن شعور الحفاظ على النفس صار يضعف بسرعة،وظهر متكبرون وأصحاب شهوات كانوا يطالبون بصراحة بكل شيء أو لا شيء. وتطلب الحصول على كل

Telegram: @Arab_Books

شيء اللجوء إلى العمل المنكر، وإذا لم يفلح، فإلى قتل النفس. وظهرت الأديان مع عبادة العدم وتحطيم النفس من أجل السكينة الأبدية في الخواء. وأخيراً، تعب هؤلاء الناس في الجهد الفارغ، ولاحت المعاناة على وجوههم، فأعلن هؤلاء أن المعاناة هي الجمال، لأن في المعاناة فكر فقط. فتغنوا بالمعانات في أغانيهم. كنت أسير بينهم، طاوي الذراعين، وأبكي عليهم، ولكنني أحببتهم، ربما، أكثر من السابق، عندما لم تكن المعاناة قد ظهرت على وجوههم بعد، وعندما كانوا أبرياء، وجميلين للغاية. أحببت أرضهم الكريهة أكثر مما حين كانت جنة، لمجرد ظهور الهم فيها. آه، كنت دائماً أحب الهم والغم ولكن لنفسي فقط، لي فقط، أما همهم وغمهم فقد بكيت عليهما. كنت أمسح يدي بهم، متهماً ولاعناً ومزدرياً نفسي من القنوط. كنت أقول لهم إن كل ذلك فعلته أنا، أنا وحدي، فأنا الذي جلبت لهم الانحلال والعدوى والكذب! كنت أتضرع إليهم أن يشدوني على الصليب، وعلمتهم كيف يصنعون الصليب. لم أكن أستطيع، ولا أقوى على أن أقتل نفسي بيدي، ولكن كنت أرغب في أن أتقبل منهم الآلام، وتعطشت إلى الآلام، تعطشت أن يراق دمي في هذه الآلام إلى آخر قطرة. إلا أنهم اكتفوا بأن ضحكوا مني، وصاروا يعتبروني، في آخر الأمر، ناقص الخلقة. كانوا يبرئون ساحتي، ويقولون لم يحصلوا إلا ما كانوا هم راغبين فيه، وان كل ما هو موجود الآن، ما كان من الممكن ألا يحدث. وأخيراً أعلنوا لي أنني في سبيل أن أكون خطراً عليهم، وأنهم سيودعونني مستشفى المجانين، إن لم أكف عن الكلام. عندئذ دخل الغم إلى نفسي بقوة شديدة، حتى توقف قلبي، وشعرت بأنني سأموت وهنا... طيب، وفي هذه اللحظة استيقظت.

Telegram: @Arab_Books

كان الصباح، أعني لم يطل الفجر بعد، ولكن الساعة كانت تقارب السادسة. وجدت نفسي في ذات المقعد، وقد احترقت الشمعة إلى آخرها، والناس في غرفة النقيب نائمون، وفيما حولي سكون يندر أن يكون في شقتنا. وأول ما فعلت وثبت قائماً في دهشة بالغة: لم يحصل معي قط شيء شبيه بهذا، حتى إلى حد التوافه والصغائر. كما لم يحدث قط أن أغفو، مثلاً، على مقعدي بهذا الشكل. وفي هذه اللحظة، وبينما أنا واقف، أفيق على نفسي، لمع أمامي فجأة، المسدس المهيأ، المعبأ، ولكنني في لمحة واحدة دفعته عني! كلا! فإلى الحياة الآن، إلى الحياة! رفعت ذراعيّ، وناشدت الحقيقة الخالدة، لم أناشدها، بل بكيت. فقد كانت نشوة فرح لا تقاس ولا تسبر ترتفع بكل كياني. أجل، إلى الحياة والدعوة! وقد عزمت على الدعوة في اللحظة الأولى........وإلى مدى الحياة، بالطبع! أنا ذاهب لأدعو، وأريد أن أدعو.لأي شيء أدعو؟ أدعو للحقيقة، لأنني قد رأيتها، رأيتها بعينيّ، رأيت كل مجدها!

وها أنذا، ومنذ ذلك الحين أدعو! وأنا، فضلاً عن ذلك، أحب جميع الذين يسخرون مني، أحبهم أكثر من جميع الآخرين. و لم ذاك؟ لست أدري ولا أستطيع أن أفسره، ولكن ليكن الأمر كذلك. ويقولون: إن الأمر ملتبس عليك منذ الآن، أي إذا كان الأمر ملتبساً عليك بهذا الشكل منذ الآن، فماذا سيكون في المستقبل؟ الحقيقة بعينها: إن الأمر ملتبس عليّ، وربما، سيكون التباسه أسوأ فيما بعد. وسيلتبس عليّ، بالطبع، عدة مرات، إلى أن أجد كيف أدعو، أي بأية كلمات، وأفعال، لأن تحقيق ذلك صعب جداً. ولكنني أرى الآن كل ذلك كوضح النهار، ولكن اسمعوا: من الذي لا تلتبس عليه الأمور؟

Telegram: @Arab_Books

ومع ذلك فإن الجميع من الحكماء إلى آخر محتال يسيرون نحو غاية واحدة، ولكن بطرق مختلفة. وهذه حقيقة قديمة، ولكن الجديد هنا هو أن الأمر لا يمكن أن يلتبس عليّ كثيراً. لأنني رأيت الحقيقة، رأيتها وأعرف أن الناس يمكن أن يكونوا جميلين سعيدين، دون أن يفقدوا القدرة على العيش على الأرض. لا أريد، ولا أستطيع أن أعتقد بأن الشر هو الحالة الطبيعية للناس. والناس لا يسخرون إلا من عقيدتي هذه. ولكن كيف لي أن لا أعتقد، وقد رأيت الحقيقة، لم أبتكرها بعقلي، بل رأيتها، رأيتها، وصورتها الحية ملأت روحي إلى الأبد. لقد رأيتها بكليتها المشخّصة، بحيث لا أستطيع أن أصدق بأنه ما كان من الممكن أن لا تكون لدى الناس. إذن، فكيف سيلتبس عليّ الأمر؟ سأنحرف، بالطبع، وحتى عدة مرات، بل ولربما سأتكلم بكلمات غريبة، ولكن ليس لفترة طويلة: إن الصورة الحية لما رأيت ستكون دائماً معي، وستصحح لي وتوجهني دائماً. ها أنا نشيط، ها أنا غض، أنا أسير، أسير ولو لألف سنة. هل تدرون أنني في البداية كنت أريد حتى أن أخفي أنني أفسدتهم جميعاً، ولكن هذا كان خطأ، بل كان هذا الخطأ الأول! ولكن الحقيقة همست لي بأنني أكذب، وصانتني، ووجهتني. ولكن كيف تقام الجنة؟ لا أعرف، لأنني لا أحسن التعبير بالكلمات. بعد الحلم فقدت الكلمات. وعلى أقل تقدير كل الكلمات الرئيسة، أهم الكلمات. ولكن فليكن: سأسير، وسأظل أتكلم، دون كلل، لأنني، على كل حال، رأيت رأى العين، رغم أنني لا أحسن أن أعيد رواية ما رأيت. ولكن المستهزئين لا يفهمون ذلك، فيقولون... أنت رأيت حلماً، تهاويل حمى، هلوسة آه! هل معقول أن هذا رجاحة عقل؟ وكم هم متكبرون! حلم؟ ما هو الحلم؟ وحياتنا أليست حلماً؟ ولأضف قائلاً: فليكن، فليكن أن هذا لن يتحقق أبداً،

Telegram: @Arab_Books

ولن تكون هناك جنة (فأنا أفهم ذلك بالفعل!) ليكن، ولكنني سأظل أدعو. ومع ذلك فكم سيكون هذا بسيطاً لو أن في يوم من الأيام، في ساعة من الساعات نجد ذلك كله قد تحقق رأساً! والشيء الرئيسي أن تحبوا الآخرين، كما تحبون أنفسكم هذا هو الشيء الرئيسي، وهذا كل شيء، ولا حاجة لشيء آخر البتة وعلى الفور ستجدون كيف يتحقق. ومع ذلك فإن هذا ليس إلا حقيقة قديمة ترددت وقرأت بليون مرة، ولكنها لم تُراع في الحياة! «وعي الحياة أسمى من الحياة، ومعرفة قوانين السعادة اسمى من السعادة» - وهذا ما يجب الكفاح ضده! وسأناضل. ولو رغب الجميع، إذن لتحقق كل شيء في الحال.

أما تلك الفتاة الصغيرة فقد وجدتها... أنا ذاهب! أنا ذاهب!

أيضاً بتقريعات

Telegram: @Arab_Books

الفهرست

مقدمة	٥
المساكين	٩
الليالي البيض	١٨٧
الصباح	٢٦٧
القلب الضعيف	٢٧١
حادثة شنيعة	٣٤٥
الوديعة	٤٢٧
حلم رجل مضحك	٤٨٩

Telegram: @Arab_Books

تمت

13/3/2018

Telegram: @Arab_Books

Telegram: @Arab_Books

كان إنتـاج دوستويفسكي الإبداعي يقـول آنذاك، ويقول الآن أيضاً: إن روح الإنسان تتمرد، إن روح الانسان تحلم في البحث عن مخرج، وإنها بالأحرى تختار الموت عن أن توافق على أن تكون سلعة.

إن إنتـاج دوستويفسكـي الإبداعي لا يتحدث فقط عن القلـق المستديم لفنان مشبوب العاطفـة، ولا يتحـدث فقط عن الاحتجـاج، وتحدِ عالم غـير مقبول، بل يتحدث أيضـاً عـن بلبلته، وعن شـكوك الباحث المعذبة، عن التناقضـات التي لا يقوى أحد على حلها على انفراد.

لقـد حدس نيكراسـوف، معاصـر دوستويفسكـي، في الثورة المقتربـة القوة المحركة الوحيدة لروح العصر.

وحـاول دوستويفسكـي أن ينظر من وراء روح العصـر، باحثاً عن مثل خلفية نهائية خـارج حدود الزمان. وإن مثل هذا الطـرح الفضفاض الشامل للمسألة ما كان مـن الممكن، بالطبـع، أن يقدم حله الفعلـي العملي. ولكـن العاطفة المشبوبة المعذبـة التي طرح بها فناننا العبقري هذه المسألة تظل حيّة نابضة حتى اليوم، حيث ما يزال قائماً عالم العنف والمال الذي دنست فيه روح الإنسان، فهي تنزف.

ISBN 978-2-843090-46-2

9 782843 090462